

الحياة بأسرها...

حلول لمشاكل !

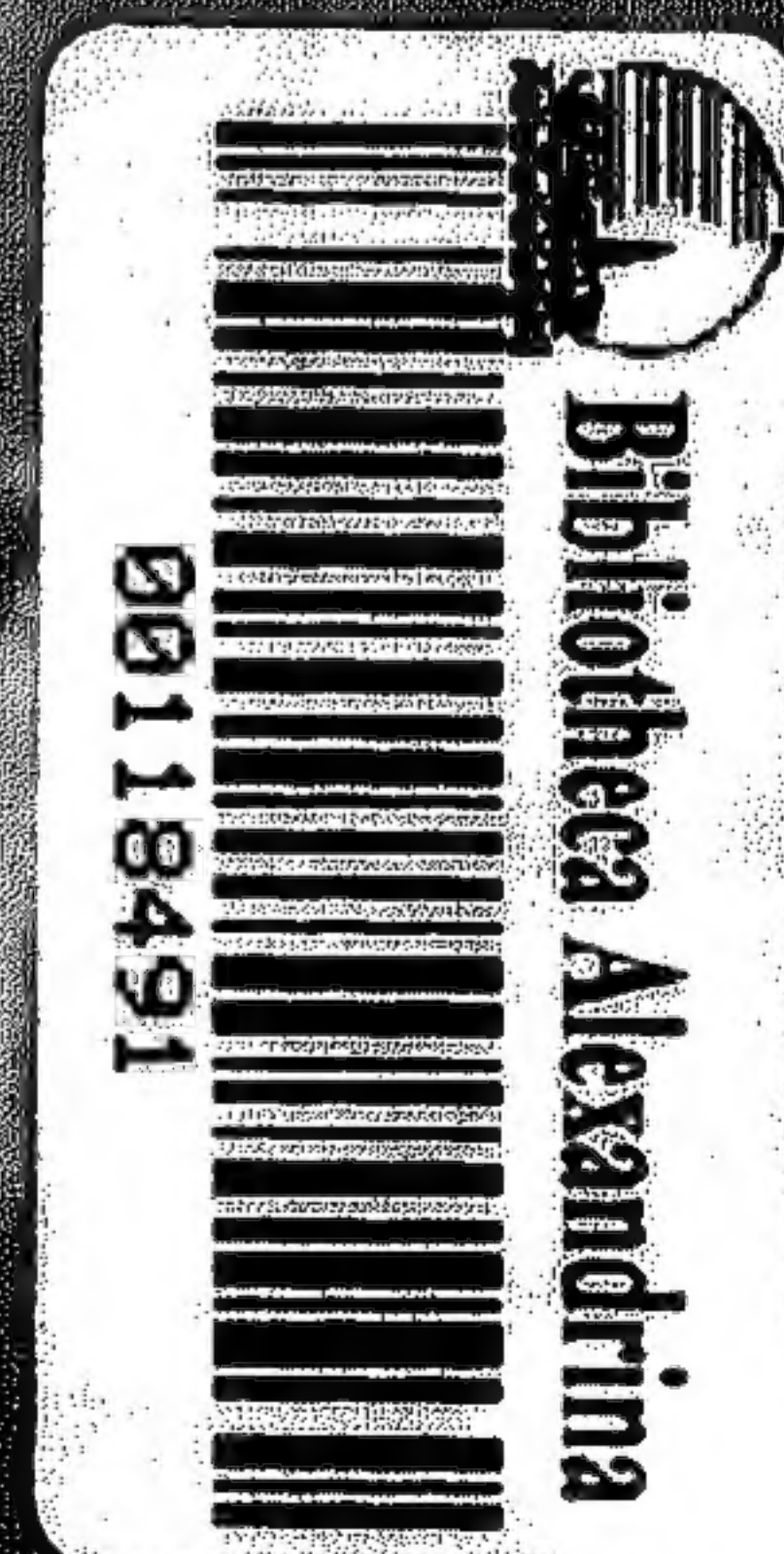
تأليف

كارل بوبر

ترجمة

د. بهاء درويش

المعاصر للطباعة والنشر
جلال حويش شركة



العنوان الأصلي للكتاب

Alles Leben ist
Problemlösen .

1994

الحياة بأسرها
حلول لمشاكل

ترجمه عن الألمانية
د. بهاء درويش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى النور الذي يضيء حياتي

إلى إبنى :

جلال ويحيى

حفظهما الله

فهرست الموضوعات

من صفحة	الى صفحة	
٧	١٨	مقدمة المترجم
١٩	٢٣	مقدمة الكتاب
٢٥	٥٣	المقالة الأولى مذهب المعرفة من وجهة منطقية ونظرية تطورية
٥٥	٩٩	المقالة الثانية الرد العلمى وعدم الإكمال الضرورى للعلم
١٠١	١٢٠	المقالة الثالثة ملاحظات فيلسوف واقعى بشأن مشكلة الجسد والنفس
١٢١	١٣٤	المقالة الرابعة نظرية المعرفة ومشكلة السلام
١٣٥	١٥٢	المقالة الخامسة الوضع النظرى المعرفى لنظرية المعرفة التطورية
١٥٣	١٦١	المقالة السادسة كبيلر . ميتافيزيقاه حول المجموعة الشمسية واتجاهه النقدى التجريبى
١٦٣	١٧٩	المقالة السابعة ، فى مسألة الحرية
١٨١	٢١٠	المقالة الثامنة فى كتابة ومعنى التاريخ
٢١١	٢١٩	المقالة التاسعة نحو نظرية للديمقراطية
٢٢١	٢٤٤	المقالة العاشرة ملاحظات حول نظرية وعمل الدولة الديمقراطية
٢٤٥	٢٦١	المقالة الحادية عشر الحرية والمسئولية (الفكرية)
٢٦٣	٢٧٢	المقالة الثانية عشر الحياة بأسرها حلول لمشاكل

٢٩٠	٢٧٣	المقالة الثالثة عشر	ضد التهكم والسخرية في تفسير التاريخ
٣٠٤	٢٩١	المقالة الرابعة عشر	حروب أدت إلى السلام
٣٢٦	٣٠٥	المقالة الخامسة عشر	آراء حول انهيار الشيوعية
		عشر	محاولة لفهم الماضي من أجل تشكيل المستقبل
٣٣٥	٣٢٧	المقالة السادسة عشر	في ضرورة السلام
٣٦٠	٣٣٧	ثبت بأهم المصطلحات	

٩٨/١٤٧٦١
I.S.B.N.
977-03-0519-7

الحرمين للكمبيوتر
٣٨ شارع سوتير - الأزارطة
٤٨٢١٢٢٠ : ☎

مقدمة المترجم :

لا أحسبني في حاجة للتعريف بفيلسوف العلم الألماني الشهير كارل بوبر ولا بالحديث عن مكانته في مجال فلسفة العلم ، فلقد سبقني إليها الكثير ، سواء من الكتاب الغربيين أو العرب^(١) ، ولكن يبدو مع هذا أن إسهاماته الغزيرة وآراءه الوفيرة في مجال فلسفة العلم — العلوم الطبيعية والإنسانية على السواء — قد جعلت منها مادة لايجف مداد القلم بإزائها ، مادة لم يختلف المؤيدون والمعارضون لها حول قيمتها .

تأتي أهمية هذا الكتاب في أن معظم المقالات الستة عشرة التي يضمها بين جنباته لم تنشر من قبل ، فهو يعرض في هذا الكتاب — وهو آخر كتاب تم نشره قبل وفاته بفترة قصيرة — لمواقفه من نظرية ومنهج العلم الطبيعي ومن التاريخ والسياسة تلك التي ذكرها في كتبه السابقة والتي لم يذكرها ، بحيث يأتي هذا الكتاب جامعا حاويا لشتى آرائه الفلسفية مشكلا بذلك مجمل فلسفته ، كما لو كان فيلسوفنا قد أحس أنه آخر كتاب سيرى النور في حياته فأراد أن يللم في داخله نظرياته جميعا بشكل مركز وواف في نفس الوقت .

تأتي أهمية هذا الكتاب أيضا من أن فيلسوفنا لايعرض لأفكاره بطريقة مجردة لايفهمها سوى المتخصص صاحب الخلفية العلمية والفلسفية الكافية لفهمها ، ولكنه يعرض لأفكاره بطريقة مبسطة يمكن للقارئ العادي أن يفهمها ، فهو لايعرض أفكاره وحسب ولكنه يعرض تاريخها ، أي متى

(١) ماصدر في الغرب عن كتب أو مقالات عن كارل بوبر عديد ومتنوع بحيث لا مجال لذكره هنا . يمكن على سبيل المثال — لا الحصر — الإشارة إلى أهم ما كتب عن كارل بوبر باللغة العربية : —

١ - السيد نفاذ " اتجاهات جديدة في فلسفة العلم " مجلة عالم المعرفة . ديسمبر ١٩٩٦ ص ٨٩ - ١١٤ .

٢ - محمد السيد " التمييز بين العلم واللاعلم " منشأة المعارف ١٩٩٦ .

٣ - محمد قاسم " كارل بوبر . نظرية المعرفة في ضوء المنهج العلمي " دار المعرفة الجامعية ١٩٨٦ .

٤ - ياسين خليل " مقدمة في الفلسفة المعاصرة " منشورات الجامعة الليبية ، كلية الآداب — ١٩٧٠ .

٥ - يعنى طريف الخولي " فلسفة كارل بوبر . منهج العلم . منطق العلم " الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ .

وكيف آمن بهذه الأفكار وما الذي دعه بنى معتقدها وذلك في أسلوب روائي جعل الكتاب يبدو وكأنه سيرة ذاتية للمؤلف .

إذا أردنا مثالا لذلك نجد أن غيلسون في كتابه *النظرية الماركسية* لا يكتفى بتقنيدها بتطبيقه عليها معياره حول متى تكون النظرية نظرية علمية ومن ثم بالنتيجة التي خرج بها وهي أن النظرية الماركسية لا تخرج ضمن النظريات العلمية وهو سبب كاف بالنسبة له لرفضها ولكنه يقص علينا كيف آمن بها وما هي الدواعي الأخرى - الأخلاقية والإنسانية - التي دعت به إلى رفضها - وهي فترة لم تتجاوز في حياته الستة أشهر ، لم يكن وقتها قد أتم السابعة عشر من عمره ولم يكن بالطبع قد وصل إلى مبداه في القابلية للتكذيب .

من هنا جاءت أهمية هذا الكتاب الذي صدر بالألمانية في أغسطس ١٩٩٤ . قرأه المترجم حال صدوره - أثناء بعثته للدكتوراه بمدينة إرلانجن بدولة ألمانيا - ف شعر بأهمية هذا الكتاب وضرورة نقله لقارئ العربية ، وعزم على أن يتم هذه المهمة فور أن يفرغ من تقديم رسالة الدكتوراه ، وها هو ذا يفي بالوعد الذي قطعه على نفسه .

يرى المترجم أن فلسفة كارل بوبر تشكل في مجموعها حلقة دائرية ، بمعنى أنه من الصعب الفصل بين نظرياته أو الحديث عن إحداها بمعزل عن الأخرى ، فكل منها إما أنه يؤدي إلى غيره أو أنه نتيجة لهذا الغير (وهو ما سأحاول أن أبينه في هذه الدراسة) ، من هنا نزع أنه من الممكن للباحث في فلسفة كارل بوبر أن يبدأ من أيها .

يمكن أن نجمل آراء بوبر الرئيسية في النقاط التالية :

١ - العقلانية النقدية .

٢ - موقفه من الاستقراء (رفض مبدأ الاستقراء)

٣ - مبدأ القابلية للتكذيب .

يشكل رفض بوبر للاستقراء وأخذه بمبدأ القابلية للتكذيب المنهج العلمي كما يراه بوبر . من هنا نجد أن بوبر قد بدأ معظم كتبه ذات الطابع

المنهجى بمناقشة الاستقراء وينتهى بنقده أو بتقنيده ثم ينتقل بعد ذلك إلى عرض منهجه^(١) ، أما فى الكتاب الذى بين أيدينا هذا فنجد أنه يفعل العكس ، يعرض للمنهج العلمى الذى يوفقا له يتطور العلم ، بمنهج الاستبعاد أو القابلية للتكذيب أو المحاولة والخطأ ، وهى وفقا لبوبر مرادفات يمكن إحلالها محل بعضها ثم تنتقل من هذا المنهج إلى تبرير رفضه لمنهج الاستدلال الاستقرائى وهو ما فعله فى المقالات الأولى والرابعة والخامسة نجد فى هذا تبريرا لزعمنا بأن آراء كارل بوبر آراء مكتملة لبعضها يمكن أن نبدأ من أيها .

فإذا كان الاستدلال الاستقرائى هو الانتقال من قضايا جزئية - وهى القضايا المعبرة عن الملاحظات - إلى قضايا عامة وكلية وهى النظريات التى نخلص إليها أو نستدلها من القضايا المفردة والتى هى صياغة لملاحظاتنا ، فالعلم أى النتاج البشرى - يـلـ والمعرفة بصفة عامة - بما فى ذلك المعرفة الحاصل عليها سائر الكائنات الحية - لا تتكون على هذا النحو .

فالعلم أو المعرفة يبدأ من مشكلة ما تقابل الكائن الحى ، وليست الملاحظة هى نقطة بداية العلم . تؤدى هذه المشكلة بالكائن العضوى إلى محاولات لحلها عن طريق منهج المحاولة والخطأ . هذا المنهج هو المنهج المنطقى الوحيد الممكن لإكتساب معرفة جديدة ، ثم يقبوم الكائن الحى باستبعاد لكل محاولة حل خاطئة - أى لكل محاولة حل لاتصل به إلى حل المشكلة - مما يعطى الفرصة لظهور محاولات حل جديدة .

هذا المنهج تستخدمه سائر الكائنات الحية - من الأميبا أنى الكائنات العضوية ذات الخلية الواحدة ، إلى أرقى الكائنات العضوية (الإنسان) . يمكن التمييز فى استخدام هذا المنهج بين الكائنات العضوية الدنيا والكائنات العضوية العليا فى أن :

(١) أنظر على سبيل المثال :

Popper.Karl : 1- The Logic of Scientific Discovery,Hutchinson & Co.Ltd. London,1959.

2 - Conjectures and Refutations , Routledge & Kegan Paul, London, 1972.

3 - Objective Knowledge, An Evolutionary Approach, Oxford, 1972.

١ - الكائنات العضوية العليا تقوم بهذه الخطوة الأخيرة (الاستبعاد) بطريقة واعية ، فالعالم يقوم بإخضاع فروضه المستقلة عنه - بفضل صياغتها صياغة لغوية - للنقد أو للاستبعاد هادفا من هذه العملية إلى اختبار قوة النظرية وذلك عن طريق محاولة تكذيبها .

٢ - تتعلم الكائنات العضوية العليا من خلال هذا المنهج كيف يمكنها حل مشكلة معينة ، أى أنها لاتعرف فقط أن نظرية ما خاطئة ولكنها تعلم أيضا لماذا تكون هذه النظرية خاطئة ومن ثم تكسب بذلك مشكلة جديدة مفهومة بشكل أفضل تكون بمثابة نقطة انطلاق تقدم علمى جديد .

أما الكائنات العضوية الدنيا فتمارس هذا المنهج بطريقة آلية ، أو بطريقة غير واعية ، حيث تقوم الطبيعة بعملية استبعاد المحاولات الخاطئة ويهلك بالتبعية معها حامل هذه المحاولات ، أما الإنسان - أو العالم - فبصياغته لفروضه صياغة لغوية - قد أكسب هذه الفروض استقلالاً وموضوعية ، من هنا كانت المعرفة البشرية معرفة موضوعية وكان العلم ظاهرة بيولوجية .

فإذا كان هذا الإطار ثلاثى المراحل " المشكلة - محاولات الحل - الاستبعاد " هو المنهج الذى تمارسه سائر الكيانات الحية فى اكتسابها للتعلم ، كان العلم - وفقا لبوبر - ظاهرة بيولوجية ، بمعنى أنه قد خرج من عباءة المعرفة قبل العملية ، أى أنه تطور لطريقة معرفة الفهم الإنسانى الصحيح والتي هى بدورها تطور للمعرفة الحيوانية ، وحق للبعض وسم نظريته فى المعرفة بأنها نظرية فى المعرفة التطورية .

يسير المنهج العلمى وفقا لبوبر على هذا النحو : تنشأ النظريات الحديثة عن النقد الواعى للنظريات - محاولات الاستبعاد - بالتفنيد - . هذا النقد يودى إلى إظهار صعوبات معينة تكون النظريات الحديثة نتاجها ، فمن المشكلات التى يظهرها نقد نظرية ما نصل إلى نظرية جديدة تؤدى مناقشتها إلى ظهور مشكلات جديدة تنتج عنها نظرية أخرى جديدة وهكذا .

ولكن ما الذى تهدف إليه المناقشة النقدية لنظرية ما ؟ لاتهدف المناقشة

النقدية لنظرية ما إلى مجرد استبعاد النظريات الخاطئة ولكنها تهدف إلى البحث عن النظرية الصادقة . من هنا كانت فكرة الصدق إحدى الأفكار الثلاث الموجهة للمناقشة النقدية . تشكل فكرتا المحتوى الأمبيريقى لنظرية ما وفكرة محتوى صدق النظرية الفكرتين الآخريتين الموجهتين للمناقشة النقدية . يعنى بوبر بالمحتوى الأمبيريقى لنظرية ما فئة القضايا التجريبية التى تمنعها النظرية ، فالنظرية التى لاتمنع ظهور أى حوات ملاحظة كنظرية فرويد فى التحليل النفسى نظرية محتواها الأمبيريقى صفر . النظرية " كل الغربان سوداء اللون " ذات محتوى أمبيريقى أكبر من النظرية " لا يوجد غراب أبيض " ذلك أنه إذا كانت الثانية تمنع ظهور غراب بيضاء اللون ، فالأولى لاتمنع فقط ظهور غراب بيضاء اللون ولكنها تمنع أيضا ظهور غراب بأى لون خلاف اللون الأسود ، ففئة القضايا التى تمنعها أكبر بكثير من فئة القضايا التى تمنعها النظرية الأولى .

وكما صمدت النظرية أمام الاختبارات بصورة أقوى من غيرها كلما كان محتوى صدقها أكبر . بهذا المعنى يرى بوبر أن نظرية أينشتين فى الجاذبية - أقرب إلى الصدق من نظرية نيوتن .

على هذا النحو يتطور العلم وعلى هذا النحو تنشأ المعرفة . فلا المعرفة - ولا العلم - ينشأ أيهما عن الاستقراء . فالاستقراء وفقا لبوبر هو الإجابة عن السؤال : كيف نعرف ؟ والتى تأتى عادة على هذا النحو : " ما عليك سوى أن تفتح عينيك وتنتظر ومن ثم تعرف " . أى أن المعرفة تتكون بإختصار عن طريق الإدراك الحسى وهو ماسبق وذكرنا أنه بتفسير يرفضه بوبر . ولكن لم يرفضه ؟

يرى بوبر أن ٩٩,٩ % من معرفتنا معرفة فطرية - وإن كانت فى نفس الوقت - غير يقينية . هذه المعرفة تسبق المعرفة البعدية والتى هى بالمثل بمعرفة غير يقينية . البحث عن المعرفة اليقينية وهم كان أرسطو أول من بحث عنه وهو مامن أجله اخترع الاستقراء .

لتوضيح وجهة نظر بوبر هذه نقول :

يرى بوبر أن العلم — أو المعرفة بوجه عام — المعرفة التي تحصل عليها سائر الكائنات الحية — تبدأ بمشكلة ما تقابل الكائن العضوى الحى . عندما تقابل الكائن الحى هذه المشكلة فإنه يقوم بوضع فرض ما أو حس أو تخمين يعتق أنه هو ما شأنه أن يحل له هذه المشكلة . هذا الفرض ، أو هذه المعرفة الفرضية عبارة عن تخمين يضعه الكائن العضوى قبل أى ملاحظة ، من هنا كانت هذه المعرفة معرفة قبلية ، ثم تأتى بعد ذلك المعرفة البعدية التي هي تصحيح أو تعديل لفروضنا ، فإذا كان الكائن الحى يتعلم عن طريق المحاولة والخطأ ، فمحاولاتنا هي فروضنا التي نتبع من داخلنا وليس من العالم الخارجى . نتعلم من العالم الخارجى فقط أن بعض محاولتنا خطأ .

يرى بوبر أن تكيف الكائن الحى مع بيئته شكل من أشكال المعرفة القبلية ، فالزهور على سبيل المثال لديها معرفة بتعاقب الليل والنهار ، من هنا نجد أنها تتغلق على نفسها وتفتح ، إذن فهي تعرف شيئا عن الاطرابات العامة ، دون أن يعنى هذا أن لها عقلا ولكن بمعنى أنها تتكيف مع البيئة بطريقة معينة . والفرض الأساسى الذى يختلف به بوبر عن غيره من أصحاب نظريات المعرفة هو فى قوله بأن التكيفات العامة تسبق التكيفات اللحظية فهي تحدث قبلها ، أى أنها قبلية .

تكيفات الحيوانات إذن توقعات ، فالأعين على سبيل المثال توقع فطرى . هذا التوقع هو ما جعل أعيننا مثلا على النحو التي هي عليه ، بينما لا تلعب الأعين دورا لدى بعض الكائنات من هنا كانت عمياء بالوراثة .

فسائر الكيانات فى بحثها عن البيئة الأفضل والعالم الأفضل بحركات المحاولة التي تقوم بها لاشك أنها متكيفة على نحو ما ، أى لديها معرفة عامة إلى حد ما .

لايتكون العلم إذن — وفقا لبوبر — بالإعتماد على منهج الاستقراء ولكن بالإعتماد على مبدأ التكذيب ، وفى تدعيمه لفكرته — يخصص بوبر المقالة السادسة للحديث عن عالم الفلك " يوهان كبلر " الذى لم يصل إلى قوانينه الثلاثة — كما يقول بوبر — بالاستقراء كما اعتقد نيوتن ، ولكنه كلن الحس هو الموجه والمرشد لكبلر — مثله فى ذلك مثل كل عالم — فلقد

وصل كيلر - كما يقول بوبر - إلى مبدأه في التّكذيب ، وقام بتفنيد وتكذيب فرض المدار الدائري بعد مذاقسته مذاقشة نقدية ، ومن ثم تمكن من الوصول بعد عدة عمليات من التفنيد إلى فرض المدار البيضاوي .

العقلانية النقدية إذن هي المبدأ الذي يوجه العالم - بل المبدأ الذي يميز الإنسان عن سائر الكيانات في منهجهم المشترك للوصول إلى المعرفة الصحيحة . هذا المبدأ لا يوجهنا فقط في بحثنا في المعرفة الطبيعية - المعرفة العلمية - ولكن في سائر ميادين المعرفة ، وهو ما يطبقه بوبر في مجالى فلسفة التاريخ والسياسة والتي تأتى على هذا النحو مكملّة للمعرفة الطبيعية والتي تشكل في مجموعها المعرفة الإنسانية التي تميزها عن المعرفة الحاصل عليها سائر الكائنات الأخرى . ولكن قبل أن نتطرق لتطبيق بوبر لمبدأ العقلانية النقدية المتضمن في مرحلة " الاستبعاد " في فلسفة التاريخ والسياسة يجدر بنا أن نشير لما يعنيه بالعقلانية .

يحدد بوبر بنفسه ما يعنيه بالعقلانية فيوضح أنه لايعنى بها نظرية فلسفية معينة كنظرية ديكارت مثلا ، ولكنه يعنى بها أن الإنسان يتعلم من خلال نقد أخطائه ، نقد الغير له ونقده لنفسه . فالعقلانى إنسان مستعد للتعلم وليس إنسانا متمسكا بآرائه ، إنسان يسمح لغيره بنقد آرائه وينتقد آراء الآخرين . هنا تكمن فكرة النقد أو المناقشة النقدية ، فليس العقلانى من يضع نفسه موضع العارف ، ولايجب أن يعتقد أن مجرد النقد يؤصلنا إلى أفكار جديدة ، ولكن أن يعتقد أن المناقشة النقدية هي ما تساعدنا على التمييز في ميدان الأفكار بين ما هو غث وما هو سمين . المناقشة النقدية وحدها هي ما يمكنها أن تقدم لنا النضج اللازم الذى يمكننا من رؤية الفكرة من وجوه شتى ومن ثم من الحكم عليها حكما صحيحا .

والعقلانى من جانب آخر لا يهدف إلى هداية الناس لعقيدة معينة ، فالعقلانية دعوة للآخرين للإختلاف مع الشخص ، من هنا كان العالم - وفقا لبوبر - الذى يضع فروضه موضع التّكذيب داعيا الآخرين لمحاولة تفنيدها وتكذيبها (أى للإختلاف معه) هو العالم بالمعنى الصحيح ، ومن هنا كان تأكيد بوبر فى أكثر من موضع من هذا الكتاب على نبذ الاعتقاد وهو " الوهم

الذى خلقت الحاجة للمعرفة " كما يقول ، وتتبيهاه القراء على ألا يأخذوا مما يقوله مأخذ الاعتقاد والتصديق ، بل أن يتعاملوا معه دائما بعقلانية نقدية .

فإذا انتقلنا إلى تطبيق بوبر لمبدأ العقلانية النقدية على آرائه فى فلسفة السياسة فإنه يمكن تلخيص آراء بوبر على النحو التالى :

دون فكر فردى حر لا يمكن للمناقشة النقدية أن تقوم ، وبدون الحرية السياسية فإن حرية الفكر غير ممكنة ، فالحرية السياسية شرط مسبق لاستخدام الفرد لعقله استخداما حرا . هذه الحرية السياسية هى ما تسمح للمواطنين داخل الدولة من تغيير حكومة قائمة بالفعل دون سفك دماء وذلك متى كان هذا الفعل معبرا عن رغبة الأغلبية . فالحرية السياسية المكفولة للمواطنين فى تغيير حكوماتهم دون إراقة دماء متى رأت الأغلبية أن هذه الحكومة تنتهج سياسة خاطئة أو غير معبرة عن آمالهم هى المعيار أو التصور الذى وضعه بوبر للديمقراطية .

ليست الديمقراطية وفقا لبوبر هى " حكم الشعب " وذلك فى مقابل الأرستقراطية " حكم طبقة النبلاء " أو الموناركية " حكم الفرد " ولكن " الديمقراطية " وفقا لبوبر هى محكمة الشعب .

يرى بوبر أن السؤال " من الذى يجب أن يحكم ؟ " كان السؤال الذى شكل محور فلسفة السياسة منذ أن وضعه أفلاطون حتى ماركس ، هل هو الشعب ؟ أم طبقة النبلاء ؟ أم طبقة أصحاب رأس المال أم العمال الخيرون ؟ يرى بوبر أن هذا السؤال سؤال خاطئ أو مشكلة زائفة تؤدي إلى حلول مزيفة ، وأن هذه المشكلة تؤدي إلى الكراهية ، كما تؤدي إلى التأكيد دائما على قوة الحكام بدلا من أن تعالج كيف يمكن تقييد هذه القوة .

يقترح بوبر إيدال هذا السؤال بسؤال آخر هو : هل هناك شكل لحكومة يسمح لنا بالتخلص من حكومة مستهجنة ؟ فإذا كان الديكتاتور يفرض علينا موقفا لا يمكن أن نكون مسئولين فيه ولا يمكن أن نغسیره ، وكان واجبا الاخلاقى أن نمنع حدوث مثل هذه المواقف وذلك عن طريق شكل الحكم الذى يسمى " الديمقراطية " ، لم تكن الديمقراطية فى معناها الصحيح تعنى

سيادة الشعب " ولكنها فى المقام الأول مؤسسة تقف ضد الشخص الديكتاتور ، بمعنى أنها لاتسمح بأى شكل لحكم ديكتاتورى ولكنها تحاول الحد من عنف الدولة ، فالديمقراطية بهذا المعنى هى إمكانية التخلص من الحكومة دون إراقة دماء وذلك متى أخذت بحقوقها وواجباتها ، أو متى حكمنا على سياستها بأنها سياسة خطأ . من هنا ليست المسألة الهامة تكمن فى (من) الذى يحكم ولكن فى (كيف) يحكم .

يتبنى بوبر رأى القائل بأن أهم شكل للديمقراطية يكمن فى أن يكون من الممكن إسقاط الحكومة دون إراقة دماء على أن تتولى حكومة أخرى مقاليد الحكم . ولكن كيف يحدث هذا الإحلال ؟ عن طريق البرلمان أم عن طريق الانتخاب الجديد ؟ هذه مسألة يراها بوبر غير هامة نسبيا ، المهم أن يأتى هذا الإحلال من الأغلبية ودون إراقة دماء .

من هنا رفض بوبر النظام النيابى فى بلاده (ألمانيا) ، إذ أنه وفقا له لايمثل الديمقراطية الحقيقية كما يفهمها . النظام النيابى فى بلاده يسير وفقا لما يسمى بحق التمثيل النسبى ، حيث تكون كل الأحزاب ممثلة فى البرلمان بنسبة العدد الذى حصل عليه كل حزب فى الانتخابات . ومن مميزات هذا النظام ضمان تمثيل سائر الأحزاب بما فى ذلك أحزاب الأقلية فى البرلمان ومن ثم اشتراكها فى القرارات التى يمكن اتخاذها .

الماخذ التى يأخذها بوبر على هذا النظام تكمن فى أن العدد الكبير من الأحزاب يؤدى إلى حكومات ائتلافية حيث لا يحمل أحد بغية المسئولية أمام الشعب من حيث أنه المنوط به محاكمة الحكومة ، مادامت سائر القرارات ستكون حلولا وسطا ومن حيث تأثير الأحزاب الصغيرة فى قرارات الحكومة ، أما متى كان عدد الأحزاب صغيرا - كالنظام المتبع فى الولايات المتحدة مثلا والقائم على التنافس بين حزبين فقط يصل أحدهما إلى الحكم ، فتكون الحكومات عندئذ حكومات أغلبية وستكون مسئولياتهم مسئولية واضحة وجليّة ، يصبح من الممكن للشعب محاكمتها وهو المعنى الصحيح للديمقراطية - وفقا لبوبر ، فالمعنى الصحيح للديمقراطية وفقا لبوبر أنها (محكمة الشعب) وليس (سيادة الشعب) .

فإذا انتقلنا لآراء بوبر في فلسفة التاريخ فإنه يمكن أن نوجز — في عبارة واحدة — ليست فلسفة التاريخ — ولا يجب أن تكون — فلسفة تنبويه

تفصيلاً لذلك : يرى بوبر أن الرأي الذي يذهب إلى أن المفكر في مجال فلسفة التاريخ يتم تقييمه وفقاً لجودة التنبؤات التي يضعها راي خاطئ ، التاريخ وفقاً لبوبر ليس تياراً متصلًا ينساب أمامنا يمكن منه أن نتنبأ بالمستقبل ، نعم يمكننا أن نتعلم منه لا أن نتنبأ منه ، فالمستقبل ليس بالضرورة امتداداً للحاضر ، من هنا راح ينتقد فلسفة التاريخ عند هيجل التي كانت ترى أن مهمتها أن تكون فلسفة تنبؤية ، وراح ينتقد النظرية الماركسية التي كانت ترى أن التاريخ سينتهي بالوصول إلى المرحلة الاشتراكية .

ما جعل بوبر يتمسك بمبدأه الرفض للتنبؤ بمستقبل التاريخ أنه شهد بنفسه — كما يقول — إنهيار الماركسية وموتها وذلك بإتحلال الاتحاد السوفيتي ، وتفتته إلى أجزاء ولم تتحقق نبوءة النظرية الماركسية بوصول البشرية للمرحلة الشيوعية بل تعارضت النظرية الماركسية مع وقائع التاريخ ومثلت الدولة التي كانت تمثلها ، وحدث تماماً عكس ما توقع ماركس وتتبعاً به ، فأحوال العمال لم تتحول من سيئ إلى أسوأ ، لم يتحقق ما أسماه ماركس قانون الاقتتار المتزايد الذي وفقاً له يقل عدد أصحاب رؤوس الأموال وتتضخم ثرواتهم بينما يزداد عدد العمال وتزداد حالاتهم سوءاً ، بل حدث عكس ذلك أن أصبحت أحوال العمال في تحسن مستمر وأصبحنا نعيش في عصر الانتاج الغزير والضخم . وإذا كان رجال السلطة في الاتحاد السوفيتي والنظم الممثلة للنظام الشيوعي كالألمانيا الشرقية سابقاً يحاولون مداواة أخطاء النظرية الماركسية بأكاذيب كثيرة وبالعنف حتى تحولت الممارسات الوحشية للسلطة السياسية هناك إلى العملة اليومية المتداولة بينهم ، فإن بوبر يرى — في مقابل هذا — أن نتعامل مع التاريخ بأن نتعلم منه ، أي بأن نحافظ على المجتمعات المفتوحة — في مقابل المجتمع الروسي الذي كانت تحكمه قبضة حديدية — وأن يتم ممارسة أقل قدر ممكن من العنف وأن تحاول سلطة المجتمعات المفتوحة تقليل المعاناة بقدر الإمكان .

في إطار حديثه عن تقليل المعاناة بقدر الإمكان ، يرى بوبر أن

الإنفجار السكاني عن أهم المشكلات التي يجب حلها حلاً أخلاقياً . هنا يوصى بوبر أن يتم تحديد النسل باستخدام حبوب الإجهاض لمنع ميلاد الأطفال المحتمل أنهم سيولدون مصابون بأمراض كالإيدز ، أو الأطفال الذين سيولدون في مجتمعات فقيرة لن تتوفر لديهم فرصة الحياة الكريمة . تحديد النسل بمنع الإنجاب من البداية أو باستخدام حبوب الإجهاض بعد الحمل مشكلة يرى بوبر أن يتم حلها لا بقوانين حكومية ولكن عن طريق التربية والتنقيف ، أي إقناع الناس إقناعاً عقلياً بضرورة ذلك . من هنا رأى أن الكنيسة التي تمنع استخدام حبوب الإجهاض مثلاً ستقتع متى استطعنا أن نقدم لها التبريرات العقلية الكافية ، فالمسألة كما يراها مسألة وقت .

من الواضح أن بوبر الذي ينادى بضرورة التعامل مع المستقبل دون ارتداء نظارات أيديولوجية هو ذاته يرتدى نظارات أيديولوجية محددة ، ألا وهي التعصب التام للمجتمعات الغربية ، فبدلاً من أن ينادى بعدالة توزيع الثروات ومساعدة المجتمعات الفقيرة على الرقي لتلحق بالمجتمعات المتقدمة في ركب التطور ، نجده ينادى بإقناعهم لا بتحديد النسل ولكن بمنع الإنجاب بدعوى حمايتهم من المعاناة من الفقر ومن شظف العيش الذي ينتظرهم .

وبعد ؛

هل كان من الممكن في إطار حديثنا عن العقلانية النقدية أن نفصل بين فلسفة بوبر في العلوم الطبيعية وفلسفته في السياسة والتاريخ ؟ أليست العقلانية النقدية — وفقاً لبوبر — هي المبدأ الموجه للعالم والذي يمكنه من ممارسة المرحلة الثالثة من منهجه العلمي " الاستبعاد " ممارسة واعية وهي في نفس الوقت المبدأ الموجه للمفكر في مجال فلسفة السياسة والتاريخ وذلك في مقابل " الاستقراء " الذي هو أداة المعرفة التنبؤية في مجال العلم والسياسة والتاريخ ، وفي مقابل " الاعتقاد " الذي رفضه بحله للمشكلة السيكلوجية للاستقراء . هل كان من الممكن في إطار الحديث عن المنهج العلمي الفصل بين موقفه من الاستقراء ومبدأ القابلية للكذب ، حيث يؤدي الأول إلى الثاني أو حيث الثاني نتيجة الأول وحيث العقلانية النقدية هي الخاصية المميزة لهذا المنهج العلمي بل والخاصية التي يجب أن يتصف بها — لا

العالم فحسب فى إطار بحثه عن النظرية العلمية الصحيحة – بل كل من أراد أن يصل إلى المعرفة الصحيحة ؟

على هذا النحو يتضح لنا بشكل جلى – وهو ما أزعجه – تكامل فلسفة كارل بوبر، تلك الفلسفة التى يجمعها خط فكرى واحد، ومن هنا جاءت دعواتنا بأن سائر المفاهيم التى يعرضها بوبر تصب فى قالب واحد، ومن هنا جاءت أهمية هذا الكتاب الذى بين أيدينا، من حيث تناوله لأشتى جوانب فلسفة كارل بوبر مجتمعة.

الإسكندرية فى ٣٠ سبتمبر ١٩٩٨

مقدمة الكتاب :

يمكن اعتبار مجموعة المقالات والمحاضرات التى يضمها هذا الكتاب "تكملة" لكتابى " البحث عن عالم أفضل " والذى صدر أيضاً عن هذه الدار نفسها فى ميونيخ^(١) . والكتابان يحويان إسهامات فى علم الطبيعة والتاريخ والسياسة ، عنوان هذا الكتاب " الحياة بأسرها حلول لمشاكل " وهو نفس عنوان الفصل الثانى عشر ، وهو الفصل الذى تعد هذه المقدمة تلخيصاً له . وإذا كنت قد اعتدت فى الماضى أن أصدر كل كتاب بمقدمة فلقد حاولت هنا أن أعطى هذه المقدمة أهمية أكبر مما اعتدت أن أفعله فى الكتب السابقة . ولايفوتنى أن أتوجه بالشكر لكلاً من مساعدي السيدة مليتتا ميو Mrs.Melitta Mew والدكتور كلاوس شتادلر Dr. Klaus Stadler من دار نشر Piper ، إذ إليهما يعود الفضل فى إختيار فصول هذا الكتاب .

I

إذا كنت أضع القسم الأول من هذا الكتاب تحت عنوان " مسائل فى المعرفة الطبيعية " ، فإن علم الأحياء وثوراء صور الحياة التى لايمكن الإحاطة بها هو ما أركز عليه القول والفكر . فإذا غصنا بعمق فى أحد ميادين علم الأحياء العديدة ، بل وفى جانب واحد من هذا الميدان ، فإنه سرعان ما يتبين لنا أن صور التركيبات البيولوجية من الكثرة بحيث لايمكن الإحاطة بها أو فهمها ، إلا أنها مع هذا متجانسة بطريقة مثيرة للعجب

ولقد خصصت الفصل الأخير من القسم الأول ليوهانز كبلر Johannes Kepler ، أعظم من بحثوا فى التجانس الفيزيقي للخلق والمكتشف الأعظم للقوانين الثلاثة التى تحدد حركات الكواكب فى تجانس هائل وإن كانت بطريقة عالية من التجريد ، إذ أنه يعد أعظم ثلاثة عقول أسست معاً علم الطبيعة وهى " جاليليو - كبلر - ثم نيوتن " فلا شك أنه كان أكثرهم وضوحاً وجاذبية وتواضعاً فى الشخصية .

(١) يشير المؤلف إلى دار نشر Piper بميونيخ والتى صدر عنها كلا الكتابين " البحث عن عالم أفضل " سنة ١٩٠٠ وهذا الكتاب (المترجم) .

لقد أنجز الثلاثة عملا في غاية الصعوبة ، ظل لفترة طويلة مخبيا لآمال
ولكنهم ذلوا تقديرا وثاء وفيرا بسبب الحظ الذي صادف كبلر الذي رأى
العالم (بعيون جديدة)؛ رآه أجمل وأفضل وأكثر تجانسا مما رآه كل من قبله
والذي عرف عندئذ أن الحظ قد بارك عمله الشاق ، حظا لم يكن حتى
يستحقه، إذ كان من الممكن أن تتخذ الأمور مسارا مختلفا .

يتميز كبلر وحده من بين هؤلاء الثلاثة بأنه كان يكتب بإجتهد ووضوح
وأنه قد وعى مالم يعه غيره من أن الفكر اليوناني القديم من طاليس إلى
أرسطو وبطليموس هو ما قدم لكبرنيقوس — وهو من يعتبره كبلر مثله الأعلى
— أفكاره الجريئة .

هذا التواضع الذي كان كبلر يتصف به ساعده — أكثر من زميليه
الآخرين — على أن يكون دائما على وعى بأخطائه وأن يتعلم منها وهي
الأخطاء التي لا يمكن التغلب عليها إلا بصعوبة بالغة . فقد كان كل من
الثلاثة يحكمه بعمق وبطريقته الخاصة اعتقاد مسبق (الاعتقاد المسبق
Aberglaube كلمة لا يمكننا إستخدامها إلا بحرص بالغ أى مع علمنا بكم
هو قليل ما نعرفه وأنه من المؤكد أن لدينا جميعا إعتقادات مسبقة بصور
مختلفة) فجاليليو مثلا كان يحكمه الإعتقاد بحركة دائرية طبيعية ، وهو
الإعتقاد الذي نحضه كبلر بعد صراع طويل داخل ذاته وفي علم الفلك .

أما نيوتن فقد كتب كتابا ضخما عن التاريخ التقليدى للبشرية (المستمد
أصلا من الإنجيل) وهو التاريخ الذى صححه وفقا لمبادئ من الواضح أنها
اشتقت من اعتقادات مسبقة في زمانها .

أما كبلر فلم يكن فقط عالم فلك ولكنه كان أيضا في التجيم ولهذا رفضه
جاليليو ورفضه الكثيرون .

ولقد حارب كبلر التجيم — اعتقاده المسبق — في صورهِ الجماطيقية ، إذ
كان كبلر عالما فلكيا ناقدًا لذاته ، وعى أن أقدارنا ليست مسطورة في النجوم
ولكن ارادتنا هي ما تحكمها وهو ما يعد تنازلا هاما لصالح ناقدى التجيم .
من هنا فإنه من الأرجح أن كبلر كان أقل العقول الثلاثة الكبار دجماطيقية .

II

أما الجزء الثانى من هذا الكتاب فيأتى تحت عنوان " أفكار فى التاريخ والسياسة " ، ولقد خلقتة مناسبات معينة ، لم أقصد به تقديم نصائح أو وصفات علاجية ولكنه يعبر عن موقف من مواقف المسئولية . من الطبيعى أننى أؤيد الديمقراطية ولكنها ليست الديمقراطية التى يعبر عنها معظم ممثليها ، يقول ونستون تشرشل " الديمقراطية هى أسوأ شكل من أشكال الحكومات " . لا يوجد لدينا ما هو أفضل من قرار الأغلبية ، فحكومة الأغلبية حكومة مسئولة أما الحكومة الائتلافية فحكومة أقل مسئولية وتأتى حكومة الأقلية أدنى الحكومات مسئولية .

لقد وجدت الديمقراطية بمعنى " سياسة الشعب " ولكنها عندما وجدت أصبحت دكتاتورية تعسفية غير مسئولة ، فالحكومة يجب أن تكون مسئولة أمام الشعب ، ولا يمكن لمسيادة الشعب أن تكون كذلك ومن ثم فهى غير مسئولة . من هنا فأنى أؤيد الحكومة الدستورية المختارة بطريقة ديمقراطية ، وهو ما يخلف عن سيادة الشعب ، حكومة مسئولة بالدرجة الأولى فى مواجهة مختاريها ، بل وما هو أكثر من ذلك مسئولة أخلاقيا فى مواجهة البشرية .

لم يحدث أن امتلكت أيادى كثيرة غير مسئولة أسلحة كثيرة ومرعبة مثلما هو حادث بعد الحربين العالميتين .

فإذا كان هذا هو حال السياسيين الآن ، فإنهم يجب لهذا السبب أن يكونوا مسئولين أمامنا ولهذا السبب يجب علينا جميعا أن ننتهمهم .

نعم يريد معظم زعمائنا السياسيين الحاليين تغيير هذا الحال ، إلا أنهم حين تولوا مسئولية العالم الذى يزداد كل يوم سوءا بسبب ما يسمى بسباق التسلح ، يبدو أنهم قد رضوا عن وضعه على هذا النحو وائتلفوا معه ، بل وقد أضحى فى مخالفة سير العالم على هذا النحو خطورة وصعوبة .

وتحدث الناس بعد الحرب العالمية الثانية عن نزع السلاح الذى سارعت إلى تنفيذه إلى حد بعيد حكومات الغرب الديمقراطية وحدها . ثم ظهر مطلب

ضمان السلام فى العالم وهى الفكرة التى بدأتها عصبة الأمم ، ثم تولتها
الأمم المتحدة بعد الحرب الثانية والتى تقضى بأن تضمن الأمم المتحدة السلام
فى العالم بمقتضى قوتها العسكرية والأخلاقية إلى أن تعرف بباقى الدول
واجب الأمم المتحدة وتعترف به .

من الواضح أننا بصدد عدم الإلتزام بهذا الموقف وهو ما لا تعلن عنه
الحكومات لشعوبها خشية وقوع ضحايا . نحن نفضل عدم الخوض فى أية
مغامرة " وهو المصطلح الذى نطلقه على واجبنا .

III

إذا حاولت أن أتأمل تاريخ أوروبا وأمريكا الحالى ، فإننى سريعا ما أصل
إلى نتيجة تشبه العبارة التى أشتقها هنا من أقوال المؤرخ الإنجليزى فيشر
H.A.L. Fischer والتى يمكن تلخيصها على النحو التالى " التقدم -
تاريخيا - واقعة مصاغة بوضوح ودلالة ، إلا أن هذا التقدم ليس قانونا
طبيعيا ، بمعنى أن هذا التقدم الذى حققه جيل ما يمكن لجيل تال أن يضيعه "
يمكننى بل ويجب على أن أوافق على كل عبارة من هذه العبارات الثلاث
التي يذكرها فيشر ولكن فيم يكمن هذا التقدم الذى يتحدث عنه فيشر والذى
ينكر أن التاريخ يبلغنا عنه والذى هو أيضا ليس موضع نقّة ، إذ من الممكن
أن يضيع ؟

الإجابة على هذا السؤال واضحة وذات دلالة . التقدم الذى يتحدث عنه
فيشر والذى نعنيه جميعا تقدم أخلاقى ، ينحو نحو تحقيق السلام على الأرض
والذى وعد به العهد الجديد والذى بمقتضاه تختفى كل أشكال أفعال العنف فى
العلاقات الداخلية والخارجية فى كل الدول ، أنه التقدم الذى يؤدى إلى تحقيق
مجتمع بشرى متحضر وإلى قيام دولة الحق وإلى إجتماع كل دول الحق على
هدف واحد ألا وهو الحفاظ على السلام .

هذا هو واجبنا الأخلاقى - كما يقول كانط ، واجب كل الأفراد ذوى
الإرادة الطيبة ، أنه الهدف الذى يجب أن نحدده للتاريخ ، الهدف الذى أصبح

ضرورياً منذ اختراع الأسلحة النووية ، فهذا الهدف ليس فقط هدفاً واعداء ولكنه أيضاً هدف ضرورى ، أدت الأسلحة النووية إلى ضرورته . هذه الضرورة هي بصفة خاصة لهؤلاء الذين يريدون للبشرية استمراراً في البقاء ، لأن البديل هو الفناء .

يعود تحديد هذا الهدف إلى عهد يوليوس قيصر في الإمبراطورية الرومانية وإلى " العهد الجديد " السلام على الأرض لكل البشر نوى النوايا الطيبة .

فمن الحرب العالمية الأولى والتي أدت إلى Kellog-Pakt ^(١) ومن الحرب العالمية الثانية والتي أدت إلى قيام الأمم المتحدة نشأت حركة سياسية قوية لكل البشر نوى الإرادة الطيبة .

إلا أن فيشر يقول "مايمكن لجيل أن يحققه ، يمكن لجيل تال أن يضيعه" . إذن فضياع التقدم ممكن ، وعندئذ سيكون علينا أن نكسبه من جديد . من هنا فإنه يجب أن نتذكر دائماً واجبنا ونذكر زعماءنا السياسيين بأن مسئولياتهم لا تنتهى بالموت ولا بالإعتزال .

مدينة كنلى Kenley

١٢ يوليو ١٩٩٤

(١) وهي اتفاقية باريس التي تم ابرامها يوم ٢٧ أغسطس ١٩٢٨ ، بموجبها تم الإتفاق تقريبا بين سائر العالم على نبذ الحرب كأداة لحل النزاعات وأن يتم حل سائر النزاعات بين الدول بالطرق السلمية . (المترجم) .

المقالة الأولى
مذهب المعرفة من وجهة منطقية
ونظرية تطورية

**Wissenschaftslehre in
entwicklungstheoretischer und in
logischer Sicht**

محاضرة ألقاها بوبر في الإذاعة الألمانية بتاريخ ٧ مارس ١٩٧٢

يمكن صياغة المسائل الأساسية التي أريد أن أنقلها إليكم في هذه المحاضرة على النحو التالي : تنطلق العلوم الطبيعية — مثلها في ذلك مثل العلوم الاجتماعية — دائماً من " مشكلات " ، بمعنى أن هناك شيئاً قد أشار دهنشتا — كما ذهب إلى ذلك فلاسفة اليونان القدماء • لحل مثل هذه المشكلات فإن العلوم الطبيعية تستخدم نفس المنهج الذي يستخدمه العقل البشري السليم ألا وهو منهج " المحاولة والخطأ " ، أو بتعبير أدق " المنهج الذي يقدم حلولاً كثيرة للمشكلة ثم يقوم باستبعاد كل حل يثبت أنه حل خاطئ • هذا المنهج يفترض أن هناك حلولاً كثيرة ، يتم اختبار كل منها ومن ثم استبعاده إذا ثبت خطئه •

يبدو أن هذا هو المنهج المنطقي الوحيد الممكن ، إذ أنه المنهج الذي تستخدمه حتى أدنى الكائنات العضوية ألا وهو الأميبا ذات الخلية الواحدة في محاولتها لحل مشكلة من المشكلات • هنا يمكننا أن نتحدث عن حركات محاولة من خلالها تحاول الكائنات العضوية حل مشكلة ما • أما الكائنات العضوية العليا فإنها " تتعلم " من خلال هذا المنهج — منهج المحاولة والخطأ — كيف يمكنها حل مشكلة معينة • هنا أيضاً يمكننا القول أن الكائنات العضوية العليا تقوم بحركات محاولة ، إلا أن هذه الحركات في هذه الحالة حركات عقلية ، يعنى فيها التعلم تجربة كل حركة من حركات المحاولة إلى أن تُكتشف الحركة التي من خلالها يتم حل المشكلة • فالحل الناجح الذى يصل إليه الحيوان يمكننا مقارنته " بالتوقع " أى " بالفرض " أو " النظرية " ، فسلوك الحيوان يظهر لنا أنه يتوقع (وإن كان التوقع هنا توقعاً غير واع) أنه بإمكانه في حالة مشابهة أن يحل نفس المشكلة بنفس حركة المحاولة التي أدت إلى حل المشكلة في الحالة الأولى •

يمكننا القول أن سلوك الحيوان والنبات يظهر لنا أن سلوك الكائنات

العضوية يحكمه الإنتظام والاطراد فهي " تتوقع " الإنتظام واطراد الحوادث في بيئتها ، ومعظم هذه التوقعات اعتقد أنها موجودة فيها وراثيسا أي منذ الولادة .

تنشأ " المشكلة " لدى الحيوان عندما يخطئ أحد هذه التوقعات والتي تؤدي بالحيوان إلى حركات المحاولة ومن ثم إلى محاولة إحلال توقع آخر بالتوقع الخاطئ . أما إذا خدع كائن عضوي أعلى في توقعاته بصورة متكررة ، فإنه ينهار تماماً ، إذ لا يمكنه حل المشكلة ولكنه ينهار تماماً .

هنا فإنني أريد أن أضع ما قلته بخصوص " للتعلم من خلال منهج المحاولة والخطأ " بشكل ملخص في إطار ثلاثي المراحل على النحو التالي :

١ - المشكلة .

٢ - محاولات الحل .

٣ - الاستبعاد .

تكمن المرحلة الأولى إذن في " المشكلة " والتي تنشأ مع حدوث أي خرق في التوقعات سواء أكان خرقاً لتوقع موجود منذ الميلاد أو لتوقع تعلمه الكائن العضوي من خلال المحاولة والخطأ .

أما المرحلة الثانية فتكمن في " محاولات الحل " أي في محاولة " حل المشكلة " . أما المرحلة الثالثة فهي " الاستبعاد " ، أي استبعاد محاولات الحل الخاطئة .

ما هو جوهرى في هذا الإطار أنه إطار جمعى ، فالمرحلة الأولى - المشكلة - يمكن أن تظهر بشكل فردي وذلك على عكس المرحلة الثانية التي أسميتها " محاولات الحل " بصيغة الجمع ، فنحن نتحدث في محاولة الحل التي يقوم بها الحيوان عن " حركات محاولة " وهى الكلمة التي أضعها بصيغة الجمع ، إذا لن يعطى التعبير " حركة محاولة " سوى معنى ضعيف ،

المرحلة الثالثة - الاستبعاد - مرحلة سلبية ، فالاستبعاد فى جوهره " استبعاد للمحاولات الخاطئة " فباستبعادنا لكل محاولة حل خاطئة أو غير

ناجحة ، نضل المشكلة قائمة ، لم يتم حلها بعد مما يعطى الفرصة لمحاولات حلول جديدة .

ولكن ماذا يحدث عندما نتجح أخيراً إحدى محاولات الحل ؟

يحدث أمران : تصبح هناك معرفة بمحاولة الحل الناجحة ، وهو ما يحدث لدى الحيوان ، فعندما تظهر مشكلة كانت قد ظهرت من قبل ، فإن الحركات التى يجرب بها الحيوان حل مشكلته تتكرر مرة أخرى إلى أن تظهر محاولة الحل الناجحة .

يمكن التعلم إذن فى أن محاولات الحل غير الناجحة أو المستبعدة تتناقص إلى أن تحدث أخيراً المحاولة الناجحة من أول مرة . هذا هو إذن سلوك الاستبعاد الذى يقوم بصورة أساسية على تعدد محاولات الحل .

هنا يمكننا القول أن الكائن العضوى قد تعلم بهذه الطريقة توقعاً جديداً . يمكننا وصف سلوكه بالقول أنه يتوقع حل المشكلة من خلال حركات المحاولة أو من خلال الحركة الأخيرة التى لم تعد مستبعدة .

إن صياغة فروض أو وضع نظريات يطابق على مستوى النظرية العلمية — كما سنرى الآن — تعلم الكائن العضوى التوقع .

وقبل أن أبدأ فى مناقشة بناء النظرية العلمية فإننى أود أن ألفت الانتباه إلى تطبيق بيولوجى آخر للإطار الذى وضعته ذى الثلاث مراحل .

يمكن فهم هذا الإطار ذى الثلاث مراحل — المشكلة ، محاولات الحل ، الاستبعاد — على أنه إطار نظرية التطور الداروينية ، إذ أنه لا ينطبق فقط على تطور الوجود العضوى الفردى ولكن أيضاً على نشأة الأنواع . إن تغير ظروف البيئة أو البناء الداخلى للوجود العضوى يخلق — وفقاً لإطار المراحل الثلاث هذا — " مشكلة " ، مشكلة تكيف النوع ، بمعنى أن النوع لن يستطيع البقاء إلا إذا استطاع حل مشكلة من خلال تغير بنائه الجينائى genetischen ولكن كيف يحدث هذا وفقاً لفهم دارون ؟ إن جهازنا الجينائى مبنى بحيث أن التغيرات الفجائية فى البناء الجينائى تحدث دائماً . يفترض الإتجاه الداروينى فى أن هذه التغيرات الفجائية تقوم — بلغة إطارنا ذى

المراحل الثلاث - بمهمة " محاولات الحل " . إن معظم التغيرات الفجائية هذه حتمية ، فهي قائمة لحايلها ، للكائن العضوى الذى تظهر فيه ، لهذا فهي " تستبعد " - وفقاً للمرحلة الثالثة من إطارنا - ومن ثم يجب علينا مرة أخرى أن نشير إلى الخطوة الثانية - محاولات الحل - فى إطارنا ثلاثى المراحل ، إذ لو لم تحدث تغيرات فجائية كثيرة جداً ، لما كان هناك معنى " لمحاولات حل " فلا بد أن يحدث تغيراً كبيراً لكى يعمل جهازنا الجينائى . وهو ما يجب أن نفترضه .

الآن فقط يمكننى أن أتناول موضوعى الأساسى وهو مذهب أو منطق العلم .

النقطة الأولى التى أود قولها هى أن العلم ظاهرة بيولوجية ، فلقد خرج العلم من عباءة المعرفة قبل العلمية ، بحيث يمكن فهمه على أنه تطور عال لطريقة معرفة الفهم الإنسانى الصحيح والتى هى بدورها تطور للمعرفة الحيوانية .

أما النقطة الثانية فهى أن منهجنا ثلاثى المراحل ينطبق على العلم . فلن ينشأ العلم - كما لاحظ بالفعل فلاسفة اليونان - من مشكلة ما ، أى من الدهشة من شئ معين فى ذاته يحدث يومياً ونعتاد عليه ولكنه بالنسبة للفكر العلمى مثير للدهشة ومن ثم للتساؤل ، فهذا ما أشرت إليه من البداية ، إلا أن النقطة التى أود الإشارة إليها هى أنه يجب فهم كل تطور علمى على هذا النحو ، بمعنى أن نقطة بدايته تمثل " مشكلة " أو " موقف مشكل " .

هذه النقطة بالغة الدلالة ، فلقد علمتنا نظرية العلم القديمة وما زالت تعلمنا أن الإدراك الحسى أو الملاحظة الحسية هى نقطة بداية العلم . قد يبدو هذا معقولاً ومقنعاً فى نفس الوقت إلا أنه أساس خاطئ وهو ما يمكن أن نوضحه على النحو التالى : " بدون مشكلة لا وجود للملاحظة " ، فعندما أتوجه إليك بالخطاب : " من فضلك لاحظ " فإنك تجيب " نعم ولكن ماذا لاحظ " ؟ أو بعبارة أخرى فإنك تطلب منى أن أحدد لك المشكلة التى يمكن حلها من خلال ملاحظتك . فإذا لم أحدد لك مشكلة ما ولكن فقط شيئاً معيناً ، فإن هذا قد يكون أفضل ولكنه ليس مرضياً على الإطلاق . عندما أقول لك على سبيل

المثال " من فقط لاحظ سعتك " فإنك مازلت لاتفهم ما الذى أريدك أن تلاحظه . أما إذا حدثت لك مشكلة تافهة ، فإن الأمر يختلف ، فقد لاتهتم بالأمر إلا أنك على الأقل تفهم ما الذى يجب عليك أن تحدد من خلال الملاحظة أو الإدراك الحسى (وكمثال يمكنك أن تتناول مشكلة هل القمر فى صعود أم هبوط ، أو فى أى دولة تم طبع هذا الكتاب الذى تقرأه فى هذه الأيام) .

ولكن ما منشأ هذه الفكرة الخاطئة والتي أتت بها نظرية المعرفة القديمة والتي تذهب إلى أن منشأ العلم هو الملاحظة أو الإدراك الحسى وليس مشكلة معينة ؟ .

لقد اعتمدت نظرية العلم القديمة - فى هذه النقطة - على نظرية المعرفة الخاصة بالفهم البشرى السليم ، والتي ترى أن معرفتنا بالعالم الخارجى تعتمد بوضوح على انطباعاتنا الحسية .

وإذا كنت شخصياً من الذين يبجلون ويوقرون الفهم البشرى السليم ، وأزعم أنه الناصح الأمين فى كل المواقف المشكلانية الممكنة إلا أنه مع هذا ليس دائماً موضع ثقة ، ذلك أنه متى كان الأمر يتعلق بمسائل نظرية العلم أو نظرية المعرفة فإنه من الضروري والهام أن نقف منه موقفاً نقدياً حقيقياً .

نعم يصدق بالطبع أن أعضاءنا الحسية هى مصدر معرفتنا بالعالم الخارجى وأنها نحتاج لها بالضرورة لهذا الغرض . إلا أن هذا لايعنى أن نستنتج من ذلك أن معرفتنا تبدأ بالإدراك الحسى ، على العكس فحواسنا إذا نظرنا إليها من وجهة نظرية تطورية - أدوات تم تكريبها على حل مشكلات بيولوجية معينة . على هذا النحو تكربت العيون البشرية والحيوانية على تحذير الكائن الحى الذى يستطيع تغيير مكانه فى التوقيت السليم وتجنب الإصطدام الخطير بأجسام صلبة يمكن أن تؤذيه . فالأعضاء الحسية - من وجهة نظرية تطورية - هى نتيجة المشكلات ومحاولات الحل ، مثلها فى ذلك مثل مكبرات الصوت أو المناظير ، مما يوضح أن المشكلة - منظورها إليها من الواجهة البيولوجية - سابقة على الملاحظة أو الإدراك الحسى . فالملاحظات والإدراكات الحسية أدوات مهمة لمحاولاتنا للحل وتلعب دورها

الأساسى فى الاستبعاد . من هنا كان اطارنا ثلاثى المراحل ينطبق على منطق العلم أو الميتودولوجيا على النحو التالى :

- ١ - شكل نقطة البداية دائماً مشكلة معينة أو موقفاً مشكلاً معيناً .
- ٢ - ثم يتبعها محاولات الحل ، والتي تنشأ دائماً عن نظريات معينة . هذه النظريات والتي هي محاولات تكون غالباً نظريات أو محاولات خاطئة .
- ٣ - نحن نتعلم أيضاً فى العلم من خلال استبعاد أخطائنا ، أو من خلال استبعاد نظرياتنا الخاطئة .

إطارنا ثلاثى المراحل إذن - المشكلة ، محاولات الحل ، الاستبعاد - ينطبق على وصف العلم ، وهو ما يصل بنا إلى نقطتنا الرئيسية .

أين تكمن خصوصية المعرفة البشرية ؟

ما الذى يميز بالتحديد " أميبا " عن عالم كنيوتن أو اينشتين ؟

الإجابة : تكمن خصوصية العلم فى الإستخدام الواعى للمنهج النقدى ، ففى المرحلة الثالثة لمنهجنا ، فى استبعاد أخطائنا ، نحن نقوم بمهمة نقدية واعية . فالمنهج النقدى وحده هو ما يوضح للتطور السريع غير العادى للصورة العلمية للعلم والتقدم العلمى غير العادى . فكل معرفة قبل علمية - سواء أكانت حيوانية أو بشرية - معرفة اعتقادية وياكتشف المنهج غير الإعتقادى، أى المنهج النقدى ، يبدأ العلم .

إن اكتشاف المنهج النقدى يفترض مسبقاً لغة بشرية وصفية يمكن للإنسان أن يطور فيها حججه النقدية ، بل ويفترض أيضاً كتابة معينة ، وذلك أن المنهج النقدى يكمن بصورة جوهرية فى أن محاولات الحل والنظريات والفروض التى نضعها جميعاً يجب أن يكون من الممكن صياغتها بلغة معينة ووضعها بصورة موضوعية تجعل منها موضوعات بحث نقدى واع .

من المهم جداً أن نضع تمييزاً واضحاً بين الفكرة الذاتية أو الخاصة - البناء السيكلوجى - وبين نفس الفكرة ولكن مصاغة بلغة تجعل منها مشار

نقاش عام .

فالانتقال من فكرتى غير المنطوقة " سنمطر اليوم " لنفس القضية "سنمطر اليوم " ولكن منطوقه تعد من وجهة نظرى خطوة فى غاية الأهمية . نعم قد لا تبدو هذه الخطوة ذات أهمية ولكن الصياغة اللغوية تعنى أن ماكان يعد جزءاً من شخصيتى ومن توقعى وربما من مخاوفى قد أضحى الآن موضوعاً بصورة موضوعية بحيث يمكن أن يكون موضع نقاش نقدى عام . إلا أن التمييز مع هذا مازال بالنسبة لى على قدر كبير من الأهمية ، فالقضية المنطوقة قد نالت من خلال الصياغة اللغوية استقلالاً تاماً عنى ، أصبحت مستقلة عن تحديداتى وآمالى ومخاوفى . لقد تموضعت . لقد أصبح من الممكن لغيرى بل ولى أيضاً أن يوافق أى منا عليها أو يرفضها ، فالأساس الذى عليه ينبنى قبولها أو رفضها أصبح موضع نقاش .

هنا نصل إلى تمييز هام بين دالتين لكلمة " المعرفة " ، المعرفة بالمعنى الذاتى والمعرفة بالمعنى الموضوعى ، فالمعرفة عادة ماينظر إليها كحالة عقلية أو ذاتية ، فنحن ننطلق عادة من الصياغة " أنا أعرف " ومن ثم نشرح المعرفة كشكل من أشكال الاعتقاد الذى يقوم على أساس السبب الكافى . فتفسير كلمة " معرفة " نال تأثيره من نظرية العلم القديمة بحيث لم تعد نظرية العلم فى حاجة إليه مادام العلم ينشأ من قضايا مصاغة صياغة لغوية ، موضوعية وليس من توقعات ذاتية .

العلم نتاج للعقل البشرى ، ولكنه نتاج موضوعى مثله فى ذلك مثل الكانترائية . فعندما نقول أن القضية فكرة معبر عنها تعبيراً لغوياً ، فإن هذا صحيح ولكنه لا يحدد بدقة معنى موضوعية القضية . يرتبط هذا بإزدواج دلالة الكلمة " فكرة " . - يجب علينا - كما أكد الفيلسوف " برنهارد بولزانو Bernhard Bolzano ^(١) . ومن بعده " جوتلوب فريجه " - أن نميز بين حادثة التفكير الذاتية والمحتوى الموضوعى أو بين الأولى

(١) برنهارد بولزانو ، فيلسوف ولاهوتى وعالم رياضى ، ولد فى براغ ١٧٨١ من أب إيطالى الجنسية وتوفى عام ١٨٤٨ ، ومن أهم أعماله " نظرية المعرفة " أربعة مجلدات ، و " أسس المنطق " الذى هو فى الحقيقة مقالات مختارة من عمله الأول " نظرية المعرفة " .

والمحتوى المنطقي للفكرة . فعندما أقول أن أفكار محمد(*) تعتبر عن أفكار
بوذا ، فإننى لا أتحدث هنا عن حادثتى تفكير مختلفتين ولكن عن المحتوى
المنطقي لمذهبين أو نظريتين .

فحوادث التفكير يمكن أن تقوم بينها علاقات عليّة . فعندما أقول " نأثر
مذهب سينيوزا بمذهب ديكارت " فإننى هنا أضف علاقة عليه بين رجلين
وأحدد شيئاً عن حوادث تفكير سينيوزا .

ولكن عندما أقول " ولكن يتناقض مع هذا مذهب سينيوزا " ففى بعض
النقاط الهامة مع مذهب ديكارت " فإننى هنا أتحدث عن المحتوى المنطقي
الموضوعي لمذهبين وليس عن حوادث تفكير . فالمحتوى المنطقي للقضايا
هو ما أهدف إليه عندما أؤكد على خاصية موضوعية اللغة البشرية .

فعندما قلت سابقاً أن الفكرة المنطوقة هى فقط ما يمكن أن يصبح موضوع
نقد فإننى عنيّت أن المحتوى المنطقي للقضية فقط وليس حادثة التفكير
السيكولوجي هو ما يمكن أن نتناوله بالنقاش تناولاً نقدياً .

أريد الآن مرة أخرى أن أنكركم بإطارى ثلاثى المراحل (المشكلة ،
محاولات الحل ، الاستبعاد) وبالملاحظة التى نكرتها من قبل وهى أن
إطارى هذا - إطار اكتساب معرفة جديدة - قابل للإنتطابق على سائر
الكائنات بدءاً من الأميبا إلى لينتشتين ولكن أين يكمن التمييز ؟

الإجابة على هذا السؤال بالنسبة لنظرية العلم إجابة حاسمة . يكمن
التمييز الحاسم فى المرحلة الثالثة ، فى استبعاد محاولات الحل .

ففى التطور قبل العلمى للمعرفة يحدث الاستبعاد بيننا فالبيئة هى ما
يستبعد محاولات الحل ، مما يعنى أن اشتراكنا فى الاستبعاد اشتراك سلبى
فقط وليس إيجابياً، فنحن نخبر الاستبعاد، ذلك أنه متى حطم الاستبعاد
محاولاتنا للحل أو إحدى المحاولات التى كانت ناجحة من قبل، فإننا نتحطم
بالتبعية، أو بمعنى آخر يتحطم حامل هذه المحاولات وهو ما يتضح بوضوح
فى الاختيار الطبيعى لدارون .

(*) يشير المؤلف هنا إلى النبى محمد عليه الصلاة والسلام (الهامش للمترجم) .

أما عشر جنيته في المنهج العلمي فيمكن في أن اشتراكنا في مسألة الإستبعاد - يكون اشتراكاً إيجابياً . فمحاولات الحل محاولات متموضعة ، لم تعد تربطنا هوية واحدة مع محاولات الحل . فما إذا كنا نعي بصورة أكبر أو أقل بالإطار ثلاثي المراحل ، فإن ما هو جديد في الموقف العلمي يكمن في أننا نحاول بصورة إيجابية أن نستبعد محاولاتنا للحل . نحن نخضع محاولاتنا للحل للنقد الذي يعمل بكل الوسائل المتوفرة والتي يمكن أن تتوفر لدينا . فبدلاً من الإنتظار على سبيل المثال - حتى تفند البيئة إحدى محاولات الحل أو تحرية معينة ، فإننا نحاول - نحن - أن نغير البيئة غير الملائمة لمحاولات الحل التي نقدمها . بهذه الطريقة نضع نظرياتنا موضع التجريب ، نقوم بكل ما في وسعنا لإستبعاد نظرياتنا محاولين إكتشاف النظريات الخاطئة .

يمكن إذن الإجابة على السؤال أين يكمن التمييز الحاسم بين الأميبا وأنشتين على النحو التالي:

نقر الأميبا من التكذيب، فتوقعها جزء منها ومن ثم فإنها تهلك - كحامل قبل علمي للتوقعات أو الفروض - بتقيد فروضها . في مقابل هذا يأتي أينشتين الذي تتموضع فروضة . ففروضه شيء مستقل عنه ، فالعالم يمكنه استبعاد فروضه من خلال نقده لها دون أن يهلك معها ، ففي العلم نحن نترك الفروض تموت من أجلنا .

بهذا أصل إلى فرضي - هو ما إعتبره كثير من دعاة نظرية العلم فرضاً متناقضاً - منطوق هذا الفرض أن ما يميز وجهة النظر العلمية والمنهج العلمي عن وجهة النظر قبل العلمية هو منهج محاولات التكذيب Falsifikation Versuche . فكل نظرية ، أو محاولة حل يجب أن تختبر بشدة بقدر المستطاع . هذا الإختبار الشديد هو دائماً محاولة لإكتشاف نقاط الضعف الموجودة فيما نخضعه للإختبار مثلما أن إختبار النظريات محاولة لإكتشاف نقاط ضعفها . إختبار النظرية إذن محاولة لتقيدها أو لتكذيبها .

لا يعني هذا بالطبع أن الباحث الذي يستطيع تقيد نظرياته الخاصة يسعد دائماً بذلك ، فلقد وضع النظرية كمحاولة للحل بمعنى أنه يأمل منها أن تصمد

أمام الاختبارات الشديدة ، بل على العكس فيكثر من العلماء يتعرون حبيسة أمل عظيمة إذا تم تكذيب محاولة حل كانوا يرونها حاقلة بالأمل .

ليس هدف تكذيب النظرية هدفاً شخصياً للعالم ، بل يكفى العالم الحقيقي الذي يرجوا أملاً كبيراً في إحدى النظريات أن يدافع عنها ضد محاولة التكذيب .

هذه النقطة تلقى قبولاً وإستحساناً من نظرية العلم ، ولكن كيف يمكن أن نميز بين التكذيب الحقيقي والتكذيب الظاهري ؟ فما نحتاجه في العلم شكل من التحزب Parteibildung لصالح وضد كل نظرية تخضع لإختبار جاد لأننا في حاجة لمناقشة عقلية علمية ولايؤدي دائماً كل نقاش إلى نتيجة حاسمة .

إن وجهة النظر الحديثة والجوهرية التي حددها العلم هي وجهة النظر "النقدية" والتي تصبح سهلة المنال من خلال الصياغة اللغوية الصريحة الموضوعية للنظريات ، فصياغة النظريات على هذا النحو تؤدي عادة إلى المناقشة النقدية . ولا تصل كثير من المناقشات إلى تحديد نهائي واضح كالمناقشة المشهورة التي قامت بين العالمين ألبرت أينشتاين ونيلز بور^(١) ، إذ لاوجود لدينا لمعيار أن كل مناقشة علمية ستنتهي إلى حسم للنقاش . لاوجود إذن لمعيار للتقدم العلمي .

ننص فكرتي الأساسية على أن الجديد الذي يميز العلم والمنهج العلمي عن وجهة النظر قبل العلمية هو الموقف النقدي الواعي تجاه محاولات الحل ، هو اشتراكنا اشتراكاً إيجابياً في الإستبعاد ، استبعاد محاولات الحل ، أي محاولة نقدها أو تكذيبها .

للمحاولة العكسية أيضاً وظيفتها المنهجية — كما رأينا — ونعني بها محاولة إنقاذ نظرية ما . إلا أن هذا الموقف الاعتقادي في جوهره يميز —

(١) عالم فيزيائي دانماركي ، ولد ١٩ يونيو ١٩٢٢ . حصل على جائزة نوبل في الفيزياء بالإشتراك مع موتلسون R.Motleson ١٩٧٥ لتحديدهما أشكال بعض النوى الذرية .

من وجهة نظري - الفكر قبل العلمى بينما يؤدى الموقف النقدي ، الى محاولة التكتيب الواعى ، الى العلم ومن ثم يسود المنهج العلمى .

رغم هذا الوظيفة المنهجية التى يتصف بها بلا شك التحزب العلمى ، فإن الباحث - من وجهة نظري - يجب أن يكون واضحاً تجاه الدلالة الأساسية لمحاولات التكتيب وأحياناً للتكتيب المحظوظ . فالمنهج العلمى ليس منهجاً تراكمياً Kumulativ كما يذهب إلى ذلك بيكون فسون فيرولام Bacon Von Verulan^(١) . وسير " جيمس جينز " ولكنه ثورى بصورة جوهرية . فالنقد العلمى يكمن فى جوهره فى إحلال نظريات محل أخرى ، فالنظريات الجديدة يجب أن تكون فى موقف يسمح لها بأن تحل محل النظريات التى ألغت النظريات القديمة . على هذا النحو تحل نظرية أينشتاين مشكلة حركة الكواكب بصورة أفضل من نظرية نيوتن . فالنظرية الثورية تتطلىق من فروض جديدة متجاوزة بها النظرية القديمة التى يجب عندئذ أن تقف منها موقف التناقض . هذا التناقض يسمح بإيجاد تجارب يمكنها أن تحسم الأمر بين النظرية الجديدة والقديمة ، بمعنى أنه يمكنها أن تكتب إحدى هاتين النظريتين على الأقل . فالتجارب يمكنها أن تظهر سمو النظرية الباقية دون أن تبرهن على صحتها وهى النظرية التى يمكن - أن تخضع هى الأخرى فيما بعد للتعديل .

متى إتخذ الباحث هذا الموقف ، فإنه يقف حتى من نظرياته التى ابتكرها بنفسه موقفاً نقدياً ، فهو يفضل إختبارها بنفسه ومن ثم تكتيبها عن أن يتركها لنقاده .

المثال الذى أفر بتهديمه يتعلق بصديقى القديم عالم فسيولوجيا المخ Gehimphysiologe والحاصل على جائزة نوبل سيرجون إكسلز Sir John Eccles^(٢) والذى قابلته لأول مرة فى جامعة أوتاغو Otago حيث كنت ألقى سلسلة من المحاضرات . كان سير إكسلز منشغلاً منذ أعوام

(١) هو الفيلسوف الشهير فرنسيس بيكون ، ولد ١٥٦١ بلندن وتوفى ١٦٢٦ ، أهم أعماله " الأورجانون الجديد " Novum Organum .

(٢) سير جون إكسلز (١٩٠٣ - ...) عالم فسيولوجيا استرالى الجنسية ، حصل على جائزة نوبل ١٩٦٣ لاكتشافه الوسائل الكيميائية التى تتصل بها النبضات بالخلايا العصبية .

بمشكلة كيف يمكن أن ينتقل التهييج العصبى من إحدى الخلايا العصبية إلى الخلايا الأخرى من خلال شبكة الخلايا العصبية *Über die Synapse* ، أى بمسألة " الانتقال الشبكي العصبى " *Synaptischen Transmission* لقد اقترح أحد رجال مدرسة كامبرج - سير " هنرى ديل " *Sir Henry Dale* - أن جزيئات مادة التحول الكيميائية تتقاطع مع شبكة الإتصال العصبى التى تفصل الخلايا العصبية ومن ثم ينتقل التهييج العصبى من إحدى الخلايا إلى الخلايا الأخرى . أظهرت تجارب " إكسلز " أن زمن الانتقال قصير جداً بطريقة غير عادية . ومن ثم فقد قدم نظرية تفصيلية فى الانتقال الكهربى للإثارة العصبية و " كنج الجماح " .

ولكنى أحب أن أترك الحديث لإكسلز نفسه (*) :

يقول إكسلز " حتى عام ١٩٤٥ كانت آرائى عن البحث العلمى على النحو التالى : أولاً تنشأ الفروض من معطيات تجريبية يتم جمعها بإتقان وبطريقة منهجية ، وهى الفكرة الإستقرائية عن العلم والتى ترجع إلى بيكون ومل . ومازال الكثيرون من العلماء والفلاسفة يعتقدون أن هذا هو المنهج العلمى . ثانياً : أن قيمة العالم يحكم عليها بمدى درجة الثقة الكامنة فى الفروض التى قدمها بنفسه وهى الفروض التى يجب أن تزداد بإضافة معطيات جديدة والتى يأمل منها جميعاً أن تخدم كأساس متين وموثوق فيه لتطورات نظرية أخرى . فالعالم يفضل الحديث عن معطياته للتجريبية معتبراً فروضه أدوات عمل . أخيراً : وهى النقطة الأكثر أهمية - أنه مما يؤسف له ويعد علامة فشل وإخفاق أن تفقد معطيات جديدة فرضاً كان قد وضعه العالم مما يضطره إلى التنازل عنه " .

لقد كانت هذه تماماً هى مشكلتى ، فلقد تبينبت لفترة طويلة فرضاً قبل أن يتضح لى أنه يجب أن يرفض مما سبب لى حزناً بالغاً . ولقد دخلت فى مناقشة حول الخلايا العصبية المتصلة إعتقدت وقتها أن الانتقال الشبكي العصبى بين الخلايا العصبية ذو طبيعة كهربية فلقد سلمت بأنه هناك مكوناً كيميائياً بطيئاً ، إلا أننى اعتقدت أن الانتقال السريع عبر الخلايا العصبية

(*) أنظر كتاب إكسلز الصدق والواقع ١٩٧٥ ص ١٤٣ (الهامش للمؤلف) .

المتصلة يحدث بطريقة كيربية . ولقد تعلمت من بوبر أنه عندما يتبصر
لباحث ما خطأ فروضه الخاصة فإن هذا ليس أمراً مخطئاً بالشرف . لقد كنت
هذا هو أجل شيء تعلمته حديثاً منذ فترة طويلة كما أقنعني بوبر بضرورة
صياغة فروضى الخاصة بالانتقال الكهربى عن طريق شبكة الخلايا العصبية
بدقة تامة مما يجعلها تتحدى أى تفنيد وهو ما حدث بالفعل بعد سنتين من قبلى
ومن قبل زملائى .

فبفضل المذهب البوبرى أمكنتى برحابه صدر قبول موت فكرتى التى
كانت محببة إلى والتى ظلت مقتنعة بها زهاء العشرين عاماً والتى ساهمت
فى نفس الوقت بقدر الإمكان فى تاريخ الانتقال الكيميائى التى كانت الفكرة
المحبة لليفى Loewi ودل Dale لقد خبرت أخيراً القوة التحررية العظيمة
لمذهب بوبر فى المناهج العلمية .

هنا يظهر ترتيب غريب ، فلقد ثبت أننى كنت على استعداد أن أتخلى
وبسرعة عن فروض الانتقال الكهربى عن طريق شبكة الخلايا العصبية .
فأشكال الخلايا العصبية المشبكية الكثيرة والتى كانت موضوع عملى هى
بالتأكيد ذات طبيعة كيميائية ، إلا أن الكثير من الخلايا المشبكية الكيربية
أصبحت الآن معروفة والكتاب الذى كتبتة عام ١٩٦٤ عن الخلايا العصبية
المشبكية يحوى مثالين عن الانتقال الكهربى ، " الانتقال الاعاقى والانتقال
الإنفعالى " .

ويجدر بنا هنا أن نلاحظ أن الصواب قد جانب كلاً من " ديل " و " اكسلز " .
فى نظريتهما الخاصة بأبحاث المخ ، إذ اعتقد كلاهما أن نظريتهما تنطبق
على سائر الخلايا المشبكية لقد أنطبقت نظرية " ديل " على الخلايا
العصبية المشبكية والتى انشغل بها كلا العالمين ، إلا أنها لم تنطبق على
سائر الخلايا العصبية المشبكية مثلها فى ذلك مثل نظرية اكسلز وهو ما يبدو
أن اتباع ديل لم يفهموه ، لقد اعتقدوا أنهم قد انتصروا على اكسلز لكى
يتضح فيما بعد أن كلا الفريقين قد ارتكب نفس الجرم الهائل وهو التعميم
السريع دون أن ينتظروا المعطيات الملائمة " وهو ما لم يكن ليتم " .

لقد كتب اكسلز فى موضع آخر ، فى الكلمة التى ألقاها عند استلام جائزة

نوبل " بل يمكنني الآن أن أشعر حتى بالغبطة لتكذيب نظرية كانت عزيزة عليّ ، إذ أن مثل هذا التكذيب نجاح علمي " .

هذه النقطة الأخيرة ذات قدر من الأهمية إذ أننا نتعلم الكثير من خلال التكذيب ، فنحن لا نعلم فقط أن نظرية ما خاطئة ولكننا نتعلم أيضاً لماذا تكون هذه النظرية خاطئة ، ومن ثم نكسب بذلك مشكلة جديدة مفهومة بشكل أفضل والمشكلة الجديدة – كما عرفنا من قبل – هي بمثابة نقطة إنطلاق تقدم علمي جديد .

قد تتعجبون لماذا أنكر مراراً وتكراراً منهجي ثلاثي المراحل . لقد كلن هدفي من ذلك أن أهيئ لمنهج مشابه له ولكنه منهج رباعي المراحل ، منهج يميز العلم وحركة التقدم العلمية . هذا المنهج رباعي المراحل يمكن أن نصل إليه من خلال منهجنا ثلاثي المراحل – المشكلة ، محاولات الحل ، الاستبعاد – حيث نطلق على مرحلته الأولى – " المشكلة القديمة " والمرحلة الرابعة – " المشكلة الجديدة " . فإذا أحلنا " النظريات المجربة " محل " محاولات الحل " ومحاولات الاستبعاد من خلال المناقشة النقدية " محل الاستبعاد " ، فإننا نصل إلى منهجنا رباعي المراحل الذي يميز النظرية العلمية .

يبدو المنهج الرباعي إذن على النحو التالي :

١ – المشكلة القديمة .

٢ – النظريات التي نخضعها للتجربة .

٣ – محاولات الاستبعاد من خلال المناقشة النقدية متضمنة الإختبار التجريبي المعمل .

٤ – المشكلة الجديدة التي تنشأ عن المناقشة النقدية لنظرياتنا .

هذا المنهج رباعي المراحل يسمح لنا بذكر بعض الملاحظات في النظرية العلمية .

بشأن المشكلة : إن المشكلات قبل العلمية والمشكلات العلمية الأولية ذات

طبيعة عملية ولكن سريعاً ما يحل محلها ولو بصورة جزئية من خلال السلسلة الرباعية - مشكلات نظرية . هذا يعنى أن معظم النظريات الحديثة تنشأ عن نقد النظريات . ينطبق هذا بشكل واضح على مشكلة Hesiods Kosmogonie^(١) كما ينطبق على مشكلات فلاسفة ما قبل سقراط . كما ينطبق أيضاً على معظم مشكلات العلوم الطبيعية الحديثة . فهذه النظريات هي ذاتها نتاج للنظريات والصعوبات التي كشفت عنها المناقشة النقدية للنظريات . فهذه المشكلات النظرية هي في جوهرها مسائل تتطلب تفسيرات ، والإجابات التي تقدمها هذه النظريات ليست سوى محاولات تفسير .

يمكن أن نضيف أيضاً إلى المشكلات العملية مسألة التنبؤ بشئ ما ، إلا أن التنبؤ من وجهة نظر العلم الخالص ينتمى للمرحلة الثالثة ، أي للمناقشة النقدية أو الاختبار هذه التنبؤات مهمة إذ أنها تسمح لنا باختبار صدق النظريات التي تمثل محاولات للتفسير اختباراً واقعياً وعملياً .

يمكننا أن نعرف من منهجنا رباعى المراحل أننا نتطرق في العلم من سلسلة من المشكلات القديمة ونتوقف عند المشكلات الجديدة التي تخدم - من جانبها - كنقطة بداية سلسلة جديدة . ومن حيث أن منهجنا ذات صفة دائرية ، أي أنه سلسلة متكررة فإنه يمكننا أن نبدأ من أية مرحلة من المراحل الأربع . يمكننا أن نبدأ بالنظريات ، أي بالمرحلة الثانية ، بمعنى أنه يمكننا القول أن العالم يبدأ من إحدى النظريات القديمة ليصل من المناقشة النقدية لها ومن ثم استبعادها إلى مشكلات يحاول حلها من خلال نظريات جديدة .

يمكننا لذا القول أن إقامة نظريات مقنعة أو مرضية هو هدف العلم . إلا أن التساؤل عما هي الشروط التي وفقاً لها تعتبر نظرية ما نظرية مرضية يرجع مباشرة إلى المشكلة من حيث أنها نقطة انطلاق أو نقطة بداية .

(١) المقصود بها تفسير هزيود للكون ونشأته ، وهو من أقدم شعراء اليونان . ولد عام (٧٠٠ ق م) وضع تفسيره للكون في ملحمتين شعريتين هما Theogony ثم " أعمال وأيام " works and Days .

وهذا يصل بنا إلى المطلب الأولي الذي نتوقعه من النظرية وهو انها تحل لنا مشكلة تطلب التفسير والتي تتضح فيها المشكلات التي عنها نشأت المشكلة .

وأخيراً فإنه يمكننا أيضاً أن نعتبر الإستبعاد - إستبعاد نظرية قائمة حتى الآن - نقطة البداية ، عندئذ يمكننا القول أن العلم يأخذ نقطة بدايته دائماً من انهيار نظرية ما . هذا الإنهيار أو الإستبعاد يؤدي إلى مشكلة إحلال نظرية أفضل محل النظرية المستبعدة .

أما أنا فأفضل - شخصياً أن تكون المشكلة هي نقطة البداية دون أن يقلل هذا من أن الأمر واضح لدى أنه مادام المنهج " سلسلة دائرية ، فإن هذا ما يجعل من الممكن لكل مرحلة من المراحل أن تكون هي نقطة بداية تطور جديد .

ما هو جوهرى بالنسبة لمنهجنا رباعى المراحل أنه ذات طبيعة ديناميكية، فكل مرحلة تحوى فى طياتها قوة دافعة داخلية منطقية تؤدي إلى المرحلة التى تليها ، فالعلم فى جوهره - كما يبدو فى منطق العلم هذا - ظاهرة مدركة بصورة متطورة . فهو ذات طبيعة ديناميكية إلا أنه ليس شيئاً مكتملاً أبداً، لا وجود لنقطة نقول عندها أنه وجد فيها هدفه النهائى.

يكمن تفضيلى " للمشكلة " كنقطة بداية فى السبب التالى : إن المسافة التى تفصل بين المشكلة القديمة والمشكلات الحديثة هي ما يبدو لى أنه يمكن وصفها " بالتقدم العلمى " أكثر من المسافة التى تفصل مثلاً بين المشكلة القديمة والجيل التالى لها مباشرة من المشكلات التى حلت محلها.

ولنأخذ على سبيل المثال نظرية الجاذبية لنيوتن وأينشتين - فالمسافة بين النظريتين كبيرة، إلا أنه من الممكن مع هذا أن نصيغ نظرية نيوتن بلغة أينشتين، أي بما يسمى حساب Tensor^(١) .

(١) وهو أحد فروع الرياضيات التى تهتم بإيجاد العلاقات أو القوانين التى تظل صحيحة بصرف النظر عن نسق الاحداثيات المستخدم لتحديد الكميات. كان لتطبيق أينشتين لهذا الحساب فى نظريته فى النسبية العامة الفضل فى الاهتمام المتزايد بهذا الحساب فى الفيزياء، إذ لم يجد أينشتين أية غموض فى التعبير عن قوانين الفيزياء بهذا الحساب اعتقاد منه أن قوانين الفيزياء لا تتغير بصرف النظر عن النسق الذى يستخدم للتعبير عنها.

ومنى فعلنا هذا - وهو ما قام به بالفعل الأستاذ بيتر هافس Peter Havas فإننا سنجد أن الخلاف بين كلتا النظريتين يمكن فقط فى سرعة الضوء النهائية C هذا يعنى أن هافس قد استطاع أن يصيغ نظرية أينشتين بحيث أصبحت نظرية أينشتين نظرية نيوتونية وذلك عن طريق إحلال سرعة الانتشار النهائية C محل السرعة اللانهائية.

ولكن أن نستنتج من هذا أن تقدم النظرية يكمن فى كليتة فقط فى سرعة الانتشار النهائية للجاذبية، فإن هذا يعد خطأ فادحاً .

اعتقد أننا سنجد فى معنى " التقدم " والخاصية " الديناميكية " للتطور دلالة كبيرة متى قارننا المشكلة التى اكتشفها نقاد نظرية نيوتن - أرنست ماخ على سبيل المثال - بتلك المشكلات التى اكتشفها نقاد نظرية أينشتين - وأينشتين نفسه فى مقدماتهم.

متى قارننا إذن المشكلات القديمة بالجديدة لرأينا المسافة الكبرى التى تفصل بينهما أي لرأينا التقدم العظيم. ولكن تبقى مع هذا مشكلة واحدة قديمة وهى ما يعرف بمبدأ ماخ وهى مطلبه أن نعتبر القصور الذاتى للكتل الثقيلة معولاً للكتل البعيدة فى الكون. لقد أصيب أينشتين بخيبة أمل كبيرة ألا تنطبق نظريته بالكامل. نعم قدمت نظريته فى الجاذبية القصور الذاتى كنتيجة للجاذبية، ولكننا متى تركنا الكتل فى نظرية الجاذبية لأينشتين تختفى، فإن نظريته تتحول إلى نظرية النسبية الخاصة ويبقى القصور الذاتى دون كتل خلاقه.

لقد شعر أينشتين بنفسه بنقص نظريته وانشغل سائر الباحثين فى هذا الميدان منذ أكثر من نصف قرن بالمشكلة التى أثارها مبدأ ماخ فى نظرية الجاذبية. لهذا السبب يبدو لى من الأفضل أن يبدأ منهجنا رباعى المراحل بمرحلة " المشكلة " ولكن على أية حال فإنه يكمن - فى هذا المنهج - ملامح جديد فى التطور العلمى الديناميكي فى مقابل التقدم قبل العلمى، ألا وهو

اشتراكنا الإيجابي في مسألة الاستبعاد من خلال اللغة والكتابة والمناقشة النقدية فالنقطة الرئيسية التي أدعو لها تكمن في أنه من خلال المناقشة النقدية ينشأ العلم.

عن هذه النقطة الرئيسية تتفرع نقطة أخرى تمثل الإجابة على السؤال التالي:

ما الذي يميز النظريات العلمية المستمدة من الخبرة عن النظريات الأخرى؟ ليست هذه المشكلة - من جانبها - مشكلة علمية ناجمة عن خبرة ولكنها مشكلة علمية نظرية تنتمي لمنطق أو فلسفة العلم. الإجابة على هذا السؤال - والتي يمكن اشتقاقها من فكرتي الأساسية - يمكن صياغتها على النحو التالي:

تتميز المشكلة العلمية الناتجة عن الخبرة عن المشكلات الأخرى في أنها تصطدم بالخبرة الممكنة، مما يعني أن هناك خبرات ممكنة وأنه من الممكن تكذيبها.

أسمى مشكلة التمييز بين النظريات العلمية الناجمة عن الخبرة والنظريات الأخرى مشكلة التحديد، والحل الذي أضعه لها هو معيار التحديد.

والاقتراح الذي أضعه إذن لحل مشكلة التحديد هو معيار التحديد الآتي:

" تنتمي نظرية ما للعلم التجريبي فقط متى كان بينها وبين الخبرة الممكنة تناقض أي متى كان من الممكن من حيث المبدأ تكذيبها".

أسمى معيار التحديد هذا معيار إمكانية للتكذيب.

يمكن توضيح معيار إمكانية التكذيب هذا بنظريات كثيرة، فنظرية - التطعيم يحمي من الإصابة بالجذري - نظرية قابلة للتكذيب، فعندما يصاب شخص ما بالجذري رغم تطعيمه فإن هذا يعني أن النظرية قد تم تكذيبها.

يمكن أن نستخدم هذا المثال لنوضح به أن لمعيار إمكانية التكذيب مشكلاته الخاصة به ، فعندما يصاب فرد واحد فقط من أكثر من مليون

سُحصر -الجدرى فعندئذ لا نقول أن النظرية قد تم تكذيبها وإنما يمكننا افتراض أن المادة التي تناولها الشخص لتطعيمه لم تكن على مايرام. فهناك دائماً من حيث المبدأ محرج ما، فعندنا نكون أمام تكذيب ما، فإنه يمكننا دائماً أن نتعلل، يمكننا أن نضيف فرضاً مساعداً نرد به على محاولة التكذيب، يمكننا إذن أن " نحصى سائر نظرياتنا من كل تكذيب ممكن " وهو تعبير الأستاذ هانز ألبرت.

ليس من السهل دائماً إذن أن نستخدم معيار إمكانية التكذيب، ومع هذا فإن لهذا المعيار قيمته الخاصة به. يمكن استخدامه إذن في نظرية التطعيم ضد الجدرى رغم أن استخدامه ليس دائماً سهلاً: فعندما تكون النسبة المنوية للأفراد الذين تم تطعيمهم ومع هذا أصيبوا بالجدرى مساوية لتلك الخاصة بالأفراد الذين لم يتم تطعيمهم وأصيبوا أيضاً بالجدرى فعندئذ يترك سائر العلماء نظرية التطعيم هذه.

يمكننا مقارنة هذه الحالة بحالة أخرى لنظرية غير قابلة للتكذيب من وجهة نظري مثل نظرية فرويد في التحليل النفسي . هذه النظرية يمكن فقط اختبارها من حيث المبدأ عندما نستطيع وصف سلوك بشرى يتعارض مع ما تقرره النظرية. هناك مثل هذه النظريات للسلوك البشرى ولكنها قابلة للتكذيب مثل النظرية القائلة بأن فرداً ما- والذي عرف بالأمانة لفترة حياته طويلة - قد أصبح في أيامه الأخيرة لصاً.

من المؤكد أن هذه النظرية قابلة للتكذيب فإننا هنا أفترض أن حالات تكذيب فعلية قد حدثت بحيث أن النظرية في صياغتها الحالية في ببساطة نظرية خاطئة.

في مقابل هذه النظرية يبدو من غير الممكن تقديم سلوك بشرى يمكنه تفيد نظرية التحليل النفسي، فعندما ينقذ شخص ما حياة شخص على حساب حياته الخاصة، أو على العكس يهدد حياة شخص قديم، أو ما يمكن أن

نتصوره من سلوك بشرى آخر، فإن هذا جميعاً لا يتناقض مع نظرية التحليل النفسى، فنظرية التحليل النفسى يمكنها أن تصف - من حيث المبدأ - كل سلوك بشرى ممكن . ليست هذه النظرية إذن قابلة للتكذيب أو للاختبار. ليس معنى هذا أن فرويد لم ير أشياء كثيرة صحيحة، إلا أن ما أزعجه أن نظريته ليست ذات طبيعة عملية تجريبية.

وفى مقابل هذه النظرية تتف الكثير من النظريات - مثل نظرية التطعيم- ولكنها فى المقام الأول نظريات فيزيائية وكيميائية وبيولوجية.

لقد أصبح لدينا افتراض قوى - منذ نظرية أنيشتاين للجاذبية - أن ميكانيكا نيوتن خاطئة، رغم أنها تمثل اقتراباً ممتازاً. وعلى كل فإن كلاً من نظرية نيوتن وأنيشتاين قابلة للتكذيب رغم أنه من الممكن دائماً بالطبع التعلل بأنها محصنة من كل تكذيب ، فرغم أنه لا وجود لسلوك بشرى مفترض يمكنه أن يعارض نظرية فرويد فى التحليل النفسى ، فإن سلوك المنضدة - فى حركتها - يقف فى تعارض مع نظرية نيوتن، فإذا بدأ كوب من الشاي يتحرك ويهتز ، فإن هذا يعد تكديماً لنظرية نيوتن ، وبصفة خاصة إذا لم ينقلب الشاي رغم هذه الحركات والاهتزازات . هنا يمكن القول أن الميكانيكا تتعارض مع عدد هائل من طرق سلوك ممكنة لأجسام فيزيائية وهو ما يختلف تماماً مع نظرية التحليل النفسى التى لا وجود لسلوك بشرى يمكنه أن يتعارض معها.

إن كل تفنيد لنقطة أو أخرى فى ميكانيكا نيوتن سيمس نظرية أنيشتاين للجاذبية وذلك لاقتراب ميكانيكا نيوتن من نظرية أنيشتاين. إلا أن ما يميز أنيشتاين أنه قد بحث عن الحالات التى متى لاحظناها فإنها كفيلة بهدم وتفنييد نظريته نفسها ولكنها لا تنقد مع هذا نظرية نيوتن.

فلقد كتب أنيشتين - على سبيل المثال - أنه لو لم يتم إيجاد الازاحة الحمراء والتي قام هو نفسه بحسابها في طيف أقمار الشعر اليمانية^(١) وفي نجوم أقزام أخرى^(٢) ، لكان قد قبل اعتبار نظريته نظرية تم تنقيدها .

ويبقى أنه من المهم أن أنيشتين نفسه وقف في مواجهة نظريته للجاذبية وقفه نقدية فعلى الرغم من أنه لم تدل أي تجربة من التجارب التي أراد بها اختبار نظريته (وجميعها قد اقترحها هو نفسه) على أنها غير صالحة للنظرية إلا أنه مع هذا نظر لنظريته على أنها غير مرضية تماماً ولكن على أسس نظرية، فلقد كان ينظر إلى نظريته على أنها - مثلها في ذلك مثل سائر نظريات العلم الطبيعي - محاولة مؤقتة للحل أي ذات طابع فرضي ، فلقد نظر إليها نظرة تفصيلية، فقدم أسباباً لرؤيته للنظرية كنظرية ذات ثغرات وغير مرضية انطلاقاً من برنامج البحث كما يجب أن يكون من وجهة نظره، كما قدم سلسلة مطالب رأى ضرورة أن تحققها أي نظرية لكي تكون نظرية مرضية.

مارأه في نظرية الجاذبية كما وضعها في شكلها الأساسي أنها تصور أقرب شكل للنظرية التي نبحث عنها من نظرية نيوتن للجاذبية ومن ثم فهي أقرب إلى الصدق.

إن فكرة الاقتراب من الصدق من وجهة نظري تمثل واحدة من الأفكار الهامة في نظرية العلم. هذه الأهمية تتصل بأهمية المناقشة النقدية للنظريات المتنافسة، وهي المناقشة التي توجهها قيم معينة، فالمناقشة النقدية يتطلب مبدأ موجهاً - بتعبير كانط- أو فكرة موجهة .

(١) أقمار الشعر اليمانية عبارة عن نجم تابع لكوكبه الكلب الأكبر ويبعد عن الأرض بمقدار ثمان سنوات ضوئية .

(٢) النجوم الأقزام عبارة عن نجوم صغيرة ذات كثافة عالية جداً بدرجة زهو ضعيفة .

من هذه الأفكار الموجهة التي تحكم المناقشة النقدية، فإن ثلاثاً منها على جانب كبير من الأهمية هي على التوالي: فكرة الصدق، ثم فكرة المحتوى الإمبريقي والمنطقي ثم فكرة محتوى صدق النظرية والاقتراب من الصدق. إذا كانت فكرة الصدق تغلب على المناقشة النقدية، فإن هذا يعني أننا نناقش النظرية مناقشة نقدية على أمل استبعاد النظريات الخاطئة، وهو ما يعني أن فكرة البحث عن النظريات الصادقة هي الفكرة التي توجهنا.

توجهنا الفكرة الثانية وهي فكرة محتوى النظرية إلى البحث عن النظريات ذات المحتوى المعلوماتي الضخم، بمعنى أن قضايا الرياضيات - قضايا تحصيل الحاصل - $12 \times 12 = 144$ قضايا فارغة من المحتوى إذ أنها لا تحل أي مشكلة علمية إمبريقية. ولا يمكن للمشكلات الصعبة أن تحلها سوى نظريات ذات محتوى إمبريقي ومنطقي ضخم.

مانسميه "جراءة النظرية" *Kühnheit einer Theorie* "هو تماماً ما يشكل ضخامة المحتوى فكلما ازداد ما نزعمه بنظرية ما كلما عظمت مخاطرة أن تكون النظرية خاطئة، فنحن - نعم نبحث عن الصدق إلا أن أننا نتجه في الحقيقة نحو الحقائق الجريئة التي تتصف بالمخاطرة.

تشكل نظريات نيوتن وأينشتاين أو نظرية الكوانتم للذرات أو نظرية الجينات المكتوبة بالشفرة التي تحل - جزئياً - مشكلة الوراثة - أمثلة - للنظريات الجريئة ذات المحتوى المنطقي الضخم. لمثل هذه النظريات الجريئة - كما يقال - محتوى ضخم، أو محتوى منطقي وإمبريقي ضخم.

يمكن شرح تصوري المحتوى هذين على النحو التالي، يمثل المحتوى المنطقي لنظرية ما كتلة النتائج *Folgerungsnasse* التي تستدل منها، أي فئة القضايا التي يمكن اشتقاقها منطقياً من نظرية ما، فكلما زادت هذه الفئة كلما كبر محتواها المنطقي.

أما فكرة المحتوى الإمبريقي لنظرية ما فأكثر أهمية من سابقتها، لكى

نفهم هذه الفكرة فإننا نطلق من القول أن أي قانون من القوانين التجريبية للطبيعة أو أي نظرية تجريبية تمنع بعض الحوادث التي يمكن ملاحظتها. (فالنظرية التي منطوقها " كل الغربان سوداء اللون تمنع وجود غرابان بيضاء بحيث أن ملاحظة غراب واحد أبيض يفتد هذه النظرية) بينما رأينا أن نظرية فرويد في التحليل النفسي لاتمنع أي حوادث ملاحظة ، فمحتواها المنطقي ضخم ولكن محتواها الإمبيريقى صفر.

يمكننا إذن أن نميز المحتوى الإمبيريقى لنظرية ما بأنه كمية Menge أو فئة Klasse القضايا التجريبية التي تمنعها النظرية، أي فئة أو كمية القضايا التجريبية التي تتناقض مع النظرية.

يمكن أن نقدم هنا توضيحاً بسيطاً: تتناقض النظرية القائلة بأنه لا يوجد أي غراب أبيض مع القضية: يوجد هنا غراب أبيض. فالنظرية تمنع وجود غرابان بيضاء اللون. فالنظرية القائلة بأن " كل الغربان سوداء اللون " ذات محتوى إمبيريقى ضخم. فهي لاتمنع فقط وجود غرابان بيضاء ولكن أيضاً غرابان زرقاء وخضراء وحمراء. ففئة القضايا المتنوعة أكبر بكثير.

يمكننا أن نسمى القضية التجريبية أو قضية الملاحظة التي تتناقض مع نظرية ما " إمكانية تكذيب النظرية موضع الحديث " أو " المكذب Falisfikator الممكن للنظرية " ومن ثم فإنه متى تمت ملاحظة إمكانية التكذيب بالفعل، عندئذ تكون النظرية كاذبة تجريبياً . القضية " يوجد غواب أبيض " إذن هي إمكانية تكذيب " أو مكذب ممكن " للنظرية فقيرة المحتوى حيث لاوجود لغرابان بيضاء وللنظرية غنية المحتوى حيث كل الغرابان سوداء اللون.

القضية: في العاشر من فبراير ١٩٧٢ وصل غراب أخضر إلى حديقة حيوان هامبورج تعد " إمكانية تكذيب " أو " مكذب ممكن " للنظرية القائلة بأن كل الغرابان سوداء اللون، بل وتعد إمكانية تكذيب أيضاً للنظرية القائلة

بأن كل الغريبان حمراء أو زرقاء اللون. فمتى اعتبرت قضية كهذه قضية صادقة على أساس ملاحظات معينة فإن سائر النظريات التي تنتمى هذه القضية لإمكانية تكذيبها تعد نظريات كاذبة فعلياً. المهم هنا هو أنه كلما زاد ما تخبر عنه النظرية كلما كان قدر مكنها الممكن كبيراً فهي تخبر بالكثير ويمكنها تفسير مشكلات أكثر مما يعنى أن إمكانية تفسيرها أو قوة تفسيرها الممكن أكبر.

ومن هذه النقطة يمكننا أيضاً أن نقارن بين نظريتي الجاذبية لكل من نيوتن وأينشتين. هنا نجد أن المحتوى (الإمبريقي) وقوة التفسير الممكنة لنظرية أينشتين أكبر من المحتوى الإمبريقي لنظرية نيوتن، إذا أنها لا تصف فقط كل أشكال الحركة التي تصفها نظرية نيوتن بصفة خاصة مدارات الكواكب ولكنها تصف أيضاً تأثير الجاذبية على الضوء، وهي المشكلة التي لم يتحدث عنها نيوتن لا في نظريته عن الجاذبية ولا في تفسيره للضوء. نظرية أينشتين إذا نظرية جريئة. إذ من الممكن من حيث المبدأ تكذيبها من خلال الملاحظات التي لم تمسها نظرية نيوتن. من هنا كان المحتوى الإمبريقي لنظرية أينشتين أكبر من المحتوى الإمبريقي لنظرية نيوتن. وأخيراً فإن قوة التفسير الممكنة لنظرية أينشتين أكبر. فإذا ما اعتبرنا على سبيل المثال التأثيرات البصرية كالإزاحة الحمراء التي تنبأ بها أينشتين لطيف أقمار الشعرية اليمانية تأثيرات تتأكد عن طريق الملاحظة، عندئذ يمكن القول أن نظرية أينشتين تفسر هذه التأثيرات البصرية.

وحتى لو لم نقم بعد بعمل الملاحظات الملائمة، فإنه ما زال من الممكن القول أن نظرية أينشتين تفوق في إمكاناتها نظرية نيوتن. أي أنها ذات محتوى إمبريقي أكبر وقوة تفسير أكبر. هذا يعنى أنها أكثر أهمية من الناحية النظرية ولكنها في نفس الوقت أكثر خطورة من نظرية نيوتن، إذ أنها تتعرض بصورة أكبر للتكذيب لأن عدد المكذبات الممكنة أكبر. لهذا فإنه

من الممكن اختبارها بصورة أشد من نظرية نيوتن والتي يمكن أيضاً اختبارها بقوة ومتى وقفت النظرية أمام هذه الاختبارات، فإنه مازال ليس من الممكن القول أنها صحيحة، إذ من الممكن تكذيبها باختبارات مستقبلية، ولكن من الممكن أن نقول ليس فقط أن محتواها الإمبريقي أكبر ولكن أيضاً محتوى صدقها أكبر من المحتوى الإمبريقي ومحتوى صدق نظرية نيوتن . هذا يعنى أن عدد القضايا الصحيحة التى يمكن اشتقاقها منها أكبر من تلك الذى يمكن اشتقاقه من نظرية نيوتن. ومن الممكن أن نقول فوق هذا أن نظرية أينشتاين - فى ضوء المناقشة النقدية التى تستخدم نتائج الاختبار التجريبي - تبدو كإقتراب من الحقيقة أفضل.

نفترض فكرة الإقتراب من الحقيقة - مثلها فى ذلك مثل فكرة الصدق كمبدأ موجه - نظرة أو رؤية واقعية للعالم . فهى لا نفترض أن الوجود الفعلى Wirklichkeit هو على النحو الذى تصفه نظرياتنا العلمية، ولكنها نفترض أن هناك وجوداً فعلياً وأتينا يمكننا أن نصل بنظرياتنا التى هى أفكارنا التى خلقناها إلى وصف نقرب به من الفعلية متى استخدمنا منهج المحاولة والخطأ رباعى المراحل. هذا المنهج لا يكفى، إذا يجب أن يكون لدينا حظ، لأن الشروط التى نجدها على أرضنا والتى تجعل الحياة وتطور اللغة البشرية أو الوعى والعلم البشرى ممكناً شروط نادرة فى الكون حتى وإن لم يكن الكون على النحو الذى يصفه العلم لأنه من وجهة نظر العلم فإن العالم خال من المادة ولا يملؤه سوى أشعة فوضوية وفى الحالات القليلة التى لا يكون فيها العالم خالياً فإن مادة فوضوية تملؤه، ساخنة حارة جداً لبناء الجزيء أو باردة جداً لتطور الكائن الحى كما نعرفه . وما إذا كان هناك فى العالم حياة أم لا، فإن الحياة منظوراً إليها نظرة كونية - ظاهرة نادرة جداً وفى تطور الحياة فإن تطور المناهج العلمية والنقدية مرة أخرى تطور نادر جداً ومن ثم فهو - بحساب الاحتمالات - شئ غير محتمل بصورة نهائية

هذا يعنى اننا حصلنا على الجائزة الكبرى عندما نشأت الحياة والعلم.
يبدو لى أن الرؤية الواقعية للعالم وفكرة الاقتراب من الصدق ضروريان
ولا يمكن الاستغناء عنهما لفهم " العلم الذى يحاول أن يصل إلى أكثر الصور
مثالية " .

كما يظهر لى أن الرؤية الواقعية للعالم هى الرؤية الإنسانية الوحيدة،
فهى وحدها تخبرنا بأن هناك بشراً غيرنا يعيشون ويعانون ويموتون مثلنا.
فالعالم نسق منتج من أفكار بشرية. لهذا الحد يصدق الاتجاه المثالى إلا أن
هذه الأفكار يمكنها أن تصطدم بالاحتمال، من هنا كان للاتجاه الواقعى الكلمة
النهائية.

قد ينشأ لدى البعض الانطباع بأننى تجاوزت بهذه الملاحظات الاتجاه
الواقعى وتجاوزت بهذه الدلالات عن الصراع الواقعى - موضوعى - إلا أن
هذا ليس صحيحاً، فالصراع الواقعى - على العكس - صراع على درجة
عالية من الأهمية فى ميكانيكا الكم، من هنا كان واحداً من أحدث مشكلات
نظرية العلم الحالية.

لا أقف فى مواجهة هذه المشكلة موقف المحايد - كما لا بد أنه اتضح - فانا
هنا أقف مع الاتجاه الواقعى، إلا أن هناك - فى ميكانيكا الكم - أيضاً مدرسة
مثالية^(١) مؤثرة . فى الواقع لا يوجد سوى ظلال مثالية، فأى تابع مشهور
لميكانيكا الكم فإنه يخرج من ميكانيكا الكم بنتائج مثالية solipsistische،
فهو يزعم أن هذه النتائج المثالية الـ solipsistische تنتج بالضرورة عن
ميكانيكا الكم .

هنا لا يمكننى سوى الإجابة بأنه متى كان الأمر كذلك، فإنه لا بد أن هناك
خطأ ما فى ميكانيكا الكم مهما كانت درجة الإعجاب بها ومهما كانت روعتها

(١) المقصود بها مدرسة هايزنبرج التى كانت ترى فى المعرفة معرفة ذاتية وذلك فى
مقابل اينشتين الذى كان يرى فى المعرفة معرفة موضوعية .

فى اقترابنا من الصدق • نقد صمئت ميكانيكا الكم أمام اختبارات عسيرة جداً وهو مامنه نستنتج اقترابها من الصدق متى كنا واقعيين.

فالصراع القائم فى نظرية العلم حول الاتجاه الواقعى والموضوعية سينتصر زعناً أطول. هنا لدينا مشكلة ضرورية وواضحة وهى المشكلة التى تجاوزتها إلى حد ما نظرية العلم - كما لابد ولاحظنا - ولقد أوضحت بصورة كافية - وهو ما أتمناه - موقفى بالنسبة لهذه المشكلة الأساسية.

المقالة الثانية

**wissenschaftliche Reduction und die
essentielle
Unvollständigkeit der Wissenschaft**

**الرد العلمى وعدم الاكتمال
الضرورى للعلم**

يمكن ضياغة الفكرة التي أبدأ منها على النحو التالي : فيما يتعلق بما يعرف بالرد فإن هناك ثلاثة أسئلة جوهرية تخص الباحث في البيولوجيا.

١- هل يمكننا رد البيولوجيا (علم الأحياء) إلى الفيزياء أو إلى الفيزياء والكيمياء؟

أو هل يمكننا أن نأمل أن نصبح ذات يوم قادرين على رد علم الأحياء تماما إلى الفيزياء أو الفيزياء والكيمياء؟

٢- هل يمكننا رد أو نأمل في رد حوادث الوعي الذاتية التي ننسبها غالبا للحيوانات إلى علم الأحياء وإذا أجبنا عن السؤال الأول بنعم فهل يمكننا أن نردها فيما بعد إلى الفيزياء والكيمياء؟

٣- هل يمكننا رد - أو الأمل في رد - القدرة الخلاقة للعقل البشرى ووعيه الذاتي بنفسه إلى الخبرة الحيوانية، ثم ردها فيم بعد إلى الفيزياء والكيمياء متى كانت الإجابة على السؤالين ١، ٢ بنعم؟

من الواضح أن الإجابة على هذه الأسئلة الثلاثة تعتمد في جزء منها على دلالة لفظ " الرد " ولكن لأسباب ذكرتها في موضع آخر^(١)، فإنني ضد مناهج تحليل الدلالة وضد محاولة حل المشكلات الجادة عن طريق التعريفات. ما اقترحه بديلا عن هذه المحاولة هو مايلي:

سأقوم بمناقشة مجموعة من الأمثلة للرد الناجح والفاشل في العلوم المختلفة وبصفة خاصة رد الكيمياء إلى الفيزياء، ثم سأنتقل إلى معالجة السؤال: ما الذي تبقى من هذا الرد؟

سوف أتبنى في خلال هذه المناقشة ثلاثة آراء ، الأول: ان العدماء بمعنى دعاة الرد هم القائلون بانه لا شيء يعد نجاحا عظيما في العلم مثل الرد الناجح، ويمكن اعتبار رد نيوتن - أو بالأحرى تفسيره^(٢) - لقوانين كبلر وجاليليو

(١) أرجع لكتابنا " المجتمع المفتوح وأعداؤه الجزء الثاني ١٩٥٩ الطبعة السابعة ١٩٩٢، الفصل الثاني الفقرة الثاني، الصفحات من ١٥ - ٢٩، توبنجن (الهامبر للمؤلف).

بنظرية فى الجانبية وتصحيحه لهذه القوانين - مثلاً للرد الناجح (انظر هذه المسألة بالتفصيل)^(٣). فالرد الناجح هو الصورة الناجحة لكل التفسيرات العلمية التى يمكن أن يتصورها الإنسان متى استطاعت أن تؤدى ما ذكره بصفة خاصة ما يرسون Meyerson^(٤) وهو هوية غير المعروف مع ما هو معروف. ففى مقابل عملية رد معينة ، فإن عملية تفسير معينة تجعل - بمساعدة نظرية جديدة - المشكلة المعروفة - من خلال شئ غير معروف واضحة: تخمين جديد^(٥).

الثانى : لابد أن العلماء من حيث تبنيهم فلسفياً للمذهب الكونى Holismus يرحبون بمذهب الرد كمنهج، فلا بد أنهم دعاة للرد الساذج أو الرد النقدى بصورة أكثر أو أقل، أو الرد النقدى المتشائم كما سابين من حيث أنه من النادر أن تجد فى العلم رداً ناجحاً بصورة كاملة إذ تترك دائماً أكثر محاولات الرد نجاحاً شيئاً لم تتمكن من حله أو رده.

الثالث: سأبنى أيضاً الرأي الذى مؤاده أنه يبدو أنه لا يمكن تقديم حجج جيدة لصالح الرد الفلسفى، فى الوقت الذى يمكنه معه تقديم حجج جيدة ضد المذهب الماهوى Essentialismus الذى يبدو الرد الفلسفى شديد الاتصال به. ومع هذا سوف اقترح بالطبع أنه لا يجب - ولكن لأسباب ميتودولوجية - أن نرفض محاولات الرد. والسبب فى ذلك أنه يمكننا نحن أنفسنا أن نتعلم الكثير من محاولات الرد غير الكاملة أو غير الناجحة هذه، وأن المشكلات التى ستبقى نتيجة لذلك - أى نتيجة لعدم اكتمال الرد - تنتمى للجوانب العقلية للعلم، أعنى بذلك تأكيداً قوياً على أنه من الممكن لما ننظر إليه غالباً على أنه فشل علمى أى يكون ذا فائدة.

II

بخلاف عملية الرد التي قام بها نيوتن فإن إحدى عمليات الرد المعروفة بالنسبة لى والتي تعد تقريبا ردا ناجحا بصورة كاملة هي عملية رد الكسور المنطقة إلى أزواج مرتبة من الأعداد الطبيعية (أي إلى علاقات قائمة بينها) . لقد كانت عملية الرد هذه إحدى الانجازات التي قام بها اليونانيون حتى ولو قلنا أنها قد تركب جانبا متبقيا لم يتم رده وهو ما لم يدرك إلا في القرن العشرين (بالرد الناجح الذي قام به كل من فينر Wiener وكوراتوفسكى Kuratowski للأزواج المرتبة إلى زوج غير مرتب من أزواج غير مرتبة^(١)). بالإضافة إلى ذلك لا يجب أن نغفل أن الأمر يتعلق بالرد إلى مجموعات من أزواج متكافئة بدلا من ردها فقط إلى الأزواج). نمت عملية الرد هذه برنامج البحث الكوزمولوجي الفيثاغوري للتحصيل الذي إنهار مع البرهان على وجود الأعداد الصماء، و الجنور التريبيعية للأعداد ٢، ٣، ٥. أحل أفلاطون برنامجا للهندسة محل برنامج البحث الكوزمولوجي للتحصيل هذا وهو البرنامج الذي ظل يعمل به بنجاح من أفلينس حتى أنيشتين ثم ظهرت الحاجة الضرورية للتحصيل أي الرد إلى الأعداد الطبيعية مرة أخرى مع اكتشاف نيوتن وليبنتر لحساب التفاضل (ولمشكلة استبعاد النتائج المتناقضة التي لا تريد استبعاد مناهجها الحسية الخاصة). لكن رغم النجاح الضخم الذي حققه القرنان التاسع عشر والعشرون فإنه يمكننا الآن - فيما اعتقد - القول أن عملية الرد هذه لم تكن ناجحة بصورة تامة.

يمكن أن نذكر هنا فقط جزءا تركته عملية الرد بدون حل: إن عملية الرد إلى سلسلة من أعداد طبيعية أو إلى مجموعة Menge بالمعنى الذي تأخذ به

(١) يشير بوير إلى العناية التي بدأها الفيثاغوريون حين تم اكتشاف الأعداد الصماء، وقاموا بوضع جداول حسابية للأعداد الصماء تحوى علاقات أونسيب بين الأعداد الصحيحة. لم يتابع الفيثاغوريون الطريق حتى النهاية فخلصوا إلى عجز الحساب عن احتواء الأعداد الصماء. تم التغلب على هذه المشكلة مع بداية القرن العشرين بتعريف الكسر بأنه لعلاقة القائمة بين زوج من الأعداد الصحيحة.

(نظرية) المجموعات الحديثة ليست هي ذات عملية الرد إلى مجموعات من أزواج مرتبة متكافئة من الأعداد الطبيعية. فعندما كانت فكرة المجموعات فكرة ساذجة وحسية (كما في عند كانتور)، لم يكن هذا واضحا للعيان. ولكن أوضحت نقائص المجموعات اللانهائية (التي ناقشها بلنراتو وكانتور ورسل) وضرورة المصادرة على نظرية للمجموعات أن عملية الرد التي نفنت هذه لم تكن عملية تحصيل بسيطة - عملية رد إلى الأعداد الطبيعية - ولكنها عملية رد إلى نظرية المجموعات المصادر عليها وهذه الأخيرة أظهرت أنها عملية بالغة التعقيد وتضربها الكثير من المخاطر^(*).

يمكن تلخيص هذا المثال على النحو التالي: أن برنامج التحصيل، أي رد الهندسة والأعداد الصماء إلى الأعداد الطبيعية قد فشل جزئيا. ولكن عدد المشكلات غير المتوقعة وفئة المعرفة غير المتوقعة التي جلبها معه هذا الفشل الجزئي عدد هائل وعظيم.

III

لقد أشرت في إيجاز إلى الفشل الذي أصاب محاولة رد الأعداد الصماء إلى الأعداد الطبيعية كما بينت أن محاولة الرد تشكل جزءا لا يتجزأ من الفهم والتبسيط والتفسير العلمي والرياضي.

ما أريده الآن هو مناقشة النجاح والإخفاق في محاولة الرد في علم الفيزياء ولكن بشئ من التفصيل وبصفة خاصة النجاح الجزئي في رد فيزياء الكون الأكبر Makrophysik إلى فيزياء الكون الأصغر Mikrophysik

* نظرية المجموعات نظرية وضعها الرياضي الألماني جورج كانتور في الفترة بين عامي ١٨٧٤-١٨٩٧ وتختص بالتأليف بين الأعداد في مجموعات وفقا لعلاقات ثابتة ومحددة. والمجموعة هي حشد من الموضوعات المحددة والتميزة والمرتبطة فيما بينها بصفة ما مشتركة تفصلها عن غيرها، وقد انطوت هذه النظرية على عدة مفارقات أشهرها ثلاث مفارقات: مفارقة الايطالي (بورالي فورتى) الخاصة بأكبر عدد ترتيبى (١٨٩٥) والثانية مفارقة كانتور ١٨٩٩ ولم يكشف عنها سوى عام ١٩٣٢ والخاصة بأكبر الأعداد الأصلية، والثالثة مفارقة رسل ١٩٠١ وتتعلق بمجموعة المجموعات.

وكذلك رد الكيمياء إلى ميكرو وماكرو فيزيك.

IV

لقد أطلقت تسمية " التفسير النهائي - في موضع آخر^(٨) - على محاولة رد أو تفسير الأشياء بحيث لا تحتاج معه إلى افتراض جوهر أو مادة يتم وفقا لها تفسير الأشياء.

أفضل مثال يمكن تقديمه لهذا هو الرد الديكارتي لفيزياء الأجسام غير الحية في كليتها إلى فكرة الجوهر الممتد، جوهر أو مادة له خاصية جوهرية واحدة ألا وهي خاصية الامتداد المكاني. لقد نجحت هذه المحاولة، محاولة رد الفيزياء كلها إلى خاصية جوهرية ظاهرية واحدة للمادة بطريقة غير عادية إذ أنها أدت إلى صورة واضحة لفهم الكون الفيزيائي. فالكون الفيزيائي الديكارتي عبارة عن بندول ساعة متحرك يتكون من تروس كما أسماها ديكارت) متصلة ببعضها كعجلات للتروس. يصطدم في هذا البندول كل جسم أو كل جزء من المادة بالجزء المجاور له الذي يصطدم بدوره بالجزء الآخر المجاور له.

لا وجود في هذا العالم الفيزيائي سوى للمادة التي تملأ المكان بأسره. بل أن المكان ذاته يرد إلى المادة من حيث أنه لا وجود لمكان فارغ ولكن هناك فقط الامتداد المكاني الجوهرى للمادة. كما أنه لا وجود سوى لشكل فيزيقي واحد للعلية Verursachung فكل علة هي الاصطدام أو التأثير عن قرب Nahwirkung.

هذه النظرة للعالم رآها نيوتن نظرة مقنعة رغم أنه قد شعر عن طريق نظريته للجاذبية بضرورة إضافة شكل جديد للعلية ألا وهي قوة الجذب أو التأثير عن بعد Fernwirkung .

لقد كان التوقع والتفسير الناجحان للذان حققتهما نظرية نيوتن هو ما

أسقط برنامج الرد الديكارتي. وكما استنتجت في موضع آخر^(١) (فلقد حاول نيوتن ذاته أن ينفذ برنامج الرد الديكارتي عن طريق تفسير قوة الجاذبية بأنها نبضات جزئيات كوزمولوجية).

كما استنتجت أن نيوتن شعر بقوة الاعتراض على هذه النظرية، فممن المسلم به أن هذه النظرية ترد قوة الجذب والتأثير عن بعد إلى التأثير عن قرب والاصطدام كما أنها تعني أن كل الأجسام المتحركة تتحرك في وسيط مقاوم يتحكم في حركة الأجسام تحكم الفرامل في الحركة ويبطل استخدام نيوتن لقانون القصور الذاتي . لقد انتهزت محاولة الرد النهائي لقوة الجذب إلى الاصطدام رغم أنها نظرية جاذبة حسية ورغم أن نيوتن رفض الفهم الساذج - من وجهة نظره - لقوة الجذب - من حيث أنها تأثير عن بعد - على أنها من الممكن أن تكون خاصية جوهرية للمادة.

V

لقد كان هذا هو مثالنا الأول والبسيط للرد العلمي الواعد والفاشل ولبيان إلى أي مدى يمكن للإنسان أن يتعلم من محاولة الرد واكتشاف فشله. اعتقد أن هذا الفشل كان هو السبب المباشر الذي جعل نيوتن يصف المكان بأنه مركز إحساس الله Das Sensorium Gottes فالمكان كان حتى مدركا لتوزيع الأجسام داخله، أي أنه كان عالما بكل شيء كما أنه كان موجودا في كل مكان، لأنه ينقل هذه المعرفة بسرعة لانهائية. إلى أي مكان مشترك في كل زمن . لهذا الحد فإن المكان الذي يتصف على الأقل بخاصتين من خصائص المعرفة الإلهية يعد جزءا من المعرفة الإلهية. لقد كانت هذه - كما اعتقد - محاولة أخرى لنيوتن أن يقدم تفسيراً ماهوياً نهائياً. يمكن اعتبار الرد الديكارتي توضيحاً للملاحظة التي ذكرتها وهي أننا لأسباب ميتولوجية فقط يجب أن نحاول القيام بعمليات الرد، إلا أنه يقدم

فى نفس الوقت تبريرا لما قلته وهو أننا لا يجب أن نكون متعائلين بشكل زائد بالنسبة للرد بل أن النجاح الكامل لمحاولاتنا للرد هو ما يظهر أننا يجب أن نكون متشائمين بصنوده.

VI

من الواضح - فيما أعتقد - أن محاولة ديكارت لسائر ما فى العالم الفيزيقي إلى الامتداد والاصطدام قد باءت بالفشل (أن صبحت قراءتى للتاريخ فإن هذه المحاولة يمكن أن تتسبب أيضا لنيوتن) وذلك عندما قوبلت بالنجاح الذى حققته نظرية الجاذبية لنيوتن . لقد كان هذا النجاح باهرا لدرجة أن اتباع نيوتن - بدءا من روجر كوتس Roger Cotes - اعتبروا نظرية نيوتن تفسيرا نهائيا ومن ثم نظروا إلى قوة الجذب على أنها خاصية جوهرية للمادة رغم أنها عكس نظرة نيوتن تماما. فلم يجد نيوتن مبررا لماذا لايعمل الامتداد (امتداد ذراته) والقصور الذاتى الخاصيتين الجوهريتين للكتلة تفصيل ذلك^(١٠) هنا يمكننا القول أن نيوتن كان مدركا للفرق بين الكتلة الخاملة والكتلة الثقيلة وهو التمييز الذى خصه أينشتين فيما بعد بالبحث - ومدركا للمشكلة التى أثارها نسبة الكتل (أو تساويها) وهى المشكلة التى أختفت بسبب غموض الاتجاه الماهوى وذلك فى الفترة بين نيوتن و أينشتين .

لقد قضت نظرية أينشتين فى النسبية الخاصة على الهوية الماهوية بين الكتلة الخاملة والكتلة الثقيلة.. ولقد كان هذا هو السبب الذى جعل أينشتين يحاول تفسيرها عن طريق مبدأ التكافؤ Aquivälenzprinzip^(١١). ولكن عندما اكتشف Cornelius Lanczos أن معادلات الجاذبية لأينشتين تؤدي إلى المبدأ - الذى كان يعد من قبل مبدأ منفصلا - القائل بأن الأجسام

(*) مبدأ التكافؤ مبدأ أساسى فى فيزياء يقرر هذا المبدأ - وفقا لأينشتين - أن تأثير الجاذبية فى السقوط الحر تأثير ملغى تماما فى كل التجارب الممكنة وإن النسبية العامة ترد إلى النسبية الخاصة.

الجاذبة تتحرك في خط مساحى زمانى مكاني، أمكن رد مبدأ القصور الذاتى إلى معادلات الجاذبية ومن ثم رد الكتلة الخاملة إلى الكتلة الثقيلة. (اعتقد أنه رغم أن أنيشتين قد تأثر بشدة بأهمية هذه النتيجة فإنه لم يقبل بصورة كاملة أنها بذلك قد حلت مشكلة ماخ الرئيسية - وهي تفسير القصور الذاتى - بصورة مرضية أفضل من مبدأ ماخ المشهور ولكن غير الواضح وهو المبدأ الذى منطوقه أن القصور الذاتى لكل جسم فردى ينشأ عن التأثير المشترك لسائر الأجسام الأخرى فى الكون . ولقد خاب أمل أنيشتين عندما لم يتفق هذا المبدأ - على الأقل وفقاً لتفسيراته هو - مع النظرية العامة للنسبية التى تتحول إلى النظرية النسبية الخاصة بالنسبة لمكان بدون أجسام وهي النظرية الذى يصدق فيها قانون القصور الذاتى وذلك على عكس ما تصوره ماخ.

هنا فإن لدينا فى رأيي مثالا مرضياً تماماً لعملية رد ناجحة ألا وهي رد مبدأ القصور الذاتى الذى تم تعميمه إلى مبدأ الجاذبية ولكنها نادراً ما يتم التفكير فيها على هذا النحو، ولاحتى من قبل أنيشتين رغم أنه أحس بدلالة النتيجة التى إذا نظرنا إليها من وجهة رياضية خالصة فإنها تعد نتيجة رشيقة دون أن تكون بالضرورة نتيجة مهمة . فاعتماد أو استقلال مصادرة داخل نسق من المصادرات بصفة عامة ذو أهمية صورية فقط. لماذا إذن يجب أن يكون ذا دلالة ما إذا كان قانون الحركة فى خط مساحى يتم قبوله كمصادرة منفصلة أو أنه مستنتج من نظرية الجاذبية؟ الإجابة أنه من خلال الاستنتاج أمكن تفسير هوية الكتل الحاملة والكتل الثقيلة وأمكن رد الأولى إلى الثانية.

بهذا المعنى يمكن القول أن مشكلة نيوتن الكبيرة - مشكلة التأثير عن بعد - (معبر عنها باللغة الخاصة للماهوية) لم تحل من خلال نظرية أنيشتين فى السرعة المتناهية للتأثير المتبادل للجاذبية ولكن بالأحرى من خلال رد المادة الخاملة إلى المادة الثقيلة..

VII

لأشك أن نيوتن وأتباعه قد عرفوا القوى الكهربائية والمغناطيسية ولقد كانت هناك محاولات كثيرة - على الأقل حتى بداية القرن العشرين - لرد النظرية الكهرومغناطيسية إلى ميكانيكا نيوتن أو إلى شكل معدل منها. لقد كانت المشكلة الجوهرية هنا هي محاولة رد القوى غير المركزية إلى قوى مركزية وهي القوى الوحيدة التي بدا أنها يمكن أن تدخل في نظرية نيوتونية معدلة. وتمع في هذا الشأن اسما أمبير Ampere^(*) وفيبر Weber.

كما بدأ ماكسويل Maxwell^(**) بصفة خاصة بمحاولة رد ميدان القوى الكهرومغناطيسية لفراداي Faraday^(***) إلى ميكانيكا نيوتن أو إلى شكل من الأثير الضوئي Lichtäther وهي المحاولة التي تركها فيما بعد. كما شعر هلمهولتز Helmholtz بأنه منجذب نحو برنامج الرد النيوتوني والديكارتي وعندما اقترح على تلميذه هاينريتش هيرتز Heinrich Hertz أن يتناول هذه المشكلة فقد بدأ لنا على هذا النحو أنه كان يامل في انقاذ برنامج البحث في الميكانيكا. ولقد قبل هلمهولتز تأكيد هيرتز على معادلات ماكسويل كبرهان مضاد. أما وفقا لهيرتز وتومسون Thomson فلقد نال البحث المضاد جاذبية ألا وهو برنامج رد الميكانيكا إلى النظرية الكهرومغناطيسية.

(*) أندريه أمبير واضع أساس النظرية الكهرومغناطيسية ١٨٢٥، ومن ثم عرض العلاقة الكمية بين الميدان المغناطيسي والميدان الكهربى المتغير الذى ينتجه بالقانون الذى حمل اسمه وهو قانون أمبير.

(**) هو جيمس ماكسويل الذى وضع صياغة رياضية لقانون أمبير وضم إليه الميسادين المغناطيسية التى تنشأ دون تيار كهربى.

(***) عالم فيزياء وكيمياء انجليزى (١٧٩١ - ١٨٧٦) أسهمت تجاربه الكثيرة فى فهم المغناطيسية الكهربائية إذ كان مقتنعا بوجود علاقة وثيقة بين الكهرباء والمغناطيسية اكتشف إمكانية إحداث تيار كهربائى بتغير الكثافة المغناطيسية

VIII

لقد كانت النظرية الكهرومغناطيسية للمادة - أي رد الميكانيكا والكيمياء إلى النظرية الكهرومغناطيسية للذرة - نظرية ناجحة بشكل هائل في الفترة من ١٩١٢ وهي السنة التي وضع فيها رانر فورد نموذج للذرة - حتى عام ١٩٣٢ .

وفي الحقيقة فإن ميكانيكا^(*) الكم (أو نظرية الكم الجديدة كما كانت تسمى سابقا) كانت تعد حتى عام ١٩٣٥ اسما آخر لما كان يعتبر الشكل النهائي لرد الميكانيكا إلى النظرية الكهرومغناطيسية الجديدة للمادة.

لكي نعرض الأهمية التي كان علماء الفيزياء يعلقونها على هذا الرد قبل ظهور ميكانيكا الكم يمكن أن نرجع إلى ما قاله اينشتين^(١) "وفقا لفهمنا الحالي ليست الجزيئات الأولية الدقيقة (الإلكترونات والبروتونات) سوى تكثيفات للميدان الكهرومغناطيسي مما يعنى أن لدينا حاليا واقعتين - الميدان الكهرومغناطيسي وأثير الجاذبية Gravitationsäther - أو ما يمكن أن نسميهما المادة والمكان (الفراغ) " .

فلنلاحظ هنا " ليست سوى " التي نكرها اينشتين والتي أبرزتها بوضع خط تحتها ، إذ أنها صفة مميزة للرد ، بل لقد حاول اينشتين نفسه قرب نهاية حياته أن يوحد ميداني الجاذبية والميادين الكهرومغناطيسية في نظرية واحدة لميدان واحد ، وذلك بعد أن غير مفهومه الذي كان عليه عام ١٩٢٠ (وبصفة خاصة بعد اكتشاف القوى النووية) .

لقد كان مفهوم الرد في جوهره في ذلك الوقت (١٩٣٢) مقبولا من سائر علماء الفيزياء تقريبا . من إينجتون Eddington وديراك Dirac في إنجلترا ، ومن بور Bohr ودي بروجلي de Broglie وشروودنجر Schrodinger وهايزنبرج Heisenberg وبورن Born وباولي Pauli

(*) هو فرع الفيزياء التي تدرس العلاقة القائمة بين المادة والإشعاع.

بالإضافة إلى 'ينشتين' وذلك عبر القارة الأوربية . ولقد قدم لنا روبرت ميليكان Robert A. Millikan الذى كان يعمل بمعهد التكنولوجيا بكاليفورنيا - تصويراً رائعاً لهذا الفهم على النحو التالى :

" فى الحقيقة لم يتم الوصول إلى تبسيط رائع فى تاريخ العلوم الطبيعية مثلما حدث فى سلسلة الإكتشافات التى وصلت إلى قممتها عام ١٩١٤ وأدت إلى الإتفاق العام حول النظرية التى تذهب إلى أن العالم المادى يتكون من كيانين أساسيين هما الإلكترونات الموجبة والسالبة بشحناتهما المتساوية تماماً ولكن المختلفة تماماً فى الكتلة حيث الإلكترون الموجب الذى يسمى الآن البروتون أكثر ثقلاً من الإلكترون السالب (الذى يسمى الآن الإلكترون) بمقدار ١٨٥٠ مرة " .

لقد كتبت هذه الفقرة التى تعبر عن الرد فى وقتها الصحيح ، إذ نشر شادويك^(١٣) Chadwick فى نفس العام اكتشافه للنيوترون ، كما إكتشف أندرسون^(١٤) Anderson البوزترون Positron . كما رأى بعض علماء الفيزياء البارزين أمثال انجتون^(١٥) - بالنسبة لنظرية يوكاواس Yukawas فى وجود الميزون Meson أنه بإكتشاف ميكانيكا الكم تدخل النظرية الكهرومغناطيسية للمادة مرحلتها الأخيرة ومن ثم تتألف المادة من الإلكترونات والبروتونات .

IX

إن رد الميكانيكا والكيمياء إلى النظرية الكهرومغناطيسية يبدو تقريباً تاماً . فلقد تم رد - ما كان يبدو لديكارت ونيوتن على أنه جوهر المادة الذى يملؤه المكان والإصطدام الديكارتي - إلى قوى طاردة وهى القوى التى تمارسها الكترونات سالبة على الكترونات سالبة .

كما تم تفسير محايدة المادة عن طريق تساوى عدد البروتونات الموجبة

مع الإلكترونات السالبة وتفسير تأثير Ionisierung المدة (عن طريق فقدان أو إضافة إلكترونات . . الغلاف الخارجى للنواة) .

ولقد تم رد الكيمياء إلى الفيزياء من خلال تكميت بور للجنود النورى للعناصر وهى النظرية التى اكتملت بتطبيق باولى لمبدأ الإستبعاد بطريقة تابعة وكذلك عن طريق رد كل من هيتلر Heitler ولندن London لنظرية التركيب الكيميائى وطبيعة الرابطة الكيميائية المشتركة لنظرية التكافؤ الأحادى التى استفادت من مبدأ باولى .

ورغم أنه أصبح واضحا أن المادة عبارة عن تركيب معقد أكثر منها جوهر غير قابل للرد ، فإنه لم يوجد أبدا من قبل مثل هذه الوحدة فى الكون الفيزيائى أو مثل هذا الإستثناء فى الرد .

كما أنه لم يتحقق أبدا مرة أخرى من وقتها ولكننا مازلنا نعتقد بالطبع فى رد الإصطدام الديكارتى إلى قوى كهرومغناطيسية .

كما لازالت نظرية بور فى الجدول الدورى للعناصر قائمة رغم التغيرات الناتجة عن دخول عنصر النظائر . ولكن كل ماتبقى فى هذا الرد الجميل للكون إلى كون كهرو - مغناطيسى بجزيئيين من حيث أنهما الأساسان الثابتان قد تم حله . . . ولكننا قد تعلمنا مع عملية الحل هذه وقائع جديدة كثيرة وهو مايشكل إحدى أفكارى الأساسيه . ولكن هنا تكمن بساطة الرد .

لقد تطورت هذه العملية - والتى بدأت مع إكتشاف النيوترونات والبوزيترونات - مع إكتشاف جزيئيات أولية جديدة . ولكن نظرية الجزيئيات هذه لم تكن أبدا الصعوبة الرئيسية : فالإنهيار الحقيقى نتج من خلال إكتشاف أشكال جديدة للقوى ، وبصفة خاصة القوى النووية ذات المدى شديد القصر والتى لايمكن ردها إلى قوى جانبية وكهرومغناطيسية ، فالقوى الجانبية فى تلك الأيام لم تكن تقلق علماء الفيزياء بشكل كبير ، حيث أنه كان قد تم للتو تفسيرها وفهمها عن طريق النظرية العامة للنسبية .

وظل الأمل قائما في ر- لقوى الجاذبية والكهرومغناطيسية معا في نظرية واحدة للمجال . إلا أننا لدينا الآن في الفيزياء على الأقل أربعة أشكال مختلفة من القوى ، هي الجاذبية ، والتفاعل المتبادل الضعيف والقوى الكهرومغناطيسية وأخيرا القوى النووية .

X

لقد تم إنز رد الميكانيكا الديكارتية - وبجاح - إلى الكهرومغناطيسية وهي الميكانيكا التي اعتبرها كل من ديكارت ونيوتن أساسا يجب رد كل ما عداه . ماذا الآن عن رد الكيمياء إلى فيزياء الكم وهو الرد الهائل والمعترف به ؟

لنفترض أن لدينا ردا مقنعا تماما للترابط الكيميائي إلى نظرية الكم . . رغم الملاحظة التي ذكرها باولنجر^(١٧) Paulings مؤلف كتاب - طبيعة الترابط الكيميائي - أنه لا يمكنه أن يعرف أو يصف بدقة أين تكمن طبيعة الترابط الكيميائي ، ولنفترض بعدها أنه قد أصبح لدينا نظرية مرضية بشكل عام عن القوى النووية وعن الجدول الدوري للعناصر ونظائرها وبصفة خاصة عن ثبات وعدم ثبات النوى الثقيلة . هل يمكن عندئذ القول أنه قد تم رد الكيمياء إلى ميكانيكا الكم ؟

لا أعتقد ذلك . إذ يجب أن تضاف إلى ذلك فكرة جديدة تماما فكرة لاعلاقة مباشرة لها بالنظرية الفيزيائية ، ألا وهي فكرة التطور ، أو فكرة تاريخ الكون الخاص بنا ، أو الكوزمولوجيا .

يمكن شرح ذلك بالقول أن الجدول الدوري للعناصر ونظرية بور في الجدول الدوري تفسر النوى الثقيلة على أنها تركيبات من النوى الأخف - تنتهي عند نوى الهيدروجين (البروتونات) والنيوترونات . (التي يمكن اعتبارها بدورها تركيبات من البروتونات والإلكترونات) . نفترض هذه

النظرية أن للعناصر الأكثر ثقلًا تاريخًا — فخصائص نواها (جمع نواه)
نتيجة عملية نادرة تتدمج فيها نوى هيدروجينية أخرى مع نوى أكثر ثقلًا
وذلك تحت شروط نادرة ما تحدث في الكون .

لدينا أدلة كثيرة متعددة على أن هذا قد حدث بالفعل وما زال يحدث ، وأن
للعناصر الأكثر ثقلًا تاريخًا تطوريًا ، أن عملية الانشطار تتحول من خلال
الهيدروجين الأكثر ثقلًا في الهليوم وأنها المصدر الرئيسي للطاقة الشمسية
مثلما أنها المصدر الرئيسي للقنابل الهيدروجينية . فالهليوم وسائر العناصر
الثقيلة نتيجة للتطور التكنولوجي ، تاريخها — وبصفة خاصة تاريخ العناصر
الثقيلة — تاريخ (غريب) وفقًا لفهمنا الكوزمولوجي الحالي . فنحن نعتبر
العناصر الثقيلة — الآن — نتيجة لإنتفجارات السوبر نوفيـا Supernova^(*)
فإذا كان الهليوم يشكل — وفقًا لبعض التقديرات — ٢٥% من المادة (تم
حسابه وفقًا للكتلة) وكان الهيدروجين يشكل ثلثي أو ثلث أرباع المادة (وفقًا
للكتلة) فإنه يبدو أن العناصر الثقيلة نادرة جدًا ما تظهر (تشكل تقريبًا ١ أو
٢ في المائة من مجموع الكتلة) ومن ثم فإنه من المحتمل أن الأرض بل
وسائر كواكب مجموعتنا الشمسية تكونت بصورة رئيسية من مواد ملتهبة
نادرة جدًا (بل — وأريد أن أضيف — وغالية جدًا) .

تزعـم — في الوقت الحالي — أكثر النظريات انتشارًا عن أصل الكون^(١٨)
— وهي النظرية المعروفة بالإنفجار العظيم — أن الجزء الأكبر من عنصر
الهليوم كان نتاج هذا الانفجار العظيم . وأنه نتج في الدقائق الأولى لوجود
الكون المتمدد . ليس المركز العلمي الدقيق لهذه الفكرة (والتي تعود في

(*) السوبر نوفيـا ظاهرة تعرف بهذا الاسم أو بإسم الشمس الضخمة غير المستقرة والتي
تعد انفجاراتها المروعة أعنف ما تشهده الأكوان من أحداث على الإطلاق . تتسبب
الابحاث الفلكية الحديثة كل ما يحتويه الكون من كواكب ومجرات وشتى صور الحياة إلى
هذه الانفجارات .

أساسها إلى جاموف Gamow (**). في حاجة للتأكيد عليها . فما دمننا نحاول رد الكيمياء إلى ميكانيكا الكم ، فإنه لا يمكننا أن نزع أن هذا الرد ينجح تماما — دون بقية يتركها بلا حل .

لقد أمكن في الحقيقة رد الكيمياء إلى الكوزمولوجيا أكثر منه ردها إلى نظرية فيزيقية . فلقد بدأت الكوزمولوجيا النسبية الكلاسيكية الحديثة كنظرية فيزيقية ولكن يبدو أن هذا الزمان — كما أكد بوندى Bondi — قد إنقضى ، وإننا يجب أن نرى الحقيقة القائلة أن الإنسان يمكنه أن يصف بعض أفكارنا (مثل الأفكار التي بدأها ديراك Dirac وجوردان Jordan) على أنها محاولات لرد النظرية الفيزيائية إلى الكوزمولوجيا . ورغم أن كلا من الكوزمولوجيا والكوزمولوجيا جزءان من الفيزياء وأنهما من الممكن اختبارهما بشكل أفضل فإنهما يقعان على أطراف العلم الفيزيقي ولم ينضجان بشكل كاف لكي يخدمان في رد الكيمياء إلى الفيزياء كأساس للكيمياء . لقد كان هذا أحد الأسباب التي جعلتني أعتبر رد الكيمياء إلى الفيزياء ردا غير كامل بل وردا مشكلا ، إلا أنني بالطبع أرحب بسائر هذه المشكلات الجديدة .

XI

يترك رد الكيمياء إلى الفيزياء أيضا وراءه شيئا ثانيا : فوقنا لفهمنا الحالي يعتبر الهيدروجين — وبصفة خاصة نواة الهيدروجين — أساس النوى الأخرى . نحن نفترض أن النوى الموجبة تتنافر كهربائيا وبقوة على مسافات قريبة جدا بينها بينما تتجاذب على مسافات أكثر قربا بسبب القوى النووية وهي المسافات التي يمكن فقط الوصول إليها عندما يتم تخطي قوى (التنافر) بسرعات عالية جدا .

(**) هو العالم الروسي جورج جاموف صاحب نظرية الانفجار العظيم ، ومما هو جدير بالذكر أنه قد حصل فيما بعد على الجنسية الأمريكية وله كتاب مشهور ترجم إلى العربية بعنوان " بداية بلا نهاية " ترجمة محمد زاهر . سلسلة الألف كتاب الثانية .

هذا يعنى أننا ننسب لقوى الهيدروجين خصائصه وخصائص غير فعالة تحت شروط قوية جدا وهى الشروط التى لا تظهر سوى الهيدروجين إلا معها . هذا يعنى أن القوى النووية عبارة عن ممكنات لا تكون فعالة أو مؤثرة إلا تحت ظروف نادرة جدا وهى الحرارة العالية والضغط العالى .

هذا يعنى أن نظرية تطور النسق الدورى تقترب من كونها نظرية فى الخصائص الجوهرية ، تتميز بما يمكن أن نسميه الانسجام الأزلـى^(*) . وعلى كل حال فإن المجموعة الشمسية — وفقا للنظريات الحالية — تعتمد على الوجود المسبق لهذه الخصائص أو — بالأحرى — لهذه الممكنات .

وفوق هذا فإن نظرية أصل العناصر الثقيلة الكامنة فى انفجارات السوبر نوفا تؤدى إلى شكل ثانى من الانسجام الأزلـى . فهى تؤدى إلى الاعتقاد بأن قوى الجاذبية (التى تبدو أنها أضعف القوى ولا علاقة لها حتى الآن بالقوى الكهرومغناطيسية والنوية) يمكن أن تصبح فى تجمع كبير للهيدروجين قوية جدا بحيث تتغلب على قوى الاصطدام بين النوى وإندماجهم بفضل القوى النووية . فى هذه الحالة يكمن الانسجام بين الممكنات الكامنة للقوى النووية والجاذبية . لا أريد من هذا أن أزعـم أن كل فلسفة للانسجام الأزلـى فلسفة خاطئة بالضرورة ، ولكنى أزعـم أن الانسجام الأزلـى مستحيل فقط إذا نظرنا إليه كرد يمكن قبوله . أريد أن أقول أن الإعتماد على هذا هو اقرار أن المنهج الذى يجب به رد شئ إلى آخر قد فشل .

يمكن وصف رد الكيمياء إلى الفيزياء بأى شئ سوى بأنه رد كامل حتى لو وضعنا فروضا تصلح لعملية الرد بطريقة غير واقعية .

(*) وهى نظرية ليبنتز التى ترى أن "الله" قد خلق كل جوهر بحيث أن كل ما يحدث لهذا الجوهر ناشئ عن طبيعته الخاصة دون أننى تأثير من أى شئ خارجه . بل وبانسجام كامل بكل ما يحدث لأى جوهر آخر .

يفترض هذا الرد نظرية في التطور الكورمولوجي ، كورمولوجيا بشكل
لانسجام الأزلي وذلك لكي تجعل من الممكن للمكونات الكامنة النسبية ذات
الاحتمال الصغير ، الموجودة في ذرة الهيدروجين أن تنشط .
يجب أن نعترف أن لدينا علاقة بالتصورات مثل الانبعاث
Emergenz والخصائص الانبعاثية . ومتى فعلنا ذلك تبين لنا أن هذا الرد
الشيق قد ترك وراءه صورة صادقة للكون، وهي نتيجة يتعجب لها دعاة
الرد ، ولقد كانت هذه هي النقطة التي كان حديثي يدور حولها في هذه الفقرة .

XII

لكي نلخص ما قلناه حتى الآن : فلقد حاولت من خلال بعض الأمثلة أن
أوضح مسألة الرد وأن أبين أيضا أن بعض عمليات الرد الهامة في تاريخ
العلوم أبعد ما تكون عن النجاح التام ولكنها قد تترك وراءها شيئا متبقيا . نعم
يمكننا أن نزع أن نظرية نيوتن كانت عملية رد كاملة وناجحة لنظريات
كبلر وجاليليو ، ولكننا متى افترضنا أننا نفهم عن الفيزياء أكثر مما هو الحال
وأن لدينا نظرية واحدة (للمجال) تقدم — بشكل تقريبي عال جدا — النسبية
العامة ونظرية الكم وأشكال القوى الأربعة كحالات خاصة (*) (يمكن أن نجد
هذا الفرض ضمنا في نظرية ماندل ساكس Mendel Sachs للمجال
الموحد) ، عندئذ يمكننا القول أن الكيمياء لا يمكن ردها إلى الفيزياء
بالكامل . ومن ثم فإن الفيزياء ، التي تنتج عما يسمى برد الكيمياء إليها —
هي فيزياء تفترض التطور والكوزمولوجيا والكوزموجونيا مثلما تفترض
أيضا وجود الخصائص الانبعاثية Emergenten Eigenschaften .

(*) يشير المؤلف هنا إلى المحاولات العديدة التي عرفت الفيزياء لوصف كل القوى
المعروفة والعلاقات بين الجزيئات الأولية بتصور واحد . ففي القرن التاسع عشر مثلا
أدى اكتشاف ماكسويل للمغناطيسية الكهربائية إلى توحيد قوى الإستاتيكا الكهربائية
والمغناطيسية في موضوع واحد هو مجال تيسور الكهرومغناطيسي ، ناهيك عن
محاولات أينشتاين لوضع نظرية للمجال الموحد تجمع الجاذبية والمغناطيسية في مجال
واحد .

إلا أننا - من ناحية أخرى - ومن خلال محاولات الرد هذه غير الناجحة تماما وبصفة خاصة محاولة رد الكيمياء إلى الفيزياء قد تعلمنا الكثير . أدت الكثير من المشكلات إلى نظريات افتراضية جديدة وأدى بعضها ليس فقط إلى تجارب عملية مؤكدة ولكن إلى تكنولوجيا حديثة . من هنا كانت محاولات الرد التي نقوم بها ناجحة - من وجهة النظر الميثودولوجية وحتى ولو أمكننا القول أن مثل هذه المحاولات للرد عادة ماتقشل .

XIII

نادرا ما ندهش هذه القصة التي سررتها والنظرية التي استنتجتها منها علماء البيولوجيا . فلقد نجح اتجاه الرد Reduktionismus في البيولوجيا بصورة غير عادية (في صورة الإتجاه المادى أو الفيزيقي) وأن لم يكن نجاحا تاما . ولكنه أيضا في حالة عدم نجاحه فإنه يؤدي إلى مشكلات ومن ثم حلول جديدة . يمكننى أن أصيغ وجهة نظرى على النحو التالى :

يفشل الإتجاه الردى كفسفة ، ولكن من وجهة النظر الميثودولوجية تؤدي محاولات الرد إلى نجاحات فنجاحات مدهشة .

كما كان فشل عمليات الرد مرعبا للعلم بشكل غير عادى . ربما يكون مفهوما الآن أن بعض هؤلاء الذين حققوا النجاح العلمى لم يقتنعوا بسهولة بفشل الإتجاه الردى كفسفة . ربما يجعلهم التحليل الذى قمت به لنجاح وفشل محاولة رد الكيمياء بالكامل إلى فيزياء الكم يفكرون مرة أخرى ويتناولون هذه المشكلة من جديد .

XIV

يمكن اعتبار النقطة الجوهرية التي ذكرتها حتى الآن تمهيدا لملاحظة بسيطة نكرها جاكسن مونود Jacques Monod في مقدمة كتابه " الصدفة والضرورة" ^(*) حين قال " لا يمكن التنبؤ أو تفسير كل مايقوله علم الكيمياء وفقا لنظرية الكم (أو رد الكيمياء إلى نظرية الكم) رغم أنها تشكل بلا شك أساس الكيمياء بأسرها " .

يقدم " مونود " في نفس هذا الكتاب فرضا (وليس زعما) عن أصل الحياة ، فرضا مذهلا حقا ، يمكن لنا في ضوء وجهة النظر التي وصلنا إليها هنا أن نفكر فيه . منطق الفرض أن الحياة قد نشأت من مادة غير حية عن طريق مجموعة حالات تجمعت بصدفة غير محتمل حدوثها .

هذه النتيجة ليست درجة احتمالها ضعيفة وحسب ولكن درجة احتمالها صفر ، فهي نتيجة فردية .

يمكن اختبار هذا الفرض تجريبيا (كما ذهب إلى ذلك " مونود " في حوار قصير مع اكسلز) . فإذا كانت الحياة تنتج عن شروط معينة محددة ، لكان من الممكن تنفيذ هذا الفرض الخاص بتفرد أصل الحياة ، وعندئذ كان من الممكن لهذا الفرض أن يكون فرضا علميا قابلا للاختبار حتى وإن لم يبد على هذا النحو .

كيف يمكن إذن أن يكون افتراض " مونود " مقنعا بصفة عامة ؟ يكمن ذلك — وفقا لمونود — في واقعة تفرد الكود الجيني genetischen Codes والتي يمكن أيضا أن تكون نتيجة الانتخاب الطبيعي . فما جعل من أصل الحياة والكود الجيني لغزا محيرا هو افتقار الكود الجيني لأي وظيفة

(*) جاكس مونود هو عالم الكيمياء الحيوية الفرنسي الجنسية الشهير . (١٩١٠-١٩٧٦) حصل على جائزة نوبل مناصفة مع فرنو يعقوب Francois Jacob لمجهوداته في توضيح الطريقة التي تنظم بها الجينات . وذلك بتوجيه التركيب الحيوى للإنزيمات . يذهب في كتابه " الصدفة والضرورة " إلى أن أصل الحياة وعملية التطور نتجا عن الصدفة .

بيولوجية للمدى الذى لا يمكن معه نقله ، بمعنى أنه لا يمكن أن يسودى شى
تركيب البروتين الذى يتحدد تركيبه أو بنائه من خلال الكود . ونكر - كم
فصل فى ذلك مونود - تتكون الآلة Maschinerie - والتى من خلالها
تتقل الخلايا (على الأقل الخلايا غير الأولية ، الخلايا الفردية التى نعرفها)
الكود - من خمسين جزء من الجزيئات الكبرى Makromolekularen
على الأقل والموجود فى مادة DNA^(١٢) والتى تفترض وجودها الخالص .
عندئذ فقط يمكن نقل الكود عندما تستخدم نواتج نقله .

يبدو إذن أننا ندور فى دائرة محيرة نتطبق على كل محاولة لإنتاج أو
تطوير نظرية عن نشأة الكود الجينى .

يمكن أن نواجهها الآن إمكانية أن يكون أصل الحياة (وأصل الكون)
عائقا واضحا أمام العلم وأن يكون هذا العائق هو ما تبقى فى سائر محاولات
رد علم الأحياء الى الكيمياء والفيزياء ، ومن ثم فحتى لو كان فرض "مونود"
الخاص بتفرد أصل الحياة قابلا للتنفيذ من خلال محاولات الرد ، لأدى -
متى كان فرضا صحيحا - إلى إنكار الرد الناجح . أدى هذا الفرض بمونود
- الذى يعد أحد القائلين بالرد لأسباب ميثودولوجية - إلى الموقف الذى
فرضته علينا مناقشتنا لرد الكيمياء إلى الفيزياء ألا وهو موقف الرد النقدي
الذى يستمر مع محاولات الرد حتى ولو لم يكن هناك أمل فى النجاح . فى
محاولات الرد المستمر هذه وليس فى محاولة الرد الحال (من خلال المناهج
الكلية التى يحل شيئا محل آخر) يكمن أملنا فى زيادة معرفتنا بالمشكلات
القديمة ومن ثم فى اكتشافنا لمشكلات جديدة التى يمكن من جانبها أن تساعدنا
فى إيجاد حلول واكتشافات جديدة - وذلك كما أكد مونود فى موضع آخر
بنفس الكتاب .

لا أريد هنا أن أناقش الاتجاه الكلى Holismus بالتفصيل ولكن يكفينى
أن أنكر عنه بعض كلمات . يمكن لنا أن نزع بوضوح من تطبيقنا للمناهج

التجريبية الكلية (غل الحلية فى الأجنة) أنها بمعنى ميثولوجى حتى مـهـج ردية حتى ولو كانت التصورات الكلية هى مصدر هذه المناهج .
من ناحية اخرى نحن فى حاجة لنظريات كلية لوصف الدرجات والجزيئات فى الوقت الذى تصمت فيه تماماً لزاء وصف الكائنات العضوية والجينات^(٢٢) .

المهم هنا فى ضوء فكرتى الأساسية هو فقط خاصية المناهج التجريبية فى علم الأحياء أى ما إذا كانت جميعاً — بصورة أكثر أو أقل — ذات طبيعة ردية . ولقد ذكرنى دافيد ميللر David Miller بأن هناك موقفاً مشابهاً فيما يختص بالنظريات الحتمية واللاحتمية . فعلى الرغم أنى اعتقد اننا يجب أن نعتق اللاحتمية الميتافيزيقية ، فإننا يجب — من الناحية الميثودولوجية — أن نبحث عن القوانين العلية أو الحتمية إلا متى كانت المشكلات المطلوب حلها هى ذاتها ذات طبيعة احتمالية .

XV

أريد أن أشير هنا أنه حتى لو أمكن تنفيذ فرض مونود الخاص بتفرد أصل الحياة والذي يمكن معه تفسير الحياة على أنها نشأت عن مادة غير حية تحت شروط تجريبية محددة — فإنه لم يؤد إلى رد ناجح . لا أريد أن استنتج بصورة قبلية امكانية الرد ، ولكننا قد أنتجنا منذ زمن طويل حياة من حياة دون أن نفهم ماذا فعلنا بالطبع وقبل أن يكون لدينا أدنى فكرة عن البيولوجيا الجزيئية أو الكود الجينى . فمن الممكن بالطبع أن ننتج حياة من مادة غير حية دون أن يكون من الضرورى أن يكون لدينا معرفة فيزيوكيميائية كاملة مثلما أمكننا على سبيل المثال النجاة من الوقوع فى الدور فى عملية نقل الكود .

على كل حال يمكننا القول أن البيولوجيا الجزيئية جعلت من مشكلة أصل

الحياة لغزا أكبر مما كانت عليه : لقد خلقنا لأنفسنا مشكلات جديدة وأكثر عمقا .

XVI

لقد اقتضت محاولة رد الكيمياء إلى الفيزياء — كما حاولت أن أبيض — دخول نظرية التطور في الفيزياء ، مما يعنى الإستناد إلى تاريخ الكون الخاص بنا . يبدو أن نظرية التطور لا غنى عنها هنا أيضا فى علم الأحياء . أضف إلى ذلك فكرة الغرض Zweck أو الغائية . بلا شك فإن أفضل إنجازات دارون هو محاولته بيان أنه من الممكن تفسير الغائية بتصورات لاغائية أو تصورات عليه مألوفة . إن الإتجاه الدارونى هو أفضل تفسير لدينا . لوجود فى الوقت الخالى لفروض جادة منافسة له .

XVII

يبدو أن الحياة وحلولها قد نشأ معا مع نشأة الحياة ذاتها . فإذا كان الاختيار الطبيعى مثلا قد بدأ قبل نشأة الحياة — على سبيل المثال اختيار العناصر الثابتة بفضل الإنهيار الإشعاعى للعناصر الأقل ثباتا — عندئذ لايمكن لنا القول أن البقاء يمثل باى معنى من المعانى — مشكلة للنوى الذرية . فالتمائل الضيق بين البلورات والكائنات العضوية الدقيقة بأجزائها الجزيئية (Organellen) ينهار هنا . فالنضج والتطور والبقاء لايمثل أى منها مشكلة للبلورات بينما يمثل البقاء مشكلة تواجه الحياة منذ البداية . من هنا يمكننا أن نصف الحياة بأنها حلول المشاكل ونصف الكائنات العضوية الحية بأنها المركب الوحيد فى الكون الذى يقوم بحل المشاكل (الكمبيوتر لا يحل المشاكل ولكنه فقط الأداء المستخدمة لحلها) .

لايعنى هذا أنه يجب أن ننسب للحياة وعيا بالمشكلات المراد حلها بل اننا

أنفسنا على المستوى البشرى نعلم أن هناك مشكلات يراد حلها — على سبيل المثال مشكلة المدققة على اتراننا — دون أن نكون على وعى بها .

XVIII

لاشك أن للحيوانات وعيا بل ووعيا مصاحبا بمشكلة ومشكلة ما . إلا أنه من الممكن أن يكون نشأة الوعي في المملكة الحيوانية لغزا كبيرا مثله في ذلك مثل لغز نشأة الحياة ذاته .

بخصوص هذا الموضوع لا أريد أن أقول أكثر من أن النفسانية الشاملة Panpsychismus (*) أي الرأي القائل بأن المادة بصفة عامة (حتى في أدنى درجاتها) متصلة بالوعي — لن يفيدني بأى شكل من الأشكال ، فهو لايعنى — متى أخذناه مأخذا جديا أكثر من نظرية في الإنسجام الأزلى (وهو مايشكل بالطبع جزءا من نظرية ليبنتز في الإنسجام الأزلى في شكلها الأصلي) إذ ليس للوعي في المادة غير الحية أى وظيفة ، فمتى نسبنا للجزيئات غير الحية (المونادات ، الذرات ، الجزيئات) وعيا ، فإننا لانفعل ذلك إلا من أجل تفسير صور الوعي الموجودة في الحيوانات التي لها في هذه الحيوانات وظائف هامة .

من هنا لاشك في أن للحيوانات وعيا وأنه يمكن إعتباره تقريبا عضوا جسديا — من هنا يجب أن نقبل — مهما كانت صعوبة هذا القبول — أن هذا الوعي نتيجة للتطور أى نتيجة للإنتخاب الطبيعي .

ورغم أن البرنامج يمكن صياغته في صورة رد ، فإنه في ذاته ليس ردا إذ أنه يبدو لدعاه الرد أنه لا أمل فيه ، وهو مايفسر لم أعتبر دعاء الرد

(*) وهى النظرية الفلسفية التي تذهب إلى أن لكل من موضوعات الكون — الإنسان والحيوان والنبات ، بل ولسائر الموضوعات التي نعتبرها موضوعات غير حية حياة نفسية داخلية ، من أبرز الفلاسفة الذين دافعوا عن هذه النظرية الفيلسوف وعالم النفس الألماني فشر G.T. Fecher في كتابه " دين العالم Religion of Scientist) .

افتراض النفسانية الشاملة أما انه افتراض ذاتي أو أنكسروا كلية وجود -
الوعي •

رغم أن هذه الفلسفة السلوكية تعد فلسفة غامضة الآن ، فإن نظرية عدم
وجود الوعي لا يمكن الأخذ بها بصورة أكثر جدية من نظرية عدم وجود
المادة • كلا النظريتين تحل مشكلة العلاقة بين الجسد والنفس • في الحالتين
يبدو الحل حلا فيه تبسيط مخل ، إذ ينطوي إما على إنكار الجسد أو النفس •
ولكن هذا الحل - من وجهة نظري - حل بسيط^(٢٥) وسوف أتحدث في هذه
المسألة الجوهرية بصورة أكثر تفصيلا في الفقرة XXI عندما أتناول
التوازن السيكي فيزيقي بالنقد •

XIX

لقد تناولت مسألتين من الثلاث مسائل الجوهرية التي بدأت بها
محاضرتي • نصل الآن للمسألة الثالثة ، مسألة رد الوعي البشري وابتكار
العقل البشري •

تشكل هذه المسألة الثالثة - كما أكد سير جون إكسلز مرارا - مشكلة
الصلة بين العقل والمخ ، ولقد أطلق جاكس مونود على مشكلة الجهاز
العصبي المركزي في الإنسان تسمية (المواجهة الثانية Zweite Front)
في محاولة منه لتناول صعوبتها بالمقارنة مع (المواجهة الأولى erste
Front) ألا وهو مشكلة أصل الحياة •

لاشك أنه طريق محفوف بالمخاطر أن نقف عند هذه المواجهة الثانية
ومع هذا فإنني أقول أن محاولة رد جزئي - مما في هذا الميدان - تبدو لي
محاولة مأمولة أكثر من محاولة الرد في الميدان الخاص بالمسألة الثانية
(التي نكرتها في بداية هذه المحاولة) وكذلك يبدو لي أنه باستخدام مناهج
الرد من الممكن اكتشاف بل وحل مشكلات جديدة كما كان الحال في ميدان
المسألة الأولى أكثر مما يتعلق بميدان المسألة الثانية ولا أعتقد أنني في حاجة

مرة أخرى للتأكيد على أن الرد الناجح الكامل في أى ميدان من الميادين الثلاثة أمر غير ممكن إن لم يكن مستحيلا .

من هنا يمكننى القول أنتى قد وفيت بوعدى أن أتناول ما يسمى بمشكلات الرد الجوهرية والتي ذكرتها فى بداية محاضرتى . ومع هذا فإنى أريد أن أقول شيئا إضافيا بخصوص المشكلة الثالثة ألا وهى مشكلة النفس والجسد أو الجسد والنفس ، قبل أن أصل إلى فكرتى الأساسية وهى أن العالم بطبعه غير كامل ولا يمكن أن نصل إلى تقديمه بصورة كاملة .

XX

أعتبر مشكلة نشأة الوعى فى الحيوانات (المسألة الثانية) أى مشكلة فهم الوعى ومن ثم رده إلى علم الفسيولوجيا - مشكلة لا يمكن حلها ، بالمثل أفكر فى مشكلة نشأة الوعى البشرى الذاتى (المسألة الثالثة) أى مشكلة الجسد والنفس . من هنا فإنى أعتقد أنه لا يمكننا أن نلقى سوى ضوء بسيط على مشكلة الأنا الإنسانية Menschliche Selbst .

يمكن إعتبارى من عدة زوايا أحد دعاة الثنائية الديكارتيه بل وأفضل أحيانا أن اصف نفسى بأنى أحد دعاة التعددية ومن ثم فإنى لا أعتقد بالطبع فى أى من جوهرى ديكارت . فالمادة - كما رأينا - ليست جوهرًا نهائيا صفته الجوهرية هى الإمتداد ولكنها تتكون من تركيبات معقدة نعرف الكثير عن تكوينها كما يمكننا تفسير إمتدادها تفسيراً جزئيا ، فهى تحتل مكانا (أو أنها ممتدة) بفضل الإصطدام الكهربى لجزئياتها .

أن الفكرة الأولى التى اعتنقها هى أن الوعى الذاتى الإنسانى بوحدته التى تبدو غير قابلة للرد وعى معقد جدا قد نتمكن من تفسيره تفسيراً جزئيا . كنت قد تبينيت - فى سلسلة من المحاضرات ألقيتها فى مايو ١٩٦٩

بجامعة إيموري Emory (وفي سلسلة أخرى من المحاضرات كنت أقيسها قبل ذلك بأعوام في مدرسة لندن للإقتصاد) - فهما مؤداه أن الوعي الإنسانى العالى أو الوعي بالذات لا وجود له لدى الحيوان . كما تبينت الفكرة التى مؤداه أن ما اعتقده ديكارت من أن النفس الإنسانية تسكن الغدة الصنوبرية Zirbeldrüse لا يبدو أنه اعتقاد ساذج ، كما يصور ذلك غالبا ، وأنه اعتمادا على النتائج التى وصل إليها شبرى Sperry^(*) عن انقسام المخ إلى قسمين فإنه يمكن البحث عن موقع مركز الكلام فى النصف الأيسر للمخ، وكما أبلغنى إكسلز^(٢٨) فلقد دعمت التجارب التى أجراها شبرى فيما بعد هذا التخمين إلى حد ما (وهو مالم أكن أعرفه وقتها) . وفقا لهذا يشكل الجانب الأيمن للمخ للبشرى المخ فى كليته للحيوان الذكى بينما يختص الجانب الأيسر بالإنسان ووعيه بذاته .

لقد دعمت تخمينى الخاص بالدور الذى نسبته لتطور اللغة الإنسانية الخاصة ، لكل لغة حيوانية ، بل لكل سلوك حيوانى - كما ذهب إلى ذلك كارل بولر K-Bühler وظيفة تعبيرية وأخرى توصيلية . للغة الإنسانية من جانب آخر - وظائف أخرى - إلى جانب هاتين الوظيفتين - تميز اللغة وتجعل منها " لغة " بالمعنى الضيق والهام لكلمة لغة .

لقد ركز " بولر " الإهتمام على الوظيفة الوصفية الأساسية للغة البشرية ، ولقد أشرت فيما بعد^(٢٩) إلى أن للغة وظائف أخرى تريد على ذلك (مثل الوصف السابق Praskriptive وتوجيه النصح . . الخ) أهمها وظيفة تقديم الحجج لكونها وظيفة تميز الإنسان . كما ذكر الأستاذ ألف روس Alf Ross^(٣٠) أنه من الممكن إضافة وظائف أخرى كثيرة مثل وظيفة تقديم الأمر والرجاء والوعد) .

(*) روجر شبرى R. Sperry أمريكى الجنسية (١٩١٣ - ٠٠٠٠) حصل على جائزة نوبل فى الفسيولوجيا بالمشاركة مع دافيد هوبل D.Hubel وويلز T.N. Wiesel عام ١٩٨١ ، لمجهوداتهم معا فى بيان وظائف المخ . ولقد اعطيت لشبرى على وجه التحديد للأساليب الجراحية التى ابتكرها والتى أدت الى وضع خريطة واضحة للعمليات العقلية .

لا أعتقد (ولم أعتقد أبداً) أنه من الممكن رد أى وظيفة من هذه الوظائف لأى واحدة أخرى ، أو على الأقل رد الوظيفتين العلويتين (الوصف وتقديم الحجج) إلى الدنيتين (التعبير والتوصيل) ، فهى توجد دائماً معا وهو ما قد يفسر لم إعتبرها كثير من الفلاسفة - خطأ - خصائص تميز اللغة البشرية .

أن فكرنى الأساسية هى أنه بوجود الوظائف العليا للغة البشرية ينشأ عالم جديد : عالم نتاج العقل البشرى . ولقد أسميت هذا العالم " العالم رقم ٣ " (نتيجة لنصيحة قدمها لى سير جون اكسلز كنت قبلها أطلق عليه " العالم الثالث ") . ومن ثم فإننى أطلق على عالم المادة الفيزيقية وميادين القوى . . الخ العالم رقم ١ " ، وعلى عالم الخبرات الواعية والباطنية " العالم رقم ٢ " ، وعلى عالم اللغة المنطوقة مثل قص القصص واختراع الأساطير والنظريات والمشكلات النظرية والحجج " العالم رقم ٣ " (يمكن إدراج عوالم الإنتاج الفنى والمؤسسات الإجتماعية إما تحت العالم رقم ٣ " أو نطلق عليها بالترتيب " العالم رقم ٤ " و " العالم رقم ٥ " ، فهذه مسألة تدق أو تفضيل) . أقدم التصورات " العالم رقم ١ " ، " العالم رقم ٢ " ، " العالم رقم ٣ " من أجل أن أؤكد على استقلالية هذه الميادين . يزعم معظم الباديين أو الفيزيقيين أو دعاة الرد أنه - من هذه العوالم الثلاثة - لاوجود فعلى سوى " للعالم رقم ١ " ومن ثم فهو مستقل فهم يحلون السلوك محل " العالم رقم ٢ " والسلوك اللفظى محل " العالم رقم ٣ " . (هذه - كما أشرت سابقا - إحدى الحلول البسيطة لمشكلة الجسد والنفس ، أو بصفة خاصة محاولة إنكار وجود العقل البشرى والوعى الذاتى البشرى - وهى الأشياء التى أعدها من أهم الأشياء فى الكون . الإتجاه الآخر البسيط هو الإتجاه اللامادى لباركلى وماخ الذى مفاده أنه لاوجود سوى للإتطباعات وأن المادة ليست سوى تركيب من هذه الإتطباعات .

XXI

يمكننا فيما يتعلق بالعلاقة بين الجسد (أو المخ) والنفس أن نميز بصورة جوهرية بين أربعة مواقف .

١ - إنكار وجود العالم رقم ١ للحالات الجسدية ، أى القول باللامادية كما تبناها باركلي وماخ (تحليل الإنتباعات) .

٢ - إنكار وجود العالم رقم ٢ للحالات أو الحوادث العقلية ، وهو الفهم الذى يتبناه بعض الماديين والفيزيقيين ودعاة السلوكية الفلسفية ، أى الفلاسفة الذى يجدون بين المخ والعقل هوية واحدة .

٣ - الزعم بوجود ثنائية بين الحالات العقلية وحالات المخ ، وهو الموقف الذى يسمى التواز السيكوفيزيقي . لقد قدم الاتجاه الديكارتي هذا الاتجاه من خلال جولينكس Geulincx وسينوزا ومالبرانش وليبنتز بصفة خاصة من أجل تجنب الصعوبات التى واجهت فهم ديكارت لهذا الاتجاه (تماما مثل نظرية الظواهر العرضية التى تسلب من الوعى كل وظيفة بيولوجية) .

٤ - الزعم بأن الحالات العقلية والحالات الجسدية يمكن لكل منها أن يؤثر فى الآخر بالتبادل وهو الفهم الخاص بديكارت الذى تجاوزه وعدل منه الاتجاه رقم ٣ .

أما موقفى الخاص فيمكن فى أنه لا بد أن هناك إلى حد ما تواز بين العقل والمخ . فبعض ردود الفعل العكسية - مثل إرتداد الطرف عندما يرى شخصا ما فجأة شيئا قريبا منه - تبدو بصورة أكثر أو أقل ذات طبيعة متوازية Parallelistischem . فرد الفعل العضلى (الذى يشترك معه بطبيعة الحال الجهاز العصبى المركزى) يتكرر باستمرار عندما يتكرر الإنتباع البصرى . فمتى أتجه انتباهنا إليه عندئذ يمكننا أن نعى برد الفعل هذا ونفس الأمر ينطبق على بعض (وليس كل) ردود الفعل العكسية .

و مع هذا فإننى أعتقد أن الراى الممثل فى الموقف رقم ٣ - القائل بأن هناك تواز سيكوفيزيقيا كاملا - راى خاطئ وربما بالنسبة للحالات التى هى مجرد ردود فعل عكسية .

هنا فإننى أريد أن أتبنى شكلا من أشكال التأثير السيكوفيزيقي المتبادل eine Form des psychophysischen Interaktionismus هذا الموقف يتضمن (وهو ملاحظه ديكرات) الراى القائل بأن العالم الجسدى رقم ١ ليس عالما مغلقا بصورة عليه ولكنه عالم مفتوح للعالم رقم ٢ ، عالم الحوادث والحالات العقلية ، وهو موقف لا يميل إليه علماء الفيزياء ولكن تدعمه - فيما أعتقد - الحقيقة القائلة بأن العالم رقم ٣ بميادينه المستقلة يؤثر فى العالم رقم ١ من خلال العالم رقم ٢ .

هنا فإننى على استعداد لقبول الراى بأنه دائما متى حدث شئ فى العالم رقم ٢ ، فإن شيئا متعلقا به فى العالم رقم ١ (نى المخ) يحدث . ولكن أن نتحدث عن تواز كامل ، كان يجب أن نكون فى موقف يسمح لنا بأن نزعم بأن نفس الحالة أو الحادثة العقلية تحدث مع حالة سيكوفيزيقية مطابقة تماما والعكس بالعكس .

وكما أشرت فإننى موافق بالفعل وبشكل واضح على أن هناك شيئا صحيحا يكمن فى هذا الزعم وأن الإثارة الكهربائية لبعض ميادين المخ مثلا تحدث بشكل مستمر بعض الحركات أو الإحساسات الخاصة . ولكنى أتساءل ما إذا كان لهذا الزعم - كقاعدة عامة لكل الحالات العقلية - محتوى ما أو كان زعما فارغا . ذلك لأنه يمكننا أن نتحدث عن علاقة تواز (معية) بين العالم رقم ٢ وعمليات المخ أو بين بناءات العالم ، وعمليات المخ ، ولكن من الصعب أن نتحدث عن علاقة تواز (معية) بين عملية بالغة التعقيد ومتفردة (تحدث مرة واحدة) وغير قابلة للتحليل من عمليات العالم رقم ٢ وبين عملية مقابلة لها من عمليات المخ . ثم أن كثيرا من

حوادث العالم رقم ٢ فى حياتنا تتصف بالتفرد . وأيضا متى تركنا مشكلة الابتكار الخلاق جانباً ، فإن اللحن نسمعه مرتين ونعرف أنه نفس اللحن وليس تكراراً لنفس حوادث العالم رقم ٢ ، مادام يصاحب سماعنا للحن للمرة الثانية فعل معرفة تكرار اللحن وهو ما لا وجود له فى المرة الأولى ، فموضوع العالم رقم ١ (وهو اللحن فى هذا المثال) يتكرر ، أما الحادثة المصاحبة له والتي تنتمى للعالم رقم ٢ فلا تتكرر . فقط متى قبلنا نظرية للعالم رقم ٢ والتي تذهب — مثلها فى ذلك مثل على النفس الارتباطى — Assoziation spsychologie إلى أن حوادث العالم رقم ٢ تتألف من عناصر شبه نرية ، عندئذ فقط يمكننا أن نرى تميزاً واضحاً بين الجزء المتكرر من حادثة العالم رقم ٢ والجزء غير المتكرر ، أى معرفة التكرار مادام يتعلق بنفس اللحن (بينما يمكن لخبرة للمعرفة المتكررة من جانبها أن تتكرر فى سياقات أخرى) . ومع هذا يبدو واضحاً أن علم نفس تحليلى أو نرى كهذا لم يتقدم بنا كثيراً .

العالم رقم ٢ عالم بالغ التعقيد ، فالمدى الذى نهتم فيه فقط بميادين مثل الإدراك الحسى (أى الإدراك الحسى لموضوعات العالم رقم ١) فإننا بذلك قد نعنى أنه يمكننا أن نحلل العالم رقم ٢ باستخدام المناهج النربية أو الجزئية، مثل المناهج الجشطالتيّة Gestalt (التى تعد من وجهة نظرى جميعاً مناهج غير مثمرة متى قورنت بالمناهج البيولوجية أو الوظيفية لإجون برنشفيك Egon Brunswik أو ريتشارد جريجورى R.Gregory) . تبدو هذه المناهج غير ملائمة تماماً متى فكرنا فى محاولتنا المتفردة لإكتشاف أو فهم أحد موضوعات العالم رقم ٣ أى لفهم واكتشاف مشكلة أو نظرية ما . فالطريقة التى يتفاعل بها بالتبادل تفكيرنا وفهمنا مع محاولة وضع صياغة لغوية ويتأثر بها والطريقة التى يتكون بها لدينا شعور غامض تجاه مشكلة أو نظرية ما والذى يتضح متى حاولنا صياغتها ثم أكثر وضوحاً متى

كبتناها والتي نتأول بها محاولتنا لحله تناولاً نقدياً ، والطريقة التي تظهر بها مشكلة ما بصور منغيرة ومن ثم تبقى المشكلة القديمة بمعنى ما ، والطريقة التي يرتبط بها مدخل تفكير مع نفسه من ناحية ويندرج تحت مدخل آخر من ناحية أخرى ، كل هذا يبدو لي أنه يقع خارج حدود ميادين تطبيق المناهج التحليلية أو الذرية بما في ذلك المناهج الجزيئية لعلم نفس الجشطلت ، إذ في سائر هذه الحالات تحدث وقائع متفردة لحوادث العالم رقم ٢ المتفردة أيضاً ومن ثم لا يكون هناك مجال للحديث عن عمليات فسيولوجية موازية لها .

بالإضافة إلى هذا فإن لدينا مبرراً لقبول القول أنه متى تلف أحد أجزاء المخ ، فإن جزءاً أو ميداناً آخر يقوم بمهامه دون تقريباً أدنى ضرر بالعالم ٢ وهو ما يشكل حجة أخرى ضد التوازن — الثنائية — حجة تقوم بالأحرى على تجارب في العالم ١ ، أكثر منها حجة تقوم على أية تأملات غامضة عن خبرات العالم ٢ المعقدة .

يقف هذا كله بالطبع ضد اتجاه الرد وأنا كفيلاسوف — ينظر إلى عالمنا هذا — ونحن فيه — لا أعتقد في الواقع أن هناك أدنى إمكانية لرد يكون تاماً ولكني كمنهجي Methodologe لا يؤدي بي هذا إلى تبني خطة بحث ضد الرد . ولكنه فقط يؤدي بي إلى توقع أنه مع تطور محاولات الرد التي تقوم بها سيتسع نطاق علمنا ومن ثم دائرة المشكلات التي لم تحل .

XXII

لنعد الآن إلى مشكلة الوعي الذاتي البشري الخاص . يمكن صياغة الفهم الذي تبنيته على النحو التالي : ينشأ الوعي الذاتي من التأثير المتبادل بين العالم ٢ والعالمين ١ ، ٣ .

يمكن وضع حجج للدور الذي يلعبه العالم ٣ على النحو التالي : يتأسس الوعي الذاتي البشري — دون غيره — على عدد من النظريات المجردة

بصورة عالية • فالنباتات والحيوانات تتمتع بلا شك بالتوقع الزمني ولها معنى خاص للزمن • ولكن أن يرى الفرد نفسه كمشخص مسال له ماض وحاضر ومستقبل ، له تاريخ شخصي ويعى بهويته الخاصة خلال هذا التاريخ (وهى الهوية المرتبطة أيضا بهوية جسده) فإن ذلك فى حاجة إلى نظرية واضحة أن أجسادنا لا تفقد هويتها وقت النوم ، أى وقت غياب إستمرارية الوعي ، وعلى أساس هذه النظرية يمكننا أن نستدعى — بشكل واع — حوائث ماضية (بدلا من القول إننا فقط نتأثر بها من خلال توقعاتنا وربود أفعالنا والتي أرى فيها مجرد صورة أولية وهى الصورة التى تتصف بها الذاكرة لدى الحيوانات) •

لاشك أن لبعض الحيوانات شخصية ، فهم يفخرون ويطمحون ويتعلمون بالتناظر ويستجيبون لأسماء معينة ، فى مقابل ذلك يجد الوعي الذاتى الإنسانى أساسه فى اللغة وبصورة واضحة أو ضمنا فى النظريات للمصاغة • فالطفل يتعلم استخدامه اسمه ليدل به على ذاته ويتعلم كلمة " أنا " التى يتعلم استخدامها مع وعيه بإستمرارية جسده وذاته ، والتى يضيفها إلى المعرفة بأن الوعي لا ينقطع دائما • يصبح تعقيد وعدم ذاتية النفس أو الذات الإنسانية واضحين متى تذكرنا أن هناك حالات ينسى فيها الناس من هم • لقد نسوا جزءا أو كلا من تاريخهم الماضى إلا أنهم مع هذا يحتفظون على الأقل بجزء من نواتهم • فبمعنى ما لم يفقدوا الذاكرة ، لأنهم مازالوا يتذكرون كيف يمشى الإنسان وكيف يأكل ويتكلم ، إلا أنهم لا يتذكرون أنهم قد جاءوا مثلا من مدينة بريستول Bristol أو ماهى أسماؤهم أو عناوينهم • فالمدى الذى لا يستطيعون معه التعرف على مكان منازلهم (وهو ما يفعله الحيوان بصورة طبيعية) فلا زال وعيهم الذاتى يتفوق على المستوى الطبيعى للذاكرة الحيوانية ، ولكنهم للمدى الذى يفقدوا معه القدرة على الكلام ، فإن الوعي البشرى لا زال باقيا ويتفوق بذلك على الوعي الحيوانى •

لست بذلك صديقاً حميماً للتحليل النفسى ولكن يبدو أن النتائج التى وصل إليها تدعم القول بتعقيد الذات البشرية - وذلك فى مقابل دعوى ديكارت بتأسيسها على الجوهر المفكر - مايعنيه هذا بالنسبة لى هو أن الوعى الذاتى البشرى يتضمن على الأقل وعياً (على الأقل نظرياً) بالإستمارة الزمنية والتاريخية للجسد الخاص ، وعياً بالارتباط بين الذاكرة الواعية الخاصة والجسد الواحد الذى ينتمى لنفس الذات ، وبينها وبين الوعى بالإنقطاع الجزئى والطبيعى للوعى الخاص وذلك أثناء النوم (الذى يفترض نظرية للزمن والمرحلة الزمنية Periodizität) . كما يتضمن الوعى الذاتى البشرى فوق هذا الوعى بالإنتماء مكانياً وبيئياً لمكان محدد ودائرة من البشر . نعم لا شك أن للكثير من هذا أساساً غريزياً ويتصف به الحيوان أيضاً . إلا أننى أرى أنه متى ارتفعنا إلى مستوى الوعى البشرى . فإن اللغة البشرية ، أو التفاعل المتبادل بين العالمين ٢ ، ٢ ، تلعب دوراً هاماً .

من الواضح أن وحدة الذات البشرية تعتمد إلى حد بعيد على الذاكرة وأنه يمكننا أن ننسب الذاكرة ليس فقط للحيوان ولكن للنبات أيضاً (بل وبمعنى ما يمكن أن ننسبها أيضاً إلى التركيبات غير العضوية مثل المغناطيس) من هنا فإنه من المهم حتى أن نرى أن الاعتماد على الذاكرة كهذه ليس كافياً لتفسير وحدة الذات الإنسانية . ليس المطلوب هى الذاكرة " العادية " (الحوادث الماضية) ولكن ذاكرة النظريات التى تربط الوعى بنظريات العالم ٣ عن الأجسام (أى ربطها بالفيزياء) ذاكرة تتصف بفهم نظريات العالم ٣ . كما تتضمن الميول Dispositionen التى يمكننا من العودة وقت الحاجة إلى نظريات العالم ٣ الواضحة والوعى باننا نمتلك هذه الميول ويمكننا استخدامها وقت الحاجة للنطق أو التلفظ بهذه النظريات (يمكن لهذه بالطبع أن يفسر إلى حد ما التمييز بين الوعى الحيوانى والوعى الذاتى البشرى باستقلاله عن اللغة البشرية) .

XXIII

يبدو لي أن هذه الوقائع تفسر عدم إمكانية رد العالم ٢ "بشرى علم
الوعى البشرى إلى العالم البشرى ١ أى إلى فسيولوجيا المخ . لأن العلم ٣
يستقل جزئيا على الأقل عن العالمين الآخرين . فإذا كان بين الجزء المستقل
من العالم ٣ والعالم ٢ تأثير متبادل ، فعندئذ يبدو لي عدم إمكانية رد العالم ٢
إلى العالم ١ .

الأمثلة المعيارية التى أخذها للإستقلال الجزئى الذى يتمتع به العالم ٣
تتبع من علم الحساب .

أقترح إعتبار المتسلسلة اللامتناهية للأعداد الطبيعية اختراعا ، أى نتاجا
للعمل البشرى وجزءا من اللغة البشرية المتطورة . (تبدو أنها لغات أولية ،
يمكن أن نعد فيها " واحد اثنين ، كثير وأخرى يمكن أن نعد فيها فقط حتى "
خمس ") ولكن للمدى الذى اخترعت فيه مناهج للعد اللانهائى ، فإن
التمييزات والمشكلات تنتج بصورة مستقلة : فالأعداد الصحيحة وغير
الصحيحة لا تخرج ولكنها تكشف فى سلسلة الأعداد الطبيعية وكذلك الحال
بالنسبة للأعداد الأولية والمشكلات الكثيرة المرتبطة بها والتى حلت والتى لم
يتم حلها .

هذه المشكلات والنظريات التى تحلها (مثل نظرية اقليدس التى تذهب
إلى أنه لا وجود لعدد أولى أكبر) تنتج بصورة مستقلة - كجزء من التركيب
الداخلى لسلسلة الأعداد الطبيعية التى خلقها الإنسان ومستقلة عما نعتقده أو لا
نعتقده . إلا أنه يمكننا فهم وتصوير أو اكتشاف هذه المشكلات وحل جزء
منها . يتعلق فكرنا الذى ينتمى للعالم ٢ فى قدر منه بالمشكلات المستقلة
والصدق الموضوعى للنظريات التى تنتمى للعالم ٣ : فالعالم ٢ لا يخلق فقط
العالم ٣ ولكنه يتأثر - ولو جزئيا فى تكوينه بالعالم رقم ٣ .

أضع الآن حجتى على النحو التالى : من الواضح أن العالم ٣ وبصفة خاصة أجزائه المستقلة لا يمكن رده إلى العالم ١ الجسدى ، ومادام العالم ٢ يعتمد فى جزء منه على العالم ٣ فإنه أيضاً لا يمكن رده إلى العالم ١ .

لقد اضطر دعاء الرد الفلسفى أو الفيزيقي — كما اسميتهم^(٣١) — إلى إنكار وجود العالمين ٢ ، ٣ . وفقاً لهذا فإن سائر التكنولوجيا البشرية (وبصفة خاصة وجود أجهزة الكمبيوتر) التى تستخدم إلى حد كبير نظريات العالم ٣ غير مفهومة ويجب أن نقبل أن التغييرات الضخمة التى تحدث فى العالم ١ — والتى تحدث مثلاً من بناء المطارات أو ناطحات السحاب — دون اختراع نظريات العالم ٣ أو خطط العالم ٢ سببها العالم الجسدى ١ نفسه والتى تتأسس عليه ، فهى محددة بصورة مسبقة إذ أنها جزء من اتساق مقدر بصورة مسبقة يوجد بالفعل فى نوى الهيدروجين .

تبدو لى هذه النتائج تافهة ، وهنا فإن السلوكية الفلسفية أو الإتجاه الفيزيقي Physikalismus تبدو لى أنها ترد لهذه النقطة . فهى على كل حال تبدو لى بعيدة عن الفهم البشرى السليم .

XXIV

إن اتجاه الرد الفلسفى — فيما اعتقده — إتجاه خاطئ ، نبع من الرغبة فى رد كل شئ إلى جواهر وماهيات أى ردها إلى تفسير لا يتطلب تفسيراً بعده .

فللمدى الذى نقدم فيه للنظرية تفسيراً نهائياً ، فإننا نلاحظ أنه يمكننا أن نظل نسأل " لماذا " ؟ فالسؤال لماذا ؟ لا يودى بأحد إلى إجابة نهائية . بل ويبدو أن الأطفال الأنكياء يعرفون ذلك جيداً حتى ولو بدا أنهم يستسلمون للكبار الذى لا يمكنهم فى الواقع أن يوفروا وقتاً يجيبون فيه — من حيث المبدأ — على سلسلة لانهائية من الأسئلة .

XXV

ينتمى العالمان ١ ، ٢ إلى كون واحد حتى وإن كنا مستقلين استقلالاً جزئياً فهما يتأثران ببعضهما تأثيراً متبادلاً . عن الممكن مع هذا أن نسير بسهولة أن المعرفة بالكون – للمدى التى هى ذاتها جزء من الكون (كما هو الأمر فى الواقع) – لا يمكن بالضرورة أن تصل إلى معرفة كاملة .

فلنتخيل الآن رجلاً رسم صورة دقيقة للغرفة التى يعمل بها . ولندعه يحاول أن يوسع فى رسمه هذه الصورة التى رسمها . من الواضح أن هذا العمل الذى يحوى عدداً لانهائياً من الصور الصغيرة فالأصغر داخل كل صورة لا يمكن أن يكتمل ففى كل مرة يضيف فيها خطأ إلى هذه الصورة فإنه بذلك يخلق موضوعاً جديداً ، فالصورة التى يجب أن تحوى صورة لذاتها لا يمكن أن تكتمل .

تبين قصة هذه الصورة عدم إكمال ووضوح الكون الذى يحوى موضوعات المعرفة بالعالم ٣ ، ثم أنه يمكن استخدامه كحجة على أن عالمنا عالم للاحتمية فيه . لأنه بينما يحدد كل خط من الخطوط " الأخيرة " المختلفة المرسومة بالفعل فى الصورة بشكل مسلم به خطأ – يعتمد على هذه الخطوط داخل السلسلة اللانهائية للصور المراد رسمها ، فإن تحديد الخطوط ينطبق فقط متى أغفلنا النظر عن امكانية خطأ كل المعرفة البشرية (امكانية الخطأ التى تلعب فى مشكلات ونظريات وأخطاء العالم ٣ دوراً هاماً) . ولكر متى وضعناها فى الاعتبار فإن كل خط من الخطوط الأخيرة المرسومة فى اللوحة يشكل مشكلة للرسم ، مشكلة اضافة خط جديد يصور بالتحديد الخط الأخير . فبسبب إمكانية الخطأ التى تميز المعرفة البشرية فى مجموعها لا يمكن حل هذه المشكلة التى تواجه الرسام بدقة مطلقة ، وكلما صغر الخط كلما زادت امكانية عدم الدقة النسبية بشكل لا يمكن توقعه من حيث المبدأ ولا يمكن تحديدها . تبين قصة الصورة إلى أى مدى تسهم امكانية الخطأ التى تميز المعرفة البشرية بالموضوعات فى القول باللاحتمية الجوهرية للكون ،

بصرف النظر أنها تظهر انفتاح الكون وعدم امكانية معرفته والذي يحسوى المعرفة البشرية كجزء من ذاته .

يفسر هذا المثال لم لا يمكن للمعرفة التفسيرية أن تصل إلى حد الكمال ، ذلك أنه لكي نصل بها إلى الإكتمال فإنه يجب أن نقدم لها ذاتها تفسيراً . ويمكن أن نجد في مبرهنة جودل Gödel المشهورة نتيجة أخرى أقوى من سابقتها . تبين مبرهنة جودل أنه من المستحيل أن نصل إلى نسق مكتمل — للحساب الصوري^(*) (رغم أنني يجب أن أعترف أنني بجمعي هنا بين مبرهنة جودل والمبادئ الأخرى في ما وراء الرياضيات والتي تنادى بعدم الإكتمال ، أتسلح ضد موقف ضعيف بالمقارنة) .

فإذا كان سائر علماء الفيزياء يستخدمون الحساب (ولا واقعية وفقاً لدعاة الرد سوى للعلم المصاغ برموز فيزيقية) تصبح سائر المعرفة الفيزيقية وفقاً لمبدأ جودل في عدم الإكتمال معرفة غير كاملة ، وهو ما منه يجب لدعاة الرد أن يقتنعون أن العالم بأسره غير مكتمل . وعلى كل حال فإنه وفقاً لدعاة اللرد الذين لا يعتقدون في إمكانية رد العلم بأسره إلى علم مصاغ بصورة فيزيقية ليس العلم علماً مكتملاً .

فليس فقط اتجاه الرد الفلسفي اتجاهاً خاطئاً ولكن أيضاً افتراض أن مناهج الرد يمكن أن تحقق رداً كاملاً . فنحن نعيش — كما يبدو — في عالم من التطور الإنبعاثي ، في عالم من المشكلات تخلق حلولها متى اصطدمت بمشكلات أكثر حدة وأكثر عمقا . ومن ثم فإننا في كون من الجدة المتطورة

(*) لقد حطم جودل بالبحث الذي نشره ١٩٣١

(Über Formel Unentscheidbare Sätze der Principia Mathematica und verwandeter systeme I)

الأمّل الذي كان يحدو المنطقة منذ أرسطو في الوصول إلى استنباط كامل من مبادئ أولى عندما بين أن الرياضيات لا يمكن صياغتها بأسرها داخل حدود نسق صوري واحد وهو الأمّل الذي كان قد استيقظ بإدخال فريجة فكرة النسق الصوري ١٨٧٩ ومحاولة صياغة الرياضيات صياغة صورية .

بذاتها ، جدة لا يمكن ردها بصورة كاملة إلى أية حالة من الحالات المتصورة
(المتقدمة) .

ومع هذا فإن مناهج محاولات الرد مناهج مثمرة بصورة عالية ، ليس
فقط لأننا نتعلم شيئا من نجاحها الجزئى القائم على عمليات رد ناجحة
بصورة جزئية ولكن لأننا نتعلم أيضا من فشلنا الجزئى الذى تنتج عنه
مشكلات جديدة تضع فشلنا فى الضوء . المشكلات المفتوحة ليست شيقة
مثل حلولها ، التى كانت ستكون بالفعل شيقة لو لم يفتح علينا كل حل من
جانبه - مرة أخرى عالما جديدا من المشكلات المفتوحة .

تذييل

بخلاف بعض الملاحظات الصغيرة وإشارة أو أخرى لهذا التذييل تركت
المحاضرة فى شكلها الأصلى ولقد قمت بنقد هذه المحاضرة بنفسى - قبل
أن يتم تناولها بالمناقشة فى المؤتمر الذى قدمته فيه - التى أشير فيها إلى
أربع نقاط هامة اسقطتها فى النقطتين الأولىين مما يلى :

١ - لم يرد فى المحاضرة ذكر محاولات رد الديناميكا الحرارية إلى
الميكانيكا التى تشكل مثالا هاما للرد وألا يصل الرد إلى رد كامل رغم أهمية
نتائج محاولات الرد هذه فإن هذا يعد أمرا شكليا من وجهة نظرى .

٢ - يمس الحذف أو الإسقاط الثانى الذى فعلته نقطة اعتبرتها فى النص
الأساسى للمحاضرة أمرا مسلما به (لقد ذكرتها باختصار فى الفقرة XIV
أنظر فى الملاحظات الملاحظة رقم ٢٠) فهى تتعلق بما يلى : قبل أن
نجرى أى محاولة رد ، فإنه يلزمنا معرفة دقيقة وقدر لا بأس به بما نريد أن
نحاول رده فقبل أن تكون لدينا امكانية محاولة الرد (أن نكون على مستوى
الكليات) يجب أن نتحرك على مستوى ما يجب أن يرد . ولقد أشرت إلى
ذلك فى موضع آخر (٣٢) .

٣ - إسقاط ثالث (لم أذكره فى المحاضرة التى ألقيتها فى المؤتمر) يتعلق

بالتمييز (الذى أشرت إليه فى بداية هذه المحاضرة • أنظر فى الملاحظات الملاحظة رقم ٢) بين الرد الذى يفسر نظرية ما من خلال نظرية موجوده ، والتفسير بنظرية جديدة • فإذا استبعدنا الخلاف على الألفاظ فإنى لا أميل حالياً إلى تسمية التفسير بنظرية جديدة رداً • إذا قبلنا هذا المصطلح ، يمكننا أن نزع أن تفسير النظرية الموجية لإنتشار الضوء عن طريق نظرية ماكسويل للكثيرة المغناطيسية يشكل مثلاً للرد الناجح الكامل (ربما يكون هذا هو المثال الوحيد للرد الناجح الكامل) • وعلى ايه حال فإنه من الحكمة أى نصف هذا على أنه رد لنظرية ما إلى أخرى أو رد جزء من الفيزياء إلى جزء آخر (ولكن أن نعتبرهما معاً كنظرية واحدة جديدة توحد ميدانين من ميادين الفيزياء بنجاح ودون أن أبدوا متحيزاً للقول أنه من الممكن أن نطلق على علم الأحياء برنامج البحث غير القابل للرد ، فإن مايلى يبدو لى أنه تقدير معقول للموقف •

٤ - لقد اصطدم برنامج الميكانيكا النيوتونية للفيزياء بمحاولة (جمع) الكهربائية والمغناطيسية فى ميدان انطباقها ، أو بقول أكثر دقة - اصطدم بتقديم فارادى للقوى اللامركزية (لقد بدت محاولة ماكسويل لرد هذه القوى غير المركزية إلى نظرية نيوتن من خلال وضع نموذج ميكانيكى للأثير كمحاولة مثمرة جداً للمدى الذى أدت به إلى وضع معادلاته المشهورة فى المجال إلا أنها كانت مع هذا محاولة فاشلة وجب تركها) •

لقد أدت معرفة اينشتين بأنه لايمكن لنظريتي نيوتن وماكسويل أن تتفقان إلى النظرية النسبية الخاصة • ومن ثم كان على علماء الفيزياء أن يقبلون نظرية جديدة تماماً عن أن يعتبرونها رداً • لقد صادف الفيزياء مصيراً مشابهاً عندما انطبقت الميكانيكا والنظرية الكهرومغناطيسية (التى ترجع إلى لورنتز Lorentz واينشتين) معاً فى صورة واحدة على المشكلة الجديدة والاستاتيكية للتركيب الأصغر للمادة • لايمكننا من هذا أن نستنتج أن تتلوه

المشكلات البيولوجية أدى إلى توسيع ومراجعة أخرى للغيرياء .
٥ - ١٩٧٨ (إضافة) لقد نوقشت بالتفصيل كثير من المشكلات المذكورة
هنا في هذه المحاضرة في كتاب (الذات وعقلها The Self and its Brain
ليوبر وإكسلز ١٩٧٧ . دار نشر بيبر Piper وميونخ Munschen ١٩٨٢)
ملاحظات :

لقد نشرت هذه المحاضرة أولاً باللغة الإنجليزية في Studies in the
philosophy of Biology الناشر : ' إيلالا F.J.Ayala ودوبهانسكى
T.Dobzhansky ، لندن ، ماكملان 1974 ، 283 - S.259 . أدين
بشكر عظيم لكل من دافيد ميللر David Miller وجيرمي شيرمور
Jeremy Shearmer لملاحظتهما النقدية على الصياغة الأولى لهذه
المحاضرة التي أقيمت عام ١٩٧٢ في مؤتمر لعلماء البيولوجيا والفلسفة
نظمه F.Ayala والبروفيسور دوبهانسكى .

١ - قارن كتابي Die offene Gesellschaft und ihre Feinde الجزء

الثاني 1959 الطبعة السابعة S.15-29 J.C.B. Mohr. Tübingen .

٢ - لقد أغفلت في سياق المحاضرة - وقد يكون ذلك عن إهمال وقد يكون
أيضاً لكرامية استخدام السفسة اللغوية - التمييز الممكن بين التفسير بصفة
عامة وبين الرد بمعنى تفسير نظرية أساسية موجودة بالفعل . لا شك أن
التمييز بين تفسير شيء معروف من خلال نظرية جديدة لم تكن معروفة من
قبل من ناحية وبين الرد الى نظرية قديمة من ناحية أخرى على جانب من
الأهمية . وفي هذا المقام فقد أشرت إلى هذا التمييز في الهوامش وفي
التذييل الذي وضعته في نهاية هذه المحاضرة أملاً القضاء على أى سوء
فهم .

٣ - قارن كتابي Objektive Erkenntnis (1973) Hoffnam und
Campe. Hamburg ,8- Auflage , 1992 Kap . 5 .

Meyerson, E (1908), *Identité et Réalité*. F.Alcan, – ٤
Paris Übers:

Meyerson, E (1930), *Identity and Reality*. Allen and
Unwin, London .

٥ – قارن كتابي : *Vermutungen und Widerlegungen* :
,1994,J.C.B. Mohr, Tübingen .

٦ – Wiener,N.(1914) A Simplification of the logic of
relations.*Proceedings of the Cambridge Philosophical
Society*, 17, 387 – 390 وأنظر أيضاً

Kuratowski, (1920) Sur la notion de l'ordre dans la theorie
des ensembles .*Fundamenta mathematica*, 2, 154-166.

٧ – قارن كتابي *Die Offene Gesellschaft und ihre Feinde*, Bd.1
Kap.6, Anm,9 *Vermutungen und Widerlegungen*,
Kap.2

٨ – قارن كتابي : *Vermutungen und Widerlegungen*, Kap3

٩ – *Vermutungen und Widerlegungen*,

Kap3. Anm.21

١٠ – *Vermutungen und Widerlegungen*,

Kap3.

١١ – *Äther und Relativitätstheorie*(1920)Springer,

و ترجمته الإنجليزية S.14 Berlin,

وأنظر *Sidelights on Relativity* (1922) Methuen, London

:Popper,K.(1967)Quantum mechanics without the observer.

In : *Quantum Theory and Reality*, Bd. II(Hrsg. von
Mario Bunge), Springer, Berlin, Heidelberg, New York 7 –
44 .

١٢ – Millikan, R.A.(1932) *Time, Matter and Values*,

University of North Carolina Press, Chapel Hill . 46.

- Chadwick, J.(1932) , Possible existence of neutron. – ١٢
Nature,129,132.
- Anderson, C.D.(1933) Cosmic ray bursts .Physical – ١٤
Review,43, 368-69, ders. (1933), the positive electron,
physical Review,43,491,94.
- Eddington, A.(1936), Relativity theory of Protons – ١٥
and Electrons. Cambridge University press.
- Heither ,W. und London,F. (1927), Wechselwirkung – ١٦
neutraler Atome und hamöopolare Bindung nach der
Quantenmechanik .Zeitschrift für Physik, 44,455 – 72.
- Pauling,L. – مساهمة في مناقشة حول أصل الحياة على الأرض
(1959)(proceedings of the First International Symposium
on the Origin of life on the Earth, Moskau 19 – 24. August
1957,ed. A.I.Oparin and others). Ed. F. Clark and R.L.M.
Synge. Pergamon. Press, London , 119 .
- ١٨ – هذه النظريات كان من الممكن أن تكون خطيرة بعد النظرية الجديدة
للإزاحة الحمراء والتي اقترحها P.Vigier, A.P.Roberts, J.C.Peckler
Non-Velocity redshifts and photon-photon interactions ,Nature
١٩227-229. – لقد استخدمت هنا مصطلح (الإنسجام الأزلى) لكى
أوضح أن تفسيرنا لايمس الخصائص الفيزيائية الواضحة لذرة الهيدروجين .
لقد تم فقط افتراض خاصية غير معروفة حتى الآن وتم جعلها أساس
التفسير .
- ٢٠ – استخدم هنا التعبير " انبعائى Emergent " لكى نكل على مرحلة
تطور لايمكن التنبؤ بها .
- ٢١ – أنظر : 1970Piper : Zufall und Notwendigkeit. Monod.J.,
München, 1971, , S. XII
- ٢٢ – نفس الموضع . S.143 .
- ٢٣ – لقد تم الإشارة إليها وأبرزها فى النقطة رقم (٢) من التذييل فى

بهاية هذه المداصرة .

Objektive Erkenntnis, Kap.7 : ٢٤ - قارن كتابي :

Objektive Erkenntnis, Kap.8 : ٢٥ - قارن كتابي :

Vermutungen und Widerlegungen, Kap.3 : ٢٦ - قارن كتابي :

Sperry, R.W.(1964). The great cerebral Commissure : ٢٧ - أنظر :

Scientific American, 210,42-52, und Eccles, J.C.(1970), Facing Reality. Springer , Berlin, Heidelberg, New York, 73-79.

Eccles, L.C.(1972) Unconscious actions : ٢٨ - أنظر

emanating from the humon cerebral cortex لم ينشر من قبل

Vermutungen und Widerlegungen, Kap.3 : ٢٩ - أنظر كتابي :

Rass, A.(1972) The rise and Fall of the doctrine : ٣٠ - أنظر :

of performatives , In:Contemporary Philosophy in Scandinavia(ed.R.E.Olson und A.M.Paul) John Hopkins Press, Baltimore, 197-212.

Objektive Erkenntnis, Kap. 8 : ٣١ - قارن كتابي

Objektive Erkenntnis, Kap. 7 : ٣٢ - قارن كتابي

المقالة الثالثة
ملاحظات فيلسوف واقعى
بشأن مشكلة الجسد والنفس

**Bemerkungen eines
Realisten über das Leib-
Seele- Problem**

محاضرة ألقاها كارل بوبر فى مدينة مانهام ٨ - مايو - ١٩٧٢

إن لم تخنى الذاكرة فإن هذه هى المحاضرة الثالثة التى ألقيتها هنا فى ألمانيا . هى الأولى بالطبع فى مدينة " مانهايم " وحيث أن هذا يعنى أنى لا أحضر إلى هنا كثيرا فإنه كان يجب على أن أختار موضوعى بعناية .

I

لقد فكرت فى بداية الأمر أن أتحدث عن أول كتيبى أى أن أتحدث عن الحل الذى قدمته للمشكلتين الأساسيتين لنظرية المعرفة ، وهما أولا مشكلة الحد الفاصل بين المعرفة التجريبية والميادين الأخرى الهامة وذات الدلالة كالميتافيزيقا على سبيل المثال وثانيا مشكلة الإستقراء . إلا أن الحل الذى قدمته لهاتين المشكلتين معروف وقد تناوله كتابى منطق الكشف . ورغم أن لدى الآن حولا جديدة لم تنشر حتى الآن إلا أننى خشيت من الحديث فيها مرة أخرى أن يخرج البعض بالإلتطباع أنى قد وقفت عند هذه الموضوعات القديمة ولم أتجاوزها .

ومن ثم فقد فكرت أن أتناول موضوعا فى الفلسفة الاجتماعية لأتحدث فيه . إلا أن هناك ثلاثة مجلدات ترجمت لى فى هذا الميدان . ثم أن هذا ميدان - تحدث فيه صديقى " البروفسور هانز ألبرت " فى كتابه "مباحث فى العقل النقدي Traktat über die kritische Vernunft " حديثا رائعا .

إن لدى مبررات لإختياري لموضوع التأثير المتبادل بين الجسد والنفس للحديث فيه . تتطوى هذه المشكلة على لغز كبير ربما لم يتمكن أحد من تقديم حل له . فهذه المشكلة هى أكثر مشكلات الفلسفة صعوبة وعمقا وتشكل المشكلة الرئيسية للميتافيزيقا فى العصر الحديث . كما أنها أكثر المشكلات ذات الدلالة بالنسبة لنا كبشر . وهذا هو السبب الذى جعل الفلسفة الوجودية تطلق تسمية " الموقف الإنسانى " لأن الإنسان جوهر عقلى على الأقل للمدى

الذى هو وعى كامل ، فهو جوهر عقلى ، أنا ، نفس شديدة الإتصال بجسم -
يخضع لقوانين الفيزياء . هذه المسألة تكاد تكون بديهية ، ولقد تناول فلاسفة
الوجودية المشكلة - التى تكمن خلف هذه البداهة - بل أريد أن أقول خلف
هذه البداهة الشديدة دون أن يقدموا لنا تفسيراً معقولاً لها .

إلا أن مشكلة العلاقة بين الجسد والنفس مشكلة خطيرة ، تتضمن مشكلة
حرية الإنسان ، وهى مشكلة أساسية من كل الجوانب ، بل ومن الناحية
السياسية أيضاً ، كما تتضمن مشكلة وضع الإنسان فى العالم الفيزيقي ، أو
الكون الفيزيقي والذى سأسميه مستقبلاً العالم ١ ، أما عالم حوادث الوعى
الإنسانى فسأطلق عليه العالم ٢ ، أما عالم النواتج الموضوعية للعقل البشرى
فسأطلق عليه عالم ٣ وهو ما سأحدث عنها جميعاً بالتفصيل مستقبلاً .

هنا فإننى أود أن أذكر سبباً آخر لإختياري هذا الموضوع ولتقديم نفسى
- كما يظهر فى العنوان - كفيلسوف واقعى . لقد درج الكثير من الفلاسفة
وعلماء الاجتماع فى ألمانيا - هؤلاء الذين سمعوا فقط عن أعمالى - على
اعتبارى فيلسوف وضعى من حيث أنى قد نشرت أول كتابى - ذلك الذى
انتقدت فيه الوضعية نقداً حاداً - ضمن سلسلة كتابات حلقة فيينا - الفيلسوف
الوضعى فى هذا الإطار يعد عدواً للتأملات الفلسفية وبصفة خاصة عدواً
للواقعية . من هنا فإن أحد أسباب اختياري هذا الموضوع هو أنى أردت أن
أتناول موضوعاً يظهر من العنوان أنه ليس من موضوعات الوضعية .

ملاحظة أخرى أضيفها بشأن كلمة " الميتافيزيقا " لقد استخدم هيجل
وماركس وإنجلز ولينين هذه الكلمة لوصف فلسفة بعينها ، فلسفة تتسم بأنها "
عدوة للتطور " تنظر للعالم كعالم هو بالأحرى عالم ثابت وليس عالماً
ديناميكياً . لقد كان هذا الاستخدام Sprachgebrauch دائماً مثاراً للتساؤل
أو النزاع من حيث أن مشكلة التغير والتطور المستمر للعالم كانت واحدة من
أقدم مشكلات ميتافيزيقا ما قبل سقراط . وعلى كل حال فأنا لا أعتقد فى عالم

ثابت ولكن فى عالم يتغير ، ووفقا لمعرفتى فإنه لم تعد هناك منذ مدة طويلة
ميثافيزيقا تؤمن بالثبات. من هنا فإنى أتحدث عن نفسى كفيلسوف واقعى
يفترض نظرية للتطور وقدم بالفعل — إذا كان يمكننى أن أقول هذا —
المشكلة الديناميكية لنمو معرفتنا فى نظرية العلم .

أود — كنقطة أخيرة لهذه المقدمة — أن أذكر أيضا أنى سأركز على
الحديث ببساطة وبطريقة يفهما الجميع . إلا أن هذا للأسف لايعنى أن
حديثى من الممكن فهمه ببساطة . تكمن الصعوبة القصوى فى التمييز بين
العوالم ١ ، ٢ ، ثم ٣ بصفة خاصة . من هنا فإنى سأبدأ بهذه الصعوبة ، إذ
أن ذلك سيجعل سائر ماعداها سهلا نسبيا .

أسمى عالم الحوادث الفيزيقية " العالم ١ " ، وعالم الحوادث النفسية
"العالم ٢ " هذا سهل نسبيا ، إلا أن الصعوبة تبدأ بما اسميه " العالم ٣ " .
أسمى العالم الذى ينتجه العقل البشرى بمعنى واسع " العالم ٣ " ، وبمعنى
ضيق فهو عالم النظريات بما فيها النظريات الخاطئة وعالم المشكلات العلمية
بما فيها المسائل التى تدور حول صدق أو خطأ النظريات المختلفة . تنتمى
الأشعار والأعمال الفنية كأعمال مونتسارت على سبيل المثال إلى "العالم ٣ "
بمعناه الواسع . ولكن يمكن لمن يريد أن يطلق على عالم الأعمال الفنية "
العالم ٤ " ، وعلى كل فهذا اختلاف فى المصطلح تكمن الأهمية فى التمييز
بوضوح بين النظريات العلمية التى تنتمى للعالم ٣ والعالم السيكولوجى ٢ .
لقد قدم كل من بولزانو ثم جوتلوب فريجه أوضح تمييز ممكن . إلا أننى
أريد هنا أن اضيف إلى ما قالاه .

لقد تحدث " بولزانو " ^(١) عن عالم " القضايا فى ذاتها " Satze an sich
ليعنى بها القضايا بالمعنى المنطقى فى تمييزها عن الحوادث السيكولوجية .
أما " فريجة " فقد تحدث عن محتوى القضية ليعنى بها أيضا القضية بالمعنى

(١) لقد ميز بولزانو بين (الحقائق فى ذاتها) والتى كان يؤمن بوجودها وجودا سابقا
ومستقلا عن وجود اللغة والإنسان ، (والقضايا فى ذاتها) ثم القضايا المعبر عنها باللغة .

المنطقي .

ولنتناول مثالا بسيطا ، لنفترض أن عالمين رياضيين وصلا إلى نتيجة خاطئة وهي أن $3 \times 4 = 12$. هنا فإن لدينا حادثتين متميزتين جدا من حوادث التفكير في العالم ٢ . إن $3 \times 4 = 12$ قضية في ذاتها (خاطئة) ، ذات محتوى خاطئ من الناحية المنطقية . لا تنتمي هذه القضية في ذاتها للعالم ٢ ولكن للعالم ٣ ، يمكن أن نقول عنها أنها نقيض القضية $3 \times 4 = 12$ من الناحية المنطقية. ويمكن أيضا أن نقول أن هذه القضية $3 \times 4 = 12$ تنتمي للعالم ٣ لأنها خاطئة من الناحية الموضوعية وتظل خاطئة حتى ولو اعتقد فيها كثير من الرياضيين .

يمكننا إذن أن نميز بين العالم ٢ — الذي نجد فيه حوادث الفكر الذاتية — والعالم ٣ الذي نجد فيه القضايا الموضوعية أو محتويات الفكر الموضوعية.

لقد كانت هذه هي رؤية " بولزانو " و " فريجة " في جوهرها . ما أضيفه إليهما أنني لا أعتبر القضايا في ذاتها صادقة فقط موضوعات العالم ٣ ولكني أضيف إليهما القضايا في ذاتها الخاطئة أيضا وكذلك المشكلات والأحاجيج Argumentationen .

هنا أود أن أقول شيئين عن العالم ٣ . الأول أن لهذا العالم صفة "الفعلية" والثاني : أنه " مستقل " على الأقل بصورة جزئية ، مما يعني أن له تركيبات داخلية تستقل ولو جزئيا على الأقل عن العالم ٢ .

ولنتحدث الآن عن صفة الفعلية . الأشياء الفيزيائية للعالم ١ كالحجارة والأبنية والحيوانات هي أمثلة على صفة " الفعلية " . أقترح — بالإضافة لذلك — أن أطلق أيضا هذه الصفة على كل ما يؤثر في أشياء العالم ١ سواء أكان تأثيرا مباشرا أو غير مباشر .

أزعم الآن أن النظريات العلمية التي تنتمي للعالم ٣ يمكنها أن تؤثر

— بصورة مباشرة أو غير مباشرة — على أشياء العالم ١ .

يمكن أن نجد أوضح مثال على ذلك فى بناء ناطحات السحاب .

فناطحة السحاب شئ فيزيقى ينتمى للعالم ١ ولكنها قد بنيت وفق خطة معينة .
وهذه الخطة تأثرت بنظريات وبمشكلات معينة .

أسلم بأن الخطط والنظريات والمشكلات التى تلعب دورا فى بناء ناطحة سحاب تؤثر أولا فى وعى مجموعة مختلفة من البشر كالمهندسين المعماريين مثلا ، أى تؤثر فى العالم ٢ ، ومن ثم فى عالم الحركات الفيزيكية لعمال البناء ومن ثم فى الحجارة والحفارة والطوب المستخدم فى البناء . فهذه هى الحالة التى تتكرر كثيرا . ويؤثر العالم ٣ عادة بصورة غير مباشرة فى العالم ١ من خلال العالم النفسى ٢ . وربما لا يكون فقط غالبا ولكن دائما يؤثر العالم ٣ فى العالم ١ بصورة مباشرة ولكن فقط من خلال العالم ٢ . وعلى كل حال فإن مثالنا هذا يظهر صفة الفعلية ، أو واقعية كل العوالم الثلاثة أى ليس فقط واقعية العالم ١ ولكن أيضا واقعية العالمين ٢ و ٣ .

وإذا إنهارت إحدى ناطحات السحاب أو أحد الكبارى كما يحدث للأسف من وقت لآخر ، فإن هذا يعود إلى خطأ تفكير للعالم ٢ ، أى يعود إلى اعتقاد ذاتى خاطئ وأحيانا إلى نظرية موضوعية خاطئة ، المهم أنه يعود إلى خطأ فى العالم ٣ .

هناك بالطبع فلاسفة ينكرون فعلية العالم ٣ ، يقولون نعم لأفكارنا وجود ومن ثم للعالم ٢ وجود ولكن لاوجود للمحتوى فى ذاته فهم يرون المحتوى تجريدات للحوادث النفسية ، أى أوهم .

أما رأى الذى اتبناه فهو أن العالم ٣ هو بالفعل نتاج جينى للعالم ٢ إلا أن له تركيبا داخليا مستقل استقلالاً جزئيا .

أفضل الأمثلة على ذلك يمكن أن نجدها فى الرياضيات . فسلالة الأعداد الطبيعية ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ... الخ هى فيما اعتقد نتاج للغتنا .

فهناك لغات بدائية لا تعرف سوى ١ ، ٢ وكثير ولغات لا تصنع نـ تنجـور
العدد ٥ .

إن السلسلة اللانهائية للأعداد الطبيعية — مثلها في ذلك مثل اللغة
البشرية — إختراع هائل للبشرية . إلا أن الأعداد الأولى لم يختراعها أحد .
لقد اكتشفت في سلسلة الأعداد .

يجب على أن أفصل القول في هذه النقطة الهامة .

لقد قال عالم الرياضيات الألماني الكبير كرونكر Kronecker ^(١) عن
الرياضيات : " لقد خلق الله الأعداد الطبيعية ، أما سائر ماعداها فمن عمل
الإنسان " . أما أنا فأقول في مقابل هذا : أن الأعداد الطبيعية من خلق
البشر ، فهي نتاج ثانوي للغة البشرية ولاختراع العد Zahlen والإستمرار في
عملية العد Weiterzahlen ، كما أن عمليتي الجمع والضرب اختراع
بشرى .

أما قوانين العد والضرب (مثل قوانين الارتباط
Assaziationsgesetze) فليست اختراعا بشريا ، فهي نتائج غير مقصودة
وغير مرادة للإختراع البشري ، فهي اكتشاف ، مثلها مثل وجود الأعداد
الأولية ، أي الأعداد التي لا تنقسم (الأعداد التي ليست نتاج عملية ضرب
بخلاف ما يمكن ضربها في ١) . وهي ليست فقط اكتشافا ولكنها اكتشاف
متقدم — لقد تم اكتشاف الأعداد الأولية في سلسلة الأعداد الطبيعية . لم
يكشفها شخص بعينه وإنما اكتشفها الذين كانوا يدرسون الأعداد والعجائب
التي تحيط بها ، أي الرياضيون الحقيقيون .

يمكن القول — من الوجهة التاريخية — أنها وجدت مع الأعداد
الطبيعية ، إلا أنها لم توجد في عالم الوعي البشري ٢ قبل أن يتم إكتشافها
وذلك بعد مئات السنوات . يمكننا القول أنها توجد في العالم ٣ مع الأعداد

(١) ليوبولد كرونكر L.Kronecker (١٨٢٣ — ١٨٩١) عالم رياضي ألماني تكمن
أسهاماته بصورة رئيسية في نظرية المعادلات الجبرية .

الطبيعية ، فهي توجد إثر في جزء مستقل من العالم ٣ ، قبل اكتشافها . وبعد اكتشافها أصبحت توجد في العالم ٢ (ولكن لفئة قليلة من البشر . للرياضيين) مثلما توجد في العالم ٣ .

يمكننا بل يجب علينا القول أن وجود الأعداد الأولية في العالم ٣ كان أحد العلل الأساسية Ursachen لحوادث التفكير في العالم ٢ والتي أدت إلى اكتشافها مثلما كان وجود قمة افرست علة أدت بمصلحة المساحة الهندية الى اكتشافها . يبين ذلك أن الجزء المستقل للعالم ٣ يمكنه أن يؤثر بصورة عليّة في العالم ٢ إلا أنه يؤثر في نفس الوقت في العالم ١ . من المؤكد أن أول رياضي — أوضح تلاميذه أن هناك أعداد أولية — استخدم لسانه للتعبير عن هذا ، إلا أن السنتنا — مثلها في ذلك مثل أجسادنا — تنتمي للعالم ١ . ثم بدأ علماء الرياضة اللاحقون في دراسة الأعداد الأولية وخصائصها ، وهذه الدراسة لم تنته حتى اليوم . هناك مشكلات كثيرة مفتوحة في نظرية الأعداد . لقد اكتشفت هذه المشكلات ومن ثم فهي تنتمي للجزء المستقل من العالم ٣ .

لقد وجد الرياضيون القدماء — على سبيل المثال — أن الأعداد الأولية تحدث بصورة أقل أو توجد بصورة مكثفة متى تقمنا في سلسلة الأعداد الى الأعداد الكبيرة: تبدأ سلسلة الأعداد الأولية بالأعداد ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٧ ، والعدد ٣ هو زوج الأعداد الأولية الوحيد الذي يوجد بصورة مكثفة ، بحيث لا يوجد فيه لأي عدد طبيعي ولكن هناك أزواج أخرى كثيرة لأعداد أولية مثل ٥ ، ٧ / ١١ و ١٣ / ١٧ و ١٩ / ٢٩ و ٣١ / توجد بصورة مكثفة بحيث لايفصل بينهما سوى عدد واحد صحيح . هذه الأزواج يمكن أن نسميها الأعداد الأولية الزوجية .

أريد الآن أن أنكر بعض المشكلات التي تم اكتشافها في العالم ٣ عن الأعداد الأولية .

المشكلة الأولى : إذا تقدمنا أكثر وأكثر في سلسلة الأعداد وقلت الأعداد الأولية أكثر وأكثر فهل يتوقف حدوثها تماماً إذا تقدمنا إلى عدد كبير جداً ؟ أو — بعبارة أخرى — ألا يوجد عدد أولى كبير لا توجد بعده سوى أعداد قابلة للإنقسام ؟

وسواء أكان اقليدس هو من صاغ هذه المشكلة أم لا فلقد كان هو من اكتشف حلها . فلقد اكتشف اقليدس حجة تبرهن على أنه لا يوجد عدد أولى كبير . ومن ثم فقد بين أنه لانهائية لسلسلة الأعداد الطبيعية . فالبرهان على سلسلة الأعداد الطبيعية برهان بسيط للغاية : لنفترض أن لها نهاية وأن العدد (١) هو أكبر عدد طبيعي . عندئذ يمكن أن نركب ببساطة العدد (١ + ١) ونظهر أن افتراضنا كان خاطئاً . هذا يعني أن لدينا هنا برهاناً في الخلف نقبل بموجبه أن هناك أكبر عدد طبيعي . لقد اكتشف اقليدس برهاناً جوهرياً معقداً للخلف نقبل وفقاً له القول أن هناك أكبر عدد أولى . هذا البرهان الرائع لاقليدس أقام نظرية منطوقها أن سلسلة الأعداد الأولية سلسلة لانهائية . تنتمي نظريته للعالم ٣ ، أما عمله الفكري فينتمى للعالم ٢ ويعتمد بصورة عليه على الواقعية التي تنتمي للعالم ٣ والقائلة بأنه لاوجود لعدد أولى نهائي .

لقد صاغ اقليدس برهانه في كتابه المشهور " العناصر " هذا يعني أن نظريته التي تنتمي للعالم ٣ قد كتبت على ورق ومن ثم فقد غيرت بصورة عليا العالم ١ عن طريق العالم ٢ لاقليدس . يوجد برهان لاقليدس الرائع هذا في كل كتاب منشور عن نظرية الأعداد إلا أن الكتاب تم طبعه ونشره بواسطة الآلات. تنتمي الآلات والكتاب بطبيعة الحال — من حيث أنها موضوعات فيزيقية — للعالم ١ . هذا يعني أن لدينا مرة أخرى تأثير على جاء من الجزء المستقل للعالم ٣ وأثر في العالم ١ بصورة عليا عن طريق العالم ٢ .

مشكلة أخرى مشابهة للأولى — لم تحل في حدود علمي — هي مشكلة ما إذا كان هناك زوج نهائي من الأعداد الأولية التي هي أعداد أولية زوجية. لم يشك أي عالم رياضي — في حدود علمي — أنه لا وجود للأعداد الأولية الزوجية ولكن — للمدى الذي اعرفه — لا وجود لبرهان على هذا الافتراض. فهذه مشكلة لم تحل تنتمي للعالم ٣ وهي مشكلة تؤثر بطريقة عليّة في الرياضيين الذين حاولوا حلها .

لقد قلت لتوي أن الكتب تنتمي للعالم ١ ، إلا أن محتواها ينتمي بالطبع للعالم ٣ ، بمعنى أنه إذا صدرت طبعتان مختلفتان لكتاب "أقليدس" العناصر" فإنهما معا ينتميان للعالم ١ للمدى الذي هما طبعتان مختلفتان ، إلا أنهما ينتميان للعالم ٣ للمدى الذي لهما نفس المحتوى .

تنتمي الكتب والمكتبات ومسودة هذه المحاضر إذن للعالمين ١ ، ٢ ، فلذا افترضنا شخصا لا يعرف الألمانية يستمع لهذه المحاضرة (ربما يجب أن أقول : الألمانية التي يتحدثها أهل فيينا) فإن هذا يعني أنه اكتسب فقط الجانب المنطوق أو السمعى من المحاضرة والذي ينتمي للعالم ١ . أما من يفهم الألمانية ويحاول تتبع حججى ، فإن الجانب المسموع الذي ينتمي للعالم ٣ هو فقط الجانب الهام بالنسبة له .

أما محاولة تتبع محتوى محاضرتي فينتمى للعالم ٢ ، ومتى فعلتم ذلك فإن هذا يعني أنكم تركزون في الموضوع الذي ينتمي للعالم ٣ . لقد أثر إذن عالمكم ٣ في العالم ٢ .

هناك موضوعات تنتمي لكلا العالمين ٢ ، ٣ وموضوعات للعالمين ١ ، ٣ . إن فكرتي الأساسية هي أن هناك أيضا موضوعات تنتمي فقط للعالم ٣ ، كبرهان لم يتم اكتشافه بعد يحاول فيه أحد علماء الرياضيات وسيتم اكتشافه غدا . سينتمي هذا البرهان غدا للعالمين ٢ ، ٣ وعندما تتم كتابته فسينتمي للعالم ١ (إلا أنه اليوم قد أثر بالفعل في العالم ٢) .

نحن لا نعرف ، إلا أننا يمكن أن نخمن ، أن البرهان ينتمى بالفعل للعالم ١ حتى قبل كتابته ، إذ أن هناك احتمال أن حوادث التفكير الخاصة بالعالم ٢ ترتبط بالحوادث الحادثة في المخ أى ترتبط بحوادث جسدية تنتمى للعالم ١ .

II

بذلك أصل إلى مشكلة الجسد والنفس .

إن مشكلة الجسد والنفس هى السؤال عما إذا كانت حوادث التفكير الخاصة بالعالم ٢ ترتبط بحوادث المخ فى العالم ١ أم لا ، وإذا كان ذلك كذلك فكيف ؟

يمكن صياغة محاولات الحل الأساسية لهذه المشكلة على النحو التالى :

١ - التفاعل السيكوفيزيقي المتبادل : يتأثر العالم ٢ والعالم ١ بالتبادل ، يؤثر كل منهما فى الآخر ، بمعنى أن تنشأ حوادث فى المخ عند سماع محاضرة ما أو قراءة كتاب معين ، تؤثر فى العالم ٢ لأفكار القارئ أو السامع ، والعكس عندما يتتبع عالم رياضى برهانا ما ، عندئذ يؤثر عالمه فى مخه ومن ثم فى العالم ١ .

هذه هى إذن الفكرة الأساسية للتأثيرات السيكوفيزيكية المتبادلة .

٢ - التواز السيكوفيزيقي : تحدث كل حادثة فكرية فى العالم ٢ مع حادثة للمخ فى العالم ١ بالتواز .

٣ - الإتجاه الفيزيقي الخالص أو الفلسفة السلوكية أو السلوكية الفلسفية : وهى الفكرة القائلة أنه لاوجود سوى لعالم واحد ، العالم ١ ولاوجود فيه سوى لحركات البشر أو الحيوانات أو لسلوك الحيوانات والناس ، ومن ثم فما أسميه العالم ٢ لاوجود له وبالتالي لاوجود أساسا أيضا لما أسميه العالم ٣ .

٤ - الإتجاه النفسى الخالص أو المذهب الروحى :

وهو الإتجاه القائل أن العالم ٢ فقط ما يوجد وأن العالم ١ ليس سوى

تصوراتي. ومن ثم فلدينا الآن بصورة جوهرية محاولات الحل الأربع هذه :
١ - التفاعل السيكونيقي المتبادل ٢ - التواز السيكونيقي ٣ - الاتجاه
الفيزيقي الخالص أو الفلسفة السلوكية أو السلوكية الفلسفية ٤ - الاتجاه
النفسي الخالص .

أعتقد أن أولى وأقدم محاولات الحل هذه هي الوحيدة التي تستحق
التناول .

ولنلقى الآن نظرة قصيرة على محاولتي الحل الثالثة والرابعة . أعتقد أن
كلاهما تنتميان لمحاولات حل مشكلة ما عن طريق تجاهل المشكلة بدفن
الرأس في الرمال Durch eine Art von Vogel - StrauB
philosophie .

هنا تختفى على الفور مشكلة العلاقة بين الجسد والنفس بسداجة إذا انكرنا
وجود إما النفس أو الجسد .

يمكنني أن أبين بالتفصيل أن التركيب المنطقي لكلا هاتين المحاولتين
لحل المشكلة هي فلسفة تدفن رأسها في الرمال ورغم أن هناك حالياً دعاة
كثيرين للاتجاه الفيزيقي أو السلوكي وبصفة خاصة بين الفلاسفة الإنجليز
والأمريكان والأستراليين ، فإنني لا يمكنني أن أتأولها بصورة كافية لكي
أعطي الوقت لنقد تفصيلي .

تتضمن أولاً مناقشتي لوجود العالم ٣ الحجة التي تتضمن وجود العالم ٢
كوسيط بين العالمين ٣ ، ١ .

ولنتحدث بصورة مماثلة عن الاتجاه النفسي الخالص . فنحن نعرف
الآن أنه لاوجود لجوهر مادي من حيث أن المادة تركيب عال التعقيد أمكن
تفسير جانب منه (فالجوهر في الفلسفة هو حامل غير مجسّد لخصائص
جوهرية التي تشكل أسس التفسير والتي لا تتطلب تفسيراً ولا هي كفو للتفسير)
فرغم أن المادة ليست جوهرًا فالأشياء المادية هي أفضل الأمثلة لما ينظر

إليه على أنه واقعي أو موجود .
الأمر يختلف بالنسبة لمحاولة الحل الثانية ، والتي تأخذ بالتواز

السيكوفيزيقي .

يعترف التواز السيكوفيزيقي بوجود كل من الجسد والنفس ويمكنه أيضا
أن يقبل وجود العالم ٣ . فمن وجهة نظر مشكلة الجسد والنفس ، فإن الدافع
الأساسي للتواز السيكوفيزيقي هو أنه يسمح برؤية العالم من حيث أنه عالم
مغلق بصورة عليّة أو بمعنى أدق عالم يتأسس من نسقين متوازيين مغلقين
بصورة عليّة .

هذه الرؤية هامة جدا لكل عالم فيزيقي ، لأن الفكرة التي تذهب إلى أن
الحوادث الفيزيكية يمكن أن تعتمد على الحوادث العقلية فكرة غير مقبولة
للفيزيقي على الإطلاق ، كما أنه من الصعب تكوين نمط لمثل هذا التأثير
الطبي ، بمعنى أن نتصور التأثير في تفصيلاته .

هذا هو السبب الحقيقي الذي أدى إلى رفض التأثير السيكوفيزيقي
المتبادل . أصل الآن إلى الأسباب المضادة . أسلم تماما أنه لاوجود
لحوادث نفسية دون حوادث في المخ ، ولكن أن نتحدث عن توازن فإنه كان
يجب أن نقول أن هناك جزءا من المخ لا تحدث فيه حوادث فيزيقية ولايسبب
حوادث نفسية متوازية .

كما كان يجب أن نقول أن هناك تتابعا بين سائر الحوادث المميزة لهذا
الجزء من المخ وسائر الحوادث المميزة للعالم ٢ .

يبدو أنه لاوجود لمثل هذا التتابع ذي الدلالة. نقطة من الممكن أن نزيل
أجزاء من المخ وتتولى جوانب أخرى عندئذ وظيفة الجزء الذي تم إزالته .
يبدو أن إمكانية تولي وظيفة ما هي إحدى الخصائص المميزة لمعظم
الكائنات الحية (ومعظم مظاهر الحياة) . ورغم أنني على استعداد للتسليم
بأنه لاوجود لحوادث تفكير في العالم ٢ دون أي حوادث في المخ في العالم

١ ، فإنه لهذا يبدو لى أنه لاوجود لمعية فعلية فالأمر يشبه ما نقوله فى كتاب أو محاضرة بشأن العلاقة بين محتوى الفكرة فى العالم ٣ ومادة هذا المحتوى فى العالم ١ . فالمحاضرة بمعنى العالم ٣ تبقى هى هى سواء كنت أقرأ بسرعة أو ببطء ، بصوت عال أو منخفض ، كما أنه من الممكن ترجمتها بدقة إلى لغة أخرى ، كما يمكن طبع الكتاب فى طبعات مختلفة عن بعضها وسيظل بالطبع لسائر هذه الطبعات والترجمات المختلفة شئ واحد مشترك ، دون أن يكون هناك أى تتابع دون دلالة . ومن ثم دون تواز فعلى أو معية فعلية .

أصل الآن إلى حجتى الأكثر أهمية . تأملوا من فضلكم بينتنا الفيزيائية ، العالم ١ وإلى أى مدى تغيرت من خلال نظريات العالم ٣ كالنظرية الذرية أو نظرية الموجات الصوتية ، أى نظرية الإرسال الإذاعى Funksendung والهامة فى التحكم فى الصواريخ التى ترسل إلى القمر Mondraketen . إذا تأملنا العالم ١ وبصفة خاصة التغيرات التى تحدث فى العالم ١ ، عندئذ يبدو لى بصورة واضحة أن العالم ١ ، العالم الفيزيقي ليس مغلقا بصورة كلية فى مواجهة العالمين ٢ ، ٣ .

ولكن محاولة انقاذ الإنغلاق العلى للعالم ١ منظورا إليها من الناحية المنطقية — هى الدافع الأساسى لإحلال أولى وأقدم محاولات الحل وهى التفاعل السيكوفيزيقي المتبادل عن طريق الإتجاه الذى ينادى بالتواز . تبدو لى هذه المحاولة غير واقعية . ورغم أنى أرى — لكونى طالبا سابقا للفيزياء ثم معلما لها — لماذا من الصعب قبول عدم الإنغلاق العلى للفيزياء ، فإنه مع هذا يبدو لى أن هذه الأيديولوجيا يمكن دحضها من خلال الوقائع .

تعود أيديولوجيا الإنغلاق العلى للعالم الفيزيقي الى زمن كانت فيه الفيزياء بأكملها ميكانيكا ، وهى الأيديولوجيا التى دحضتها بالفعل ضرور

افتراض نظرية كهرومغناطيسية •

نحن لا نعرف شيئاً عن العلاقة بين القوى الكهرومغناطيسية وقوى الجاذبية أو عن العلاقة بين هذين الميدانين معاً والقوى النووية • لا وجود لدينا لأنماط لهذه العلاقات. ولكن الوقائع لا تترك مجالاً للشك أن هناك تفاعلاً متبادلاً قائماً بين هذه الميادين المختلفة ، وأن ضغط الجاذبية في الشمس على سبيل المثال تحل فعل القوى النووية التي تستخدم من جانبها قوى الهيدروجين في نوى الهليوم • ومع هذا تبدو القوى المختلفة - الجاذبية ، الديناميكا الكهربائية والقوى النووية - أنها لا يمكن أن تُرد إلى بعضها البعض • فكل ميدان من هذه الميادين ميدان غير مغلق (مفتوح) رغم أن أيديولوجيا الإنغلاق العلى أدت إلى محاولات عديدة لإيجاد نظرية موحدة • وهو ما ظل أينشتاين يحاوله منذ ١٩١٩ حتى ١٩٥٥ •

يبدو لي أن التمسك الاعتقادي الدجماطيقي بإنغلاق الفيزياء في ظل هذه الظروف تمسك خاطئ •

يمكن تلخيص ماسبق في أن الواقعة القائلة بأن نظريتنا والتي تنتمي للعالم ٣ تؤثر في العالم ١ عن طريق العالم ٢ تقف ضد مسألة الإنغلاق العلى للعالم ١ ومعها تسقط كل الأسس التي تقف ضد نظرية التفاعل السيكونيفيقي المتبادل •

III

يمكن صياغة فكرتي التالية على النحو التالي : يلعب وجود العالم ٣ والواقعة القائلة بأننا يمكننا فهم موضوعات العالم ٣ من خلال حوادث التفكير، أي الحوادث التي تحدث في العالم ٢ دوراً في تفسير الوعي الذاتي البشري أو تفسير الأنا Ichhaftigkeit أو النفس البشرية في مقابل النفس الحيوانية •

لقد ذكرت من قبل أن المادة ليست جوهرًا ولكنها تتطوى على تركيب
معقد يمكن لنا على الأقل تفسير جزء منه كما أن النفس أو الأنا البشرية هي
بالمثل ليست جوهرًا ولكنها تركيب معقد . فهي في المقام الأول ليست مجرد
وعى خالص ولكنها تشتق من المعرفة المعبر عنها في نظريات والموجودة
في العالم ٣ .

كذلك للحيوانات توقعات تتعلق بالخبرات التي مرت بها في الماضي ،
فأنتم تعرفون بالتأكيد قصة الفار الذي قال لفار آخر : " لقد روضت الرجل ذا
المعطف الأبيض ترويضًا جيدًا . بحيث أننى في كل مرة أضغط له فيها
على يد هذه الماكينة فإنه يسرع بإحضار الطعام لى " .

تقترب هذه القصة — من وجهة نظرى — من نظرية رد الفعل العكسى
الإشتراطى والتي لا أعتقد فيها . نعم لكلب بافلوف رد فعل عكسى ولكنه
ليس إشتراطيًا ، فلقد قام كلب بافلوف بإكتشافات . وللاسف لن يمكننى أن
أفضل القول فى هذا هنا . وعلى كل حال فالحيوانات لديها معرفة فطرية
dispositionnelles ووعى بالزمن ولكن يمكننا أن نخمن أنه ليس لديها
نظرية واعية عن الزمن ، عن الماضى والحاضر والمستقبل . فالوعى بالأنا
يتطلب بالضرورة أن أعرف أن لدى تاريخ حياة يكون قابلاً — على الأقل —
لتأويل ملامحه العامة .

فنحن نعرف أن هناك حالات مرضية يمكن أن ينسى فيها المرء هويته ،
مما يعنى أن معرفتنا بهويتنا ليست مسألة بديهية . فأنا لا أشك أن الميل
لتطوير وعى بالذات أو أنا هو ميل فطرى ، إلا أننا مع هذا فى حاجة فنى
المقام الأول إلى بيئة اجتماعية بها أفراد آخرون وتعلم لغة ونظريات
مصاغة لغويًا لكي نعرف أن لدينا أنا .

من الممكن أن يكون للحيوانات شخصية . هذا فى جانب منه فطرى
وربما فى جانب آخر يتم اكتسابه . إلا أننى لا أعتقد أن الحيوان يعى

بهيئته، بما فى ذلك نظرية هوية الجسد الواحد قبل النوم وبعد الاستيقاظ .
بمعنى النظرية القائلة أن لدينا جسدا واحدا والنظرية القائلة أن وعينا ينقطع
أثناء النوم إلا أن جسدا يظل هو هو وأنه يمكننا استدعاء أفكارنا التى كانت
لدينا فى الماضى . هذا أكثر من مجرد تفكير بالمعنى الذى للحيوانات أيضا
فكر .

أعتقد أنه لتحقيق الوعى الذاتى أو الوعى الكامل بالأنسا - فلا بد أن
ينطوى تحقق هذا على وجود لغة يمكننا فيها أن نوسم أنفسنا والآخرين بإسم
معين . فليس من قبيل المصادفة أن الاطفال تتعلم أولا اسماءها قبل أن
تتحدث عن نفسها بكلمة " أنا " .

هناك إذن تفاعل متبادل هام بين نظريات العالم ٣ والعالم ٢ لحوادث
الوعى البشرية. فالوعى البشرى للمميز يمكن أن ينضج فقط عن طريق هذا
التفاعل المتبادل .

ترتبط هذه النظرية التى شرحتها باختصار بشدة بنظيرتى فى المعرفة
ونظيرتى فى العلم .

تتطوى الفكرة الأساسية لنظيرتى فى المعرفة على أن المشكلات
ومحاولات حلها عن طريق وضع فروض ونظريات أو تخمينات تسبق كل
ملاحظة . فللنظريات أهمية منطقية وتاريخية على السواء فى إتمام خبراتنا،
كما أن لها أهمية فى تاريخنا الشخصى مثلما أن لها أهمية فى تاريخ
البشرية .

النزوعات والتوقعات هى مايقابل النظريات وذلك على مستوى مصادون
البشر ، بل ومن المحتمل جدا أن هناك سحرا فى عالم الحيوان، أما ما نتميز
به نحن البشر فهو الشكل اللغوى المعروف بالقص . الجديد فى اللغة البشوية
أنها يمكن أن تصف وتقدم الحجج : أما التعبير عن الحالة الداخلية
والإشارات فهى موجودة لدى الحيوانات .

أتصور الأمر أن اكتشاف اللغة البشرية الخاصة يتعلق بإمكانية القصص والإخبار بما ما يحدث . وهذا ما يؤدي إلى أن يكون الإبلاغ عن التمني مثلون . ثم تأتي مسألة قص القصص ، فقص القصص كثيرا ما يتناقض ومن هنا نشأت مشكلة الصدق — مشكلة صدق أو كذب حكاية ما أو بلاغ معين مثل الإبلاغ عن صيد . فمع مشكلة ما إذا كان بلاغ ما صادقا أو أنه "مقصود وفق الرغبة" نشأت مشكلة الصدق الهامة المحددة ومعها نشأت إمكانية قص الأساطير أو قص القصص . هذه القصص أو الأساطير هي أيضا التفسيرات النظرية الأصلية فيعود بداية العلم مثلا لدى اليونان إلى هوميروس وهزيود كما كانت بداية الفن أي النقش ما قبل التاريخي لصور الحيوانات البرية التي تم صيدها على الحجر قصصا خيالية .

أما الفن المصري والآشوري فكان في أغلبه رسومات لقصص أو رسومات لقصص زمنية وهكذا وصلنا إلى تطور (نشأة) عالم ٣ .

يمكن تلخيص ماسبق في أنني وصلت إلى نظرية العالم ٣ عن طريق التأكيد على الطابع النظري لمعرفتنا البشرية بنظرية المعرفة وأنتى أعتقد أن تميزنا البشري يكمن في العالم ٣ وأنه لا يمكن تفسيره إلا في علاقته بالعالم الموضوعي ٣ وفكرة البناء الأسطوري والصدق الموضوعي .

تلخيص :

في محاضرتي :

- ١ - لم أحاول حل مشكلة العلاقة بين الجسد والنفس ، بمعنى أنني لا أعرف كيف يؤثر كل من المخ والوعي في بعضهما بالتبادل .
- ٢ - ولكنى قدمت المشكلة بطريقة جديدة تختلف عن الطريقة المعتاد تقديمها بها .

- ٣ - أؤكد على وجود ثلاثة عوالم مستقلة بطريقة جزئية ولكنها تتأثر وتتفاعل بالتبادل - العالم الفيزيقي ١ وعالم حوادث الوعي ٢ والعالم ٣ ،

عالم منتجات العقل البشرى .

٤ - لقد حاولت أن أبين فى مقابل الإتجاه الفيزيقي أو السلوكي أن العالم ٢ موجود وأنه فقط مايمكن أن يفسر تأثير العالم ٣ فى العالم ١ .

٥ - لقد حاولت أن أبين أن العالم الفيزيقي ١ عالم مفتوح فى مقابل العالم النفسى ٢ وهى الفكرة التى لايقبلها الفيزيقيون . ومع هذا فقد حاولت أن أبين أنها مع هذا تبدو صادقة .

٦ - لقد حاولت بصفة خاصة أن أبين أن هناك علاقة تفاعل متبادلة أو ترابط بين العالمين ٢ ، ٣ أن الوعي الذاتى البشرى أو الوعي بالآنا لايمكن فهمه بدون وجود العالم ٣ ، فالوعي بالآنا متأصل فى العالم ٣ .

٧ - من الناحية الجينية فإن العالم البشرى ٢ هو أيضا نتاج للعالم ٣ مثلما أن العالم ٣ نتاج للعالم ٢ . أو بتعبير آخر : نحن نتاج نتاجاتنا ، أو نتاج حضاراتنا التى تساهم فيها جميعا .

المقالة الرابعة
نظرية المعرفة ومشكلة السلام

**Die Erkenntnistheorie und das
Problem des Friedens**

محاضرة ألقاها في مدينة زيورخ أغسطس ١٩٨٥

هل تسمحون لى بالقول أئننى سعيد جدا بهذا الجمع الغير غير المتوقع
من الشباب ؟ ائننى أنوى القيام معكم برحلة حافلة بالمغامرات ومن ثم يبدو
أئننى لابد أن أقدم نفسى لكم أولا .
ائنى اليوم — وقد بلغت من العمر الثالثة والثمانية — أسعد إنسان أعرفه .
أرى الحياة رائعة بطريقة تربو على الوصف ، كما أنها أيضا بالتأكيد
مفجعة . فلقد خبرت آلام فراق الكثير من الأقارب والأصدقاء ، خمسة عشر
شخصا من أقاربنى كانوا ضحايا هتار ، البعض منهم مات فى أفران القتل
الجماعى ، والآخرين إنتحروا . ورغم كل شئ ورغم أئننى لم أياس مطلقا
وأحمل اليوم مشاغل كثيرة ، فإن الموت كان يقطع نياط قلبى وأنا اليوم
سعيد .

لن أخط عن نفسى سطورا أكثر من هذا ، (فما يعتلج فى داخلى من
شعور قد سطرته الثمانية أسطر الأولى من " مقدمة من السماء " لرواية جوته
فاوست ، فأنا أرى العالم كما عبر جوته قائلا :

تتشد الشمس نشيدها القديم

فى سباق أخوى للغناء

لتنهى رحلتها المسطورة

بسرعة الرعد

إشراقها يعطى الملائكة قوة

لايمكن لأحد أن يسير غورها

فالأعمال العلوية لدرجة لايمكن تصورها

أعمال رائعة كما كانت منذ الأزل

أقول هذا كله لأئننى أعتبر أيديولوجيا المفكرين الحالية السائدة عن شرور

العالم حماقة وديننا خاطئا ، فالناس اليوم فى حاجة ملحة إلى الإيهام وهذه

الحاجة الملحة التي يحتاجها البشر بشدة هي اليوم إحدى موصو عني الأساسية . فموضوعي اليوم كبير ولقد عملت بكل جهدي كي اعرضه بأبسط ما يمكن ، وأخاف ألا أكون قد نجحت ، لذا فإنني أطلب مساعدتكم . ولكني أرجوكم أيضا : ألا تأخذوا مني أي إقتراح أو تصدقون لي كلمة واحدة . نعم أعرف أنني أطلب الكثير وأنتى لن أقول سوى الصدق بقدر ما أعرفه ولكنى أحذرکم : أنا لا أعرف شيئا أو تقريبا لاشئ . نحن جميعا لاتعرف شيئا أو تقريبا لاتعرف شيئا ، هذه ، كما اعتقد ، الحقيقة الأساسية فى حياتنا . نحن لاتعرف شيئا ولكن يمكننا فقط أن نخمن : نحن نخمن . إن أفضل معارفنا هي المعرفة التى تقدمها لنا العلوم الطبيعية والتى تكونت فى ألفين وخمسمائة عام . هذه المعرفة الطبيعية لا تتشأ سوى من تخمينات أو افتراضات .

هناك تمييز واضح فى اللغات اليونانية واللاتينية والإنجليزية والأمانية

بين :

المعرفة	#	التخمين
أنا أعرف	#	أنا أخمن

التمييز بسيط للغاية :

٢ - المعرفة تتضمن صدقا يقينيا

إن المعرفة تتضمن اليقين .

ومن ثم لايمكن للمرء أن يقول بجدية بإستخدام هذه اللغات :

" أنا أعرف أن اليوم هو الجمعة إلا أنني لست متأكدا "

الإجابة كان يجب أن يقول

" مادمت لست متأكدا بصورة يقينية ، فإنك لاتعرف ولكنك فقط تخمن "

إن موضوعي الأول الذى سأحدث فيه إنن هو .

٣ - مانعرفه عن طريق المعرفة العلمية الطبيعية ليست معرفة لأنها تتشأ

فقط من تخمينات أو فروض ، أو جزئيا من فروض تعرضت لإختبارات شديدة . باختصار .

٤ - نحن لا نعرف ولكننا نخمن . ورغم أن المعرفة العلمية الطبيعية ليست معرفة فإنها أفضل مالدينا ، وهى ما أطلق عليها معرفة تخمينية (لكى أواسى) الذين ينشدون المعرفة اليقينية ويعتقدون أنه لا يمكن الاستغناء عنها . هؤلاء هم الناس الذين فى حاجة إلى الإيهام والذين تنقصهم الشجاعة فى العيش بدون يقين أو ثقة أو مرشد . قد يكون من الممكن القول : هؤلاء هم الناس الذين يعيشون حبيسى مرحلة الطفولة .

الآخرون يريدون أصدقاء موثوقا فيهم ، أو أصدقاء ينظر الناس إليهم نظرة إحترام ، إذ يرون مثالا ، أو ربما لأنهم قد أنجزوا عملهم بطريقة تفوق العادة . فعندما يعتنون بمريض فإنهم يتحرقون شوقا نحو - من يكون من الناحية الطبية مصدر ثقة كاملة . إلا أنه لا وجود لمثل هذه الثقة الكاملة لأن المعرفة - المعرفة اليقينية - كلمة فارغة .

المعرفة بحث عن الصدق ، إلا أن هذا الصدق ليس صدقا تاما .

٥ - الصدق # الصدق المؤكد

الصدق # اليقين

الكل يعرف ما هو الصدق ، فهو إنطبق جملة ما على واقع فعلى نتحدث عنه الجملة .

٦ - الصدق = اتفاق مع واقع فعلى ، أو ربما الصدق = اتفاق الأمر المذكور مع الأمر الحادث فعلا وعلا كل فالتعريفات ليست ضرورية .

٧ - غالبا ما يمكننا قول الصدق تماما والوصول إليه ، إلا أنه لا يمكننا أبدا الوصول إلى اليقين ، لأننا نعرف - بمعنى المعرفة التخمينية - أن هناك بشرا تتخيل أنها اينشتين أو تتخيل إعادة ميلاد جوته .

فأنا تقريبا أقول الصدق عندما أقول أننى الآن ألقى محاضرة ولكن وفقا

لخبرتي مع هؤلاء الناس فإنه لا يمكنني أن أكون متأكداً بشكل مطلق أنني
لست ضحية خطأ رهيب .

حقاً لا تعنى المعرفة الحقّة سوى اليقين المطلق . ولكننا لانتجنا
التخمينات على الأقل في المعرفة الطبيعية — بخلاف الأمور البسيطة —
(وإن كان الأمر يختلف بالنسبة للرياضيات والمنطق الصوري وهو ما لن
أتحدث عنه اليوم) .

المعرفة بحث عن الصدق وليس بحثاً عن اليقين . ولكن كيف تعمل ؟
يعمل العالم مثل غيره من الكائنات العضوية وفقاً لمنهج المحاولة
والخطأ . المحاولة حل المشكلة ، الخطأ أو بالأحرى تصحيح الخطأ يمثل في
تطور النباتات والحيوانات تعديلاً في الكائن العضوي ، بينما هو في العلم
تعديل للفرض أو للنظرية .

العملية إذن عملية إختيار طبيعي بالمعنى الدارويني .

سؤال : ما الذي يقابل في المملكة الحيوانية مانسميه بالعلم ، أو التوقع أو
الفرض ؟

الإجابة : التوقع . وبشكل أدق : حالة الكيان العضوي التي هيأ نفسه فيها
لحدوث تغير في بيئته أو لعدم حدوث أي تغير . فعندما تتفتح الورود فإنها
تتوقع ، بهذا المعنى ، طقس الربيع . فهي تفترض وفقاً للنظرية أن الجو
يصبح أكثر دفئاً إلا أنه غالباً ما تكذب النظرية وتموت الأوراق من البرد .

٩ — يوجد بهذا المعنى معرفة فطرية لا نهائية في الحيوانات والنباتات
وكذلك الطفل يتوقع بعد ميلاده مباشرة أن يحاط بالعناية والرعاية وأن يتم
إرضاعه ، ثم يتوقع عقب ذلك مباشرة أن يداعب ويتم إضحاكه . لا يتوقع
الطفل هذه الأمور فحسب وإنما هو في حاجة إليها . فالمطالب الغريزية
الفطرية هي نظريات فطرية .

١٠ — كل الكائنات العضوية كائنات نشطة بدرجة عالية ، فهي تستكشف

بيئتها بنشاط وتتشد ظروفها حياتية أفضل أى عالما أفضل ، كما تقوم بنفسها بتحسين ظروفها الحياتية .

١١ - الحياة تحسن البيئة من أجل الحياة وهو ما فعلته منذ ملايين السنين بحيث أصبحنا الناجح المحظوظ لهذا الفعل . ولكن نتيجة أن هذه العملية تحدث من خلال المحاولة واستبعاد الخطأ ، فإن هناك أيضا أخطاء كثيرة في عالمنا .

١٢ - تنشأ المشكلات مع الحياة . والمشاكل توجد فقط متى كانت هناك قيم: مثل تقييم الظروف الحياتية على سبيل المثال .

أصل الآن أخيرا إلى ما أريد هنا أن أفصل فيه القول بشأن نظرية المعرفة ونظرية العلم .

١٣ - يبدأ العلم بمشكلات يحاول حلها من خلال نظريات جريئة مخترعة معظمها خطأ ولا يمكن التحقق من صدقها . يتم استكشاف النظريات القيمة التي يمكن التحقق من صدقها عن طريق منهج استبعاد الخطأ ، فنحن نحاول البحث عن الأخطاء ومن ثم استبعادها . هذا هو العلم الذي ينشأ عن أفكار غالبا ما تكون غير مسئولة يسيطر عليها العلم سيطرة تامة بطريقة تصحيح الأخطاء .

سؤال : إذا كان هذا يشبه تماما ما يحدث لدى الأميبا أو الكائنات العضوية الدنيا . فأين يكمن الاختلاف أو الفرق إذن بين الأميبا واينشتين؟

الإجابة: تنتهى الأميبا بإرتكابها خطأ ما ، فلو كان للأميبا وعى لخافت من إرتكاب الأخطاء ، أما اينشتين فيبحث عن الأخطاء ويمكنه هذا إذ أن النظرية ليست جزءا من ذاته ولكنها موضوع يمكنه بصورة واعية بحثه ووضعها موضع النقد بفضل اللغة البشرية المتميزة والكتابة البشرية التي هي وليدتها . لقد قال اينشتين فى موضع ما " أن قلمي أكثر نكاء منى " ، فكل ما يقال أو يكتب يصبح موضوع بحث يمكننا اخضاعه للنقد وكشف الخطأ الذى يكمن

فيه . على هذا النحو تصبح النظرية التى يتم صياغتها لغويا شيئا شبيهًا ولكنها فى نفس الوقت شيئًا مختلفًا عن توقعات النباتات أو الحيوانات .

١٤ - منهج العلم الطبيعى إذن هو البحث الواعى عن الأخطاء وتصحيحها من خلال نقد واعى . هذا النقد يجب ألا يكون نقدا شخصيا ولكن يجب أن يكون موجها وحسب للنظريات أو الفروض موضع البحث .

بهذا أنهى ملاحظاتي بشأن نظرية المعرفة لأنتقل للحديث عن نظرية اللغة الحيوانية واللغة البشرية المتميزة التى سأخصص لها الجزء الثانى من محاضرتى . أما الجزء الثالث فسيكون مخصصا للحاجة للإيهام على أن أنهى محاضرتى بالجزء الرابع الذى سأخصصه لمشكلة السلام .

II

ابدأ حديثى بإطار أدين به لعالم النفس العظيم كارل بولر Karl Buhler^(١) يميز بولر بين ثلاث وظائف للغة . توجد الوظيفتان الأولى والثانية لدى معظم الحيوانات والبشر جميعا ، بينما يتميز البشر وحدهم بالوظيفة الثالثة . الوظيفة الدنيا هى وظيفة التعبير التى يمكن أن نجدها ممثلة فى حركة الذيل أو تعبيرات الوجه أو فى الصراخ مثلا . هذه الحركات التعبيرية يمكن اعتبارها علامة على الحالة الداخلية للكيان العضوى .

(ملاحظة جانبية : لا يوافق الماديون ولا السلوكيون^(٢) على هذه النظرية ، فهم لا يرون قبول أى حالات دلخية ولكنهم يقترحون الاقتصار على السلوك . من السهل توضيح خطأ هذه النظرة ، فمقياس الحرارة لا يظهر - من خلال سلوكه - درجة الحرارة الخارجية ولكنه يظهر بصورة أساسية حالته

(١) كارل بولر هو عالم النفس الألمانى الشهير المعروف بدراساته فى عمليات التفكير (١٨٧٩ - ١٩٦٣) لم يكتب سوى كتاب واحد هو " وقائع ومشكلات علم نفس عملية التفكير " Facts and Problems of the Psychology of the Thought Process

(٢) ينقسم الإتجاه السلوكى الى السلوكية النفسية والسلوكية الفلسفية ، وعلى كل فالإتجاه السلوكى فى جملته لا يرى معنى للنفس سوى أنها سلوك ، سواء أكان سلوكا خارجيا أو تغيرات فسيولوجية .

الداخلية فالجريئيات المتحركة التي تزداد سعتها تؤدي إلى تمدد قضيب معدنى ، فلو كانت النظرية السلوكية صحيحة لما كان يجب أن نضمن تفسيرنا الحالات الداخلية وكما سنستخدمها فى تفسير تمدد القضيب بالحرارة) .

يمكن للحيوان أن يعبر عن حالته بتعبيرات الوجه أو بهز الذيل حتى وإن لم يكن هناك حيواناً آخر يرد على هذه الحركات ، ولكن متى كان هناك حيوان آخر يرد على هذه الحركات التعبيرية ، فإنها عندئذ تصبح إعلماً أو إيلافا ، يمكن لوظيفة الإعلام هذه — التى يعتبرها " بولر " الوظيفة الثانية — أن تصبح وظيفة تنبيه والتى متى حدثت بالتبادل ، عندئذ يمكن القول أن إتصالاً بين الحيوانات قد تم .

من الممكن بالطبع للإنسان أن يمارس أيضاً هذه الوظيفة كالأطفال على سبيل المثال قبل تعلمهم اللغة البشرية ، أو البشر الذين لا يوجد لديهم لغة بشرية تميزهم معاً(*) عندئذ يمكن لبعضهم أن يفهم الآخر عن طريق ملامح الوجه والإشارات .

الوظيفة الثالثة — وفقاً لبولر — وظيفة الوصف هى الوظيفة التى تميز البشر والتى توجد فيها عبارات تصف أو تصور — كما يقول بولر — الأحوال أو الأمور .

يرى بولر أن الوظيفة الأعلى تستق دائماً من الوظيفة الأدنى فعندما يطلق طائر مثلاً صيحة إنذار ، فإن هذه الصيحة لاتعبر عن إتصال اجتماعى فحسب ولكنها فى نفس الوقت تعبير عن حالة داخلية ، فكلما ارتفعنا فى وظائف اللغة كلما كانت اللغة أكثر تعقيداً .

أريد أن أشير هنا أن عدداً قليلاً فقط من أصحاب النظريات فى اللغة من ذهبوا بعيداً مثل بولر . فمعظمهم تحدث عن التعبير والقليل منهم تحدث عن

(*) يبدو أن بوبر يقصد هنا أفراد من مجتمعات مختلفة تتحدث لغات مختلفة لايجيد بعضهم لغة بعض (المترجم) .

الإتصال الإجتماعى (الذى يمكن أن يكون لديه وظائف عملية منلمـ
وضحه مثال صيحة الإنذار) . كما تتدرج الأوامر والطلبات هنا أيضا . إلا
أن القليل هو من لاحظ أن إعجاز اللغة البشرية يكمن فى قدرتها على وصف
الأمور والأحوال وعلى أن مثل هذه القضية التى تصف ، من الممكن أن
تكون صحيحة أو خاطئة ، فقط بدءاً من هذه الخطوة الهائلة يمكن موضوعة
المقال ويمكن للنقد الموضوعى أن يبدأ ، فالتقد يكون نقداً معقولاً فقط متى
كان يدور حول صدق أو كذب قضايا أو نظريات معينة .

بهذا أنهى وصفى الموجز لجانب هام من جوانب نظرية بولر فى اللغة .
لقد لمست بنفسى بعض وظائف اللغة التى نكرها بولر وبصفة خاصة
وظيفة النقد ، أى المناقشة النقدية لصدق أو كذب القضايا ، ولقد أكدت على
أهميتها الهائلة عندما تحدثت عما يميز اينشتين عن الأميبا .

كما كنت أؤكد كثيراً على أن المرحلة النقدية فى إستخدام اللغة البشرية
التي تتبع من أسس منطقية يجب أن يسبقها مرحلة دجماطيقية ، فقط عندما
يتأسس إعتقاد ما كخلفية ، يمكن للإنسان أن يبدأ فى ممارسة النقد وبعدها
يمكن للإعتقاد نفسه الذى يمثل خلفية المناقشة النقدية — أن يتدرج فى النقد .
فالمرء يحتاج أولاً لإطار محدد قبل أن يمكنه فيما بعد مواجهة أطر مختلفة
والنقمة نحوها بالمناقشة النقدية .

III

والآن أصل إلى الجزء الثالث وأبدأ بالنقطة رقم ١٤ .

١٤ - تستلزم اللغات الحيوانية واللغات البشرية حاجات فطرية كثيرة ، مثل
الحاجة للتعبير النشط عن الذات والحاجة للاتصال بالآخرين والحاجة لتعلم
هذه الأشياء بالمحاولة والخطأ . دون هذه الحاجات الفطرية ودون التعلم
النشط بالمحاولة والخطأ (العدو الذى يمارسه صغار القطط هنا وهناك مثل

على ذلك) ما كان من الممكن للحيوانات العليا أن تبقى على قيد الحياة .
١٥ - تنشأ المعرفة الفطرية للحيوان والإنسان - مثلها في ذلك مثل المعرفة المكتسبة عن طريق التعلم النشط - عن توقعات . تشكل التوقعات غير المتحققة صعوبات أو مشكلات تؤدي إلى محاولات لحلها أي إلى تعلم نشط مرة أخرى وإلى بحث .

١٦ - يشترط التعلم النشط للغة الحيوان ولغة الإنسان مسبقا درجة عالية من الإيهام Suggestivität . فالقدرة على المحاكاة وحدها لا تكفى ، فالأمر يتعلق بما هو أكثر من مجرد محاكاة ، يتصل بطلب فطري عميق وهو حدوث اتفاق أو تطابق مع تقييم وتمنى طريقة التنوق الموصلة . عندئذ فقط يمكن تفسير انتقال سرب من السمك أو من النحل أو الناموس من مكان لآخر . ثم اننا نعرف - معرفة تخمين - كيف أن هناك استعدادا للإيهام لدى بعض الحيوانات ، إذ يمكن تنويم دجاجة ما تنويها مغناطيسيا بـخط يتم رسمه بالطباشير .

١٧ - تنشأ اللغات البشرية عن مطالب فطرية لتعلم وتحديث لغة ما واستخدامها في الإتصال والوصف . تتأسس هذه الحاجات أو المطالب الفطرية في قدر كبير منها على المطلب الفطري المرتبط بصفة خاصة باللغة وهو الحاجة للإيهام .

١٨ - يرتبط هذا كله ارتباطا شديدا بحاجتنا القوية لإكتشاف بيئتنا المحيطة بنا والتعرف عليها ، أي بحاجتنا لأن نعرف . ومن ثم نشأت الأساطير وجاء أهل الطب والقساوسة ، ونشأ صراع داخلي يمكن أن يقوى هذا كله وهو الشعور بأننا في الحقيقة لا نعرف شيئا أو أن مانعرفه ضئيل جدا . ولما كلن مطلب اليقين مطلبا قويا ، كانت الحاجة لإعتقاد عام وإيهام أنفسنا بصدق هذا الاعتقاد قوية أيضا ومن ثم خشينا مما يسمى بعدم اليقين وتحول الاعتقاد باليقين إلى اعتقاد رائع .

ثم وصلنا إلى وهم الحرب أو التحمس للحرب مع بداية الحرب العالمية الأولى .

ولكن قبل أن أخوض فى موضوع الحرب والسلام أحب أن أتحدث قليلا فى موضوع الفن أو الفن الحديث .

كلنا يعرف أن الفن الدينى هو أعظم الفنون ، فهناك الكاندرانيات والكنائس ثم قداس موتسارت وبتهوفن وشوبرت .

ولكن كيف حال الفن الدينى هذه الأيام ؟

أعتقد أننا نفسر الكثير عندما نقول أن ديننا خاطئا قد تأسس الآن وبصفة خاصة الدين الذى يرى فى عالمنا — على الأقل عالمنا الاجتماعى — جحيما . فأنا من الممكن أن أكون كل شئ سوى أن أكون عدوا للدين . الدين الذى اعتقده هو مبدأ سيادة العالم ، مبدأ حرية الإنسان وقدرته على الخلق والإبداع ، مبدأ المعاناة والشكوك والأهوال التى يمكن أن نحياها ، الخير والغضب الذى حدث فى تاريخ البشرية ويحدث مرارا وتكرارا ، الرسائل السلمية التى أمكننا أن نجعلها تكوم فى حياة للبشرية ، ثم بصفة خاصة الزوجات والأطفال التى عاشت أصعب أشكال الحياة . باختصار فأنا لا أعرف شيئا ، ورغم أن البحث عن الحقيقة العلمية يشكل جزءا من دينى ، فإن الفروض العلمية العظيمة ليست ديننا ، ولا يجب أن تكون كذلك .

إلا أن الفن الحديث لا يفسر إلى من خلال الدين الحديث — من خلال هذه الإعتقادات الخاطئة غير المعقولة : أى من خلال الإعتقاد فى عالم غاضب ، ونظام اجتماعى غاضب نزع أننا نحياها فى سويسرا ، فى ألمانيا ، فى إنجلترا وفى شمال أمريكا ، وعلى كل فالشباب مقتنع — بأسباب عقلية وبمساعدة الفن الحديث — أنهم يعيشون فى جحيم . ما الذى يستتبعه هذا ؟ يستتبع أن الأطفال فى الواقع فى حاجة إلى مرشدين ومثل عليا ومعتقدات ونظام دقيق . ربما يستطيع الشباب الذى يكبر حاليا أن يتحرر مستقبلا من

مرشديه ومن معتقدات وأيديولوجيات تلك الذى يعرف . إن هذا فى الواقع أمر سهل . لذا أدعوكم ألا تعتقدوا فى أى شئ أقوله ، إذ يمكنكم بأنفسكم وعن طريق كتب التاريخ أن تعرفون ما إذا كان زماننا ، الذى قضى على الرق والعبودية ، هو أفضل الأزمنة التى لدينا عنها معرفة تاريخية . لقد ارتكبنا بالطبع أخطاء كثيرة ومازلنا نرتكب غيرها كثيرا مثل تلك التى نرتكبها مثلا من خلال أيديولوجياتنا البغيضة التى نعتقها .

إن الروس الذين يعيشون عالما أسوأ من عالمنا قد أوهموا أطفالهم وشبابهم بأن أرضهم جنة والحقيقة أن هذا أمر مفيد للغاية . إذ جعل الروس أكثر رضا بحالهم منا فكم هى قوة عظيمة هذه الحاجة للإيهام ، إلا أن الحقيقة لا تقل قوة عنها وخاصة عندما يحارب الإنسان من أجلها .

IV

لقد حاولت فى الماضى أن أعرض الجذور النظرية المعرفية والبيولوجية والنظرية اللغوية لإستعدادتنا الغريزية الخطيرة لتكوين معتقدات وأيديولوجيات . أحد جذور هذه الإستعدادات هو الجبن فأنا الآن أيضا جبان ، لا أريد لا أن أظهار بشجاعة معينة أو أن أطلب من شخص ما أن يقوم بأعمال بطولية . إلا أننى أحب أن أنبه أن المشكلة الكبرى — ألا وهى تحقيق السلام الدائم على الأرض ليست مشكلة غير قابلة للحل .

للفيلسوف كانط فى هذا الموضوع كتاب رائع وحزين ، مؤثر وجميل ألا وهو كتاب " نحو سلام دائم " .

يبدو لى واضحا تماما أن القنبلة الذرية ليست هى العائق الرئيسى نحو الوصول لسلام دائم .

فعندما تحدثت آخر مرة مع عالم الفيزياء الذرية العظيم — نيلز بور Niels Bohr — وأعتقد أن هذا كان عام ١٩٥٢ قال لى : أن القنبلة الذرية

ستحافظ بالتأكيد على السلام . لم أكن ولست الآن أيضا متفائلا ، ولكن على كل حال فلقد كان — على الأقل حتى الآن — على حق . فأنا فقط أرى أن الطريق نحو تحقيق السلام طريق صعب للغاية ، طريق طويل ، فقد تشب حرب ذرية قبل أن نقطع خطوات على هذا الطريق . إنه الطريق الذي أراد أصحاب الإرادة الخيرة في وقت ما أن يظهروا أنهم أصبحوا متواضعين ولم يحاولوا أن يلعبوا دورا قائدا، فلا أسس دينية جديدة ولا أيديولوجيات جديدة ولكن تواضع عقلية .

فنحن المفكرون لا نعرف شيئا ولكننا نتحسس أو نتلمس طريقنا ، أما العلماء فيجب أن يصبحوا أكثر تواضعا وأقل دجماطيقية وإلا سيتخلف العلم ذلك العلم الذي ينتمى لأعظم ما خلقتة البشرية وما يبشر بخير كبير .

المفكرون لا يعرفون شيئا ، من هنا كان تكبرهم وغطرستهم هو العائق الأكبر على تحقيق السلام على الأرض ، لذا نأمل ألا يكونوا — إلى جانب غطرستهم — من الغباء بحيث لا يفهمون ذلك .

ومع هذا سنرتكب أخطاء أخرى ولكننا نأمل أن تكون الفروض القادمة فروضا صادقة : بدون أيديولوجيا لا حرب ، فالصراع ضد الأيديولوجيات في كل الأحوال صراع موجه .

لذا أريد أن أنهى حديثي مرة أخرى بأن أطلب منكم ألا تعتقدوا كلمة مما أقوله وأن تكونوا على وعي أنني من أجل كل الأرواح الخيرة لا أريد أن أنهى حديثي ببوق . لقد أردت فقط أن أظهر لكم المخاطر الكبيرة المتضمنة في الأيديولوجيات وأن أوجه انتباهكم نحو الحاجة الملحة للمعرفة والاعتقاد والإيهام المتبادل والتي تبدو متضمنة في البيولوجيا التطورية وفي تركيب معرفتنا ولغتنا .

المقالة الخامسة
الوضع النظري المعرفي
لنظرية المعرفة التطورية^(١)

**Die Erkenntnistheoretische Position der
Evolutionären Erkenntnistheorie**

(١) هذه المقالة عبارة عن إسهام في مناقشة أثناء ندوة عقدت في فيينا إبريل ١٩٨٦ . تم طبع هذه المقالة لأول مرة ضمن مجموعة مقالات جاءت تحت عنوان " نظرية المعرفة التطورية "

Die Evolutionäre Erkenntnistheorie. Hrsg. Von Rupert Riedl und Franz M. Wuketits. Berlin / Hamburg (P.Parey) .

القبلى والبعدى :

أريد بادئ ذي بدء أن أتحدث قليلا عن القبلىة ، أولا لا أريد أحدا أن يسألنى أى المصطلحات يجب أن أستخدامها ، إذ المصطلحات واضحة ، والمصطلح " قبلى بالوراثة " *genetisch a priori* واضح تماما على الأقل من وجهة نظرى . فهو يعنى أن هناك بالفعل شيئا موجودا وجودا قبل بعدى وقبل الإدراك الحسى وبالإضافة إلى ذلك فإنه من الضرورى استخدام اللفظ قبلى ليعنى ماهو أكثر من ذلك لأنه يرتبط هنا بعلاقة محددة بالمذهب الكانطى ، فمن وجهة نظرى يمكن فهم كانط بصورة أفضل إذا ما اتضح لنا أن كانط كان غالبا يعنى باستخدامه لمصطلح " قبلى " ماهو قبلى بالوراثة ، رغم أنه كان يتحدث بالطبع عما هو صالح بصورة قبلىة *a priori gültig* .

أريد ثانيا أن أقول أن رأى فى قبلىة كانط يختلف عن رأى كونراد لورنز^(١) Konrad Lorenz فى كانط وهو الرأى الذى كونه منذ سنوات عديدة ولقد تحدثت كثيرا مع لورنز فى هذا الأمر ، إلا أننى لا أستطيع أن أعرف على وجه الدقة الآن ماهى وجهة نظره الحالية ، فعندما كتب عن المذهب الكانطى ونشر تفسيره له كان رأيه فى ذلك الوقت على النحو التالى:

لقد عنى كانط أن روادنا وأجدادنا الأوائل قد تعرفوا على أشياء عن طريق الإدراك الحسى ثم إنتقلت هذه الأشياء بطريقة ما من الإدراك الحسى إلى الوراثة ومن ثم أصبحت بالنسبة لنا أشياء قبلىة ، أى قبلىة بالوراثة .

أما رأى أنا فيختلف تماما ، ولكنى لا أختلف عن لورنز فى استخدام التصورات ولكنى أختلف عنه فى النظرية ، والنظريات أهم من التصورات مئات المرات (فالنظريات من الممكن أن تكون صادقة أو كاذبة ، أما التصورات فعلى أفضل تقدير تكون ملائمة وعلى أسوأ تقدير خادعة

(١) كونراد لورنز (١٩٠٣ - ١٩٨٩) عالم نمساوى تخصص فى دراسة السلوك الحيوانى وطبيعة الأفعال السلوكية الغريزية حصل على جائزة نوبل فى الفسيولوجيا بالمشاركة مع كارل فريش Frisch وتيرجن N. Tinbergen عام ١٩٧٣ .

(مضللة، فالتصورات ليست مهمة بالمقارنة بالنظريات) .

فأنا أزعّم أن كل مانعفه قبلى بالوراثة ، أنا ما هو بعدى فهو

مانعثره مما إكتشفناه بصورة قبلية .

يجب علينا — مثل سائر الكائنات العضوية التى لديها ما يشبه الإدراكات الحسية لدى الإنسان ويمكنها استخدامها لكى تتعلم منها قبل أن تفعل ذلك — ومن ثم فهو قبلى بالوراثة — أن يكون لدينا قدرة على تنظيم وتفسير انطباعاتنا الحسية . يتفق هذا تماما مع المعرفة الفطرية الكانطية وبصفة خاصة مع نظرية كانط فى المكان والزمان .

أن نقول — كما فعل كونراد لورنز — أن المعرفة القبلية الفطرية الكانطية كانت فى الأصل معرفة إدراك حسى ، فطرية بالنسبة لنا لأنها إنتقلت إلنا من أجدادنا يعنى أن نتجاهل فكرة كانط الأساسية والشديدة الأهمية والتى مؤداها أن المعرفة الحسية غير ممكنة دون معرفة قبلية . لا يجب علينا ، فى الواقع ، أن نحاول تفسير المعرفة القبلية الكانطية عن طريق المعرفة الحسية ، فإسهام كانط الأساسى كان محاولة توضيح أن المعرفة الأساسية تقترض معرفة قبلية .

لقد كان كانط هو أول من اعتقد أن وجود المعرفة القبلية شرط ضرورى لوجود المعرفة البعدية ، إلا أننا لا يجب أن نستنتج من ضرورة المعرفة القبلية التى تجعل المعرفة الحسية ممكنة أنها ضرورة بالمعنى المنطقى . إلا اننى هنا أختلف عن كانط تماما : إذ أنه مادامت معرفتنا الحسية معرفة فرضية ، فإنه من الممكن أيضا للمعرفة القبلية أن تكون معرفة فرضية أيضا ، وهى كذلك فى الواقع وهو ما يمكن توضيحه بمثال على النحو التالى . لكى نفسر إدراكنا الحسى فإننا فى حاجة إلى هندسة تكون على الأقل هندسة إقليدية لما يحيط بنا ، أما ما إذا كان المكان الذى يتجاوز الكرة الأرضية والقمر مكانا إقليديا أم لا فسؤال آخر : هنا نصل إلى

فرض أى إلى معرفة تخمينية . أما رأى كانط الذى يرى فى سائر المعرفة القبلية معرفة ضرورية بمعنى معرفة غير فرضية ولكن معرفة صادقة بالضرورة apodiktisch فهو ما يبدو لى واضحا تماما ولكنه فى نفس الوقت رأى لا يوجد ما يبرره ومن ثم فهو رأى خاطئ .

لهذه الأسباب ولأسباب أخرى كثيرة ، أفترض — على عكس كانط تماما — أن معرفتنا القبلية ، مثال ذلك معرفتنا فى الهندسة — ذات طبيعة فرضية أفترض أنها معرفة قبلية بالوراثة وليست صادقة قبلية ، ليست معرفة ضرورية قبلية أو صادقة بالضرورة .

فإذا ماتم هذا التصحيح ، عندئذ تصبح قبلية كانط ذات درجة عالية من الدلالة . وهنا أريد أن أقول بوضوح شديد أننى قبلى راديكالى (بمعنى القبلية بالوراثة) بل وأكثر راديكالية من كانط رغم أن القبلية التى أتبناها قبلية فرضية أو قبلية تخمينية .

فأنا أتبنى وذلك ضد سائر دعاة نظرية المعرفة منذ جون لوك وأيضا كانط — الرأى التالى : كل معرفة فهم معرفة قبلية من حيث المحتوى ، معرفة قبلية بالوراثة ، لأن كل معرفة فرضية تخمين ، فهم تشكل فرضنا ، أما المعرفة البعدية فليست سوى تصحيح أو تعديل لفروضنا : فهم إصطدام فروضنا بالواقع الفعلى : هنا وهنا فقط يكمن عنصر الخبرة فى معرفتنا ، وهذا يكفى لى نستطيع التعلم من الخبرة ولكى يصبح المرء ذا إتجاه تجريبى .

يمكن صياغة هذه الفكرة بطريقة أخرى : نحن نتعلم فقط عن طريق المحاولة والخطأ . محاولتنا هى دائما فروضنا ، فهم تتبع من داخلنا وليس من العالم الخارجى ، فنحن لا نتعلم من العالم الخارجى سوى أن بعض محاولتنا أخطاء . فمن الحيوانات الى الكائنات أحادية الخلية فإن التكيف عملية من اختراع الكائن الحى ، فالكائن الحى يتكيف مع بيئته ويقوم دوما

بتحسين تكيفه .

هذه النظرية التى أتبناها تؤدى بالتحديد إلى صعوبات كثيرة ، لم تنشأ
هذه الصعوبات نتيجة صعوبة نظريتي ولكن لأن مانعرفه قليل جدا فنحن
تقريبا لانعرف شيئا عن نشأة الحياة والنشأة الأصلية للتكيف وهو ما سأحدث
عنه فيما بعد .

الدارونية Darwinismus :

لقد صغت الإتجاه الدارونى بطريقة متواضعة جدا ، وهى نظرية دارون
التى مفادها أن التكيف يتم فهمه عن طريق الاختيار .
تقول نظرية دارون مايلى : "الأفراد التى تتكيف بصورة أفضل لديها
فرصة أكثر للبقاء "

لقد نشأت هذه النظرية تاريخيا على يد دارون بهذه الطريقة وصياغتها
بهذه الطريقة — من وجهة نظرى — أفضل وأكثر وضوحا من التحدث عن "
الاختيار " أو " الإنتقاء الطبيعى " أو " الاختيار الطبيعى " أو عن " الصراع
من أجل البقاء " وسائر هذه الأشياء .

إن الصراع من أجل البقاء والانتخاب الطبيعى كنايةات وليست نظريات
لأنها لا وجود لها . ماله وجود هى الأفراد التى تنتج سلالات ومن ثم فهنا
نظرية دارون التى مفادها أن الأفراد التى تتكيف بصورة أفضل لديها فرصة
أكبر أن تنتج سلالات .

فى هذه الصياغة يمكن أن نرى بوضوح حدود الدارونية ، فالنظرية
الدارونية يجب أن تفترض بصورة أساسية أن هناك أفرادا متكيفة وهذه فى
نفس الوقت هى مشكلة نشأة الحياة التى نعرف عنها للأسف قدرا ضئيلا
للغاية .

التكيف والدارونية :

تجربة فكرة Ein Gedankenexperiment

دعنا نفترض أننا يمكننا خلق حياة بداخل أنبوبة اختبار (أنبوبة اختبار صغيرة وليس آلة ضخمة) . وهو الأمر الذى لا اعتبره غير ممكن من حيث أننا تقريبا نعرف كيف ترتبط الأشياء . وإذا كنا لا نعرف هذا الأمر الآن فإنه من الممكن أن نعرفه بعد مائة أو ألف عام .

إننا قلنا أننا يمكننا خلق حياة داخل أنبوبة الاختبار وحياة على شكل جين أو جينات أكثر . افترض أن لدينا جينا بسيطا جدا يتضاعف داخل الأنبوبة . هذه تجربة لفكرة نشأة صناعية لحياة من عناصر أو مكونات غير حية ، أعرف أنه أمر صعب للغاية ودرجة إحصائه ضعيفة جدا وهى الاحتمالية التى قام " مونود Monod " بحسابها حسابا تقريبا ولكن دعنا نفترض أنه يمكننا صنع هذه الحياة ، سيبقى مع هذا من غير المدتمل لهذه الحياة - التى خلقناها بأنفسنا - أن تستمر فى الحياة لسبب بسيط وهو عدم وجود مليرر تكيفها مع أنبوبة الاختبار .

إن أنبوبة الاختبار محيط حياة ضيق ، ولكى تبقى حياة على قيد الحياة يجب علينا أن نبدأ فى صنع آلة ، أى نخلق بيئة تتكيف مع الحياة (التكيف أمر يقوم على علاقة التبادل) فلكى تتكيف هذه الحياة مع بيئتها يجب علينا على الأقل إيجاد سوبر ماركت لتغذية هذه الحياة كما نحتاج إلى نظام مجارى لتصريف المياه والفضلات ، كما نحتاج لمدارس تعلم الأطفال الابتكار وهى الوظيفة الحقيقية للمدارس .

كما يجب علينا تنظيم النسل وإلا اختنقت هذه الحياة التى صنعناها بأنفسنا فى أنبوبة الاختبار - بذريتها .

وظيفة تجربة الفكرة هذه إذن الآن وظيفة مزدوجة ، أريد أولا أن أوجه الانتباه إلى أن - مجرد نشأة الحياة لاتحل أى مشكلة ، لماذا إذن تكيفت هذه

الحياة مع بيئتها ؟ أعتقد أن الحياة كان يجب أن تنشأ حتى قبل أن توجد البيئة التي تتكيف معها . أن تكون الحياة قد نشأت من أى موقف كيميائى لا نعرفه لا تعنى بصفة عامة أن الحياة قد نشأت فى بيئة يمكنها أن تستمر معها على قيد الحياة .

فعدم احتمالية ارتباط الحياة ببيئة متكيفة ممكنة يساوى فى كبره عدم احتمالية نشأة الحياة نفسها — لم أناقش هذه النقطة حتى الآن وأنا أضعها هنا فى ارتباطها بمشكلة المعرفة .

يشكل تكيف الحياة مع بيئتها شكلا من أشكال المعرفة . دون هذا الحد الأدنى من المعرفة لا يمكن للحياة أن تستمر . هذه المعرفة معرفة بشروط حيائية شديدة العمومية . إما يجب لهذه الشروط أى البيئة التي تحدثت عنها أن تتكيف مع الحياة أو أن تتكيف للحياة مع البيئة . فهذا أمر يقوم بالطبع على علاقة التبادل .

إذا لم تكن هذه البيئة الى حد ما بيئة مستقرة ، بمعنى ألا تتخطى شروط التكيف المكانى الزمانى ، عندئذ يمكننا أن نكون على يقين أن الحياة ستتحول الى كارثة بيئية ، نعى بالكارثة البيئية أن تتغير البيئة فى الجوانب التى تتكيف فيها مع الحياة . وعندما تتغير البيئة فى تكيفها تنهار الحياة : لقد حدثت كارثة ومن ثم يجب على هذا الكل أن يبدأ من جديد ، فإذا لم تكن إذن شروط البيئة الى حد ما شروطا ثابتة مستقرة عندئذ يمكننا أن نفترض أنها لم تكن كافية بدرجة كافية لكى تحفظ الحياة . ويجب عندئذ على التاريخ أن يبدأ مرة أخرى .

يجب إذن أن يكون هناك استقرار للبيئة الى حد ما لكى يكون هناك تكيف أو معرفة : يجب على الحياة أن تعرف من البداية بطريقة قبلية قدرا كبيرا عن البيئة ، مثلما كان يجب علينا فى تجربة الفكرة — أن نعرف عن الحياة التى خلقناها بأنفسنا وحاجاتها لكى يمكن لهذه الحياة أن تستمر : فالتكيف

شكل من أشكال المعرفة القبلية .

لم أقل بنفسى كل هذا الذى قلته حتى الآن بخصوص تجربة الفكرة ولكن
بخصوص الدور الذى تلعبه المعرفة القبلية فيما أسماه غيرى نظريتى فى
المعرفة التطورية .

لقد ذكرت سابقا أنه لم يكن أنا الذى أطلق هذه الأسماء على نظريتى فى
المعرفة ولكن أنا وأخريين هم الذين وسموا نظريتى فى المعرفة بأنها
تطورية . وعلى كل فهى شئ يختلف تماما عن نظريات المعرفة التطورية
الأخرى .

لا بد أن الحياة قد تركبت من البداية بحيث تتوقع تكيفا لحظيا ولكن أن
يتجاوز هذا التكيف المكان والزمان مما يعنى أن شروط البيئة يجب أن تكون
شروطا ثابتة ، كما أنه من الممكن أن يكون الحياة قد توقعت من البداية كل
التغيرات الممكنة للبيئة ، إلا أن هذا غير محتمل .

وهنا نصل للنهاية : يجب أن نتوقع الحياة من البداية وبأى معنى من
المعانى مستقبل البيئة بمعنى كل الحالات المستقبلية التى قد تحدث للبيئة ،
فالحياة يجب أن تتكيف مع هذه الشروط المستقبلية للبيئة : وبهذا المعنى
تكون المعرفة العامة سابقة على المعرفة الحالية أو المعرفة الخاصة . فلا بد
أن الحياة من البداية مزودة بالمعرفة العامة ، المعرفة التى نسميها عادة
المعرفة بقوانين الطبيعة . وليست بالطبع معرفة بمعنى أنها معرفة واقعية ،
فالوعى أمر مختلف تماما . وهذا يؤدى بى إلى أن أنسب للجوهر الأول
معرفة هى فكرة (تشبيهية) فكرة أنثروبومورفيه .

والآن نصل إلى هذا الإتجاه التشبيهي (الأنثروبومورفى) .

التناظر والمعرفة والتكيف Homologie , Wissen and Anpassung :

أعتقد أنه ليس من الخطأ أن نلغى كل تشبيه خارج ميدان البيولوجيا .

نحن فى هذه الحالة — مثلما نحن فى أمور أخرى — تطوريون — وهو

مايعنى أننا يجب أن نتصرف وفقا لتفكير التناظر homologiedenkend .
عندما اعتبر أنفى وأنف كلب ما أنفين متناظرين ، فإن هذه تعد الخطوة
الأولى نحو نظرية التطور .

فالقول بأن للكلب أنفا ليس أمرا بديهيا فى ذاته ولكنها نظرية من وضعنا ،
وضعها الإنسان الأول على وجه التحديد . لقد اعتبر أنفه وأنف الكلب أنفين
متناظرين ، كما لاحظ أنه بينما للكلب ذيل وبعض القردة ذيول فإنه لا ذيل
له . هذا التفكير فى الأشياء المتناظره شرط سابق على التفكير التطورى .
وعندما يفكر الإنسان بصفة عامة بطريقة تطورية فإنه يجب عليه أن يقبل
هذه المتناظرات — بين أذرعا وأجنحة الطير ، بين سيقاننا وسيقان الطير
وبين أنوفنا وأنف الكلب — فالقول بأن أنوفنا وأنف الكلب متناظران بطريقة
متطورة فرض من فروض نظرية التطور .

يجب علينا أن نطبق هذا التفكير التناظرى أيضا على معرفتنا ، أى على
اكتساب المعرفة والمعرفة بصفة عامة . فبطريقة ما للكلاب والقردة شئ
يتسق مع معرفتنا البشرية . وعلى كل فهذا هو أحد الأسباب الذى جعل
للمذهب السلوكى الاعتقادى — باختصار — يتبدل . فلم ير أنه حتى عندما
يتحدث عن السلوك ، فإنه يقدم علاقة تناظر بين سلوكنا وسلوك الحيوان وأن
هذا التناظر ضرورى لفهم أمور كثيرة وهذا مايرر للإنسان أن يقيم أشياء
أخرى على علاقة التناظر هذه .

إن فكرتى الأساسية فى نظرية المعرفة أن المعرفة معرفة ذات درجة
عالية من العمومية ، أى أنها متوقعة ، تتوقع البيئة من زمن طويل : مثل
المعرفة بتعاقب الليل والنهار والتى نجدها — أى المعرفة بالتناظر — لدى
الزهور . فالزهور تتغلق على نفسها وهكذا إذن فهى تعرف شيئا عن
الإطرابات العامة . إلا أن هذا لايعنى أن لها فهما أو عقلا . ولكنه فقط
يعنى أنها تتكيف بطريقة متسقة . ليست المسألة بالطبع هى مسألة اتبساط

وانقباض الأنسجة ولكنها على كل حال قد تكونت بحيث تتكيف على هذا النحو . فهي تقترب من الإضرادات بصورة مسبقة .

إن فرضي الأساسي الذي تقوم عليه نظريتي في المعرفة يتجاوز سائر نظريات المعرفة سواء تطورية ، كانطية أو غير تطورية : وهو الفرض الذي منطوقه : سائر التكيفات العامة تسبق التكيفات اللحظية فهي توجد قبلها، أي أنها قبلية .

التوقع : Erwartung :

أريد — قبل أن أضرب مثلا — أن أقدم تعبيرا جديدا على النحو التالي : من الممكن أن نسمي صور المعرفة هذه أو التكيفات وخاصة التي تحدث للحيوانات — توقعات — .

فالكلب يتوقع قدوم سيده الساعة السادسة والنصف ، يفهم المرء من قلق الكلب أن الكلب يتهيأ لقدوم سيده إلى المنزل الساعة السادسة والنصف . هذه جميعا صور معرفة والتي من الواضح أنها توقعات . بالمثل نتوقع الزهرة أن يصبح الطقس أكثر برودة ليلا ، فهي تعد نفسها لذلك .

أقول أيضا مايلي : لدينا نحن المبصرون أعين قبل أن نكون بها مدركات حسية . وأن تكون الأعين توقعات أي شكلا ركبنا فيه معرفة — ومن ثم تكيفا — في أعيننا ، فهو مانراه بوضوح لدى Axolotl^(١) فأعين الذي تربي ونشأ في الكهوف والمغارات — قد ضمرت تماما ، فهو إذن أعمى بالوراثة . فالتوقع الذي أدى إلى تطور أعيننا لم يتحقق لديه ، إذ لا تلعب الأعين لديه أي دور .

فالأعين إذن هي التوقع بأننا نحيا في عالم يوجد فيه — على الأقل من وقت لآخر — ضوء وأنها يمكنها عندئذ استخدام هذا الضوء ، فهذا هو التوقع الفطري بالنسبة لنا فمن وجهة النظر التطورية تسبق العين الإدراك البصري،

(١) Axolotl حيوان برمائي يوجد بكثرة في المكسيك . قد يصل طوله إلى خمسة وعشرين مترا .

ومن ثم فالعين — مثلها في ذلك مثل الإدراك البصرى ولكن بطريقة أخرى —
شكل من أشكال المعرفة البيولوجية ، لأنها توقع .

فكل ما اعرفه يصدر بصورة أكبر أو أقل — يتفق معى فى ذلك سائر
أصحاب نظريات المعرفة (وكذلك كونراد لورنز الذى أعجب به إلى حد
كبير) من أن معرفتى تتلو إدراكى الحسى . وبعد التصحيح أرى الأشياء
بصفة عامة مختلفة تماما . فالإدراكات الحسية وسيلة غير مهمة نسبيا
للمعرفة ، فليست سيطرة البيئة الحالية التى تسمح لنا بالإدراك الحسى هو
الأمر الأكثر أهمية . المعرفة ، أو المعرفة الأساسية هي مثل مجس النبض
الذى نمده فى كل اتجاه . ماهو أساسى هو أن أعرف عندما أكون هنا أنتهى
فى فيينا ، فى النمسا ، وسائر هذه الأمور . هذا الشكل من المعرفة أكثر
أهمية بالنسبة لى من الإدراك الحسى لأنه أساسى لتفسير الإدراك الحسى .

ننتقل إذن من فهمى لنظرية المعرفة التطورية ، ومن ثم المعرفة العامة
ونصل لبعض الأمور الخاصة جدا مثل إنتى أرى هنا بعض الناس الذين
أعرفهم . يمكننى أن أتعرف على أصدقائى فى هذه القاعة وسط مجموع
الحاضرين الذين لا أعرفهم جميعا وهى ما تشكل وظيفة الإدراك الحسى
الحالى من وجهة نظرى وفى هذه اللحظة .

ولكنى مازلت أرى هذه الوظيفة أقل أهمية من اتجاهى العام الذى
يوجهنى نحو ما افعله وما أقوله الآن . فى هذه المعرفة الحسية يمكننا أن
نخطئ مرارا وتكرارا بل ونحن بالفعل نخطئ مرارا وتكرارا .

ليست معرفتنا الحسية مشتقة فقط من تركيبنا الفسيولوجى والتشريحي
وهى الطريقة التى يدمج بها المخ كل شئ . معرفتنا الحسية تتبع أولا وقبل
كل شئ بل ودائما — من أهدافنا ونوايانا .

أقص عن هذا قصة قصيرة :

منذ عديد من السنوات أو من حوالى ٦٥ عاما كنت فى مدينة داخشتاين

Dachstein وأردت أن أعبر من مكان يغطيه الجليد من خلال كوة عندما هبط ضباب ، ثم أخذت أبحث في هذا الضباب الكثيف عن هذه الكوة فرأيت في الضباب والجليد شيئا يشبهها وبالطبع اعتقدت أنى أخيرا وجدت هذه الكوة التى أبحث عنها طويلا ، ولكنى عندما اقتربت منها لم أجد سوى صخرة فوق هذه الأرض التى يغطيها الجليد . أدت هذه الصخرة إلى أن غار الجليد ونشأ محله مكان منخفض وهو مافسرته خطأ على أنه الكوة التى كنت أبحث عنها .

أقص عليكم هذه القصة لأنها توضح أن توقعاتنا واهتماماتنا الراهنة تحكم إدراكاتنا الحسية فى جزء منها . نحن إذن دائما نشيطون كما رأينا . ولا اعتبر حتى مانقوله عن إدراك الشكل إدراكا حسيًا صحيحًا . لأعتبره صحيحًا لأن الإدراك الحسى يشبه الصورة الفوتوغرافية فأنا نشط ومن ثم أقوم بالبحث عن شئ وأثناء بحثى أقوم بتفسير بعض الأشياء بطرق معينة وأحيانًا أفسرها وفقًا لأهدافى أو أمنيائى . هذه الأمنيات اعتدت عليها منذ مدة طويلة . لقد قضيت أكثر من ساعة أبحث عن هذه الكوة التى وجدتُها بالفعل فى النهاية والتى بدت مختلفة تمامًا عما توقعت . تلعب إذن أهدافنا وأمنيائنا وتفضيلاتنا دورًا كبيرًا فى الحياة وفى الإدراك الحسى ، فهى تحدد تفسيراتنا التى نحاول اختبار صحتها والتحقق من صدقها أو تكذيبها .

أريد هنا أيضًا أن أتحدث عن مشكلة الواقعية التى أنظر إليها بطريقة مختلفة تمامًا . الواقعية بالنسبة لنا جميعًا أمر مشكل . فنحن جميعًا نرسل إشارات مباشرة لكى نتأكد أننا لانهلم وإننا نعيش فى عالم واقعى . نحن مثل الخفافيش ، لانملك نفس التكنيك الذى يملكونه ولكن لنا تكنيك يشبه تكنيكهم . فإنا على سبيل المثال أغير مكانى باستمرار — وهو جزء من تكنيكى — لكى أرسل إشاراتي بطرق مختلفة ولكى أعلم — من الإشارات التى ألتقاها فى نفس الوقت رداً على إشاراتي والتى أدمجها بنشاط — أتسى لا أحلم وإن

للا واقعية بالفعل هذا الإنتباع الغريب الذى يختلف حقيقة (عن الإنتباع الذى)
اعتبت عليه على الأقل فى السنوات الأخيرة الماضية .

افترض إذن أن الكائنات لحيّة كائنات نشطة ، تتحسس فى كل
الإتجاهات كالجعران . نحن نقرب من كل الأشياء بكل الوسائل الممكنة .
للمدى الذى نحن لسنا معه عميانا ، فإن للعين أهمية كبيرة ، ولكن متى
كنا عميان وكان سمعنا سليما ، هنا تأتى أهمية الآن ولكننا فى كل الحالات
نحاول التحسس بأصابعنا .

لدى مثل . لقد لاحظت — وهو ما هالنى — (الأمر يتعلّق بالمثل الذى
استخدمته من وقت لآخر) أن مستمعى يبدو عليهم الذكاء ولكنى أعنى هذا
بجدية : أن موقفنا يشبه موقف رجل أسود يبحث فى حجرة بالبدروم معتمّة
عن قبعة سوداء من المحتمل ألا توجد موجوده — هذا هو موقفنا : خطير
للغاية . نحن دائما لا نعرف ونحاول دائما بأيدينا أن نجد وبأرجلنا أو
بأسماعنا أو بأعيننا أو بكل عضو حسى ممكن وهى الأعضاء التى نستخدمها
بنشاط أن نتحقّق دائما من الواقعية الموجودة حولنا .

إن نظريتى فى المعرفة أو العلم إذن نظرية تطورية تماما وتقلب ما قاله
سابقى حتى الآن . فنحن نشيطون ، نجرب باستمرار ونعمل باستمرار وفقا
لمنهج المحاولة والخطأ .

هذا هو المنهج الوحيد الذى لدينا ، والمنهج الوحيد الذى يمكن أن نستنتج
منه أن الحيوانات الأولى والنباتات الأولى كانت تعمل وفقا له فهى تتحرك
هنا وهنا ، كما أوضح تماما كونراد لورنز فى واحد أو أكثر من أعماله :
الحيوانات الأولى كانت تقوم بحركات تجربة محاولة تحقيق ما هو
أفضل . قد تتحى الحيوانات بهذه الحركات نحو تقدير عاطفى ، وقد لا تكون
المسألة تتعلّق بأى شئ نفسى ولكن فقط نحو الميكانيزم الذى تصوره هذه
الحركات . فهى تبحث وتجد ، تبحث عن بيئة أفضل وعالم أفضل ، وهى

فى بحثها عن هذا العالم الأفضل حيوانات نشطة • وفى هذا البحث لابد أنها متكيفة بطريقة ما كما أوضحت : لابد أن لديها معرفة عامة إلى حد ما ، ثم تحدث التغيرات الفجائية والتكيفات الجديدة • وهذا هو المنهج منهج المحاولة والخطأ •

هذا المنهج هو مايقول " لا " • فكل المحاولات غير الناجحة — أى الفاشلة — يتم استبعادها ، وهذا الاستبعاد يؤدي بطريقة ما إلى محاولات جديدة • هنا تلعب التغيرات الفجائية ووسائل أخرى والتي تغير من DNS (لكى تغير من الوراثة) دورا رئيسيا •

من الممكن لنتائج شبيهة جدا بالنتائج المشروطة — بالوراثة — أن تكون مشروطة بطريقة تقليدية • فلقد زعم لورنز أن معرفة العدو معرفة بالوراثة بالنسبة للـ Graugans ، تقليدية بالنسبة للعقاق • وهى المقارنة التى عرضها بصفة خاصة بطريقة رائعة •

يمكن تلخيص ما سبق على النحو التالى : تكمن المعرفة الحيوانية والبشرية — من وجهة النظر البيولوجية — فى توقعات غير واعية (أو توقعات ممكنة) •

تفنيد الاستقراء:

تصادف الحياة إنن — بطرق مختلفة كثيرة — إستثناءات متشابهة وظيفيا ولكنها لا تتناظر وراثيا • فمن هذه الوجهة للنظر أزع على سبيل المثال أنه لاوجود للاستقراء • أخشى أنه لن يوافقنى على هذا أحد ، لذا يبدو لى هذا الزعم من قبلى زعما أو فرضا تافها • إن فكرة الاستقراء هى الإجابة عن السؤال : كيف نعرف ؟

الإجابة التقليدية هى : ما على سوى أن أفتح عيني وأنظر ومن ثم أعرف •

يحاول كل أصحاب نظريات المعرفة تقريبا تبرير معرفتنا مثل رولف

كارناب والذي كتب قائلا : " كيف تعرف " ؟ ما هي الإدراكات التي أدت إلى رأيك ؟ ليس هذا السؤال الثاني سوى صياغة أخرى للسؤال الأول .
أن يكون لدى إدراكات حسية وأن تكون هذه الإدراكات الحسية هي مصدر المعرفة أمر ينظر إليه كمسألة بديهية .

ولكني مع ذلك أزعم أن ٩٩% من معرفتنا ، أو ٩٩,٩% من معرفتنا معرفة فطرية من الناحية البيولوجية والباقي تعديل ، أو انقلاب ثوري لمعرفة سابقة والتي هي بدورها انقلاب ثوري لمعرفة سابقة عليها ولكن تتردد المعرفة في النهاية إلى معرفة فطرية وتعديلاتها .

هناك إذن معرفة فطرية إلا أنها ليست معرفة يقينية ، لوجود لمعرفة يقينية . لا أستطيع أن أعرف ما إذا كنت أحلم أم لا مالم أختبر ذلك باستمرار . يجب علينا أن نتحقق باستمرار من الواقع بكل العينات العشوائية الممكنة . إن كل ما يوجد إذن هو معرفة تخمينية .

يوسفنى أن كانط الذى أحبه وأعجب به كثيرا قد أخطأ مثل سائر أو مثل تقريبا سائر الفلاسفة الآخرين . نحن حيوانات . نحن البشر حيوانات والحيوانات لا يمكنها أن تعرف معرفة يقينية وهو ما أدركه الفلاسفة اليونان بالفعل . لقد قالوا : " لدى الآلهة معرفة صادقة ، أما ما لدى البشر فمحض آراء " . كان أرسطو أول من خالف هذا الرأي حيث ذهب إلى أن لدينا أيضا نحن البشر معرفة يقينية ، معرفة يمكن البرهان على صدقها . ومن ثم فقد اخترع الاستقراء لكي يصل إلى هذه المعرفة التي يمكن البرهان على صدقها . وعندما لم يشعر بالإرتياح من جراء هذا ، نسبها لسقراط .
لا يمكن في هذا الإطار أن نقول أكثر من هذا .

لقد كان كانط على حق حينما ذهب إلى الاستقراء في حاجة إلى شئ يسبقه ، في حاجة إلى شئ عام . إلا أن هذا العام رغم أنه قبلى ، سابق على

كل تجريب فإنه ليس يقينياً • لاوجود لمعرفة يقينية • فكلمة ' معرفة ' فى اللغتين الإنجليزية والألمانية على الأقل - تعبير عن حلم نتمناه - • المعنى الدقيق لكلمة ' معرفة ' هو أن المعرفة معرفة يقينية • لايمكننى القول "أعرف " أنتى فى فيينا رغم أنى " أضمن هذا " لايمكن للمرء أن يقول هذا وإلا لكان هذا نزولا فى المستوى من المعرفة الى التخمين • عندما أقول " أعرف أنى فى فيينا " يجب أن أكون على يقين أنتى فى فيينا • ولكن لايمكننى أبدا أن أكون على يقين أنتى فى فيينا إذ هناك دائما احتمال أنى أحلم - هناك إذن امكانية تلعب دورا هنا والآن فى حياتى وهى أنه من المحتمل أنى أحلم ، أو أنه حلم أقرب إلى الحياة ، ولكن ماضت مجهدا بصورة قوية لن يكون هذا مستغربا •

تعنى " المعرفة " إذن فى اللغتين الإنجليزية والألمانية معرفة يقينية وهو ما لاوجود له ، المعرفة على أحسن تقدير معرفة تخمينية ، وهى كل ما يمكن أن يكون لدينا • افضل معرفة لدينا هى المعرفة العلمية ومن ثم فهى أيضا معرفة تخمينية •

أهداف ومشكلات وقيم :

فى مواجهة ملاحظة ذكرها صديقى ريدل Riedl فى مقدمته فإنى أقف موقفا نقديا • فلقد نفخ فى بوق هؤلاء الذين لايشعرون بالرضا عن عقلنا • كما تحدث عن النسبية الثقافية • فى مقابل هذا سأقول شيئا مختلفا • يكمن واجبنا كبشر فى البحث عن الحقيقة ، الحقيقة الموضوعية والمطلقة، إلا أنها ليست فى متناول أيدينا فهى شئ نبحث عنه باستمرار وغالبا مانجده بصعوبة • كما نحاول دائما أن نقترّب أكثر من الحقيقة • وما لم تكن الحقيقة موضوعية ومطلقة ما كان من الممكن لنا أن نخطئ أو لكانت أخطاؤنا مثل صدقنا •

بحثنا عن الحقيقة يحدث دائما على النحو التالى :

نحن نبتكر بصورة قبلية نظرياتنا وتعميماتنا والتي تنمى إليها إدراكاتنا الحسية للشكل . فالإدراك الحسى للشكل فرض أو تفسير لما يراه .
ومن حيث أن الإدراك الحسى للشكل تفسير فهو فرض . ليس أمامنا سوى تخمينات أو فروض ، لدينا بإستمرار تخمينات خلقناها بأنفسنا ، نحاول دائما وبإستمرار أن نضعها فى مواجهة الحقيقة الفعلية لكسى نعدل منها ونقربها من الحقيقة .

أريد أن أصل إلى أن العلماء والفكرين بصفة عامة قد اتضح لهم كم هو ضئيل ما نعرفه ، مثل مسألة نشأة الحياة على سبيل المثال التى لا نعرف عنها شيئا . هذه هى المشكلات التى لم تحل والتى ذكرتها فعندما نشأت الحياة : لماذا نشأت على نحو اتفقت فيه بالمصادفة مع البيئة التى نشأت فيها؟ هذه مشكلة ضعيفة .

فنحن لانعرف شيئا . هذه هى المشكلة الأولى
لذا يجب أن نكون متواضعين . هذه هى المشكلة الثانية
أما المشكلة الثالثة فتكمن فى أننا لانزعم أننا نعرف عندما لانعرف . هذا هو تقريبا الموقف الذى أريد تعميمه وأملى فى ذلك ضعيف .

المقالة السادسة

كبلر • ميتافيزيقاه حول المجموعة الشمسية وإتجاهه النقدي التجريبي

**Kepler . Seine Metaphysik des
Sonnensystems und seine
empirische Kritik**

محاضرة ألقاها بوبر في مدينة لينز Linz في الثامن من أغسطس ١٩٨٦
ثم تم نشرها في كتاب تحت عنوان " Wege der Vernunft " أي
طريق العقل " في ذكرى الميلاد السبعين لهانز ألبرت H.Albert
Hrsg von Alfred Bohnen und Alan Musgrave. Tübingen
(J.C.B. Mohr/Poul Siebeck) 1991 .

الأمس السابع من نوفمبر ١٩٨٦ ثمانية أيام قبل ذكرى وفاته الثلاثمائة
والست والخمسين — كان يوماً مشهوداً في تاريخ حياة كبلر . إذ أن ٧
نوفمبر ١٦٣١ كان هو اليوم الذي لاحظ فيه " بيير جاسندي Pierre
Gassendi " مرور الكوكب عطارد Merkur من أمام قرص الشمس وهو
الحدث الذي تتبأ به كبلر قبل حدوثه بعامين .

ولكن لم يقدر لكبلر أن يشهد هذه الظاهرة التجريبية لنظريته الجديدة في
الكواكب ، إذ أنه قد توفي قبل حدوثها بعام واحد ، أي قبل عيد ميلاده التاسع
والخمسين بقليل .

يجب على بادئ ذي بدء أن أنكر وبوضوح أنني لست دارساً متخصصاً
لكبلر . لست سوى أحد المتحمسين والمعجبين بكبلر وأحد أتباعه . ما يعجبني
فيه هو حبه الرائع للحقيقة وبحته عنها دون كلل أو ملل كما ظهر لنا ذاك
بصفة خاصة في كتابه الفلك الجديد Astronomia Nova ، كما أعجبتني
أيضاً ميتافيزيقاه الخلاقة كما ظهرت في سائر أعماله والتي وصلت إلى
نضجها في نظريته عن انتظام النظام الكوكبي كما عبر عنه في كتابه "
مطابقات العالم" .

أريد قبل كل شيء أن أنكر ملاحظتين ، الملاحظة الأولى تخص ميتافيزيقا
كبلر وبأى معنى أنتسب إليه .

والملاحظة الثانية حول اتفاق مع منهج كبلر والذي لعبت فيه ميتافيزيقا
كبلر دوراً كبيراً .

لنبدأ إنن بميتافيزيقا كبلر . لقد بحث كبلر مثله في ذلك مثل سائر العلماء
الحقيقيين والباحثين عن الحقيقة ، عن الحقيقة الفعلية كحقيقة تكمن خلف
الظواهر . هذه الظواهر يجب أن توضح الحقيقة الفعلية المفترضة ، إلا أنه
— مثله أيضاً في ذلك مثل سائر الباحثين عن الحقيقة — وقع في أخطاء
عديدة ولكنه — كقليل فقط من أمثاله — استبقاد وتعلم الكثير من هذه

الأخطاء .

لقد تأثر كبلر في بحثه عن الحقيقة حسب الضواهر بالفتن عوربير وميتافيزيقاهم . لقد اعتقد أن بالعالم جمالا نشأ عن الإنسجام Harmonie وتآلف الأصوات Resmanz وتتآفرها Dissonanz فهي سيمفونية إلهية أو همنسة من الجمال الإلهي . لقد جعلت هذا الفكرة من كبلر باحثا — لا يكل ولا يمل — عن الحقيقة . الحقيقة يجب أن تكون جميلة ، يجب أن تكشف عن حقيقة الجمال الإلهي . لقد أراد كبلر أن يكشف هذه الحقيقة الفعلية ، ليست الحقيقة التقريبية ولكن الحقيقة الفعلية للجمال ، وهو ما يفسر أخذه فرض إنحراف المدار مأخذا جديا : الإنحراف عن المدار بمقدار ثمان دقائق منحني والتي وصل إليها من ملاحظات تيخوبراها^(١) . سائر ما تلى ذلك يعتمد على هذا الإنحراف الذي اكتشفه كبلر : فديناميكا نيوتن ومعها سائر الفيزيكا الحديثة تعتمد على هذا الإنحراف الذي إكتشفه كبلر . لقد رأى كبلر في هذا الإنحراف تتآفرا وهو التآفر الذي رآه ميتافيزيقاه وحببه للحقيقة أمرا غير محتمل ومن ثم يجب حله .

عرض كبلر حل هذا التآفر — وهو مطلب ميتافيزيقاه — في كتابه "مطابقات العالم" الذي يمثل ميتافيزيقاه في أوج نضجها . ولم تكن فيزياء نيوتن الكلاسيكية هي فقط مانشا عن هذا التوتر بين دقائق المنحني الثمانية — أقل من ٧/١ درجة — وميتافيزيكا كبلر الفيثاغورية ولكن الميكانيكا الموجية أيضا نشأت عن هذا . ومثلما لم تأخذ النظرية الذرية التي بدأت في القرن الخامس قبل الميلاد في صورتها اليونانية كميتافيزيكا على يد لوقيبوس Leukipp وديمقريطس Demokrit — طابعها العلمي إلا في القرن التاسع عشر والعشرين ، كذلك لم تأخذ نظرية كبلر في إنسجام العالم طابعها العلمي

(١) تيخوبراها ، عالم فلك (١٥٣٦ — ١٦٠١) حاول مثل كوبرنيكس إصلاح علم الفلك النظري وذلك بتحسين المشاهدات الفلكية وقد نجح بإستخدام آلات جديدة في الوصول إلى مقاييس أكثر دقة من بطليموس وكوبرنيكس .

إلا على يد لويس دي بروجلي Louis de Broglie وإرفن شرودنجر Erwin Schrodinger . أن ميكانيكا شرودنجر الموجية هي محاولة تحويل الانتقال من التفسير الإشعاعي الهندسي للضوء إلى التفسير الموجي له إلى نظرية المادة ، أى إلى نظرية الجزيئات الأولية ، والتفسير الموجي للضوء من جانبه. ينحو نحو أن يكون نظرية موسيقية ، نظرية في الذبذبات السمعية والموجات ، أو تآلف وتناظر الأصوات. ولكن في هذه النظرية يلعب كبلر ونظريته في الإنسجام — دوراً رئيسياً .

لقد لعب كبلر إذن دوراً في التاريخ السابق على ميكانيكا شرودنجر الموجية . إلا أن هذا ليس هو كل شيء ، إذ يظل كبلر الوحيد بين السابقين على شرودنجر الذي توقع أن يجمع الإنسجام — أو التآلف — العالم أو يشد بعضه إلى بعض ، ذلك أنه إذا كان التآلف يجمع الذرات والجزيئات وجزيئات الـ DNS ، فإنه يمكن النظر إلى هذه الواقعة على أنها أكثر نتائج ميكانيكا شرودنجر الموجية أهمية .

فكم اعتقد من قبل ايشنتين ودي بروجلي de Broglie ولتباعهما ، من الممكن أن يكون هناك في الواقع مانسميه موجات دي بروجلي الفارغة والخالية من المادة . وهو ما يبدو أنه يؤكد النتائج التي وصل إليها عالم الفيزياء التجريبية الفيينى الأصل — نسبة إلى فيينا — هلموت راوخ Helmut Rauch على الأقل بشأن الموجات النيوترونية Neutronenwellen وهي النتائج الأكثر أهمية بالنسبة لهذه المشكلة ، يتأكد هنا مانعرفه منذ قوى نيوتن وميادين فاراداي وماكسويل أن هناك تركيبات فيزيقية مؤثرة ، تركيبات لا مادية ولكنها تكخل في علاقة تفاعل متبادل مع المادة .

أنا أحد المعارضين لنظرية نيلز بومر Niels Bohr في تكامل الجزيئات والموجات والتي وفقاً لها يبدو ما هو غير معروف. (الشيء في

ذاته) مرة كجزئ Teilchen ومرة أخرى كموجة ولكن تتعارض بالتبديل هاتان الطريقتان في الظهور (لقد تم تنفيذ هذه النظرية مع غيرها من النظريات بمثاله المفضل عن تجربة الإنقسام الثنائي Zwei-Spalten Experiment والتي تظهر فيها الجزيئات ذات الطابع الموجي في إنشائها) ولكنى أؤيد نظرية دي بروجلي في الموجات الطائفة : وهى فرض أكثر بساطة من سابقتها والتي تذهب إلى أن هناك جزيئات وأيضا موجات • تتحدد الجزيئات المادية وفقا للموجات اللامادية • سعة الجزيئات المادية تحدد إتجاهات أو ميول محتملة مما يعنى أن الدآلف والتآافر معا بحكمآن العالم كما ذهب إلى ذلك كبلر • ومنذ سنوات عندما وضعت خطة كتاب " الذات وعقلها The self and Its Brain " مع سير جون اكسلز كنت أتبنى الفرض الميتافيزيقى الذى منطوقه أنه من الممكن حل مشكلة العلاقة بين النفس والجسد متى قبلنا اعتبار النفس نسقا معقدا جدا ومغيرا للميول تصفه وظيفة المخ الموجية • يمكن وصف هذا الفرض الميتافيزيقى بأنه محاولة إعادة تقديم نظرية Simmias المشهورة فى محاوره فيدون لأفلاطون ، أى نظرية فيثاغورس التى ترى فى النفس انسجام الجسد • لابد أن بعضكم — بعض المستمعين إلى هذه المحاضرة — قد أصابته الدهشة بل والغضب من اتقافى المتحمس مع الفرض الميتافيزيقى الذى يتبناه كبلر ولاسيما أنى مشهور منذ فترة طويلة بأنى ممثل حقيقى لوضعى حلقة فيينا ومعاد للميتافيزيقا • لقد كتب حديثا أحد علماء النفس الأمريكيين وهو فى نفس الوقت أحد الباحثين فى المخ — كتب مادحا لى يقول : " أن بوبر هو أحد الورثة المؤثرين لتأكيد ماخ على الإنطباعات الحسية ومائلى ذلك من وضعية حلقة فيينا " (كارل بريبرام Karl Pribram فى كتاب العقل والمخ Mind and Brain ، المحرر : سير جون إكسلز ١٩٨٤) ومن ثم فإنه ليس من غير المحتمل أن يشخص البعض إنتقالى

الفكرى الصريح المتفائل من الوضعية إلى مصادقة الميتافيزيقيا على أنه من
بلاهة الشيخوخة .

قد يصدق أى أصبت ببلاهة الشيخوخة ولكن لا يصدق هذا على مسألة
التغير الفكرى الذى حدث لى - وذلك أننى منذ أول مرة نشرت فيها ما كتبت
عن نظرية العلم وكان ذلك عام ١٩٣٣ أكنت ضد الوضعية (فى مجلتهم
الخاصة المعرفة Erkenntnis) وظللت أؤكد أن علم الطبيعة - إذا نظرنا
إليه من زاوية تاريخية - قد نشأ كانعكاس لأفكار ميتافيزيقية . كانت
النظرية الذرية للوقيوس وديمقريطس بصفة خاصة هى ما تمثل فى ذهنى
وقتها وهى ما يمثل الآن . هذا الإعلان الذى أصدرته عام ١٩٣٣ والذى
أعلنت فيه عن كتابى "منطق الكشف" كان عبارة عن صفحتين فقط ومن ثم
لم أستطع أن أنكر فيه سوى الأفكار التى بدت لى الأكثر أهمية . كانت هذه
الأفكار على النحو التالى : الأولى : تنقيد شليك وفتجنشتين الثانية : أن
النظريات العلمية - منظورا إليها نظرة تاريخية صدرت فى أغلبها عن
الميتافيزيقا والتى تتميز عنها فى أنها مايقبل التكذيب .

تكمن سائر ميثودولوجيتى فى الملاحظة القائلة بأن العلوم الفيزيائية
تحاول البحث عن الحقيقة الفعلية التى تكمن متوارية خلف الظواهر وأننا
يجب علينا أن نتقدم بالنصيحة حين لايمكننا أن نعرف شيئا وهو تماما ما فعله
كبلر . ومتى أردنا أن نخضع للإختبار فروضنا القابلة للإختبار - مثلما فعل
كبلر - فعندئذ لن نظل الفروض فروضا ميتافيزيقية ولكنها ستتحول إلى
فروض علمية تسمح لنا بالتعلم من أخطائنا . هكذا فعل كبلر الذى استبعد
أخطاءه وتعلم منها . لقد اكتشف بهذه العملية - عملية الاستبعاد - أهم
الأخطاء - الفرض القائل بدوران الأفلاك فى مدارات دائرية الذى كان
معتقدا قديما - ومن ثم وضعه فى مواجهة ملاحظات تيخوبراها .

لقد قال كبلر بنفسه عشرات المرات على الأقل أن مايفعله هو محض

تفنيدات • كان يكرر قوله عن الفرض الذى يتم رفضه والذى لم يكن قد عر
سوى وقت قصير جدا على وضعه له أن قياسات تيخو قد فندته ومن ثم يجب
عليه ابتكار فرض جديد غيره ويقوم بتجربته •

لقد وصل إذن إلى التفنيد ، أو التكنيب ، تفنيد وتكنيب فرض المدار
الدائرى والذى أوصله بعد عدة عمليات من التفنيد - والتي أطلق عليها
التفنيدات - إلى فرض المدارات البيضاوية • ولم يصل كبلر بصورة كاملة
إلى مبدأ تساوى المساحات Flächensatz فى كتابه الفلك الجديد ولابعد ذلك
بعشرة سنوات فى كتابه مطابقات العالم ولكنه وصل إليه أول مرة بصورة
كاملة فى كتابه " مختصر علم الفلك الكوبرنيقى Kurzen Lehrbuch der
Kapernikanischen Astronomie der Epitome " ، والذى نشر عام
١٦٢٠ •

وكثيرا ما يقال أن كبلر لم يؤكد على قانونيه الأولين تماما • لماذا ؟ لقد
أراد أن يكتشف الحقيقة أو الحقيقة الفعلية للكامنة خلف الظواهر ، فلم يرد
مجرد وصف أفضل ولكنه أراد تفسيرا عليا ، أو فيزياء فلكية
Himmelsphysik • لقد أراد تماما ما حققه نيوتن بالفعل بعد مرور ٦٠
عاما وهو ما كان كبلر يعرف وقتها أنه لم يصل إليه بعد • ولكن ما الذى
حال بينه وبين تحقيق ذلك ؟ لقد وصل كبلر بالحس لحساب التكامل ولكنه لم
يعرف حساب التفاضل • لقد فهم أن الأجسام تتجذب لبعضها أو يشد بعضها
بعضا وتحرك بعضها " وأن القوة الكبيرة الخارجة من الشمس هى العلة التى
تفسر حركة الكواكب " • إلا أنه لم يفهم التمييز بين علة حركة الأجسام
وعلة تغير موضع الحركة •

هذا هو الفارق بين تناول كل من كبلر ونيوتن لمشكلة إيجاد العلة الكامنة
خلف الظواهر ، خلف قوانين كبلر • وهو ما أمل كبلر أن يجدها - أى العلة
- فى انسجام الكون •

لقد وجه أوسر Erhard Oeser نظرى إلى أن فكرة وجود علاقة بين ميكانيكا الكم ونظرية الإنسجام لدى كبلر قد وصل إليها زومر فلد Amold Sommerfeld^(١) من قبل . هذه المعلومة الجديدة بالنسبة لى - والتى أجد لزاما على أن أشكر أوسر عليها - جاءت متأخرة بحيث لم أضعها فى صلب نقاشى .

يمكن إيجاز ماسبق فيما يلى . لم يكن كبلر - كما يقال فى الغالب - بالرجل الذى ربط بين ميّافيزيقا بدائية تنتمى للعصور الوسطى وفكرة الإستقراء الحديث . لقد أخطأ نيوتن حينما اعتقد أن كبلر قد وصل إلى قوانينه الثلاثة بالإستقراء إعتماذا على ملاحظات تيخو . لقد كان الحدس هو المرشد والموجه لكبلر مثله فى ذلك مثل كل عالم:

محاولة (فرض) وخطأ (تنفيذ تجريبى) . كما كان كبلر - مثله فى ذلك مثل كل عالم يبحث شئ جديد ويجده - فيلسوفا ميّافيزيقا نجح فى التعلم من أخطائه . ولقد كان هذا كله واضحا له وهو الوضوح الذى لم يفهمه الكثير من العلماء حتى اليوم .

لايمكننا العمل دون الحدس رغم أن كثيرا من حدوساتنا يظهر خطؤها . نريد حدوسات ، أفكارا أو افكارا منافسة بقدر الإمكان ثم أفكارا عن كيف يمكننا إخضاع الأفكار الأولى للنقد ومن ثم تطويرها ثم اختبارها . وإلى أن يتم تنفيذها (بل وإلى مدة أطول من ذلك) يجب علينا تحمل الأفكار موضع الشك إذ أن أفضل الأفكار هى الأفكار موضع الشك .

(١) زومرفلد A.Sommerfeld (١٨٦٨ - ١٩٥١) عالم طبيعة ألمانى الجنسية ، ساعد نمونجه الذرى الذى وضعه فى تفسير تركيب ألوان الطيف .

**الجزء الثانى من الكتاب
أفكار فى التاريخ والسياسة**

**Gedanken über Geschichte
und Politik**

**المقالة السابعة
فى مسألة الحرية**

Zum Thema Freiheit

محاضرة ألقاها كارل بوبر فى مدينة ألباخ ٢٥ - أغسطس ١٩٥٨

نحن لا نعرف سوى القليل عن عملية تعمير مناطق الألب العليا السويسرية والسويسرية والفرنسية بالسكان ، تلك العملية التي حدثت في أزمنة متقبل التاريخ . إلا أنه من الممكن أن نفكر كيف حدثت هذه المسألة . فقد يكون البشر الذين كانوا يمارسون الزراعة والرعى استقروا في أودية الألب العليا تلك الأودية وعرة المسالك والمتوحشة حيث أمكنهم أن يعيشون — على أحسن تقدير — حياة صعبة جافة ومحفوفة بالمخاطر . قد يكون هؤلاء الناس قد استقروا في الجبال مفضلين بذلك الوجود غير الأمن على استعباد جيران أقوى منهم لهم . فرغم عدم الأمان والمخاطر اختاروا الحرية . هكذا اعتقد دائماً أن الحرية لدى السويسريين والنمساويين تعود إلى ما قبل تاريخ تعمير سويسرا .

وعلى أية حال فإنه لأمر شيق ومثير للإنتباه في نفس الوقت أن إنجلترا وسويسرا وهما أقدم دولتين ديمقراطيتين في أوربا الحديثة تتشابهان في حبهما للحرية . واستعدادهما للدفاع عن حريتهما . إلا أنهما تختلفان في ملامح أخرى كثيرة وبصفة خاصة في نشأتها السياسية . تدين الديمقراطية الإنجليزية بنشأتها للكبرياء وإحساس الطبقة الأرستقراطية بالاستقلال وتدين في تطورها المتأخر لطريقة التفكير البروتستانتية والضمير الشخصي والتسامح الديني الذي تلى الصراعات السياسية والدينية الكبرى التي أحدثتها الثورة البيوريتانية . أما الديمقراطية السويسرية فلم تنشأ من كبرياء والإحساس بالاستقلال وفردية الأرستقراطية وإنما من كبرياء والإحساس بالاستقلال والفردية لقاطني الجبال المرتفعة .

لقد أدت هذه البدايات والتقاليد المختلفة تاريخاً تاماً إلى نشأة مؤسسات وأنماط قيم تقليدية مختلفة تماماً عن بعضها ، فما يتوقعه شخص سويسري — أو نمساوي — أو يأمله من الحياة — فيما اعتقد — يختلف بصفة عامة عما يتوقعه أو يأمله شخص إنجليزي . يفسر الاختلاف بينهما في أنماط التعليم

تفسيراً جزئياً - هذا الاختلاف فى أنساق القيم ، كما أن هذا الاختلاف فى أنساق التعليم يجد بدوره تفسيره فى التعارضات الاجتماعية والتاريخية التى أشربت إليها . لقد كان التعليم فى إنجلترا حتى هذا القرن ميزة يختص بها طبقة الأشراف والنبلاء وأصحاب الأملاك - أى لم يكن يتمتع بها المواطنون وأبناء الطبقة الوسطى ولكنها كانت خاصة بالعائلات الكبرى صاحبة الأملاك الكبرى . كانت هذه العائلات الكبرى هى حاملة الثقافة ، ومنها خرج العلماء (الذين غالباً ما كانوا أصحاب نفوذ) وأصحاب الوظائف العليا كالسياسيين والقضاة والضباط . فى مقابل هذا كان حاملو الثقافة فى سائر القارة مواطنين عاديين ينتمى معظمهم للطبقة الوسطى . فالثقافة والتعليم لم تكن شيئاً يرثه الإنسان ولكنها كانت شيئاً يصنعه الإنسان نفسه . لم تكن الثقافة والتعليم رمزا لوضع إجتماعى موروث ولكنها كانت وسيلة ورمزا للنهضة الاجتماعية وللتحرر الذاتى عن طريق العلم .

يفسر هنا أيضاً لماذا كان الصراع المظفر ضد الفقر فى إنجلترا شكلاً من أشكال استمرار الصراعات الدينية على مستوى آخر وهو الصراع الذى لعب فيه استدعاء الأشراف والطبقة الوسطى للضمير والوعى الدينى دوراً حاسماً ، بينما حركت فكرة التحرر الذاتى عن طريق العلم ، فكرة التعلم الكبرى لبستالوزى Pestalozzi^(١) الصراع ضد الفقر والبؤس .

رغم سائر هذه الاختلافات عميقة الأسس ، تعرف كل من إنجلترا وسويسرا أن هناك فيما يجب الدفاع عنها بأى ثمن . تنتمى الحرية الشخصية والإستقلال الشخصى بصفة خاصة لهذه القيم . كما تعلم كلاهما أنه يجب الصراع من أجل الحصول على الحرية والإستمرار فى الحرب من أجلها حتى ولو بدا احتمال النصر ضعيفاً . فعندما كانت إنجلترا تحارب وحدها

(١) Johann Heinrich Pestalozzi . يوهان هينريك بستالوزى ١٧٤٦ - ١٨٢٧ ، أستاذ نمساوى من أساتذة التربية الذين تأثروا بصفة خاصة بحركة التنوير الفرنسية وعلى وجه الخصوص بجان جاك روسو وبالفلسفة الألمانية الكلاسيكية .

من أجل الحرية عام ١٩٤٠ لم يعد تشرشل الإنجليز بالنصر ، فلقد قتل لا
أستطيع أن أعدكم سوى بالدماء والدموع * . لقد كانت هذه هي كلمته التي
منحت إنجلترا الشجاعة للإستمرار في الحرب .
وبالمثل في سويسرا كان الإصرار والتصميم التقليديين على الصواع —
ضد عدو لاشك في قوته هو الهابسبرجر Habsburger ^(١) أولاً ثم الرايخ
الثالث فيما بعد — هو ما حفظ لأهل سويسرا استقلالهم أثناء الحرب العالمية
الثانية .

II

أشد ما أخشى أن أكون قد إندفعت بتأثير حبيبتنا مدينة الباخ Albach
وبتأثير هذا التعاون الرائع بين يدى الطبيعة والإنسان وبين حب الوطن
والإجتهاد البشرى ، أن أكون قد اندفعت فغلقت كلماتي التمهيدية هذه بشئ
من الرومانتيكية والعاطفة ، لذا أجد نفسي مضطراً أن أضع هذه الكلمات
التمهيدية ذات المسحة الرومانتيكية والعاطفية في قالب آخر محايد أتجه فيه
ضد الرومانتيكية وبصفة خاصة ضد الإتجاه الرومانتيكى فى الفلسفة . أريد
أن أبدأ هذه المقدمة الثانية بتعريف نفسى .

أريد بادئ ذى بدء ألا يؤخذ ما سأقوله الآن مأخذ الاعتقاد والتصديق .
بل على العكس أريدكم أن تتعاملوا معه بكل الشك . لست على الإطلاق
رائداً لطريق جديد ، أو مناد بإتجاه جديد فى الفلسفة كغيرى من زملائي
الفلاسفة ولكنى على العكس تماماً فيلسوف يحمل إتجاهاً قديماً تماماً ،
فيلسوف يعتقد فى فلسفة قديمة ومسيبوقة ، فلسفة عصر مضى عصر العقلانية
والتتوير . فمن حيث أنى أمثل آخر فلاسفة العقلانية والتتوير فأنى أعتقد فى
تحرير الإنسان الذاتى عن طريق العلم — مثل كانط آخر فلاسفة التتوير
العظام ، ومثل بستانلوزى الذى حارب الفقر بالعلم . أريد إذن أن أقول

(١) الأسرة الحاكمة فى سويسرا فى الفترة من ١٢٧٣ حتى ١٨٠٦ .

بوضوح أنى اتبنى هنا آراء كان ينظر إليها كأراء خاطئة ومتخلفة من حوالى ١٥٠ عاما ، ذلك لأن الحركة الرومانتيكية رأت فى التتوير رمزا للقمامة Anspielung auf Kehricht ولكنى للأسف متخلف جدا لدرجة أنى مازلت أتمسك بهذه الفلسفة القديمة والمتخلفة ولا أستطيع فى تخلفى هذا أن أرى فى فلسفة الحركة الرومانتيكية وبصفة خاصة فى فلسفة الرواد الثلاثة الكبار للمثالية الألمانية فئنة ، شلنج وهيجل سوى أنها كارثة أخلاقية وفكرية، أكبر كارثة أخلاقية وفكرية ابتلى بها العقل الألمانى والأوروبى . هذه الكارثة كان لها — فيما أعتقد — تأثير فتاك ومجهل مازال من الممكن تصوره كسحابة ذرية فى حالة تزايد . إن هذه الكارثة تنطق بما اسماه كونراد هايدن Konrad Heiden منذ سنوات فى كتابه عن هتلر " زمن إنعدام الذمة الأخلاقية والفكرية " .

لن يستطيع أحد أن يوقف روح العصر أو يوقف حركة توجهها روح العصر ، لن يحدث هذا على الأقل بواسطة أحد أتباع حركة التتوير المتأخرين مثلى أنا مثلا الذى أعترف بقوة الموضنة أو قوة روح العصر ولكنى لست مستعدا لقبولها . فعلى عكس أهل الثقة الكبار الرومانتيكيين والمعاصرين لا أعتقد أن واجب الفلسفة أن تعبر عن روح زمانها . أعتقد (مثل نيتشه) أن الفيلسوف يجب أن يتأكد دائما وأبدا أنه لم يبدأ أخيرا فى الإتفاق مع روح العصر ذلك الإتفاق الذى يعرض استقلاله العقلى للخطر ، أنفق تماما مع هوجو فون هوفمنستهل Hugo Von Hofmannsthal^(١) عندما قال فى " كتاب الصداقة " " Buch der Freunde " . " الفلسفة هى قاضية زمانها . والأمر يكون سيئا إذا كانت بدلا من ذلك — هى التعبير عنه " .

(١) شاعر وكاتب مسرحى نمساوى ، عاش فى الفترة بين ١٨٧٤ - ١٩٢٩ .

III

لن يكون لإدراكاتى الموجهة ضدى بآنى أنتمى للعقلانية وحركة التتوير معنى مالم أوضح قليلا ما أعنيه بالعقلانية والتتوير .

عندما أتحدث عن العقلانية ، لا أعنى بها نظرية فلسفية مثل نظرية ديكرت مثلا أو الإعتقاد اللامعقول بأن الإنسان جوهر عقلى محض . ما أعنيه عندما أتحدث عن العقل أو العقلانية ليس سوى الاقتناع بأننا نستطيع التعلم عن طريق نقد أخطائنا ، بصفة خاصة نقد الغير لنا ونقدنا لأنفسنا فالعقلانى هو ببساطة إنسان يتعلم أكثر من إنسان متمسك بالحق ، إنسان مستعد للتعلم من الآخرين ، لابعنى التسليم ببساطة برأى غريب ولكن بمعنى أن يسمح للآخرين بنقد آرائه ، أى ينتقد آراء الآخرين . فما نؤكد عليه هنا هو فكرة النقد أو بالتحديد المناقشة النقدية .

لايعتقد الشخص العقلانى إذن أنه أو غيره فى وضع العارف ، كما لا يجب أن يعتقد أن مجرد النقد هذا يساعدنا على الوصول الى آراء جديدة ، ولكن أن يعتقد أن المناقشة النقدية هى فقط ما تساعدنا على التمييز فى ميدان الأفكار بين الغث والسمين . أنه يعرف بالفعل أن قبول أو رفض فكرة ما ليس مسألة عقلية بحتة ولكنه يعتقد أن المناقشة النقدية وحدها هى مايمكنها أن تقدم لنا النضج اللازم الذى يمكننا من رؤية الفكرة من وجوه شتى ومن الحكم عليها حكما صحيحا .

لهذا التقدير والاعتبار للمناقشة النقدية جانبه الإنسانى إذ يعرف العقلانى كأمربديهى أن العلاقة الانسانية لاتخلقها المناقشة النقدية كما يعرف — على العكس تماما — أن المناقشة النقدية العقلانية لإمكان لها فى حياتنا إلا نادرا ولكنه مع هذا يعرف أن مسألة الأخذ والعطاء التى تضع أساس المناقشة النقدية مسألة ذات دلالة كبرى من الناحية الإنسانية .

إذ يعرف العقلاني أنه يدين بعقله للآخرين ، يعرف أن وجهة النظر العقلانية النقدية يمكن ألا تكون سوى نتيجة لنقد الآخرين له وأن الإنسان لا يمكنه الوصول إلى النقد الذاتي إلا عن طريق نقد الآخرين .

يمكن التعبير عن وجهة النظر العقلانية على النحو التالي : قد لا أكون على حق وقد تكون على حق ، ولكن يمكننا معا أن نأمل في الوصول — بعد مناقشة نقوم بينها — إلى توضيح للأمر أكثر مما كان عليه قبل المناقشة ، كما يمكننا في كل حالة أن نتعلم كل من الآخر طالما أننا لا ننسى أن المسألة ليست مسألة من منا الذي بجانبه الحق ، أو من الذي يقترب من الصدق بصورة أكبر . فقط من أجل هذا الغرض يمكننا بقدر المستطاع أن ندافع عن أنفسنا في المناقشة .

هذا هو باختصار ما أعنيه عندما أتحدث عن العقلانية ، أما عندما أتحدث عن التتوير فإنني أعني شيئا أكثر من ذلك قليلا ، إذ يقفز إلى ذهنى أول ما يقفز فكرة التحرر الذاتي عن طريق العلم ، تلك الفكرة التي جاء بها كل من كانط وبستالوزي وكذلك واجب كل مفكر في مساعدة الغير على التحرر عقليا وعلى فهم وجهة النظر النقدية ، وهو الواجب الذي نسيه معظم المفكرين منذ فشته وشلنج وهيجل إذ أن بعض المفكرين يهدفون للأسف فقط لسحر الناس — كما يقول شوبنهاور — لا لتعليمهم ولكن فقط لإبهارهم ، فهم يتصرفون كما لو كانوا قادة أو أنبياء . يبرر هذا جزئيا أنه متوقع منهم أنهم يتصرفون كما لو كانوا أنبياء ، أو حاملى السر المظلم للحياة ، وللعالم والإنسان أو للتاريخ والوجود . هنا وكما يحدث غالبا للأسف يخلق الطلب الدائم عرضا ، فيتم البحث عن قادة وأنبياء ولاعجب أن تظهر هذه القادة والأنبياء ولكن كما قال ويلز H.G.Wells مرة " ليس الراشدون في حاجة إلى مرشد " فالراشدون يجب أيضا أن يعرفون أنهم ليسوا في حاجة إلى قادة أو مرشدين، فواجب كل مفكر — كما اعتقد — أن يبتعد بكل وضوح عن كل

IV

ماهى الخاصية الظاهرة التى يشترك فيها كل من وجهتى النظر هتير :
وجهة نظر التتوير ووجهة نظر الذين يسمون أنفسهم أنبياء ؟ هذه الخاصية
هى اللغة • فالداع إلى التتوير يتحدث ببساطة بقدر الإمكان ، إذ يبغي أن
يكون مفهوما • ومن هذه الوجهة يعتبر برتراند رسل Russell الفيلسوف
الذى لاينظره أحد فى الوضوح من الفلاسفة • كما أن الداع إلى التتوير متى
لم تتفق معه فلن تملك سوى الإعجاب به ، إنه يتحدث دائما بوضوح وبساطة
وبصورة مباشرة •

لماذا يعتمد دعاة التتوير بصورة كبيرة على بساطة اللغة ؟ ذلك لأن هدف
الداع للتتوير الحقيقى والعقلانى الحقيقى لايمكن فى الاقناع. نعم ، لا يهدف
حقيقة إلى الاقناع ، ولكنه يظل على وعى دائما بأنه من الممكن أن يكون
على حق ، أنه يعتقد بصورة خاصة وبصورة قوية فى الإستقلال العقلى
للآخرين لكى يريد أن يقنعهم بأشياء هامة • أنه يدعو بالأحرى إلى الاختلاف
فى رأى وعلى أحسن تقدير إلى نقد عقلى منظم. هو لا يبغي الإقناع ولكن
أن يبعث الآخرين من مرقدهم ، يدعو لبناء رأى الحر • بناء رأى الحر
— وفقا له — هو فقط ماله قيمة ، وهو له قيمة ليس فقط لأننا يمكننا ببناء
الرأى الحر أن نقرب من الحقيقة ولكن أيضا لأنه يحترم بناء رأى الحر ،
كما يحترمه أيضا متى ظهر له خطأ رأى المتكون •

لماذا لا يهدف الداع للتتوير إلى الاقناع ولو مرة واحدة ؟ يكمن أحد
أسباب ذلك فيما يلى : يعرف الداع للتتوير أنه خارج نطاق المنطق
والرياضيات لا يمكن إثبات شئ • نعم من الممكن تقديم حجج وبحث اراء
بحثا نقديا ، إلا أنه خارج المبادئ الأولية للرياضيات فإن حججنا ليست

ملزمة لأحد أو معصومة من الخطأ . يجب علينا دائماً أن نعيد تقييم الأسس ولن نقرر دائماً أى الأسس ذات ثقل أكبر . الأسس التى تخدم رأياً معيناً أو تتحدث ضده . يتضمن بناء الرأى إذن فى المقام الأخير عنصر التحديد الحر . هذا التحديد أو التقرير الحر هو ما يجعل من الرأى رأياً ذا قيمة من الناحية الإنسانية .

لقد تبنى دعاة التنوير منذ جون لوك هذا التقدير الكبير للرأى الشخصى الحر وهو التقدير الذى جاء بلا شك كنتيجة مباشرة للحروب الدينية الإنجليزية والأوربية ، وهى الحروب التى نتج عنها أخيراً فكرة التسامح الدينى . ليست فكرة التسامح الدينى هذه فكرة سلبية على الإطلاق كما يعتقد البعض أحياناً (مثلما يرى أرنولد توينبى) ، فهى ليست مجرد تعبير عن النعيب من الحروب وأنه لا أمل من فرض اتفاق الاقتاعات الدينية عن طريق الارهاب ولكنها على العكس تنتج المعرفة الإيجابية بأن إتباع دين بطريق الفرض لا قيمة له وأن الاعتقاد الدينى الحر هو فقط ما يمكن أن يكون ذا قيمة . إن فهم فكرة التسامح الدينى على هذا النحو يقودنا إلى ما هو أكثر من ذلك ، فهو يقودنا لإحترام كل اعتقاد صادق ، وإحترام الرأى الخاص ورأى كل فرد آخر ، كما يقودنا — كما قال إيمانويل كانط آخر فلاسفة التنوير العظام — إلى الاعتراف بعزة وكرامة الإنسان .

ما يعنيه كانط بعزة وكرامة الإنسان هو الأمر بإحترام كل فرد ومعتقداته . يربط كانط هذه القاعدة بالمبدأ الذى يطلق عليه الإنجليز وبصدق القاعدة الذهبية والذى يعنى " لاتفعل بغيرك ما تكره أن يفعله بك الآخرون " (*) .

يربط كانط بشدة هذا المبدأ بفكرة الحرية — حرية الفكر والنسب طلبها شيلز ماركيوس بوزا من فليب Schillers Marquis Posa von Philipp ، حرية الفكر التى حاول بها سبينوزا أن يؤسس فكرته بأن الحرية غير قابلة

(*) لقد عبر الإسلام تعبيراً دقيقاً عن هذا المبدأ فى قول الرسول الكريم (حب لأخيك ماتحبه لنفسك) .

لنقل أو التصرف وهي الحرية التي يحاول الحاكم إلطاع أن يفرع عن
ولكنه مع هذا لا يستطيع .

أعتقد أنه لم يعد من الممكن أن نتفق مع سبينوزا في هذه النقطة فإذ كان
صحيحا أن حرية الفكر لا يمكن أن تكبت بصورة تامة ، فإنها من الممكن أن
تكبت إلى درجة كبيرة لأنه دون تبادل فكري حر لا توجد حرية فكر فعلية .
فنحن في حاجة لآخرين نجرب أفكارنا عليهم ، أي لنرى ما إذا كانت آراؤنا
وجيهة . المناقشة النقدية هي أساس الفكر الفردي الحر .

وهذا يعني أنه بدون الحرية السياسية فإن حرية الفكر غير ممكنة ، كما
يعنى أن الحرية السياسية شرط مسبق للإستخدام العقلى لكل فرد .

لقد حاولت أو أوضح قليلا ما أعنيه بالعقلانية والتتوير كما حاولت فسى
نفس الوقت أن ابين لماذا تطلب العقلانية — كما أفهمها — وكذلك التتوير
وحرية الفكر والحرية الدينية إحترام الآراء الصادقة للآخرين وهو ماتطلبه
أيضا الحرية السياسية . إلا أنى لا أزع أن العقلانية وحدها هي ماتحب
الحرية أو أنها فقط ما يمكنها تأسيس مطلب الحرية . على العكس تماما ،
أعتقد أن هناك مواقف أخرى وبصفة خاصة المواقف الدينية تطلب أو
تشرط حرية الضمير ومن هذا المطلب وصلت إلى مراعاة رأى الآخرين
وتأسيس مطلب الحرية السياسية . وإذا كنت قد حذرت — قبل قليل —
وبسخرية من عقلانيى القديمة فإنى أريد أن أكرر الآن هذا التحذير ولكل
بكل جدية :

لا أريد — من حيث أنى عقلانى — أن أهدي أى شخص إلى عقيدة
معينة، كما لا أريد أن أسبى إستخدام لفظ الحرية أو أن أجعل أى شخص
شخصا عقلانيا . إننى فقط أدعو الآخرين للإختلاف معى ، أريد بقدر
الإمكان أن أبعث فى الآخرين الرغبة فى رؤية الأشياء بضوء جديد لكى
يستطيع كل واحد أن يتخذ قراره الخاص وفقا لإمكانية بناء الرأى الحر ،

يجب على كل عقلانى أن يقول مع كانط : لا يمكن للمرء أن يتعلم الفلسفة ولكن يمكنه فقط أن يتعلم التفلسف ، أى وجهة النظر النقدية .

V

للتعرف بالطبع على وجه التحديد من أين تتبع هذه الرؤية النقدية ولكنها فيما يبدو شئ نادر . ومن ثم يمكن اعتبارها — بصرف النظر عن القيم الأخرى — قيمة نادرة كل مانعرفه وصل إلينا من اليونان وبالتحديد من طاليس مؤسس المدرسة الأيونية للفلسفة الطبيعية .

للمدارس وجود حتى فى الشعوب البدائية ، ينحصر واجب أى مدرسة دائما فى المحافظة على مذهب مؤسسها ونشره بحيث أنه متى حاول أحد أعضاء مدرسة ما أن يغير من مذهب مؤسسها فإنه يتم استبعاده كمنشئ عن اتجاه المدرسة ومن ثم تنقسم المدرسة على نفسها ، وتتعدد المدارس على هذا النحو عن طريق الإنقسام ، إلا أنه من الضرورى بالطبع أن يتكيف مذهب المدرسة التقليدى أحيانا مع الظروف والعلاقات الجديدة ، أى مع معارف جديدة أصبحت تشكل على سبيل المثال الخير العام . فى هذه الحالات يتم تقديم أو عرض التغير الحادث فى مذهب المدرسة الرسمى بطريقة ملتوية ، أى بعرض تفسير جديد للمذهب القديم يمكن للمرء معه أن يقول أنه لم يحدث أى تغيير فى المذهب : فينسب المرء المذهب الجديد المتغير (الذى لايعترف بتغييره) لمؤسس المذهب أو مؤسس المدرسة ، فالبارة " لقد قال أساتاننا بنفسه هذا الشئ " نسمعها دائما وأبدا تتكرر فى المدرسة الفيثاغورية .

من هنا فقد اعتدنا أن نجد صعوبة شديدة فى تفسير تاريخ أفكار مدرسة كهذه مرة أخرى ومن ثم يكمن فى جوهر هذا المنهج أن يتم نسب كل أفكار المدرسة لمؤسسها . المدرسة الوحيدة — وفقا لعلمى — التى حادت عن هذا الاتجاه هى مدرسة طاليس الأيونية التى أصبحت مع مرور الزمن المدرسة

اليونانية والتي ولدت من جديد في عصر النهضة لتصبح العلم الأوربي .
لنحاول أن نتصور ماذا يعنى أن نخالف التقليد الجمباطيقى لمذهب
مدرسة ما ونحل محله تقليد المناقشة النقدية ونعدد المذاهب والاتجاهات
المتنافسة المختلفة التى تحاول جميعها أن تقترب من الحقيقة .
لقد كان هذا هو طاليس الذى خطا خطوة أراد أن يقترب بها من الحقيقة .
تتصف المدرسة الأيونية وحدها دون غيرها من المدارس بأن تلاميذها
حاولوا أن يطوروا من مذهب أساتذهم وهو مايتضح جليا إذا تصورنا طاليس
وهو يقول لتلاميذه " هذا هو مذهبي ، على هذا النحو أرى الأمر ، حاولوا أن
تطوروا ما أقول " .

على هذا النحو خلق طاليس تقليدا جديدا ، أو تقليدا ذا مستويين : التقليد
الأول هو تقديم مذهب الخاص عن طريق التقليد الذى تتبعه المدرسة وكذلك
تقديم المذاهب التى غيرها كل جيل جديد . الثانى المحافظة على التقليد بنقد
المرء لمذهبه الخاص ومحاولة تطويره .

هنا يعتبر تغير وتحول المذهب فى هذه المدرسة نجاحا ، عندئذ يمكن
فقط ولأول مرة أن يكون هناك تاريخ حقيقى للأفكار . إن التقليد ثنائى
المستوى الذى أصفه هنا هو علمنا المعاصر الذى هو أحد أهم عناصر عالمنا
الغربى . لم يبتكر هذا العلم — لحدود علمى — سوى مرة واحدة ، ثم فقد
بعد ذلك بعد حوالى مائتين أو ثلاثمائة عاما ولكن أعيد اكتشافه بعد ذلك
بحوالى خمسة قرون فى عصر النهضة وبالتحديد على يد جاليليو . كان من
الممكن إذن أن يضيع ويفنى ولكنه يظهر وينتشر بصورة تامة متى كانت
هناك حرمة سياسية .

رغم أن العقلانية — كما أوضحناها — شئ نادر فى أوربا ونادرا ما ينظر
إليها كأحد الأديان المميزة لأوربا ورغم أن مبادئها الآن يكاد يحتقرها معظم
المفكرين الكبار ، فإن عقلانية طاليس مبدأ وتقليد لولاها لما كان لحضارتنا

الأوربية وجود ، فالخاصية الحقيقة التي تميز حضارتنا هي أنها حضارة منشغلة بالعلم wissenschaftsbeftissene ، فهي الحضارة الوحيدة التي أنتجت علماً طبيعياً لعب فيها دوراً كبيراً ، إلا أن هذا العلم الطبيعي ماهو إلا النتاج المباشر للعقلانية ، فهو نتاج عقلانية الفلسفة اليونانية القديمة .

VI

لقد تحدثت عن نفسي حتى الآن كأحد دعاة العقلانية والتتوير وحاولت أن أوضح ما أعنيه عندما أتحدث عن العقلانية والتتوير . كما حاولت أن أوضح قليلاً دلالة القول بأن العقلانية والتتوير يشترطان الحرية السياسية دون أن نعنى بذلك أن حب الحرية يجمعه بالعقلانية والتتوير هوية واحدة أو تربطهما علاقة وثيقة وإلا كان ذلك شيئاً يبعث على السخرية .

نعم إن الرغبة في الحرية شيء إيجابي بصورة تامة وهي الرغبة التي نجدها حتى لدى الحيوان. وكذلك الحيوانات الأليفة المنزلية . والأطفال الصغار ولكن بدرجات متفاوتة . أما في ميدان السياسة فالحرية تشكل مشكلة، فالحرية المطلقة لكل فرد غير ممكنة بالمرّة لمجموعة تحيا معاً ، إذ متى كنت حراً في فعل كل ما أريده فإن هذا يعنى أنني حر أيضاً أن أسلب الآخرين حريتهم .

لقد حل كائط هذه المسألة بدعوته لأن تقيد الدولة حرية الأفراد مثلما هو من الضروري أن تقيد الحياة المشتركة بين الناس حريتهم وأن هذا التقييد الضروري لحرية سائر المواطنين يجب أن يتساوى. يظهر هذا المبدأ الكائطى أدنى ما يظهر أن مشكلة الحرية السياسية مشكلة قابلة للحل ، إلا أنه لا يوجد معيار للحرية السياسية ، ومن ثم لا يمكننا في الحالات الفردية أن نحدد ما إذا كان تقييد حرية معينة أمراً ضرورياً بالفعل أم لا ، كما لا يمكننا أيضاً تقرير ما إذا كانت عبئاً مفروضاً على سائر المواطنين بالتساوى أم لا ، لذا نحن في حاجة الى معيار آخر أكثر بساطة يمكن تطبيقه : معيار كهذا أقترحه على النحو التالى :

تكون الدولة حرة من الناحية السياسية عندما تسمح مؤسساتها السياسية لمواطنيها أن يغيروا حكومة قائمة دون سفك دماء وذلك متى كان هذا الفعل رغبة الأغلبية .

يمكن التعبير عن هذا المعيار بصورة أخرى مختصرة على النحو التالي :
نحن أحرار متى كان بإمكاننا التخلص من حاكمنا دون إراقة الدماء.
لدينا هنا معيار يمكننا من التمييز بين الحرية السياسية والدكتاتورية السياسية أو بين الديمقراطية والاستبداد .

الأمر لا يتعلق بالطبع بكلمتي "ديمقراطية" و "استبداد" ، إذ لو أراد شخص ما - على سبيل المثال - أن يطلق على بعض الدول اللاحرية فيها دولا ديمقراطية وعلى دستور إنجلترا أو سويسرا دستورا مستبدا فاني لا أدخل معه في صراع فيما إذا كان قد استخدم هذه الأسماء تسمية صحيحة أو خاطئة ولكنني عندئذ أقول ببساطة إذا اضطرت لاستخدام مصطلحات هذا الشخص فلا بد أن أعترف بأنني عدو للديمقراطية و صديق للاستبداد ، بهذه الطريقة يجنب المرء نفسه الدخول في نزاعات لفظية ، فالمسألة ليست كلمات ولكنها قيم حقيقية .

معيار الحرية السياسية الذي قدمته هنا معيار بسيط ولكنه بلا شك أداة جافة غليظة ، فهو لا يذكر لنا شيئا عن المسألة الهامة التي تكور حول حماية الأقليات مثل الأقليات العرقية أو الدينية .

vii

لقد حاولت بكل ما قلته حتى الآن أن أضع إطارا نستطيع بداخله أن نناقش مسائل فعلية أخرى من موقف الحرية الآن والعالم الغربي الحر . أريد أن أصيغ المسألة الرئيسية التي أضعها هنا على النحو التالي .

ما الذي جلبته الحرية لنا ؟ خيرا أم شرا ؟ أيهما أرجح ؟ وكيف يبدو التوازن بين الخير والشر ؟

هذه المسألة أراها مسألة ملحة ومن ثم سأحاول أن أصيغ اجابتي بتحديد قاطع بقدر الإمكان وفي سلسلة من النقاط .

النقطة الأولى : أزعج أن عالمنا ، عالم الديمقراطية الغربية ليس هو أفضل العوالم السياسية الممكنة منطقيا أو التي يمكن تصورها ولكنه مع هذا أفضل العوالم السياسية التي علمنا بوجودها تاريخيا . من هذه الوجهة فسأني متفائل .

لكي أوضح وأضع أساس هذه النقطة الأولى التي تظهر تفاؤلي ، فأني أريد أن أقول أنني عندما أمدح زماننا فأني لا أعني بذلك الازدهار الاقتصادي المتحقق أو الانجاز العلمي لزماننا ، رغم أنه ليس بالشئ القليل أن يكون عدد الذين يتصورون جوعا أقل بكثير مما قبل . ما أعنيه أمر مختلف تماما . وإذا كانت بضدها تتميز الأشياء فأني أريد أن أشير إلى ملاحظة ذكرها . الأسقف السابق لبرافورد والذي حكم على عالمنا الغربي عام ١٩٤٢ بأنه عالم شيطاني ودعا سائر خادمي الديانة المسيحية أن يعملوا معا للقضاء على هذا العمل الشيطاني وأن يساعدو حكومة ستالين الشيوعية على تحقيق النصر . منذ ذلك الوقت أصبحت الشيوعية تكفل شيطنة ستالين وبقت شيطنة ستالين لفترة زمنية قصيرة ولكن مزدهرة مكونا أساسيا للخط العام للحزب وان لم يكن أيضا لبرنامج الحزب ، ومع هذا فما زال هناك أصحاب اعتقادات ، مسيحيون حقيقيون يفكرون بنفس المنطق الذي يفكر به الأسقف السابق لبرافورد .

والآن لكي أصيغ نقطتي الأولى المتفائلة ، أريد أن أقول أنني أنطلق من نفس النقطة - التي انطلق منها الأسقف السابق وحكم على عالمنا الغربي بأنه من عمل الشيطان - فأصف عالمنا بأنه أفضل العوالم التي كان لها وجود تاريخي - بقدر معرفتنا .

لقد كانت المسألة وفقا للأسقف مسألة قيم انسانية خالصة بصفة خاصة - وهي ما أسماها كانط الكرامة الانسانية - ومسألة الاستعداد للمساعدة

الإنسانية . لقد رأى الأسقف هذه القيم معرضة للخطر في الغرب بينما هى آمنة محفوظة فى روسيا . يبدو لى أن مثالية الأسقف لم تجعله يرى الوقائع على حقيقتها ، فلم يحدث أن وجد من قبل مجتمع قل فيه الكبت والقمع والذل واليهوان والمعاناة مثلما هو حادث فى مجتمعنا الآن ولم يحدث أن وجد فى مجتمع من قبل الكثيرون ممن هم على استعداد للتضحية بأنفسهم لى يخففون عن غيرهم الجوع والبؤس مثلما يوجد هنا الآن .

أعتقد انن أنه لا يوجد لدينا فى الغرب ما يجعلنا نخجل منه أمام الشرق ، إلا أن هذا لا يعنى أننا فى الغرب لا يجب أن ننقد اتجاهاتنا ، بل على العكس حتى ولو كان عالمنا هو أفضل العوالم التى وجدت حتى الآن إلا أنه ما زال به بعض الأمور السيئة . كما لى الخطر ما زال قائما وهو أنه من الممكن فى أى وقت أن نفقد كل ما حققناه .

وهذا يصل بى الى النقطة الثانية :

رغم أنى أعتبر عالمنا السياسى أفضل العوالم التى علمنا بوجودها تاريخيا ، فيجب أن نحترس من أن ننسب هذه الواقعة للديمقراطية أو الحرية فالحرية ليست موردا يوصل إلينا خير الحياة الى منازلنا كما لا تخلق للديمقراطية شيئا وليس الإنجاز العلمى نتيجة لها . فمن الخطأ بل ومن الخطر أن يمتدح شخص الحرية عندما يقول لآخرين أن كل أمورهم ستكون بكل تأكيد على ما يرام بشرط أن يكونوا أحرارا . ما يحدث لأمري فى حياته هو أولا وقبل كل شئ مسألة حظ والقليل القليل يعود الى المهارة والبراعة والاجتهاد وفضائل أخرى . أن أقصى ما يمكن لأمري أن يقوله عن الديمقراطية أو الحرية أنها تزيد من فعالية الخير الذى ننعم به شيئا قليلا . وبذلك أصل الى النقطة الثالثة :

لا يجب أن نختار الحرية السياسية لأنها تعدنا بحياة مريحة ولكن لأنها تمثل قيمة نهائية لا يمكن ردها الى أية قيم مادية . يجب أن نختارها اختيار الشخص الديمقراطى الذى يقول " أفضل الحياة الفقيرة فى دولة ديمقراطية

على الحياة الثرية في ظل حكم استبدادي ' ويقول ' إن فقر الديمقراطية أفضل من كل ثراء يمكن تحقيقه في ظل الارستقراطية أو الحكم الفردي المطلق لأن الحرية أفضل من الرق والعبودية ' .

أريد بالنقطة الرابعة أن أنتقل خطوة السى الأمام فأقول أن الحرية والديمقراطية وإيماننا بها يمكن أن يتحول هذا كله الى كارثة ، فمن الخطأ الاعتقاد أن الايمان بالحرية يؤدي دائما الى الانتصار ، بل قد يؤدي أيضا الى الهزيمة ، فمتى اخترنا الحرية يجب أن نكون على استعداد للفناء معها . لقد حاربت بولندا من أجل الحرية مثلها في ذلك مثل أى دولة ، كما كان الشعب التشيكى عام ١٩٣٨ على استعداد للنضال من أجل حريته فلم يكن يأسه وقنوطه هو ما أنتهى به الى ما أنتهى اليه . كما لم يخسر الشباب الذين قاموا بثورة المجر ١٩٥٦ سوى القيود التى كانوا مكبلين بها ، فهم على هذا النحو خسروا وانتصروا (١) .

كما يمكن أن تنهزم الحرب من أجل الحرية بطريقة أخرى : فقد تسفر هذه الحرب عن إرهاب كما حدث فى الثورتين الفرنسية والروسية ، كما يمكن أن تؤدي الى رق وعبودية . لا تضمن الديمقراطية ولا الحرية شيئا فنحن لا نختار الحرية السياسية لأنها تعندا بهذا أو ذاك . نحن نختارها لأنها تجعل الصورة التى يستحقها البشر للحياة الانسانية المشتركة ممكنة ، الصورة الوحيدة التى يمكن لنا أن نكون فيها مسئولين عن أنفسنا مسئولية كاملة . أما ما اذا كان من الممكن أن نحقق إمكانيات هذه الصورة أم لا فهذا يتوقف على أشياء عديدة ، أهمها علينا نحن .

(١) قام مجموعة من الشباب بثورة عنيفة عام ١٩٥٦ ضد الحكم الشيوعى فى المجر ، ولكن تم القضاء عليها بتدخل القوات الروسية التى كانت مرابطة هناك .

المقالة الثامنة

فى كتابة ومعنى التاريخ

**Über Geschichtsschreibung und
Über den Sinn der Geschichte**

ظهرت هذه المقالة من قبل فى كتاب

“ Geist und Gesicht der Gegenwart “

Hg. O. Molden , Eutopa Verlag , Zurich 1962

هذه المقالة فى معظمها صياغة للفصل الأخير من كتاب المؤلف

المجتمع المفتوح وأعداده “ الجزء الثانى . الصفحات ٣٠٤-٣٢٨ من
الطبعة السابعة .

**“ Die offene Gesellschaft und ihre Feinde “ Tübingen
1992**

نوع اتخذ موقف محدد من المشكلات الأساسية للمجتمع والسياسة والتقاليد تصبح كتابة التاريخ مسألة غير ممكنة . يتضمن إتخاذ الموقف هذا عنصرا شخصيا قويا ، إلا أن هذا لا يعنى أن محتوى العمل التاريخى فى كليته أو فى قدر منه عبارة عن وجهة نظر ، فما يكتبه المؤرخ يجب أن يكون موضوعيا كما يجب عليه أن يوضح دائما - متى أضاف آراء شخصية حول أمور سياسية وأخلاقية - أن آراءه واقتراحاته ليس لها نفس الطبيعة التى لمزاعمه حول الوقائع التاريخية . ولكن اختيار الوقائع التى سيتناولها المؤرخ هى دائما وبدرجة كبيرة مسألة تحديد شخصى ، ولكنها مسألة تحديد شخصى بدرجة أكبر من عملية التصوير العلمى الطبيعى لحالة ما بعد تحديد الموضوع .

فمن بعض الوجوه يختلف التحديد الشخصى من حيث الدرجة . فالعلم الطبيعى أيضا ليس مجرد عملية جمع وقائع ولكنه على الأقل تجميع لوقائع يعتمد إختيارها على اهتمامات جامعها وعلى وجهة نظر معينة . من المعتاد فى العلم أن تحدد النظرية العلمية وجهة النظر هذه ، هذا يعنى أننا نختار من بين عدد لا نهائى من الوقائع ومن بين عدد لا نهائى من جوانب الوقائع ، تلك الوقائع والجوانب التى تهمنى فقط لأنها ترتبط - بنظرية - علمية محددة بصورة مسبقة بصورة أكبر أو أقل . ولقد انتهت إحدى مدارس النظرية العلمية بعد تفكير كهذا الذى ذكرته لى أن العلم يتحرك دائما فى دائرة وأننا لا نفعل دائما أكثر من هز أنيالنا ، كما قال لانجتون Eddington^(١) ، ذلك لأننا لا يمكننا أن نخرج من معرفتنا بالوقائع سوى بما وضعناه أنفسنا فى صورة نظريات . ليست هذه الحجة قوية . نعم يصدق بصفة عامة أننا نختار فقط الوقائع ذات الصلة بنظرية محددة من قبل إلا أن هذا لا يعنى أننا

(١) سير آرثر لانجتون ، عالم فلك وفيزيائى بريطانى ١٨٨٢-١٩٤٤ له اسهامات كثيرة فى الفيزياء الفلكية ومن أشهر كتبه (البناء الدلخلى للنجوم) ١٩٢٦ كما له اسهامات فى النظرية النسبية وكتب الكثير من الكتب التى تبسط العلم للقارئ العادى .

نختار فقط الوقائع التى تؤيد النظرية أو التى كأنها تكرر ها .

يكن منهج العلم بالأحرى فى أن الانسان يبحث عن الوقائع التى يمكنها تنفيذ النظرية . هذه الواقعة نطلق عليها اختبار النظرية ، فنبحث فيما اذا كانت النظرية لا تتضمن أى خطأ . فعلى افتراض أن الوقائع قد تم اختيارها وفقا للنظرية وعلى افتراض أنها تؤيد النظرية ، فانه متى قاومت النظرية محاولات تنفيذها واختبارها ، فلا بد أنها عندئذ أكثر من كونها تكرارا فارغا لرأى مقرر بصورة مسبقة . فالوقائع تؤيد النظرية فقط متى كانت نتاجا لمحاولات فاشلة ظهر خطأ توقعاتها وعندئذ تعد شهادة تطعن لصالح النظرية . إن وجهة نظرى إنن تكمن فى أن إمكانية تنفيذ النظرية وقابليتها للتكذيب هى ما يحدد ما اذا كانت النظرية نظرية علمية . والواقعة القائلة بأن كل الاختبارات التى تتعرض لها النظرية هى محاولات لتنفيذ توقعاتها النظرية هى مفتاح المنهج العلمى . يؤيد تاريخ العلوم فهم المنهج العلمى . يؤيد تاريخ العلوم فهم المنهج العلمى على هذا النحو ، إذ يظهر لنا تاريخ العلوم أن النظريات العلمية يتم رفضها بالتجارب وأن رفض النظريات هو أداة التقدم العلمى ، لا يمكن إذا التمسك بالزعم بدائرية العلم .

ينطوى هذا الزعم مع هذا على نواة صدق ، إذ يصدق القول أن الوصف العلمى للوقائع وصف (تم اختياره) الى حد كبير بحيث أنه يعتمد دائما على نظريات . يمكن توضيح هذا الموقف بطريقة جيدة بمقارنته بضوء السيارة وهى ما أطلق عليها عادة نظرية الضوء العلمية فى مقابل نظرية وعاء الوعى .

ما يلقى عليه الضوء وضوحا يعتمد على مكانه من الضوء كما يعتمد على الطريقة التى نراه بها ويعتمد كذلك على كثافته ولونه وهكذا . تعتمد النظرية العلمية بالمثل الى حد كبير على وجهة نظرنا واهتمامنا . ترتبط تلك الاهتمامات ووجهة النظر هذه عادة بالنظرية أو الفرض الذى نريد اختبارها . إلا أن النظرية العلمية ترتبط أيضا بالوقائع التى سيتم وصفها . من الممكن

وصف النظرية أو الفرض كصفة مميزة لها على أنها وجهة نظر أو رأى متبلور ، ولكن للمدى الذى نحاول معه عادة صياغة آرائنا ، فإتينا نحفظ بشئ يشبه فرض العمل ، أى فرض مؤقت يساعدنا على اختيار وتنظيم الوقائع ، إلا أنه يجب أن يكون واضحا لنا أنه لا يمكن أن توجد نظرية (أو فرض) ليست فرض عمل أو لا تظل دائما فرض عمل ، إذ لا وجود لنظرية نهائية ولكن كل نظرية تساعدنا على اختيار وتنظيم الوقائع ، هذه الطبيعة الاختيارية للوصف تجعل منه - بمعنى ما - وصفا نسبيا ، نسبيا بمعنى أننا كنا منقلم وصفا مختلفا لو كانت وجهة نظرنا مختلفة ويمكن أيضا لهذه الطبيعة الاختيارية للوصف أن تؤثر فى اعتقادنا فى خدمة الوصف ، دون أن تؤثر فى مسألة صدق أو خطأ الوصف . ليس الصدق " نسبيا " بهذا المعنى .

تكمن الطبيعة الاختيارية لكل الأوصاف التى نقدمها - فى الشراء اللانهائى وفى تعدد الجوانب الممكنة للوقائع الموجودة فى عالمنا . ليس أمامنا لوصف هذا الملاء اللانهائى سوى عدد نهائى من الكلمات ومن ثم يمكننا أن نصف طالما أننا فقط نريد ذلك دائما وسيظل وصفنا دائما وصفا غير كامل ، ويصبح مجرد عملية اختيار لوقائع تساعدنا على الوصف .

ولهذا ليس فقط من المستحيل تجنب عملية الاختيار انطلاقا من وجهة نظر معينة ولكن لا يجب حتى أن نحاول هذا التجنب ، لأننا متى نجحنا فى ذلك ، فلن يصبح ما تقدمه وصفا موضوعيا ، ولكن مجرد كومة من العبارات غير المترابطة بالمرّة . أن تقديم وجهة نظر محددة إذن مسألة لا يمكن تجنبها ، ولم ينتج عن محاولة تجنبها سوى أن يخدع المرء نفسه ويصبح متبنيا لوجهة نظر غير نقدية وغير واعية .

يصدق هذا كله بصفة خاصة على الوصف التاريخى " بنسجه اللانهائى " كما يقول شوبنهاور . من المستحيل - بالمثل - أن نتجنب فى التاريخ - كما هو الحال فى بقية العلوم - وجهة النظر . ولن يؤدى الافتراض العكسى بأننا

من الممكن أن ننطلق دون وجهة نظر محددة - سوى الى تضليل ذاتي والى نقص الاهتمام بالنقد ، لا يعنى هذا بالطبع أن الأمر متروك لنا أن نكذب ما نحب أو ألا نهتم بمسألة الصدق ، فكل وصف تاريخي للوقائع يتصف إما بالصدق أو بالخطأ رغم صعوبة الوصول دائما الى تحديد صدق أو خطأ هذا الوصف .

الى هذا الحد يتفق وضع التاريخ والعلوم الطبيعية - كالفيزياء على سبيل المثال - إلا أننا متى قارننا الدور الذى تلعبه " وجهة النظر " فى التاريخ مع الدور الذى تلعبه " وجهة النظر " فى الفيزياء لوجدنا إختلافا . فكما رأينا تأخذ " وجهة النظر " فى الفيزياء عادة صورة نظرية فيزيقية تسمح باختيارها عن طريق البحث عن وقائع جديدة . أما فى التاريخ فليست العلاقات بهذه البساطة .

لنتأمل الآن بشكل أدق الدور الذى تلعبه نظريات احدى العلوم الطبيعية ولتكن الفيزياء مثلا . هنا نجد أن على هذه النظريات أن تؤدي واجبات متنوعة ولكنها مرتبطة ببعضها بحيث تساعدنا على توحيد العلم - أى جعله وحدة واحدة - وعلى تفسير الحوادث ومن ثم على التنبؤ بها .

سأسمح لنفسى ، بشأن مشكلة التفسير والتنبؤ أن أقتبس من إحدى كتاباتى الفقرة التالية : " إن تفسير واقعة ما تفسيراً علمياً يعنى عبارة تصف الواقعة وتشتق بالاستنباط من قوانين وشروط هامشية . فإذا قلنا أن السلك يتمزق إذا قام برفع ما حمولته كيلو جرام وأن قطعة من السلك قد تمزقت لأنها قامت بحمل ثقل يزن اثنين كيلو جرام ، نكون على هذا النحو قد فسرنا واقعة تمزق السلك تفسيراً علمياً . يتضمن هذا التفسير جزئين :

١- لنفترض أن لدينا فروضا لها طابع القوانين الطبيعية ، مثل التى منطوقها إذا قام سلك بحمل حد أدنى من الثقل فإنه يتمزق .

٢- لنأخذ عبارات مسلما بها ترتبط بالحادثة التى تم اختبارها الآن ، مثل التى تقول " الحد الأدنى الذى يستطيع السلك حمله واحد كيلو جرام "

والتي نقول " النقل الذي يحمله هذا السلك اثنين كيلو جرام " يمكن لنا من القصايا العامة : (١) والشروط الهامشية (٢) أن نستنبط القضية التالية (٣) سيتمزق هذا السلك . نطلق على هذا الاستدلال اسم " تنبؤ Prognose " . اعتدنا على تسمية الشروط الهامشية أو بالتحديد الموقف الذي تصفه هذه الشروط " علة " الحوادث موضع الحديث ، واعتدنا على تسمية الحادثة التي نصفها عن طريق التنبؤ " بالمعلول " .

فنحن نقول على سبيل المثال أن حمل ثقل يزن اثنين كيلو جرام بسلك قدرته على الحمل واحد كيلو جرام فقط يمثل علة تمزق السلك .

من هذا التحليل للتفسير العلى يتضح لنا أمور مختلفة كثيرة . أولا : لا يمكننا أن نتحدث عن العلة والمعلول بصورة مطلقة ، فالحادثة تكون علة لحادثة أخرى تمثل معلولها فقط اعتمادا على قانون عام . وبصفة عامة فإن هذه القوانين العامة من البساطة بحيث أننا عادة ما نقبلها ببساطة بدلا من استخدامها بوعي . ثانيا : رأينا أن استخدام نظرية ما بغرض التنبؤ بحادثة محددة هو جانب يختلف عن الجانب الذي نستخدم به النظرية بغرض تفسير نفس الحادثة . وما دمنا نختبر النظرية التي نقارن فيها الحوادث التي تم التنبؤ بها بالحوادث التي تم ملاحظتها بالفعل ، فإن تحليلنا يظهر لنا فوق ذلك كيف يتم اختبار النظريات . فما إذا كنا نستخدم نظرية ما من أجل التنبؤ أو التفسير أو التحقق فإن ذلك يعتمد على اهتمامنا وعلى العبارات أو القضايا التي نأخذها بصورة مسبقة كمعطى .

نحن غالبا ما نهتم في حالة ما يسمى بالعلوم النظرية أو للعلوم المعممة (مثل الفيزياء والأحياء وعلم الاجتماع) بالقوانين أو بالفروض العامة . نريد أن نعرف ما إذا كانت صائقة . وما دمنا لا يمكننا أن نتأكد أبدا من صدقها بصورة مباشرة فإننا نستخدم منهج استبعاد الفروض الخاطئة . إن اهتمامنا بالحوادث الخاصة كالتجارب التي يتم وصفها على طريق التنبؤ والشروط الأولية إهتمام محدود الى حد ما . فنحن نهتم بها فقط من حيث أنها وسيلة

لأغراض محددة ، وسيلة يمكننا بها اختبار القوانين العامة والتي نعتمد من جانبها مآثر اهتمام في ذاتها كما تعد وسيلة لتوحيد معرفتنا .

أما في حالة العلوم التطبيقية فإن اهتمامنا يتجه نحو شيء آخر فالمهندس الذي يستخدم علم الفيزياء لبناء كوبرى ، يهتم بصورة أساسية بالتنبؤ : بما إذا كان كوبرى من نوع معين يمكن أن يتحمل ثقلا محددًا أم لا ، فالقوانين العامة تعد هنا بالنسبة للمهندس وسيلة لغرض وتتخذ كمعطى .

وبالمثل تهتم العلوم التطبيقية والعلوم الخالصة بمسألة التحقق من الفروض العامة والتنبؤ بحوادث خاصة . إلا أن هناك ميدان اهتمام آخر ألا وهو الاهتمام بتفسير حادثة معينة . فإذا أردنا تفسير حادثة خاصة مثل حادثة مرور مثلاً فإننا عادة ما نفترض ضمناً مجموعة قوانين عامة ساذجة (كالقول مثلاً أنه من الممكن لإحدى العظام أن تتكسر تحت ضغط معين وهكذا) كما أننا غالباً ما نهتم بالشروط الأولية أو العلة التي يمكنها بالتعاون مع هذه القوانين العامة الساذجة أن تفسر الحادثة موضع السؤال . هنا نفترض عادة مجموعة من الشروط الأولية ونحاول عندئذ أن نجد أدلة إضافية لكي يمكننا أن نحدد ما إذا كانت هذه الشروط الأولية المفترضة صادقة أم لا ، بمعنى أننا بإختيارنا هذه الفروض الخاصة نستطيع أن نشق منها تنبؤات جديدة (بمساعدة قوانين عامة ساذجة أخرى نكون قد اعتدنا عليها) تسمح بمقارنتها بوقائع ملاحظة .

نحن في حاجة من أجل هذه القوانين العامة المستخدمة في مثل هذا التفسير إلى إمعان التفكير في أكثر الحالات ندرة . نفعل ذلك فقط متى لاحظنا شكلاً جديداً ونادراً من الحوادث كرد الفعل الكيميائى غير المتوقع على سبيل المثال . فإذا أدت حادثة كهذه الى وضع واختبار فروض جديدة ، فإن هذا - بصفة خاصة من وجهة نظر العلم المعمم - أمر ذو أهمية . ولكن متى كان اهتمامنا منصبا على حوادث خاصة وتفسيرها فإننا نتناول جميعاً عادة القوانين العامة الكثيرة التي نحتاجها كمعطى .

يمكن أن نطلق على هذه العلوم التي ينحصر اهتمامها في الحوادث الخاصة وتفسيرها العلوم التاريخية وذلك في مقابل العلوم المعممة .

يوضح هذا الفهم للتاريخ لماذا يزعم الكثير من المؤرخين أنهم مهتمون بحوادث معينة وليس بما يسمى " قوانين تاريخية " . ذلك أنه وفقا لفهمنا هذا لا يمكن أن يكون هناك قوانين تاريخية . فالقوانين أو التعميمات تنتمي لميدان اهتمام آخر من الواضح أنه يختلف عن الاهتمام بالحوادث الخاصة وتفسيراتها العلمية وهو الاهتمام الذي يميز للتاريخ . من يهتم بالقوانين يجب أن يولى العلوم المعممة اهتمامه (كعلم الاجتماع مثلا) . يوضح عرضنا هذا لماذا يتم غالبا وصف التاريخ بأنه مجموعة الحوادث الماضية - كما هو بالفعل - وحتى لو اعترضنا فيما بعد على هذا الوصف للتاريخ ، فما زال هذا الوصف يميز بصورة جيدة الاهتمام الخاص للباحثين في علم التاريخ في مقابل اهتمام المنشغل بالعلوم المعممة . يوضح فهمنا للتاريخ أيضا لماذا تصادف مشكلة " الموضوع اللانهائي " في التاريخ أكثر مما تصادفها في العلوم المعممة ، ذلك لأن النظريات أو القوانين العامة تفرض الوحدة وتفرض " وجهة النظر " في العلوم المعممة . فهي تخلق لكل علم معمم المشكلات ومراكز الاهتمام والنقاط المركزية للبحث والتركيب المنطقي والتصوير . أما في التاريخ فلا وجود لمثل هذه النظريات الموحدة : فالقوانين العامة الساذجة التي لا تعد لها والتي نستخدمها نتناولها ضمنا ، لا يمكنها أن توقظ في المؤرخ أى اهتمام ولا أن تساعد بأي طريقة على جمع مادته . فإذا فسرنا مثلا أول تقسيم حدث لبولندا عام ١٧٧٢ بملاحظتنا أن بولندا لم يكن بإمكانها أن تقف في مواجهة القوة الموحدة لروسيا وبروسيا والنمسا معا ، فإننا في هذه الحالة نقبل ضمنا بعض القوانين العامة الساذجة مثل القانون الذي منطوقه : " إذا كان بأحد جيشين - متفقيين في حسن القيادة وجودة التسلح - زيادة عددية في الجنود ، فلا يمكن أبدا للجيش الثانى أن ينتصر " . يمكن أن نسمى مثل هذا القانون " قانون سوسيولوجيا القوة

العسكرية * - إلا أنه من النقامة بحيث لا يشكل مشكلة هامة لعلماء الاجتماع أو يثير اهتمامهم . وأيضاً إذا أرجعنا قرار قيصر اجتياز نهر الروبيكون Rubikon ^(١) لطموحه وطامنه فإننا على هذا النحو نستخدم بعض التعميمات النفسية شديدة البساطة التي لا تكاد تثير اهتمام علماء النفس (إن ما نفترضه ضمناً معظم التفسيرات التاريخية ليست في الحقيقة قوانين نفسية أو إجتماعية شديدة البساطة ولكن منطق الموقف والذي كتبت عنه بالتفصيل في موضع آخر) .

ما أعنيه هو أن هذه التفسيرات تفترض ضمناً - بصرف النظر عن الشروط الأولية كالاهتمامات والأهداف الشخصية وعوامل الموقف الأخرى والعوامل التي تخص الفرد موضع الاهتمام كشكل من أشكال الاقتراب الأولى - القانون العام البسيط الذي مفاده أن الأفراد الطبيعية العاقلة تتصرف عادة بطريقة عاقلة وغائية .

ليست القوانين التاريخية إذن - التي يستخدمها التفسير التاريخي - مبدأ اختيار وتوحيد كما أنها لا تزودنا " بوجهة نظر " للتاريخ . ولكن بمعنى ضيق جداً يمكن أن تكون هناك وجهة نظر فقط إذا قصرنا فهمنا للتاريخ على أنه تاريخ " شئ ما " ، فتاريخ سياسة القوة ، وتاريخ العلاقات الاقتصادية وتاريخ التكنولوجيا وتاريخ الرياضيات يمكن أن تخدم كأمتلة على هذا . ولكننا عادة ما نحتاج مبادئ اختيار أخرى ، أو وجهات نظر تشكل مبادئ اهتمام متزامنة . بعضها تقدمها لنا افكار محددة من قبل وهي الأفكار التي تشبه وجهة نظر معينة - القوانين العامة مثل الفكرة التي ترى في شخصية الرجل العظيم أو في الشخصية القومية أو في بعض المبادئ الأخلاقية أو الشروط الاقتصادية أهمية للتاريخ .

من المهم الآن أن يكون واضحاً لنا أن كثيراً من النظريات التاريخية

(١) هو الحد الشمالي لإيطاليا في العهد الروماني ، اشتهر باجتياز قيصر له ومن ثم بفيلم الحرب الأهلية ، كان يفصل بين ولاية غالية وإيطاليا .

(والتي ربما كان من الأفضل أن نسميها شبه نظريات) تختلف اختلافًا كبيرًا عن النظريات العلمية ، ذلك لأن الوقائع في التاريخ (منضمنا تاريخ الطبيعة التاريخية مثل الجيولوجيا التاريخية) التي في متناول أيدينا غالبًا ما تكون محددة جدًا ولا تسمح بتكرارها أو إحداثها مرة أخرى ، كما تم جمعها وفقًا لوجهة نظر محددة من قبل : إذ يدون ما يعرف بمصادر التاريخ فقط تلك الوقائع التي كان تدوينها مهما بشكل كاف بحيث غالبًا ما تتضمن هذه الوقائع التي تتفق مع نظرية محددة من قبل . ومادام لا يوجد في متناول أيدينا وقائع أخرى ، فلن يمكننا إختبار هذه النظرية أو نظرية غيرها . يمكن أن نصف وبصدق مثل هذه النظريات غير القابلة للاختبار بالدور بالمعنى الذي يكون معه من الظلم وصف النظريات العلمية بالدور . سوف أطلق على مثل هذه النظريات التاريخية – في مقابل النظريات العلمية " التفسيرات التاريخية " أو " مفاهيم التاريخ " .

المفاهيم التاريخية باللغة الأممية ، ذلك لأنها تمدنا بوجهة نظر ، ولكننا قد رأينا أنه لا يمكن تجنب وجود وجهة نظر وأن الانسان نادرا ما يقابل نظرية في التاريخ يمكن اختبارها ومن ثم نتصف بأنها نظرية علمية . من هنا لا يجب أن نفترض أنه من الممكن البرهان على صدق " مفهوم التاريخ " أو التحقق من صدقه ، كما لا يمكننا ذلك أيضا حتى متى اتفق "المفهوم" مع سائر مادة مصادرنا . إذ يجب أن نضع ألام أعيننا صفة "الدور" الذي يتصف به المفهوم وأنه سيكون هناك دائما " مفاهيم " أخرى عديدة للتاريخ (قد لا تتفق مع بعضها البعض) تتفق مع نفس المصادر وأنه من النادر أن تتوافر لنا معطيات جديدة تساعدنا على إجراء تجارب محددة مثلما يمكن أن يحدث في الفيزياء . غالبا ما لا يجد المؤرخ مفهوما للتاريخ يتفق مع الوقائع بنفس الجودة التي يتفق معها مفهومه الخاص . ولكت متى وضعنا في الاعتبار أنه حتى في الفيزياء بمادة وقائعها الكبيرة الموثوقة بها فإن التجارب الجديدة الحاسمة تشكل ضرورة ذلك لأن التجارب القديمة تتفق مع نظريتين

متنافستين ولا يمكنهما الاتفاق معا ، أقول متى وضعنا هذا فى الاعتبار - فإننا نخرج بالرأى الساذج بأن أية سلسلة من الكتابات التاريخية لم تسمح بتفسيرها فى أى وقت كان سوى بطريقة واحدة (ما فى ذهنى هنا هو البحث فى انحراف ضوء نجوم ثابتة عند دخوله المجال الجاذبى للشمس أثناء كسوف الشمس الضرورى للحسم بين نظرية نيوتن للجاذبية ونظرية انيشتاين) .

لا يعنى هذا بالطبع أن سائر التفسيرات أو المفاهيم التاريخية تتساوى فى قيمتها ، هناك أولا وبشكل دائم تفسيرات لا تتفق مع الكتابات المعترف بها . هناك تانيا تفسيرات تتطلب بشكل أكبر أو أقل فروض مساعدة مقبولة لكى تسلم من تكذيبها عن طريق الكتابات ، هناك ثالثا تفسيرات لا يمكنها الربط بين مجموعة من الوقائع فى سلسلة واحدة وهى الوقائع التى يمكن لتفسير آخر أن يربط بينها ويفسرها . وعلى ذلك فمن الممكن تحقيق تقدم كبير فى ميدان التفسيرات التاريخية . أضف الى هذا أن كل أشكال الوقوف بين وجهات النظر " العامة وبين الفروض التاريخية المعينة الفردية التى ذكرتها من قبل ممكنة والتى تلعب فيها الشروط الأولية المفترضة وليس القوانين العامة دورا فى تفسير الحوادث التاريخية . هنا غالبا ما يمكن اختبارها بصدق ومن ثم يمكن مقارنتها بالنظريات العلمية ، إلا أن بعض هذه الفروض المعينة تشبه " شبه النظريات " العامة تلك والتى أسميتها بتفسيرات أو مفاهيم تاريخية ، ولهذا السبب فمن الممكن وضع هذه مع تلك فى فئة واحدة أسميها " التفسيرات الخاصة " ذلك أن الشواهد التى تخدم " وجهة نظر " عامة تشبه الشواهد التى تخدم أحد هذه التفسيرات الخاصة ، فهى جميعا تقع فى الدور ، ليس من النادر مثلا أن نجد حالة يقدم فيها مصدرنا الخاص الوحيد معلومات بشأنه حوادث معينة تتفق مع تفسيره الخاص لها ، لذلك فإن معظم تفسيراتنا الخاصة للحوادث تقع فى الدور بمعنى وجوب اتفاقها مع التفسير المستخدم فى الاختيار الأولى للوقائع . لذا متى استطعنا أن نعطى مادتنا تفسيراً يبتعد ابتعادا جذريا عن تفسير مصادرها (وهذا هو تفسيري

لكتابات أفلاطون) عندئذ قد يشبه تفسيرنا الى حد ما الغرض العلمى . يجب أن نضع فى أذهاننا دائما أن التطبيق البسيط لتفسير ما والواقعة القائلة بأنه يفسر كل ما نعرفه حجة مشكوك فيها لأنه يمكننا أن نختبر نظرية ما فقط متى أمكننا البحث عن مثال مضاد . (لقد غفل المعجبون " بفلسفات التوضيح" المختلفة مثل دعاة التحليل التاريخى والاجتماعى والنفسى بصفة خاصة هذا الأمر بسبب البساطة التى يتم بها غالبا تطبيق نظرياتهم) .

لقد قلت منذ قليل أنه من الممكن ألا تكون للتفسيرات متفقة مع بعضها البعض . ليس هذا هو الحال متى فهمنا التفسيرات على أنها بلورة لوجهات نظر . لا يمكن على سبيل المثال للتفسير الذى يرى أن الانسانية تتقدم باستمرار (نحو المجتمع المفتوح أو نحو هدف آخر) أن يتفق مع التفسير الذى يراها تتقهقر باستمرار . ولكن ليست وجهة نظر المؤرخ الذى يرى فى التاريخ الإنسانى تاريخا للتقدم بالضرورة غير متفقة مع وجهة نظر ذلك الذى يرى فى تاريخ الإنسانية تقهقرا . هذا يعنى أن هناك تاريخا للتقدم البشرى نحو الحرية (الذى يتضمن على سبيل المثال تاريخ الصراع ضد الرقيق) كما أن هناك من ناحية أخرى تاريخا للتأخر البشرى وللضغط والقمع (كالذى يحكى على سبيل المثال حوائث التصادم بين الجنس الأبيض والملون) . يمكن كتابة كلا التاريخين دون أن يكون هناك تعارض بين الوصف التاريخى لكل منهما : بل من الواضح أنه من الممكن لكل منهما أن يكمل الآخر تماما مثلما تكمل صورتان أخذتا من نقطتين مختلفتين لنفس المنظر الطبيعى كل منهما الأخرى .

هذه الفكرة على درجة عالية من الأهمية ذلك أنه ما دام لكل جيل صعوباته ومشاكله الخاصة به ومن ثم إهتماماته الخاصة به ووجهة نظره التاريخية الخاصة ، فإنه ينتج عن ذلك أن لكل جيل الحق فى تأمل التاريخ بطريقته الخاصة وأن يعطيه تفسيراً جديداً مكمل لتفسير الأجيال السابقة . ومن ثم فنحن ندرس التاريخ لأنه يشكل أهمية لنا ولأننا نريد أن نتعلم منه

شيئا لمشاكلنا الخاصة . لن يخدمنا التاريخ في تحقيق أى من هذين الغرضين متى ظلت فكرة الموضوعية غير القابلة للتطبيق هذه حائلا لنا أمام تصوير مشاكلنا الخاصة إنطلاقا من وجهة نظر محددة . كما لا يجب أن نعتقد أننا متى طبقنا وجهة نظرنا بصورة واعية ونقدية على المشكلة أنها بذلك تتضمن وجهة نظر المؤرخ الذى يفترض بطريقة ساذجة أنه لم يفسر المشكلة ولكنه قد حقق درجة من الموضوعية سمحت له برؤية وتصوير الماضى كما كان بالفعل . (هذا هو السبب الذى يجعلنى أعتقد أنه حتى الملاحظات الشخصية المسلم بها والموجودة فى هذه الفكرة لها ما يبررها ، فهى تتسق مع المنهج التاريخى) . تكمن المسألة الرئيسية فى أن المرء يعرف وجهة نظر وأنه يفكر ويتصرف بطريقة نقدية ، بمعنى أن الإنسان يتجنب بقدر الإمكان فى وصفه للوقائع التحيز غير النقدى وغير الواعى . فمن كل زاوية يجب على التفسيرات ذاتها أن تتكلم . تكمن قيمتها فى إنتاجها - فى قدرتها على إلقاء الضوء على وقائع التاريخ وفى اهتمامها الفعلى - فى قدرتها على إلقاء الضوء على مشكلات اليوم .

يمكن تلخيص ما سبق على النحو التالى : لا يمكن أن يوجد تاريخ "الماضى" كما كان بالفعل ، يمكن فقط أن تكون هناك تفسيرات تاريخية ، لا يمكن أن تكون أى منها تفسيرا نهائيا ، فلكل جيل ليس فقط الحق بل ومن واجبه وضع تفسيراته الخاصة ، إذ يشكل واجب وضع تفسير خاص مطلوبا ملحا يجب تحقيقه . لا نريد فقط أن نعرف موضع مشكلتنا فى علاقتها مع الماضى ولكننا نريد هذه المعرفة بصورة ملحة ، كما نريد أن نرى اليوم الذى يمكننا فيه أن نتقدم نحو حل واجباتنا الأساسية التى اخترناها لأنفسنا . متى لم يتحقق هذا المطلب بصورة عقلية ونقدية فإن التفسيرات التاريخية . تخلقه تحت إلحاح هذا المطلب ، يضع دعاة المذهب التاريخى السؤال العقلانى التالى :

” ما هي المشكلات التي يجب أن نراها كمشكلات ملحة ؟ كيف تحدث وكيف يمكن لد حلها ؟ ” وذلك عن طريق السؤال غير العقلاني والذي يبدو ظاهريا أنه يتعلق بالوقائع وهو السؤال التالي : ” أى اتجاه نتجه ؟ ما هي اتجاهات وميول عصرنا ؟ ما هو الدور الذى حدده لنا التاريخ لكى نلعبه ؟ ” ولكن هل يمكننى أن أنكر على أصحاب المذهب التاريخي Historizisten^(١) الحق فى تفسير التاريخ بطريقتهم الخاصة ؟ ألم أقل من قبل أن هذا حق لكل شخص ؟ اجابتنى على هذا السؤال هي أن تفسيرات أصحاب المذهب التاريخي تفسيرات من نوع خاص . هذه التفسيرات الضرورية والصحيحة والتي يجب أن نقبل احداها يمكن مقارنتها - كما قلت - بكشاف ضوئي ، نجول به فى الماضى أملين أن يضيئ لنا - بهذا المسح التجوالى - الحاضر . يشبه تفسير أصحاب المذهب التاريخي - فى مقابل هذا - هذا الكشاف الضوئي الذى نوجهه لأنفسنا . يجعل من الصعب علينا - متى لم يمكن من غير الممكن - أن نرى ما يحيط بنا ، كما يعوق تصرفنا . لكى نفسر هذا التشبيه نقول : لا يرى دعاة المذهب التاريخي من يختار ويرتب وقائع التاريخ ولكنه يعتقد أن التاريخ نفسه أو تاريخ البشرية هو ما يحدد مستقبلنا بل هو ما يحدد أيضا وجهة نظرنا عن طريق قوائمه المتضمنة . فبدلا من التسليم بأن التفسير التاريخي يجب أن يواجه المطلب باعتماده على المشكلات العملية والتحديات التي نقابلها ، يعتقد القائل بالمذهب التاريخي أن الحدس العميق يعبر عن نفسه فى رغبتنا الوصول الى تفسير تاريخي ، يمكننا عن طريق تأمل التاريخ الكشف عن السر ألا وهو جوهر القدر الانساني . فالإتجاه التاريخي يبحث عن الطريق الذى تحدد البشرية تغييره ، فهو يريد الكشف عن مفتاح التاريخ (كما أسماه جيون ماكمورى J. Macmurray)^(٢) أو معنى التاريخ . ولكن هل هناك مثل هذا Historizisten مذهب تاريخي وهو القول بأن الحقيقة تاريخية ، بمعنى أنها تتصف بالنسبية التاريخية ، أى أنها تتطور بتطور التاريخ .

(٢) راجع صفحة ١٩٥ الكتاب الأصلي .

أو معنى التاريخ . ولكن هل هناك مثل هذا المعتاح ؟ هل لتاريخ العالم معنى ؟

لا أريد أن اشغل نفسي هنا بمشكلة معنى كلمة " المعنى " . افترض أن معظم الناس تعرف بوضوح كاف ما يعنونه عندما يتحدثون عن " معنى التاريخ " أو عن " معنى الحياة " . وبهذا المعنى ، بالمعنى الذى يوضع به التساؤل عادة عن معنى التاريخ أجيب : ليس لتاريخ العالم معنى ؟

يجب على أولا - من أجل أن أبين الأسباب التى جعلتني أتبنى هذا الرأى - أن أقول شيئا عن شكل " التاريخ " الذى يدور بخلد الانسان عندما يضع السؤال عن معنى التاريخ . لقد تحدثت حتى الآن عن " التاريخ " كما لو كان فى غير حاجة لتفسير إضافى . لم يعد هذا ممكنا : ومن ثم أريد أن أوضح أنه لا وجود " لتاريخ " بالمعنى الذى يتحدث عنه معظم الناس . يشكل هذا على الأقل أحد الأسباب التى تجعلنى أقول أنه لا معنى له .

كيف وصل معظم الناس الى استخدام كلمة " تاريخ " ؟ (أعنى هنا " تاريخ " بالمعنى الذى نقول به أن هذا كتاب يخص تاريخ أوروبا وليس بالمعنى الذى نقول به : هذا تاريخ أوروبا) هذا المعنى تعلمه الناس فى المدرسة وفى الجامعة ، يقرأون عنه الكتب ويرون ما الذى تتناوله الكتب والذى يحمل العنوان " تاريخ العالم " أو " تاريخ البشرية " ويتعودون فى التاريخ على رؤية سلسلة محددة بشكل أكثر أو أقل - من الوقائع . ويعتقدون أن تعاقب هذه الوقائع يبنى تاريخ البشرية .

ولكننا قد رأينا أن ميدان الوقائع ميدان ضخم بلا نهاية ومن ثم أن نقوم بعملية اختيار للوقائع ، فوفقا لاهتماماتنا يمكننا على سبيل المثال أن نبحث فى تاريخ اللغة أو فى تاريخ المأكولات الممنوعة أو فى تاريخ حمى التيفود (مثلما فعل مثلا هانز زنسر H. Zinsser فى كتابه : فئران ، قمل ، والتاريخ) من المؤكد أنه لا يمكن لأى هذه أن تكون هى تاريخ البشرية (ولا أن تكون كذلك مجتمعة معا) . أن نتحدث عن تاريخ البشرية يعنى أن

نتحدث عن تاريخ نمصريين والبابليين وأهل بروسيا والإمبراطورية الرومانية وتاريخ المعدونيين وهكذا إلى أن نصل إلى العصر الحاضر بمعنى آخر : أن نتحدث عن تاريخ البشرية ، أما ما نعيشه ونتعلمه في المدرسة فهو تاريخ القوة السياسية .

لا وجود في الحقيقة لتاريخ البشرية ، هناك عدد غير محدد من التواريخ (جمع تاريخ) تمس جميعها جوانب ممكنة من الحياة الإنسانية . أحدها هو تاريخ القوة السياسية ، وكأنه هو تاريخ العالم . إلا أن هذه إهانة للبشرية وللآداب . فهو ليس أفضل من جعل تاريخ اللصوصية أو تاريخ الاغتيالات تاريخا للبشرية . فتاريخ سياسة القوة ليس سوى تاريخ الجريمة والقتل الجماعي على المستوى العالمي والقومي . هذا هو التاريخ الذي نتعلمه بالمدرسة وننظر فيه لكبار الظلمة كأبطال بوسائل .

ولكن ألا يوجد بالفعل تاريخ عام بمعنى تاريخ *konkret* للبشرية ؟ لا يمكن أن يوجد مثل هذا التاريخ . يجب أن تكون هذه هي اجابة كل فرد يتصف حقيقة بالإنسانية وأن تكون بصفة خاصة اجابة كل مسيحي . يجب للتاريخ الفعلي للبشرية – اذا كان له وجود – أن يكون تاريخ كل البشر . يجب أن يكون تاريخ كل الأمنيات والصراعات والمعاناة البشرية ، إذ لا وجود لشخص أكثر أهمية من آخر . لا يمكن كتابة مثل هذا التاريخ الفعلي للبشرية ، يجب أن نقوم بعمل تجريدات ، يجب أن نهمل (أشياء) ونختار (أخرى) وبذلك نصل للتواريخ الكثيرة – والتي تشمل ضمن ما تشمل تاريخ القتل الجماعي والجريمة العالمية الذي يقدم على أنه تاريخ البشرية أو تاريخ العالم .

ولكن لماذا تم اختيار تاريخ القوة ولم يتم اختيار تاريخ الدين أو تاريخ فن الشعر مثلا ؟ هناك أسباب عديدة متنوعة لذلك ، يكمن أحدها في أن القوة تؤثر فينا جميعا بينما يؤثر الشعر في القلة منا . السبب الآخر أن الناس تميل إلى تقديس القوة . ولكن عبادة القوة هي إحدى الصور الحقيرة لعبادة

الأوثان، تقديس القوة منشؤها الخوف أو الشعور أننا نستعين بالحق . أما السبب الثالث في أن سياسة القوة تشكل مركز اهتمام كاتب التاريخ فهو أن أصحاب السلطة غالبا ما كان لديهم الرغبة في أن يعبدوا بواسطة غيرهم وأنه قد وجدت لديهم الوسيلة لتحقيق أمنيّتهم ، فكثير من المؤرخين قد كتبوا بأمر وتحت إشراف حكامهم أو القادة العسكريين أو الحكام الديكتاتوريين .

أعرف أن هذا الرأي سيواجه من جوانب كثيرة بالكثير من الاعتراضات وأيضا من جانب المدافعين عن المسيحية . لأن الرأي القائل بأن الله ظاهر في التاريخ بشكل غالبا جزءا من الاعتقاد المسيحي رغم أنه تكاد لا توجد أية واحدة في العهد الجديد يمكنها أن تدعم هذا الاعتقاد . نفس الأمر ينطبق على الرأي القائل بأن التاريخ هو معنى وأن معناه هو غاية الله . بهذه الطريقة يصبح التاريخ عنصرا ضروريا من عناصر الدين ، ولكنى أزعّم أن هذا الرأي هو من قبيل عبادة الأوثان أو الخرافة ، ليس فقط من وجهة نظر عقلانية أو إنسانية ولكن أيضا من وجهة نظر مسيحية .

ما الذى يندرج تحت مذهب التاريخ التآليهى ؟ يرى مذهب التاريخ التآليهى مع هيجل أن التاريخ - التاريخ السياسى - عبارة عن مسرح ، أو شكل من أشكال المسرح الشكسبيرى حيث يرى المشاهدون أبطال المسوحية إما فى الشخصية التاريخية العظيمة أو فى الأوطان أو ربما فى البشرية جمعاء من حيث هى كذلك ، وعندئذ يتوجهون بالسؤال : " من الذى كتب هذه المسرحية ؟ ويعتقدون أنهم قد قدموا إجابة ورعة ونقية عندما يقولون : " الله " إلا أنهم مخطئون ، لأن اجابتهم هى الكفر نفسه لأن الله لم يكتب المسرحية (وهو ما نعرفه) ولكن أحد كتاب التاريخ وذلك تحت إشراف القادة العسكريين والحكام الديكتاتوريين .

لا أختلف فى أن النظر الى التاريخ من وجهة نظر مسيحية له ما يبرره مثل النظر اليه من كل وجهة نظر أخرى ، كما يجب أن نؤكد أننا ندين بأهدافنا العديدة ومثاليات ثقافتنا الغربية كالحرية والمساواة لتأثير المسيحية ،

ولكن تكمن فى نفس الوقت وجهة النظر العقلانية الوحيدة ووجهة النظر المسيحية الوحيدة لتاريخ الحرية فى الاقرار بأننا نتحمل مسئوليتها بنفس المعنى الذى نحن به مسئولون عن بناء حياتنا - وأن ضميرنا هو فقط ما يمكن أن يكون حكماً وليس النجاح الدنيوى . فالمذهب الذى يرى أن الله وأحكامه ظاهران فى التاريخ لا يمكن تمييزه عن المذهب الذى يرى فى النجاح الدنيوى الحكم والتبرير الأخير لأفعالنا . فهما يؤديان الى نفس ما يؤدى اليه المذهب الذى يرى أن التاريخ سيوجهنا ، بمعنى أن القوة المستقبلية هى الحق وهو ما أسميته بمذهب المستقبلية الأخلاقية *moralischen Futurismus* . فالزعم بأن الله يكشف عن نفسه فيما نسميه عادة " تاريخ " أى فى تاريخ القتل الجماعى والجريمة الدولية ، لهو الكفر ذاته . ويظل الأمر كذلك متى لجأنا بدلاً من حكام الماضى لحكام ومرتكبي المذابح العامة فى المستقبل من حيث أنهم قضائنا . فهذا الأمر الوحشى والطفلى فى نفس الوقت لا يظهر ما يميز ميدان الحياة الانسانية بالفعل ، حياة الانسان المفرد غير المعروف والمنسى : همومه وأفراحه ، معاناته وانتهاء أجله ، فهذه جميعها هى المحتوى الفعلى للخبرة الانسانية فى كل زمان .

لو كان بمقدور التاريخ أن يسجل لنا هذا ، لما قلت بالتأكيد أنه كفر أن نرى إصبع الله فى التاريخ . ولكن لا وجود ولا يمكن أن يوجد مثل هذا التاريخ . ما يوجد من التاريخ ، تاريخ العظماء ورجال السلطة ليس على أحسن تقدير سوى كوميدى تافهة وضعها الحكام (تماماً مثل أوبرا *buffa* لهومبروس أوبرا النزاعات الصغيرة والمعاناة والصراعات الأولمبية) . إنه ما تصوره لنا إحدى غرائزنا السيئة ألا وهى التقديس الوثنى السلطة على أنه الحقيقة الفعلية . وفى هذا التاريخ الذى لم يخلفه الإنسان أبداً ولكنه زوره أقدم بعض المسيحيين على رؤية إصبع الله . ما جعلهم يقدمون على ذلك هو أنهم أرادوا معرفة وفهم إرادته بينما لم يفعلوا أكثر من أنهم حاولوا أن ينسبوا اليه تفسيراتهم التاريخية الصغيرة والتافهة . " وفى المقابل " يقول اللاهوتى كارل

بارث K. Barth ^(١) فى كتابه The Credo : " يجب أن نبدأ بالاعتراف .. أن كل ما نعتقد أننا نعرفه عندما نقول " الله " لم يصل الى الله ولم يفهم الله ولكنه مجرد أحد أوثاننا التى صنعناها بأنفسنا سواء أكان " العقل " أو " الطبيعة " أو " القدر " أو " الفكرة " . تتفق هذه العبارة مع موقف بارث الذى رأى فى اعتقاد البروتستانت الجدد بظهور الله فى التاريخ اعتقاد غير مشروع وهجوم على المركز الملكى للمسيح .

ولكن إذا نظرنا لهذه المحاولات من وجهة النظر المسيحية فنجد أنها لا تقوم فقط على الزهو والتكبر ولكن على وجهة نظر مضادة للمسيحية، لأن المسيحية تعلمنا أن النجاح الدنيوى ليس هو الأمر الحاسم . فلقد عانى المسيح من بونتياس بيلاتوس Pontius Pilatus ^(٢) . مرة أخرى استشهد ببارث Barth الذى يقول : " كيف يظهر بيلاتوس فى " الاعتقاد " ؟ الاجابة البسيطة على ذلك : " انها مسألة معطى " بهذه الطريقة يلعب الإنسان الذى يمثل القوة التاريخية لزمته دور المعلن عن الزمان الذى تحدث فيه هذه الحوادث . وأى الحوادث كانت تلك ، لم تكن هذه الحوادث سوى معاناة إنسان . يؤكد بارث على أن كلمة " يعانى " تتعلق بسائر حياة المسيح وليس فقط بموته . يقول : لقد عانى المسيح ، لذا لم يغز ولم ينتصر ولم يحقق نجاحا .. لم يصل سوى الى صلبه . يمكن أن نقول نفس الشئ عن شعبه وعن التابعين له " . أريد أن أوضح - بهذه العبارات التى أقتبسها من كتابات بارث - أن تقديس النجاح التاريخى لا يمكن أن يتفق مع روح المسيحية ، ليس فقط من وجهة نظر العقلانية والانسانية . فليست

(١) ولد كارل بارث عام ١٨٨٦ ، وتوفى عام ١٩٦٨ ، سويسرى الجنسية يعد من مؤسسى علم اللاهوت الديالكتيكى . وكواحد من أبرز أعضاء الكنيسة الألمانية حارب الفاشية .

(٢) حاكم روماني مات بعد سنة ٣٦ بعد الميلاد ، حكم مدينة القدس فى الفترة من ٢٦-٣٦ م أثناء حكم الامبراطور تيبيريوس Tiberius ، كان هو من أصدر حكمه على السيد المسيح بصلبه .

الأفعال التاريخيه نغزاة الرومان السلاطين هي معيار نجاح المسيحية ولكن اذا استخدمنا تعبير كبير كـ (جارد) " ما قدمه بعض الصيادين للعالم " فكل التفسيرات التاليفية للتاريخ تحاول أن ترى في التاريخ - أي في تاريخ القوة والنجاح التاريخي - مظاهر الإرادة الالهية . ضد هذا الهجوم على نظرية ظهور الإله في التاريخ سيتم الاعتراض بأن النجاح يكمن في نجاح المسيح بعد وفاته والذي من خلاله اعتبرت الحياة غير الناجحة للمسيح على الأرض بأنها أكبر إنتصار وسيتم الاعتراض بأن النجاح هو ثمار المذهب والذي برهنت هذه الثمار عليه وبررته والنجاح كان ما من خلاله برهنت النبوءة عليه بأن " الأوائل سيصبحون الآخرين والآخرين الأوائل " . لو بعبارة أخرى إن النجاح التاريخي للكنيسة المسيحية هو ما ظهرت فيه الإرادة الالهية . إلا أن هذا منهج دفاعي شديد الخطورة لأنه يقبل ضمناً أن النجاح الدنيوي للكنيسة يشكل حجة لصالح المسيحية وهو ما يظهر نقصاً في الاعتقاد ، فالمسيحيون القدماء لم يعرفوا بهجة دنيوية من هذا الشكل . (لقد كانوا يعتقدون أن الضمير هو ما يوجه القوة وليست القوة هي ما توجه الضمير) . فمن يعتقد أن تاريخ نجاح المذهب المسيحي هو ما يميظ اللثام عن الإرادة الالهية يجب أن يسأل نفسه ما إذا كان هذا النجاح بالفعل نجاحاً لروح المسيحية وما إذا كانت تلك الروح لم تنجح وقت اضطهاد الكنيسة مثلما نجحت وقت أن كانت منتصرة ، وأي كنيسة تلك التي جسدت هذه الروح في صورة خالصة ، هل هي كنيسة الشهداء أم الكنيسة المنتصرة التي كانت تتعقب الملحدين ؟ .

يعتبر الكثيرون ممن يؤكثون وبإصرار مسلم به أن بشرى المسيح موجهة للمسالمة أي هذه البشرى كانت وما زالت بشرى للاتجاه التاريخي أو للتنبؤ التاريخي . يعتبر " جون ماكسوري أحد المتبنين البارزين لهذا الرأي والذي يجد في كتابه " الدليل الى التاريخ The clue to history " - جوهر المذهب المسيحي كامناً في التنبؤ التاريخي والذي يمثل مؤسس هذا

المذهب بالنسبة له مكتشف القانون الديالكتيكي التاريخي لطبيعة السرية يزعم ماكجورى أن التاريخ السياسى يجب - وفقا لهذا القانون - ان يسود وبالضرورة الى " الامبراطورية الاشتراكية ". لا يمكن الخروج على القانون الأساسى للطبيعة البشرية : سيحتل المسالمون الأرض " ولكن هذا الاتجاه التاريخى الذى يحل الأمان محل الأمل يجب أن يودى الى مذهب للمستقبلية الأخلاقية - " هذا القانون لا يمكن مخالفته " بهذا يمكننا أن نكون على يقين - لأسباب نفسية - أن نفس النتيجة ستحدث وهو ما يمكننا دائما أيضا أن نفعله، بل حتى الفاشية يجب أن تودى فى النهاية الى امبراطورية اشتراكية بحيث لا تعتمد النتيجة النهائية عندئذ على قرار أخلاقى صادر عنا ولم يعد هناك مبرر للتفكير فى المسؤولية الخاصة . اذا قال لنا شخص أنه من الممكن أن نكون على يقين لأسباب علمية " أن الأوائل سيصبحون الآخرين والآخرين الأوائل " فماذا يكون ذلك خلاف إحلال الضمير عن طريق التنبؤ التاريخى ؟ ألا تقترب هذه النظرية (والتى من المؤكد أنها ضد رأى واضعها) بشكل خطير من المطالبة " بأن نتصل فى الوقت المناسب بالآخرين ، أى بحزب المسالمين ، اذ وفقا للقوانين العلمية للطبيعة البشرية والتى لا يمكن مخالفتها فان هذا هو الطريق الوحيد الأمن للوصول الى أعلى " . هذا المدخل الى التاريخ يفترض أننا جميعا نقدر النجاح ، فهو يعنى أن المسالمين لديهم ما يبرر أنهم سيجدون أنفسهم فى صف المنتصرين . فهو مدخل يعبر عن الماركسية بلغة علم نفس الطبيعة البشرية وبلغة التنبؤ الدينى ، إنه تفسير يتضمن أن نجاح المسيحية يكمن فى أن مؤسسها كان رائدا للهيجالية ، لا يجب أن يسعى أحد فهمى عندما أتمسك بالقول أننا لا يجب أن نقدر النجاح وأن النجاح لا يمكن أن يكون هو القاضى أو الحكم وأنه لا يجب أن نسمح له بأن يعمى أعيننا ، وعندما أحاول بصفة خاصة أن أوضح أنى بوجهة النظر هذه أتفق - من وجهة نظرى - مع المسيحية الحقيقية ، فلم أقصد بتلك الملاحظات الدفاع عن موقف غير دنيوى ، إذ أنى لا أعرف ما إذا كانت

المسيحية " ليست من هذا العالم " ولكن من المؤكد أن هناك مسيحية: هذه
المسيحية تعلمنا أن الطريقة الوحيدة التي يمكننا بها عرض معتقداتنا تكمن في
أن نسمح بوصول المساعدات العملية (الدنيوية) للفقراء والبؤساء
والمعوزين . كما أنه من الممكن بالطبع أن توجد هوية بين موقف التحفظ أو
الاستهزاء بالنجاح الدنيوي الذي يعنى القوة والشهرة والثروة ومدولة المرء
بذل قصارى جهده فى هذا العالم وتحقيق الأهداف الانسانية بنية واضحة
وهى الأهداف التى عزم المرء على أن تؤدى به الى النجاح ولكن ليس من
أجل النجاح ذاته ولكن من أجل الهدف .

نجد فى نقد كيركجارد لهيجل تدعيماً قوياً لبعض هذه الآراء وبصفة
خاصة الراى الذى يرى عدم إمكانية إتفاق المذهب التاريخى مع المسيحية .
نعم لم يتحرر كيركجارد أبداً من التقليد الهيجلى الذى نشأ عليه ومع هذا لم
يوجد شخص إعترف بوضوح بما يعنيه مذهب التاريخ الهيجلى حقيقة
(مثل كيركجارد) " لقد كتب كيركجارد قائلاً " نعم لقد وجد فلاسفة قبل هيجل
عقدوا العزم على تفسير الوجود والتاريخ . كان يجب حقيقة على الله أو
(العناية الالهية) أن تضحك على تلك المحاولات ولكنه لم يضحك عليها
لأنها كانت بالفعل محاولات جادة صادقة " .

أما هيجل – ودعونى أفكر بمنطق يونانى – فكيف أنفجرت الآلهة
ضحكاً! من هو هذا الأستاذ المقرز الذى سبر غور ضرورة كل شئ ويمكنه
أن يستوعب كل شئ ؟ الاله ! . ثم يستطرد كيركجارد فى إشارته لهجوم
شوبنهاور الملحد على هيجل المدافع عن المسيحية قائلاً " لقد سعدت سعادة
بالغة بقراءتى لشوبنهاور . فما قاله صادق تماماً " . ولم تكن تعبيرات
كيركجارد الخاصة أقل فظاظاً من تعبيرات شوبنهاور ، إذ كتب يقول عن
الهيجلية : " إن الجوهر الروحى لفساد وحدة الوجود هو أكثر الأشكال فساداً
وبشاعة " كما تحدث عن " عفن الخطرسة " وعن " شهوته العقلية " وعن
" التوهج الردى للفساد elenden Glauze des Verderbens " .

وفى الحقيقة فإن تربيته العقلية معيبة مثلها فى ذلك مثل تربيته الأخلاقية. فما يعيبها ويفسدها هو تقديس المظهر البراق والجوهر الروحى والإعجاب بالشكل والطريقة التى بها يقال وتعمل الأشياء بدلا من الاهتمام بما يقال ويتم فعله . ما يعيبها أيضا هى فكرة البريق الرومانتيكية التى تظهر على مسوح التاريخ الذى نلعب عليه أدولرنا .

لقد أحدثت أخلاق القدر والشهرة والصيت والأخلاقيات التى ما زال يسير عليها النظام التربوى الذى يقوم على نظرة أصحاب الاتجاه الكلاسيكى لتاريخ العالم وتصوراتهم الرومانتيكية للقوة والذى يقوم كذلك على أخلاق الفوضى الرومانتيكية والتى يمكن ردها الى هرقلطس ، نقول لقد أحدثت بلبلة فى مشكلة كيف يمكن تربية المرء على التقويم الصحيح لذاته على أساس تقويم الآخرين . عدم وضوح هذه المشكلة ناتج أيضا عن تأثير النسق الأخلاقى الذى يقوم فى أساسه على تقديس السلطة والقوة . فبدلا من موقف نجمع فيه بين الفردية والايثار ، أى بدلا من الموقف الذى لسان حاله يقول " الأفراد الانسانية هى الهامة بالفعل دون أن يعنى هذا أن استنك منه أن الأهمية تتركز فى شخص " تم الرضا عن تركيبة من الأنانية والجماعية Kollektivismus ، وهو ما يعنى أنه قد تم تخطى معنى " الذات " وحياة الشعور الخاصة بها وتعبيرها عن نفسها ، كما تم تخطى التوتر القائم بين الشخصية والفريق ، أو الشخصية والجماعة بطريقة رومانتيكية . تحتل هذه الجماعية مكان الأفراد الآخرين ومن ثم فإنها لا تسمح بأية علاقة شخصية عاقلة . شعار وجهة النظر هذه يقول " سد أو استسلم ، كن رجلا عظيما ، بطلا يضرب مع القدر هنا وهناك ويكسب صيتا وشهرة (كلما كبرت الحالة كلما زاد الصيت وذاع ، هكذا قال هرقلطس) ، أو إنتم للمجموع الذى يستسلم للزعامة ويضحى بنفسه من أجل هذه الجماعية " . هنا يكمن فى هذا التأكيد المبالغ فيه على معنى التوتر القائم بين الذات والتجمع عنصر هستيرى عصابى . ولنا لا أشك فى أن هذه الهستيرية ، أى رد الفعل لضغط الحضارة

هو سر قوة الجذب العاطفى القوى الذى يسود أخلاق إجلال وتعظيم الأبطال .
أخلاق السيادة والحضوع .

ينطوى هذا كله على صعوبة فعلية . فبيئنا هو واضح أن رجل السياسة
يقصر نفسه على محاربة الشر دون أن يحاول محاربة قيم " ايجابية " أو قيم
" عليا " مثل قيمة السعادة الغامرة ، يجد المعلم نفسه فى وضع مختلف تماما .
نعم هو غير مضطر أن يحاول أن يفرض مقاييسه الخاصة للقيم العليا على
مريديه ، ولكن من المؤكد أن عليه أن يحاول دفعهم أو اقتناعهم بالاهتمام
بهذه القيم . يجب أن ينشغل بأرواح مريديه (مثلما قال سقراط لأصدقائه أنه
يحب أن ينشغلوا بأرواحهم ، أرواحهم التى انشغل هو نفسه بها) هناك إذن ما
يشبه العنصر الجمالى أو الرومانتيكى فى التربية ، العنصر الذى لا يجب أن
يجد له دخلا فى السياسة . ولكن رغم أن هذا يصدق من حيث المبدأ فإننا لا
نكاد نجد تطبيقا له فى نظامنا التربوى ، إذ أنه يفترض علاقة صداقة بين
الاستاذ والطالب ، علاقة من حق أى من الطرفين إما أن يحافظ عليها أو أن
ينهيها . (لقد اختار سقراط رفقاءه الذين بدورهم اختاروه) ولكن عدد
الطلاب فى مدارسنا الحالية يجعل هذه العلاقة علاقة غير ممكنة . تبعا لذلك
ليست كل المحاولات المنظمة لتبنى قيم عليا محاولات غير ناجحة ولكنها
بالإضافة الى ذلك تؤدي الى أضرار ، اذ تؤدي الى أشياء جيدة مثل المثل
التي يريد الإنسان أن يحققها . ويجب على المبدأ - القائل - بأننا لا يجب
أولا أن نضر بهؤلاء الذين أئتمنا عليهم ، أن يكون مبدأ أساسيا فى التربية
مثلما هو كذلك فى الطب " لا تحدث ضررا " (ومن ثم قدم للشباب ما هم فى
أمس الحاجة له لكي يتحقق لهم الاستقلال عنا ويصبحون شبابا فعالا ، يختار
لنفسه) هدف قيم بدرجة عالية ، تحقيقه صعب الى حد ما . رغم أنه قد يبدو
هدفا متواضعا . لقد حلت محل هذه القيم قيم عليا أضحت هى الموضة ، قيم
رومانتيكية لا يقبلها العقل فى الحقيقة مثل " الرقى الكامل للشخصية " .

إن تأثير مثل هذه الأفكار الرومانسية - مثل أفكار أفلاطون - هي ما
يؤدي إلى التوحيد بين الفردية والأناية والتوحيد بين الأيثار والجماعية (أى
إحلال الانانية الفردية عن طريق أنانية المجموع) ، ولقد أدى هذا إلى
إغلاق الباب أمام وضع صياغة واضحة للمشكلة الرئيسية للتربية ، مشكلة
كيف يمكن أن يصل المرء ذاته لتقييم نفسه على أساس تقييم الآخرين . وإذا
كنا نشعر - وبصدق - أننا يجب أن نختار هدفنا بأنفسنا ، الهدف الكائن فيما
وراءنا ، ونولي كل اهتمامنا بل ومن الممكن أن نضحى من أجله ، فإننا
نخرج بالاستدلال أن الجماعة " بمهمتها التاريخية : يجب أن تكون هي هذا
الهدف . يقال لنا إذن أننا يجب أن نضحى وقتها . عندئذ سنعرف أننا بهذه
الطريقة قمنا بفعل رائع . يجب أن نضحى ومن خلال التضحية سنكسب
شهرة وصيتا ، سنصبح أبطالاً على مسرح التاريخ . من جهد بسيط سنكسب
الكثير . هذه الأخلاق المشكوك فيها أخلاق فترة معينة ، القليل جداً هم من
اختارها ولم يهتم فيها أحد بالشعب . هذه أخلاق هؤلاء الذين وانتهم الفرصة .
سياسيين كانوا أو أوليغاركيين عقليين - لكى تسجلهم كتب التاريخ . وهى
الأخلاق التى لا يمكن أن تكون أخلاق هؤلاء المدافعين عن العدالة
والمساواة، لأن الشهرة التاريخية لا يمكن أن تكون عادلة ولا يمكن أن يحققها
سوى القليل من البشر . أن عدد من هم أكثر قيمة يبقى دائماً منسياً .

يبدو أننا يجب أن نسلم بأن الأخلاق الهيرقليطسية - المذهب الذى يقول
بأن (الثواب) الأعلى هو ما يمكن أن تقدمه الأجيال التالية - ربما تكون
أفضل قليلاً من المذهب الذى يطالبنا بأن ننشد الثواب فى وقته ، ولكنها مع
هذا ليست الأخلاق التى نريدها . نريد أخلاقاً ترفض النجاح والثواب بصفة
عامة ، هذه الأخلاق ليست أخلاقاً جيدة ولكنها تعود فى بدايتها على الأقل
إلى المسيحية ، ثم خبرناها مرة أخرى فى الحاضر من خلال العمل العلمى
والصناعى المشترك . تبدو أخلاق الصيت والشهرة التاريخية الرومانتيكية
لحسن الحظ - على وشك أن تتناقص ، وهو ما يظهروه رمز الجندي

المجهول . لقد بدأنا ندرك أن الضحية - خاصة متى كان مجهولا لنا - قد يكون أكثر قيمة من غيره . يجب على تربيتنا الأخلاقية أن تحل محل أخلاق الصيت والشهرة ، يجب أن نتعلم أداء عملنا والتضحية من أجل الواجب وليس من أجل الشهرة أو من أجل تجنب الفضيحة (نعم جميعنا في حاجة لشيء من التشجيع والأمل والثواب بل واللوم ولكن هذا أمر آخر) . يجب أن نجد التبرير في عملنا ، فيما نفعله لأنفسنا وليس في معنى خيالي للتاريخ . ليس للتاريخ معنى - تلك هي فكرتي ولكن لا يستتبع ذلك أننا لا يمكننا أن نفعل شيئا وأننا يجب أن نقبل تاريخ القوة السياسية أو أننا مجبرون على قبولها كفكاهة قاسية ، إذ يمكننا تفسيرها بالنظر إلى مشكلات سياسة القوة تلك المشكلات التي نريد في وقتنا هذا أن نحاول حلها . يمكننا تفسير تاريخ سياسة القوة من منطلق صراعنا من أجل المجتمع المفتوح ومن أجل سيادة العقل والحق والعدالة والحريّة والمساواة وأخيرا من أجل منع الحرب . رغم أن التاريخ ليس له غاية نهائية ، يمكننا مع هذا أن نعتبر غاياتنا تلك غايته ، ورغم أن التاريخ لا معنى له يمكننا أن نعطيه معنى (ولقد تحدث ثيودور لسنج Theodor Lessing عن " التاريخ من حيث أنه تقديم معنى لما لا معنى له " als Sinngebung des Sinnlosen وإن كان يعنى بذلك معنى آخر) .

إنها مشكلة الطبيعة والإتفاق Konvention تلك التي نقابلها هنا ، فلا الطبيعة ولا التاريخ يمكنه أن يخبرنا بما يجب أن نفعله ، لا يمكن للوقائع - سواء أكانت وقائع الطبيعة أو التاريخ - أن تحسم المواقف أو تحدد الغايات التي سوف نختارها ، إذ نحن الذين نحدد غايات ومعنى الطبيعة والتاريخ ، فالناس كأسنان المشط لا تتساوى ، ومع هذا يمكننا أن تقدم على الصراع من أجل نفس الحق . ليست المؤسسات البشرية كالدولة مثلا مؤسسات عاقلة ومع هذا يمكننا الصراع من أجل جعلها مؤسسات عاقلة ، نحن عاطفيون وعقلون مثلنا في ذلك مثل لغتنا ، إلا أننا يمكننا أن نحاول أن نجعل من أنفسنا أناسا

عاقليين بصورة أفضل ويمكننا أن ندرب أنفسنا على استخدام لغتنا ، ليس كوسيلة تعبير (مثلما يمكن أن يقول أصحاب النظرية التربوية الرومانتيكية) ولكن كوسيلة فهم عاقل . ليس للتاريخ ذاته معنى أو هدف - أعنى هنا بالطبع تاريخ سياسة القوة وليس تاريخ تطور البشرية الذى لا وجود له . ولكن يمكننا مع هذا أن نجعل له هدفا ومعنى . يمكن أن نجعله صراعا من أجل المجتمع المفتوح وأعدائه وتبعاً لذلك يمكننا تفسيره وأخيراً فإن نفس الشيء يمكن أن يقال على " معنى الحياة " إذ تكمن فينا مسألة تحديد غاية حياتنا وتحديد أهدافنا .

أعتبر ثنائية الوقائع والتحديد ثنائية أساسية . فالوقائع من حيث هي كذلك لا معنى لها ، فتحدداتنا لها هي ما يعطيها معنى . فالذهب التاريخي هو إحدى المحاولات للتبرؤ من هذه الثنائية ، محاولة نابعة من الخوف ، إذ أنها تعود إلى الرأي بأننا نحن من يحمل مسؤولية المقاييس الأخلاقية المعترف بها، ولكن مثل هذه المحاولة النابعة من الخوف تبدو لي أنها بالضبط ما يطلق عليه الإنسان عادة " الاعتقاد فى الخرافات " لأنها تفترض أننا يمكن أن نحصد ما لم نزرعه ، انه الاعتقاد يحاول أن يقنعنا أن كل شيء سيكون بل يجب أن يكون على ما يرام إذا ما سرنا فقط مع التاريخ ، وأننا لسنا فى حاجة لاتخاذ أى قرار أساسى ، كما يحاول أن يجعلنا نتصل من مسؤولياتنا عن التاريخ وعن لعبة القوى الشيطانية التى تمارس علينا . يحاول تأسيس أفعالنا أو إرجاعها للنوايا الخفية لهذه القوى وهى النوايا التى لا يمكن أن تظهر لنا سوى فى الحدوس والإلهامات الصوفية ، فهو يضعنا ويضع أفعالنا معا على المستوى الأخلاقى لفرد تلهمه الأحلام وقراءة الطالع ويختار رقم الحظ الخاص به فى لعبة اليانصيب ، فالمذهب الأخلاقى - مثله فى ذلك مثل لعبة اليانصيب - نابع من شكنا فى عقلانية ومسئولية أفعالنا . إنه أمل خاطئ - إعتقاد قاسد ومحاولة إحلال الأمل والإعتقاد - الكامن فى حماستنا الأخلاقية وفى إحتقار النجاح - عن طريق اليقين الذى أنتج علما مزيفاً ،

ولن يختلف الأمر كثيرا أن يكون هذا العلم المزيف نابعا من الطبيعة البشرية أو يحتمه قدرنا التاريخي .

أزعم أن المذهب التاريخي ليس فقط اتجاها (لا يقاوم النقد) بصورة عقلية ولكنه أيضا يذاقض كل دين ينادى بالضمير ، إذ يجب على الدين أن يتفق مع وجهة النظر العقلية للتاريخ للمدى الذي يؤكد فيه أننا نتحمل مسئوليتنا المطلقة عن أفعالنا وتأثيرها على مجرى التاريخ . نعم يصدق أننا في حاجة للأمل ، فإن نحيا وأن نعمل دون أمل فذلك مما يتجاوز قوانا ولكننا لسنا في حاجة إلى المزيد ولا يجب أن يعدنا أحد بما هو أكثر من هذا . لسنا في حاجة إلى اليقين ، فالدين بصفة خاصة لا يجب أن يحل محل الأحلام وتحقيق الآمال ، فهو لا يجب أن يلعب دور ورقة اليانصيب في تلك اللعبة ولا دور بوليصة تأمين في إحدى شركات التأمين . إن المذهب التاريخي في الدين عنصر من عناصر عبادة الأوثان والاعتقاد في الخرافات .

يحدد أيضا هذا التأكيد على ثنائية الوقائع والتحديدات وجهة نظرنا تجاه الأفكار مثل فكرة " التقدم " . فعندما نعتقد أن التاريخ يتقدم فإننا نرتكب نفس الخطأ الذي يرتكبه إنسان يرى أن التاريخ ذو معنى ويعتقد في وجوب اكتشاف معنى التاريخ فيه . فالتقدم يعني أن نتحرك تجاه هدف محدد ، هدف يمثل بالنسبة لنا جوهر إنسانيا . لا يمكن للتاريخ أن يفعل هذا ، نحن فقط - بنو البشر - يمكننا فعل هذا . يمكننا فعل هذا في دفاعنا وتدعيمنا للمؤسسات الديمقراطية التي تقوم عليها الحرية ويقوم عليها التقدم . يمكننا فعل ذلك بشكل أفضل متى أدرکنا أن التقدم يعتمد علينا نحن ، يعتمد على حزننا ويقظتنا ، كدنا واجتهادنا والوضوح الذي به نتصور أهدافنا وأخيرا يعتمد على واقعية تحديداتنا . فبدلا من التصرف كأنبياء يجب علينا أن نصبح خالقى أقدارنا . يجب أن نتعلم أداء واجباتنا بأفضل ما يمكن ، كما يجب أن نتعلم إدراك أخطائنا ، ومتى تخلينا عن فكرة أن تاريخ القوة هو الحكم وهو القاضى ولم يعد السؤال " ما إذا كان التاريخ يبرر أفعالنا " يشغل بالنا ، قد

نتجح عندئذ يوما ما فى ترويض القوى التاريخية وقد نتمكن فى النهاية بهذه
الطريقة من تبرير تاريخ العالم : فالتاريخ فى أشد الحاجة الى مثل هذا
التبرير .

المقالة التاسعة

"نحو نظرية للديمقراطية"

Zur Theorie der Demokratie

نشرت في مجلة der Spiegel العدد ٣٢

٣ أغسطس ١٩٨٧ ص ٥٤ - ٥٥

يكمُن اهتمامي الأكبر بالطبيعة وبالعلم الطبيعي : علم الكون Kosmologie . فمِنذ أن تَخليت عن الماركسية في يوليو ١٩١٩ لم يعد اهتمامي بالسياسة ونظرياتها سوى إهتمام المواطن العادي المؤمن بالديمقراطية ، إلا أن الحركات اليسارية واليمينية الجماعية الضخمة التي حدثت في العشرينات وفي الثلاثينات ثم تولى هتلر الحكم في ألمانيا أجبرتني جميعاً على أن أعيد التفكير وبإمعان في مسألة الديمقراطية :

رغم أن كتابي المجتمع المفتوح وأعداؤه لم يتناول أي ذكر لهتلر أو النازية إلا أنه يعد مع هذا إسهاماً في الحرب ضد هتلر : فهذا الكتاب نظرية في الديمقراطية ودفاع عنها ضد أعدائها القدامى والمحدثين . لقد خرج الكتاب عام ١٩٤٥ وأعيد طبعه مرات ، ولكن يبدو لي مع هذا أن النقطة التي اعتبرها أهم نقاط هذا الكتاب لم تفهم بالكامل إلا في حالات نادرة .

تعني " الديمقراطية " - مثلاً يعرف ذلك كل شخص - " حكم الشعب " أو " سيادة الشعب " وذلك في مقابل الاسترراطية (حكم الطبقة الأفضل أو النبلاء) و " الموناركية " (حكم الفرد) . لا يساعدنا معنى هذه الكلمة أكثر من هذا ، إذ لم يحدث قط أن ساد الشعب ، فالحكومات هي ما تسود في كل مكان (بل وللأسف البيروقراطية هي التي تسود ، أي طبقة الموظفين التي لا يمكن أو من الصعب تربيته على المسئولية) . ثم إن بريطانيا العظمى ، الدانمارك ، النرويج والسويد يسودها الحكم الموناركي إلا أنها في نفس الوقت أمثلة رائعة للدول الديمقراطية (ربما باستثناء السويد حيث تمارس الآن البيروقراطية Steuerbürokratie غير المسئولة عنفا ديكتاتورياً) وذلك في مقابل ألمانيا الشرقية ^(١) التي تصف نفسها بالديمقراطية ولكنه للأسف ليس وصفاً صحيحاً . علام يتوقف الأمر إذن ؟

(١) ألمانيا الشرقية أو الجمهورية الديمقراطية الألمانية ، تأسست ١٩٤٩ ، كان يحكمها النظام الشيوعي ، انضمت مرة أخرى إلى ألمانيا الغربية لتعود ألمانيا موحدة مرة أخرى وذلك بعد هدم حائط برلين وبعد مظاهرات ١٩٨٩ التي نادت بوحدة ألمانيا .

هناك في الواقع شكلان من أشكال الدولة : تلك التي يمكن فيها التخلص من الحكومة دون سفك دماء وذلك عن طريق التصويت وتلك التي لا يمكن أن يحدث فيها هذا . لا يتوقف الأمر إذن على التسمية التي تعطى لها شكل الدولة ، فقد اعتدنا تسمية الشكل الأول للدولة " الديمقراطية " والثاني " الديكتاتورية " أو " حكم الإستبداد " . الأمر إذن ليس نزاعاً حول تسميات . الأمر الحاسم هو إمكانية تغيير الحكومة دون سفك الدماء .

هناك طرق مختلفة من أجل إمكانية تغيير الحكومة . يشكل التصويت أفضل هذه الطرق : حيث يمكن للانتخاب الجديد أو التصويت في برلمان مختار أن يسقط الحكومة . هذا هو معيار الحكم . من هنا فمن الخطأ (كما حدث منذ أفلاطون حتى ماركس وكما يحدث دائماً) التركيز على السؤال " من الذي يجب أن يحكم " ؟ الشعب أم القلة الأفضل ؟ العمال الخيرون أم أصحاب رأس المال الغاضبون ؟ الأغلبية أم الأقلية ؟ حزب اليسار أم حزب اليمين أم حزب الوسط ؟ فسائر هذه الأسئلة وضعت بشكل خاطئ ، إذ لا يتوقف الأمر على من يحكم ما دام من الممكن التخلص من الحكومة دون إراقة للدماء . فالحكومة التي يمكن التخلص منها لها رغبة قوية أن تسلك بطريقة يرضى عنها الناس وتزول هذه الرغبة متى عرفت الحكومة أنه ليس من السهل إسقاطها .

لكي أوضح أهمية هذه النظرية البسيطة للديمقراطية في الواقع أريد أن أطبقها على مشكلة حق الانتخاب النسبي^(١) . وإذا كنت هنا أنتقد حق الانتخاب المنصوص عليه في دستور ألمانيا الاتحادية الذي نتق فيه جيداً ، فأرجو أن ينظر الى هذا النقد على أنه محاولة لفتح نقاش نادراً - حسب علمي - ما يوضع موضوع التساؤل . لا يجب أن يكون تغيير الدساتير مسألة هينة تتم

(١) التمثيل النسبي شكل من أشكال التمثيل النيابي حيث تكون كل الأحزاب ممثلة في البرلمان بنسبة العدد الذي تم انتخابه من قبل الشعب . من مميزات هذا النظام ضمان تمثيل حتى أحزاب الأقلية في البرلمان ومن ثم تأثيرها في القرارات التي يتم إتخاذها .

باستهتار ولكن أن نخضعها للمناقشة النقدية ليحدث لنا وعى بأهميتها .

ينتشر في ديمقراطيات أوروبا الغربية حق الانتخاب والذي يتميز جوهرياً عن حق الانتخاب الموجود على سبيل المثال في بريطانيا العظمى والولايات المتحدة والذي يقوم على فكرة التمثيل المحلي ، ففي بريطانيا العظمى ترسل كل دائرة انتخابية الى البرلمان الممثل الذي يحصل على أعلى الأصوات بصرف النظر عن الحزب الذي ينتمي هذا الممثل له ، بحيث يمثل هذا الشخص اهتمامات هؤلاء الذين يسكنون دائرته الانتخابية سواء أكانوا ينتمون لحزب سياسى أم لا . هناك بالطبع أحزاب وهى تلعب دوراً كبيراً فى تشكيل الحكومة ولكن إذا اعتقد ممثل دائرة إنتخابية معينة أنه من مصلحة دائرته الإنتخابية وربما الشعب كله أن يصوت ضد الحزب الذي ينتمي اليه أو حتى أن يترك هذا الحزب فإن من واجبه أن يفعل . لم يكن ونستون تشرشل W. Churchill أحد عظماء هذا القرن تابعاً لحزب معين وقام بتغيير الحزب مرتين . أما بقية القارة الأوروبية فالوضع فيها يختلف تماماً . فنسبة كل حزب فى البرلمان تعنى أن لكل حزب عدد كبير من الممثلين له بحيث يجب أن يتناسب العدد المحدد لنواب الأحزاب المختلفة مع عدد الأصوات التى أعطيت للأحزاب مثلما هو الحال مثلاً فى البرلمان الألمانى Bundestag .

على هذا النحو يعترف دستور الدولة بالأحزاب ويكفلها قانوناً . ويتم اختيار النائب الفرد رسمياً كمثل لحزبه . من هنا فهو غير ملزم بالتصويت فى ظروف معينة ضد حزبه فهو على العكس مرتبط أخلاقياً بحزبه من حيث أنه قد تم اختياره كمثل لهذا الحزب . وإذا وجد أن التزامه بمبادئ الحزب لن يتفق مع ضميره ، فواجبه الأخلاقى أن ينسحب حتى وإن لم يكن الدستور قد نص على هذا .

أعرف بالطبع أن الناس فى حاجة الى أحزاب ، فلم يحدث حتى الآن أن تم وضع نسق ديمقراطى دون أحزاب ولكن الأحزاب السياسية ليست مظاهر فرح فسائر ، ديمقراطياتنا ليست حكومات شعبية ولكنها حكومات حزبية أى

حكومة قائد الحزب ومن ثم فكلما كان الحزب كبيراً كلما قلّ الاجتماع فيه على كلمة وقلّ اتصافه بالديمقراطية وقلّ تأثير هؤلاء الذين يصوتون لصالحه أو لصالح قيادة هذا الحزب أو برنامجه . فالاعتقاد أن Bundestag أو البرلمان الذى تم إختياره وفقاً لنسبة كل حزب فيه هو مرآة أفضل للشعب ولأمانيه إعتقاد خاطئ فهو لا يمثل الشعب وآراءه ولكنه يمثل فقط تأثير الأحزاب (والدعاية) على الشعب يوم الانتخاب . وما يجعله أصعب أنه يتحول الى ما يمكن وما يجب أن يكون : محاكمة الشعب لنشاط الحكومة .

لا وجود إذن لنظرية صالحة لسيادة الشعب ، لا نظرية صحيحة تتطلبها نسبة كل حزب فى البرلمان . ومن ثم يجب أن نسأل : كيف يؤثر التوزيع النسبى للأحزاب فى البرلمان فى الواقع ، كيف يؤثر أولاً فى تشكيل الحكومة وثانياً فى الإمكانية الهامة التى تحدد حل الحكومة ؟ .

١- كلما كانت هناك أحزاب أكثر كلما كانت عملية تشكيل الحكومة أمراً أكثر صعوبة . هذه أولاً إحدى وقائع الخبرة وثانياً إحدى وقائع العقل . فلو لم يكن هناك سوى حزبين لكانت مسألة تشكيل الحكومة أمراً سهلاً إلا أن التوزيع النسبى فى البرلمان بوجود أحزاب أخرى صغيرة تؤثر فى تشكيل الحكومة ومن ثم تؤثر فى القرارات السياسية للحكومة .

سيوافق كل شخص على هذا ، كما يعرف كل شخص أن هذا التوزيع النسبى يزيد من عدد الأحزاب ولكن طالما نقبل القول أن جوهر الديمقراطية يكمن فى سيادة الشعب يجب أن نتحمل كديمقراطيين صعوبات هذا التوزيع النسبى كشئ جوهري .

٢- يجعل التوزيع النسبى للمقاعد ومعه عدد الأحزاب حل الحكومة عن طريق قرار الشعب عن طريق الانتخاب الجديد للبرلمان مثلاً أمراً صعباً ما دام المرء يعرف أولاً أن هناك أحزاباً كثيرة ومن ثم من الصعب أن نتوقع أن يحقق أحد الأحزاب وحده الأغلبية المطلقة . بحيث أنه متى حدث هذا التوقع فإن قرار الشعب لا يكون عندئذ ضد أى

حزب من الأحزاب . لا يعد هذا القرار رفضاً لأي حزب ولا حكماً لصالح أي حزب .

لا يتوقع المرء ثانياً أن يوم الانتخاب هذا يوم لحكم الشعب على الحكومة فلقد كانت الحكومة أحياناً حكومة أقلية ومن ثم لم تكن في وضع يسمح لها أن تحدد ما هو هام بالنسبة لها ولكنها كانت مضطرة فقط للتنازل ، أو كانت أحياناً حكومة إئتلافية حيث لم يكن أي من الأحزاب الحاكمة المكونة لها مسئولاً مسئولية كاملة .

ومن ثم فقد إعتدنا ألا نعتبر أيًا من الأحزاب السياسية أو قادتها مسئولاً عن قرار الحكومة ، وألا يعتبر الناخبون خسارة خمسة أو عشرة في المائة من أصواته الخاصة حكماً بالإدانة : إذ لا يدل ذلك سوى على تذبذب وقئ في شعبية هذا الحزب .

ثالثاً : متى أرادت أيضاً أغلبية الناخبين إسقاط حكومة أغلبية قائمة فإنها لا يمكنها تحقيق ذلك بالمرّة ، لأنه متى خسر حزب - كانت له أغلبية مطلقة - أغليبيته ، فإنه من المحتمل جداً أن يبقى - وفقاً للتوزيع النسبي - الحزب الأكبر . وعندئذ سيتمكن بالتعاون مع أحد الأحزاب الصغيرة من تشكيل حكومة إئتلافية ويظل الزعيم المعزول للحزب الكبير على كرسي الحكم وذلك ضد قرار الأغلبية وعلى أساس قرار حزب صغير يمكن أن يكون بعيداً كل البعد عن تمثيل إرادة الشعب .

من الممكن بالطبع لمثل هذا الحزب الصغير - حتى دون إنتخابات جديدة أو تكليف من الناخبين - أن يسقط حكومة ما وأن يشكل بالتعاون مع الأحزاب المضادة حكومة جديدة - وذلك في تضاد عجيب مع الفكرة التي تشكل أساس التوزيع النسبي لمقاعد البرلمان : وهي ضرورة تناسب تأثير حزب ما مع عدد ناخبيه .

كثيراً ما تحدث مثل هذه الأمور فحيث توجد أحزاب كثيرة وحيث تكون القاعدة إئتلافات ، تصبح مثل هذه الأمور أمورا بديهية

ومن الصحيح تماماً أنه من الممكن أن تحدث أمور مشابهة في بلاد أخرى لا وجود فيها لهذا التوزيع النسبي . ولكن عندئذ في مثل هذه البلاد كبريطانيا العظمى أو الولايات المتحدة ينمو إتجاه مفاده تنافس حزبين كبيرين يقفان أمام بعضهما .

تبدو لي صورة النظام الذي يتكون من حزبين أفضل صور الديمقراطية، إذ أنها تؤدي دائماً إلى النقد الذاتي للأحزاب ، إذ متى حدث ومنى أحد الحزبين الكبيرين بهزيمة ثقيلة في إحدى الانتخابات ، فإن هذا عادة ما يؤدي إلى إصلاح جذري داخل الحزب . هذا هو أحد نتائج التنافس وهي النتيجة التي لا يمكن أن نغفلها ومن ثم تضطر الأحزاب عن طريق هذا النظام ومن وقت لآخر أن تتعلم من أخطائها أو تتلاشى (تنتهي من الوجود). لا تعني ملاحظاتي ضد التوزيع النسبي أني أوجه النصيحة لسائر الدول الديمقراطية أن تتخلى عن هذا التوزيع النسبي ، ولكني فقط أتمنى إعطاء مناقشته (مناقشة التوزيع النسبي للمقاعد في البرلمان) اتجاهاً جديداً . إن الفكرة التي ترى أنه من الممكن أن نستنبط منطقياً من فكرة الديمقراطية السمو الأخلاقي لنظام التوزيع النسبي وأن الأنظمة الكونية أنظمة أفضل وأكثر ديمقراطية - وذلك بسبب التوزيع النسبي - من الأنظمة الأنجلوسكسونية فكرة ساذجة .

إذا أردنا تلخيصاً لما سبق نقول : أن الفكرة التي ترى أن التوزيع النسبي أكثر ديمقراطية من النظام البريطاني أو الأمريكي فكرة لا يمكنها أن تصمد أمام النقد من حيث وجوب قيامها على نظرية قديمة ترى في الديمقراطية أنها حكم الشعب (والتي ترتد بدورها إلى ما يعرف بنظرية سيادة الدولة) . هذه النظرية نظرية فاسدة من الناحية الأخلاقية بل ولا يمكنها أن تصمد أمام النقد يمكن إبدالها بنظرية عدم ممارسة الأغلبية للعنف .

هذه الحجة الأخلاقية أكثر أهمية من الحجة العملية التي ترى أننا لم نعد في حاجة إلى حزبين متنافسين ومسئولين مسئولين كاملة لكي يقدموا للناخبين القوة ليحكموا الحكومة في إنتخاباتهم . ينشأ عن التوزيع النسبي خطر أن يتم

التهوين من شأن قرار الأغلبية في الانتخابات ومن ثم التهوين أيضا من تأثير الهزيمة في الانتخابات على سائر الأحزاب وهو التأثير الذي قد تتطلبه الديمقراطية . ومن المهم لقرار الأغلبية الصحيح أن يكون هناك بالفعل حزب معارض قوى وإلا سيجد الناخبون أنفسهم مضطرين للسماح لحكومة سيئة بالحكم مرة أخرى لأن لديها مبرراً ألا وهو عدم وجود حكومة أفضل منها .

ألا يتعارض دفاعي عن نظام الحزبين مع فكرة المجتمع المفتوح ؟ أليس السماح بتعدد الآراء والنظريات ، أي التعددية Pluralismus هي الصفة الجوهرية المميزة للمجتمع المفتوح وبحثه عن الحقيقة وألا يجب أن تعبر هذه التعددية عن نفسها في تعدد الأحزاب ؟ أجيب : تكمن وظيفة الحزب السياسي في تشكيل حكومة ، أما إذا كان حزباً معارضاً فتكمن وظيفته في مراقبة عمل الحكومة مراقبة نقدية ، والتي يندرج تحتها سماح الحكومة للآراء والأيدولوجيات والأديان المختلفة . (للمدى الذي لا تكون معه متعصبة ، إذ الأيدولوجيات التي تدعو إلى التعصب تفقد حقها في التسامح معها) . تحاول بعض الأيدولوجيات - محاولات ناجحة أو غير ناجحة - السيطرة على أحد الأحزاب أو تأسيس حزب جديد ومن ثم سينشأ سجال بين الآراء والإيدولوجيات والأديان من ناحية وبين الحزبين الكبيرين المتنافسين من ناحية أخرى . أما فكرة تعدد الأيدولوجيات أو وجهات النظر عن العالم يجب أن تظهر في تعدد الأحزاب ففكرة تبدو لي أنها ليست خاطئة من الناحية السياسية فقط ولكنها خاطئة أيضاً كوجهة نظر للكون إذ يندر أن يحدث إتفاق بين ما يخص سياسة الأحزاب وبين نقاء مذهب ما .

المقالة العاشرة
"ملاحظات حول نظرية وعمل
الدولة الديمقراطية"

Bemerkungen Zur
Theorie und Praxis des
demokratischen Staates

محاضرة ألقاها كارل بوبر في ميونيخ يوم ٩ يونيو ١٩٨٨

١ - الأدب والعلم والديمقراطية

هل من رابط بينها ؟

قبل ميلاد السيد المسيح بحوالى ٥٣٠ عاماً وجد فى أثينا سوق لم يحدث أن وجد مثله - على الأقل فى أوروبا - من قبل ، سوق حر للكتب أو مكان كانت تعرض فيه للبيع الكتب المكتوبة بخط اليد على لفائف ورق البردى . كانت ملحمتا هوميروس الشعريتان " الإلياذة والأوديسا " هما أول ما تم عرضه للبيع .

وفقاً لما سجله شيشرون Cicero الذى عاش بعد ذلك بخمسمائة عاماً تدين كتابه هاتين الملحمتين لهوميروس لبازيستراتوس Peisistratos الطاغية الذى كان يحتل عرش أثينا آنذاك ، كان بايزيستراتوس مصلحاً كبيراً قام مع غيره بتأسيس البناءات الدرامية أى المؤسسة التى نطلق عليها الآن إسم المسرح . وربما أو من المحتمل أنه كان أول ناشر لهوميروس الذى استقدم مادة الكتابة - ورق البردى من مصر - وابتاع الكثير من العبيد المتقنين من يمكن أن يملئ عليهم نص هوميروس .

كان بايزيستراتوس رجلاً ثرياً ، أقام المهرجانات لأهل أثينا وأهدى لهم الكثير من الأحداث الثقافية الهامة . ثم وجد من بعده فى أثينا آخرون - رجال أعمال - عملوا كناشرين . لقد جذبتهم الواقعة بأن الطلب -على ما يبدو- عزيز ، فلقد تعلم الجميع القراءة وقرأ الجميع هوميروس حتى أصبحت أعماله - فى وقت قصير يدعو للدهشة - هى بمثابة الكتاب المقدس والكتاب الأول الذى يتعلم منه المبتدئون فى أثينا . ثم تلا ذلك نشر كتب أخرى خلاف أعمال هوميروس . نلاحظ أنه لولا وجود سوق للكتب ما كان هناك نشر للكتب ، فوجود مخطوط (أو كتاب مطبوع) فى مكتبة للقراءة لا يمكن بأى طريقة أن يحل محل عرضه فى سوق للكتب . نعتبر وبصدق أن أول عرض لمخطوط فى سوق الكتب هو بمثابة أول نشر له ولم يوجد سوق للكتب فى أوروبا أستمز لزم من طويل سوى فى أثينا (حوالى ٢٠٠ سنة فى تقديرى) ثم

كانت فيما يبدو كورنت Korinth وطيبة Theben أول مدينتين تتبع أسواقها
مثالها الأثيني .

أما الشعراء والكتاب فلقد كان هناك بالطبع الكثير منهم ولكن ما كان من
الممكن للأدب أن ينشأ أول ما نشأ سوى في أثينا (ما دام قيامه يفترض مسبقاً
وجود مؤسسة للنشر) حيث وجد كتاب ومؤرخون وعلماء سياسة وفلاسفة
وعلماء طبيعة ورياضيون القليل فقط من هؤلاء هو من ولد في أثينا مثل
ثيوكيديدوس Thukydides^(١) إلا أن أثينا قد مارست عليهم جميعاً قوة جذب
لا يمكن مقاومتها ، ولقد كان انكساجوراس الفيلسوف والباحث في الطبيعة
ومعاصره الأصغر منه سنا هيرودوت Herodot أول المؤرخين العظام من
الكتاب الأجانب على أثينا والذين جاءوا إليها وقاموا بنشر كتبهم فيها . كلاهما
جاء إلى أثينا من آسيا الصغرى كلاجئ سياسى . اعتقد أن هيرودوت حين
كتب عمله التاريخى الضخم لم يكن ذلك بنية النشر بينما كان كذلك
انكساجوراس حين كتب تاريخ الطبيعة القصير . إذا صدق هذا الحكم فإنه
يوضح الموقف غير المؤكد لهذين الكتائين من عملية النشر التى لم تكن قد
اخترعت سوى من فترة قصيرة وهى العملية التى لم يكن أحد وقتها قد أدرك
دالاتها .

٢ - من أول كتاب تم نشره فى أوروبا وحتى ثورة جوتنبرج Gutenberg:
اعتقد أن إنشاء أثينا لسوق للكتب يفسر إلى حد كبير المعجزة الثقافية التى
حدثت فى أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد كما يفسر أيضاً الديمقراطية
الأثينية .

لا يمكن بالطبع إثبات صدق الاعتقاد بوجود علاقة بين طرد الطاغية

(١) ثيوكيديس : هو أعظم مؤرخى اليونان القدماء . تاريخ ميلاده غير معروف على وجه
الدقة ولكنه ولد بالتأكد قبل عام (٤٦٠ ق.م) وهو مؤلف كتب (تاريخ الحرب
البلوبونيزية) المرجع الأساسى الذى منه عرفنا تاريخ الصراع بين أثينا وأسبرطة الذى
حدث فى القرن الخامس ق.م

هيبياس Hippias من أثينا عام ٥١٠ وما أعقبه من نشأة الديمقراطية وإنشاء سوق الكتب . إلا أن هناك الكثير مما يمكن أن يقال لصالح هذا الاعتقاد. إن فن القراءة والكتابة الذي إنتشر بسرعة في أثينا ثم الشعبية الكبيرة التي اكتسبها هوميروس والتي نتج عنها شعبية كتاب المسرح التراجيدي الأثيني الكبار ، والرسامون والنحاتون والذين كانت لديهم أفكار جديدة كثيرة تم مناقشتها في هذا العصر الحديث ثم الازدهار الثقافي : هذه جميعا وقائع . وإذا افترضنا أن قيام الديمقراطية كان أمراً لا صلة له بسائر هذه الأشياء التي تأثرت بقوة باختراع سوق الكتب فإن الانتصار العظيم الذي حققته الديمقراطية الأثينية الوليدة في حربها من أجل الحرية ضد إمبراطورية الفرس الضخمة لم يكن مستقلاً عن هذه الأشياء أو الوقائع ، إذ لا يمكن فهم هذا الانتصار سوى في ضوء الوعي الذاتى الجديد ، الذى قدم للأثينيين خير ثقافة وخير تعليم فريدين من نوعهما ومكتسبين ذاتياً كما قدم لهم حماسة اكتسبوها أيضاً بأنفسهم وأخيراً فهماً لجمال ووضوح - لم يسبقهم أحد إليه - فى الفن والشعر .

وعلى أية حال فإنه من الجدير بالملاحظة أن إختراع جوتنبرج فى القرن الخامس عشر والتوسع الكبير فى أسواق الكتب والناجى عن طباعة الكتاب أدباً الى ثورة ثقافية مماثلة : أدباً الى ظهور الاتجاه الانسانى Humanizmus . وانتعشت سائر الفنون بانعاش الأدب القديم ، ونشأ علم طبيعى جديد . وفى انجلترا أدت حركة الإصلاح الى ثورة ١٦٤٨-١٦٤٩ الدموية وثورة ١٦٨٨ السلمية والتي بدأت بها نشأة الديمقراطية الدائمة للبرلمان الانجليزى . تكمن هنا على أية حال علاقة أكثر وضوحاً .

٣- إنجازات ومساوئ الديمقراطية الأثينية :

لقد نشأت المعجزة الأثينية عن الحوادث الثقافية والسياسية والعسكرية العظيمة والتي حدثت فى القرن الخامس وبداية القرن الرابع قبل الميلاد وهى الحوادث التى تلت إختراع سوق للكتاب . لقد واكب هذه الحوادث

النشأة السريعة لمذهب الفريد من نوعه والمثالي بمعنى الكلمة - المثالي
لمستقبل أوروبا . لقد تضمنت هذه الحوادث حربين دامتاً حوالي ثلاثين عاماً ،
خرجت أثينا من الحرب الأولى مدمرة لكن منتصرة بينما لاقت في
الثانية هزيمة نكراء . أقدم هنا قائمة ببعض الحوادث الهامة مرتبة ترتيباً
تاريخياً .

ق ٠ م

(٥٠٧) نشأة الديمقراطية في أثينا .

(٤٩٣) التسليح والصناعة البحرية تحت حكم ثيمستوكليس Themistokles

(٤٩٠) موقعة الماراثون .

(٤٨٠) إخلاء أثينا وتدمير الفرس لها . المقاومة من الأسطول .

موقعة سلامى Salamis .

(٤٧٩) موقعة بلاتيه Plataää وميكالى Mykale .

تهديد اليونانيين الأيونيين في آسيا الصغرى وإستجادهم بأهل أثينا من

فوق الجزيرة وهو ما أدى الى معاهدة دليان البحرية - Attisch

Delischen Seebund والى ما يعرف بالإمبراطورية الأثينية .

تحصين أثينا وإعادة بنائها .

من (٤٦٢) عهد بريكس . بيت الإله في أثينا Die Akropolis (١) معبد

البارثون Parthenon Tempel .

من (٤٣١) الحروب البلوبونيزية .

(٤٢٩) الطاعون . موت بريكس Perikles بالطاعون . استمرار الحرب .

الحرب تزداد وحشية .

(١) أن بناء بيت الإله تقليد عرقته سائر مدن اليونان القديمة ، كان يتم بناؤه على أعلى

قمة في المدينة لغرض ديني وعسكري معاً ، كغرض عسكري كانت تستخدم كقلعة ،

ولغرض ديني ذلك لأن التل - أو قمة الجبل - كان - وفقاً لهم - موطن أسرار الطبيعة ،

ومن ثم يجب أن يكون هو بيت الإله . يعد بيت الإله في أثينا أشهر هذه البيوت .

(٤١٣) كارثة سيسليا (صقلية) تدمير الأسطول والجيش الأثيني

(٤١١) إنهيار الديمقراطية الأثينية

(٤٠٤) انتصار إسبرطة على أثينا وتعيين حكومة إرهابية لا ديمقراطية عميلة

لإسبرطة قُلت من الأثينيين في الشهور الثمانية التي حكمت فيها أكثر

مما فعلته أسوأ سنوات الحرب وهي السنوات العشرة الأخيرة .

ينتهي هنا عادة تاريخ حرب الثلاثين عاماً الثانية ومن ثم يتشأ لدى

الإنسان الإطباع أن الديمقراطية الأثينية قد انتهت هنا أيضاً ، إلا أن هذا

الإطباع إطباع خاطئ ، إذ لم تكن هذه هي نهاية الديمقراطية الأثينية .

فبعد ثمانية شهور إنهزم الطغاة الثلاثون في موقعة بيراوس Piraeus

على يد مجموعة من الأثينيين الديمقراطيين وعقدت معاهدة سلام بين إسبرطة

والديمقراطية الأثينية . على هذا النحو بقيت الديمقراطية بعد هذا الزمان

الغاضب لحرب لا هوادة فيها وللخيانة الوطنية لزعماء واعتبر أعداؤها من

وقتها ولأكثر من نصف قرن آخر الديمقراطية الأثينية ديمقراطية لا يمكن

هزيمتها .

إلا أن الديمقراطية الأثينية كانت قد أرتكبت أخطاء فادحة ، لم تكن مجرد

أخطاء تكتيكية وإستراتيجية ولكن جرائم ضد البشرية مثل تدمير جزيرة

ميلوس التي هاجمها الأثينيون دون أن يكون قد حدث فيما يبدو تحرش مباشر

من سكانها وتم قتل سائر رجالها وسبى وبيع نساءها وأطفالها . وماذا يكون

الحكم الخاطئ على سقراط (وهي العملية السياسية التي كان المدعى فيها

زعيم حزب) إذا ما قورن بهذه الجريمة الشنعاء ؟ لقد شرح ثيوكديدس بنفسه

والذي كان قائداً حربياً أثينياً بالتفصيل ما حدث ووصفه بأنه كان قراراً خبيثاً

غير إنساني لا يمكن العفو عنه لأغلبية كانت تعرف جيداً ماذا تفعل والتي -

وفقاً لرأيه - كان لابد أن تعاقب على جريمتها . لقد حدثت حالات أخرى

كثيرة مشابهة .

لا يوجد ما يبرر مثل هذه الجرائم . ولكن لحسن الحظ كانت هناك قرارات أخرى أبلغنا عنها ثيوكديدس . فلقد نقضت ميتيلين Mytilene معاهدتها مع أثينا وقامت ضدها ولكن تمكنت أثينا من إحتلالها . أرسل الأثينيون سفينة يحمل قائدها أمراً معه بقتل جميع أهلها - ولكن فى اليوم التالى تملك الأثينيون الإحساس بالندم فتمت الدعوة لاجتماع شعبى - يلقى فيه " ديودوتس Diodotus " خطبة طلب فيها الرفق والشفقة بأهل ميتيلين Mytilene . ورغم أن التصويت لم يعطه سوى أغلبية صغيرة إلا أنه تم على الفور ارسال سفينة ثانية لتلحق بالأولى وأخذ طاقمها يجدف بكل قوة حتى تمكنوا من اللحاق بالسفينة الأولى وسحب الأمر الأول . على هذا النحو كانت ميتيلين على وشك التدمير - كما يقول ثيوكديدس .

٤- لم تكن الديمقراطية أبداً سيادة الشعب .

لا يمكنها ولا يجب أن تكون كذلك .

للديمقراطية مشكلات كبرى . لقد وجدت هذه المشكلات منذ البداية وما زالت موجودة ، أهمها وأكثرها صعوبة هى المشكلات الأخلاقية . المشكلة التى ما زالت تؤدي الى الخلط وتبدو كما لو كانت مشكلة أخلاقية - ولكنها ليست كذلك - مشكلة محض لفظية : " لفظ " ديمقراطية " اذا ما تمت ترجمته الى الألمانية فإنه يعنى " سيادة الشعب " ومن هنا يعتقد الجميع أن هذا الاسم ذو دلالة لنظرية اشكال الدولة التى نعطيها نحن هنا فى الغرب هذا الاسم .

لقد قدم اليونانيون أسماء عديدة للصور المتنوعة لإدارة الدولة رغبة منهم فى تحديد أى الأشكال الممكنة للحكومة حسن وأيها سيئ ، أيها أفضل وأيها أسوأ ، ومن ثم وصلوا الى إعطاء الدستور خمسة أسماء وفقاً للخصائص الأخلاقية . استخدم افلاطون هذه الفكرة كثيراً وتم وضعها فى النسق التالى .

٢+١ الموناركية : سيادة فرد واحد خير ، أما صورتها المزيفة فهى الاستبداد - أى سيادة شرير واحد .

٤+٣ الأرستقراطية : سيادة قلة خيرة ، وصورتها المزيفة الأوليغارشية
فهى سيادة قلة لكنها ليست قلة خيرة .

٥ الديمقراطية : سيادة الشعب ، أو الكثرة . وفقاً لأفلاطون لا وجود هنا
سوى لصورة واحدة للديمقراطية وهى صورة سيئة إذ تتضمن هذه
الكثرة كثرة شريرة وهو ما يحدث كثيراً .

الآن من الأهمية بمكان أن نبحث عن صياغة السؤال الذى يشكل أساس
هذا النسق ، هنا نجد أن أفلاطون إنطلق بالسؤال التالى والساذج الى حد ما .
من الذى يجب أن يسود ويحكم الدولة ؟
من الذى يجب أن يمارس السيادة ؟

قد يفرض مثل هذه السؤال الساذج نفسه على شئون دول صغيرة مثل
دولة المدينة اليونانية حيث تعرف كل الشخصيات الهامة بعضها البعض
معرفة جيدة . إذ من الجدير بالذكر أن هذا السؤال - وإن كان غير مدرك -
هو ما يشكل وحتى الآن أساس كل مناقشة سياسية ، فلم يحرك ماركس
ولنين، موسولينى وهتلر ، ومعظم رجال السياسة الديمقراطيين سوى صياغة
هذا السؤال وإن كان هذا قد حدث منهم بدون وعى أيضاً ومتى وصلوا الى
صياغة قواعد عامة فلن تكون هذه القواعد عادة سوى إجابات على السؤال
"من الذى يجب أن يحكم ؟" . لقد كانت إجابة أفلاطون : " الأفضل هو من
يجب أن يحكم . " من الواضح أن هذه الإجابة كانت إجابة أخلاقية . أما إجابة
ماركس ولنين فكانت " طبقة البروليتاريا هى من يجب أن يحكم " (وليس
أصحاب رأس المال كما هو الآن) وهم نعم يجب أن يحكمون الدولة : يجب
أن يفرضون شروطهم . هنا نجد العنصر الأخلاقى متوارى الى حد ما ولكن
طبقة البروليتاريا الخيرة هى من يجب بالطبع أن تحكم لا أصحاب رأس المال
الشريرين .

لست فى حاجة للحديث عن هتلر ، فإجابته بسيطة : " أنا " من الواضح
أن هتلر كسابقه يضع السؤال " من الذى يجب أن يحكم ؟ " كأساس لإجابته .

لقد إقترحت منذ حوالي خمسين عاماً أن تنبذ السؤال الأفلاطوني "من الذى يجب أن يحكم ؟" كسؤال خاطئ وأن نواريه التراب الى الأبد فهو مشكلة زائفة تؤدي الى حلول مزيفة مضحكة : الى حلول تبدو ظاهرياً أنها مطلوبة أخلاقياً . أما من حيث الأخلاق فإنه ليس أخلاقياً بالمرّة النظر الى خصم سياسى على أنه سيئ أو شرير من الناحية الأخلاقية (بينما ننظر لحزبه الذى ينتمى اليه على أنه حزب خير) . فهذه المشكلة تؤدي الى الكراهية التى هى دائماً شئ سيئ . كما تؤدي الى الموقف الذى يؤكد دائماً على قوة الحكام بدلاً من أن تعالج كيف يمكن تقييد هذه القوة .

نحن نهتم إذن فى الأصل - هكذا يبدو لى - بمقارنة أشكال الحكومات وليس بالأشخاص والطبقات والأجناس بل والأديان الخيرة والشريرة .

إذا أقترح أن نستبدل بالمشكلة الأفلاطونية "من الذى يجب أن يحكم ؟" مشكلة أخرى تماماً هى : هل هناك أشكال للحكومات نستهنجها لأسباب أخلاقية ، والعكس : هل هناك أشكال للحكومات تسمح لنا بالتخلص من حكومة مستهجنة أو غير مختصة تحدث ضرراً ؟ .

أزعم أن هذه التساؤلات متضمنة - بلا وعى - فى أفعال حكوماتنا التى نسميها حكومات ديمقراطية ، فهى تساؤلات تختلف تماماً عن السؤال الأفلاطوني عما اذا كان الشعب هو من يجب أن يحكم . أنها متضمنة أيضاً فى الديمقراطية الأثينية مثلما هى كذلك فى ديمقراطياتنا الغربية الحديثة .

نحن الذين نطلق على انفسنا اسم ديمقراطيين ننظر الى الديكتاتور أو الطاغية على أنه شخص شرير من الناحية الأخلاقية ليس فقط على أنه من الصعب تجمله ولكن على أنه لا يمكن تحمله من الناحية الأخلاقية لأنه لا يمكن أن يكون مسئولاً ، وعندما نتحملة نشعر بأننا قد أتينا بخطأ . لقد كان هذا هو موقف متامري ٢٠ يوليو ١٩٤٤ الذين حاولوا الخروج من الورطة الأخلاقية التى وقعوا فيها وذلك بالتصويت الديمقراطي على قانون التفويض فى مارس ١٩٣٣ .

فالدكتاتور يفرض علينا موقفاً لا يمكننا أن نكون مسئولين فيه ولا يمكننا أيضاً بصفة عامة أن نغيره ، موقفاً إنسانياً لا يمكن تحمله . من هنا فعلينا واجب أخلاقي أن نفعل كل ما في وسعنا لكي نمنع حدوث مثل هذا الموقف . نحاول ذلك عن طريق ما يسمى أشكال الدولة الديمقراطية وهذه المحاولة هي أساسها الأخلاقي الممكن الوحيد . ليست الديمقراطيات إذن سيادة الشعب ولكنها في المقام الأول مؤسسات مسلحة ضد الشخص الدكتاتوري ، فهي لا تسمح بأية سيادة ذات شكل دكتاتوري أو تجمع للقوى ولكنها تحاول أن تحد من عنف الدولة . فالديمقراطية بهذا المعنى هي إمكانية التخلص من الحكومة دون إراقة دماء وذلك متى أخلت بحقوقها وواجباتها أو متى حكمنا على سياستها بأنها سياسة خاطئة أو سياسة سيئة .

ليست المسألة إذن مسألة سيادة أو مسألة " من ؟ " الذي يحكم ولكنها مسألة الحكم ومسألة " كيف ؟ " يتم الحكم ، فالمسألة الأساسية هي ألا يتركز الكثير من أمور الحكم في يد الحكومة أو أنها مسألة " كيف ؟ " تدار الدولة . لقد كانت هذه المسألة هي الأرضية التي انطلقت منها الديمقراطية الأثينية وإن كان هذا قد تم بشكل غير واع ولكن يمكن البرهان عليه : هذا هو أيضاً موقفنا أو هكذا يجب أن يكون تجاه سائر التجمعات سواء أكان الجيش ، العمال ، الموظفين (وأيضاً الصحفيين ورجال الإذاعة والتلفزيون ، القناوسة ، رجال الدين ، الإرهابيين أو المراهقين) ليس الأمر هو مدى قوتهم أو سيادتهم . لا نريد ولا يجب أن نخشاهم ولكننا نريد بل يجب أن ندافع عن أنفسنا - وقت اللزوم - ضد شطحاتهم . هذا هو هدف أشكال حكوماتنا الغربية التي نطلق عليها - بحكم العادة أو على سبيل الخطأ لفظ "ديمقراطيات" والتي تهدف إلى حماية الحرية السياسية وبصفة خاصة حماية أشكال السيادة بالإعتماد على استثناء وحيد ألا وهو : سيادة القانون .

هـ - النقطة الرئيسية : يجب أن يكون من الممكن إسقاط الحكومة دون إراقة دماء :

اتبنى إذن الراى القائل بأن أهم شكل من أشكال الحكومة الديمقراطية يكمن فى أن يكون من الممكن إسقاط الحكومة دون إراقة دماء على أن تتولى حكومة أخرى مقاليد الحكم . قد يبدو أن مسألة كيف يحدث هذا الاحلال مسألة غير هامة نسبياً ، عن طريق الانتخاب الجديد أو عن طريق البرلمان Bundestag ^(١) ما دام القرار فى النهاية هو قرار الأغلبية ، سواء أكانت أغلبية الناخبين أو أغلبية نوابهم أو قرار محكمة الدولة أو المحكمة الدستورية، فلم تدلل على الصفة الديمقراطية للولايات المتحدة سوى عملية إعتزال رئيس الجمهورية ريتشارد نيكسون والتي كانت فى حقيقتها إعفاء له من منصبه .

أهم ما تتطوى عليه عملية تغيير الحكومة هى هذه القوة المسالبة ، أى التهديد بالإعفاء من المنصب ، أما القوة الموجبة التى تكمن فى تعيين حكومة ما أو تعيين رئيس لها فهى المتضاييف غير الهام نسبياً . ليس هذا للأسف هو الراى المتفق عليه . كما إن التأكيد الخاطئ على هذا التعيين الجديد تأكيد خطير الى حد ما : إذ يمكن تفسير تعيين الحكومة على أنه منح الناخبين الحكومة الشرعية باسم الشعب وعن طريق " إرادة الشعب " . ولكن ما الذى نعرفه وما الذى يعرفه الشعب - أى ما هى الأخطاء - أو الجرائم - التى سوف ترتكبها غداً هذه الحكومة التى انتخبها الشعب ؟ .

يمكننا بعد فترة أن نحكم على حكومة أو سياسة ما وقد نعطيها موافقتنا ومن ثم نعيد إنتخابها ، كما يمكن أن تكون قد نالت ثقتنا بصورة مسبقة إلا أننا لا نعرف شيئاً ، ولا يمكننا أن نعرف ، فنحن لا نعرفها ومن ثم لا يجب علينا أن نفترض بصورة مسبقة أنها لا تسعى إستخدام هذه الثقة التى أوليناها إياها . لقد صاغ بريكلز - وفقاً لما قرره ثوكيديديس Thukydides هذه الأفكار بطريقة أبسط من هذا . يقول : " متى كان بإمكان قلة منا فقط رفض أو تنفيذ سياسة ما فإنه بإمكاننا جميعاً أيضاً أن نحكم على سياسة ما " .

(١) Bundestag هو البرلمان فى ألمانيا (المترجم) .

أعتبر هذه الصياغة البسيطة صياغة أساسية وأريد أن أكررها . نلاحظ هنا أن فكرة سيادة الشعب أو حتى فكرة مبادرة الشعب فكرة مرفوضة تحل محلها فكرة حكم الشعب . مرة أخرى أورد نص بريكلز : " متى كان بإمكان قلة ما أن ترفض أو تقوم بتنفيذ سياسة ما ، فإن بإمكاننا جميعاً الحكم على سياسة ما " .

هل كان هذا هو رأى بريكلز أم ثيوكلديدس ؟ أعتقد أنه رأيهما معاً . لقد قيل هنا باختصار لماذا لا يمكن للشعب أن يحكم حتى إذا لم يكن هناك صعوبات لفعل هذا . فمن الممكن للأفكار وبصفة خاصة الأفكار الجديدة أن تكون من عمل شخص واحد يقوم مع قلة غيره بتوضيحها وجعلها أفضل ، ثم يصبح من الممكن بعد ذلك للكثير الذين وصلتهم هذه الأفكار أن يرون ما إذا كانت هذه الأفكار أفكاراً جيدة أم لا . كما يمكن لهذه الأحكام أو " القرارات بنعم أو لا " أن يقوم بتنفيذها الناخبون .

فالتعبير " مبادرة الشعب " إذن تعبير خاطئ وتعبير له طابع الدعاية فالمبادرة عادة تأتي من قلة والتي تدفع الشعب على أحسن تقدير للحكم النقدي، من هنا فإنه من المهم في مثل هذه الحالات أن نعرف ما إذا كانت التدابير المقترحة خارج إختصاص الناخبين الذين يقيمهم .

قبل أن أترك هذه الأمور أريد أن أوجه الإنتباه الى خطر كامن في تعليم الشعب والأطفال أنهم يعيشون تحت سيادة الشعب - أي تعليمهم ما هو ليس صحيحاً (ولا يمكن أن يكون كذلك) ، اذ متى علموا ذلك فلن يشعرون فقط بعدم الرضا ولكنهم سيشعرون بأنه قد تم تضليلهم : فهم لا يعرفون شيئاً عن الخلط اللفظي التقليدي ، وهو ما يمكن أن تكون له نتائج سياسية وعقائدية سيئة قد تصل الى الارهاب . فأنا في الحقيقة أصادف مثل هذه الحالات .

٦- الحرية وحدودها : الدولة

نحن جميعاً - كما رأينا - مسئولون معاً الى حد ما عن الحكومة رغم أننا لا نمارس الحكم . ولكن هذه المسئولية الجماعية تتطلب الحرية - حريات

كثيرة : حرية التعبير ، حرية الحصول على معلومات وإمكانية إعطائهم .
حرية النشر وحرية أخرى . تؤدي " زيادة سلطة " الدولة الى تقييد
الحرية ولكن هناك أيضاً تجاوزات للحرية . هناك للأسف سوء استخدام لها
يكافئ سوء استخدام سلطة الدولة ، يمكن مثلاً إساءة استخدام حرية التعبير
وحرية النشر اللذين قد يستخدمان في تقديم معلومات خاطئة وفي التحريض .
وبالمثل يمكن إساءة استخدام كل تقييد للحرية تمارسه سلطة الدولة .

نحن نحتاج للحرية لكي تمنع سوء استخدام سلطة الدولة ، كما نريد من
الدولة أن تمنع سوء استخدام الحرية . هذه مشكلة لم يتمكن أحد من حلها لا
بصورة تجريدية ولا بإصدار قوانين . يتطلب حل هذه المشكلة محكمة دولة
وما هو أكثر من ذلك يتطلب إرادة خيرة .

يجب أن نقبل الرأي الذي يرى أن هذه المشكلة لا يمكن حلها بصورة
تامة أو بمعنى أدق لن يحل هذه المشكلة بصورة تامة سوى نظام ديكتاتوري
يقوم على مبدأ وضع كل السلطات في يد الدولة وهو ما يجب أن نرفضه
لأسباب أخلاقية . يجب أن نقبل بحلول جزئية وحلول توفيقية وألا نسمح لحبنا
للحرية أن يجعلنا نغفل مشكلات سوء استخدامها .

٧- توماس هوبز - إمانويل كانت - فيلهلم فون همبلدت - جون
ستيوارت مل :

لقد رأى بعض المفكرين القدامى والمحدثين هذه المسألة وحاولوا إنطلاقاً
من مبادئ عامة وضع أساس يبرر ضرورة قوة الدولة كما حاولوا تحديد هذه
القوة .

لقد افترض توماس هوبز أنه بدون الدولة فإن كل إنسان هو عدو لدود
ممكن لغيره (" فالإنسان ذئب بشري " Homo homini lupus) من هنا
فنحن في حاجة ماسة لدولة أقوى ما يمكن أن تكون لكي تكبح جماح الجريمة
وإستخدام العنف . أما كانت فقد رأى المشكلة مختلفة تماماً ، فلقد اعتقد أيضاً
في ضرورة وجود الدولة وفي ضرورة تقييد الحرية ولكنه اراد رد هذا القيد

الى أدنى حد ممكن . من هنا فقد رأى ضرورة وضع دستور يسمح بأكبر قدر ممكن من الحرية الإستتية تجعل حرية الفرد " لا قيام لها إلا من خلال حرية الآخرين " (١) لم يرد للدولة أن تكون أقوى مما يلزم لكي تضمن أن يكون لكل مواطن قدر كبير من الحرية يتفق مع تقييده لحرية الآخرين بأقل قدر ممكن وليس أكبر من القدر الذي يقيده من حريته . لقد رأى كانط في التقييد الذي لا يمكن تجنبه للحرية نقلاً هو ناتج ضروري للحياة المشتركة للبشر .

يمكن توضيح فكرة كانط بالقصة الطريقة التالية . جئ بمواطن أمريكي الجنسية الى المحكمة متهماً بتخطيطه لأتف شخص آخر ، فما كان من المواطن الأمريكي إلا أن برر فعله بأنه حر أن يحرك قبضة يده في أى اتجاه يريد . هنا وجه القاضى حديثه الى هذا المواطن معلماً إياه قائلاً " لحرية تحريك قبضة يدك حدود وهى الحدود التى - نعم - يمكن تغييرها إلا أن أتوف مواطنيك تقع دائماً وأبداً خارج هذه الحدود " .

وفى كتاب لاحق لكانط (فى القول المشترك : ما يصدق نظرياً قد لا يصلح للواقع سنة ١٧٩٣) نجد نظرية فى الحرية والدولة أكثر تقدماً حيث قدم كانط فى الجزء الثانى - وذلك ضد إتجاه توماس هوبز - قائمة " بمبادئ للعقل الخالص " المبدأ الأول هو مبدأ " حرية الإنسان ، مبدأ تكوين الجماعة (٢) والذي أعبر عنه على النحو التالى (٣) :

(1) Kants Wortlaut (Kritik der reinen Vernunft, Elementarlehre, 2. T., 2. Abt., I. Buch; I. Aufl., S. 316; 2. Aufl., S. 372) a .. daB jedes Freiheit mit der andern ihre zusammen bestehem kann ... " (in Original gesperrt gesetzt). Siehe auch zum ewigen Frieden und andere Kantische Schriften .

(٢) " الجماعة " ترجمة اللفظ Gemeinwesen ، كتبها كانط منفصلة Gemeines Wesen (المؤلف) انفصال الكلمتين يعطيها معنى مختلفاً ، تعنى الجواهر المشتركة (المترجم) .

(٣) قارن ذلك بكتابتى (البحث عن عالم أفضل Aufder Suche einer besser Welt) دار نشر (Munschen - Piper 1984 . S. 169-170) (المؤلف) .

لا يمكن لأحد أن يجبرني أن أكون سعيداً وفقاً لتصوره للسعادة ولكن
يستطيع كل شخص أن يبحث عن سعادته بالطريقة التي يعتقد أنها تجلب
له السعادة ... فالحكومة التي تأسست على مبدأ العمل لخير الشعب ، الحكومة
الأبوية (imperium paternale) ^(١) هي أكثر أشكال الحكومة التي يمكن
تخيلها استبداداً " ورغم أن هذه الملاحظة الأخيرة المذكورة ملاحظة مبالغ
فيها (وفقاً للينين Lenin وستالين Stalin موسوليني Mussolini وهتلر
Hitler) إلا أنني أعتقد بصدها تماماً مع كانت . إذ أن ما يعنيه - وذلك ضد
هوبز - أن ما نريده ليس دولة الأمر بأسره في يدها ، دولة واهبة عطوفة
تهب لنا كل شيء وتمنحنا كل شيء ، حياتنا بأسرها في قبضتها تحميننا من
الذئاب الذين نحيا معهم ، ولكن دولة توجهنا فقط نحو حقوقنا وتكفلها لنا .
هذا هو واجب الدولة حتى وإن كان المواطنون الذين يحيون فيها -
على عكس ما يرى هوبز - رحماء بينهم . إذ لن يكون حتى للضعفاء أي
حقوق على الأقوياء ولكن شكر لتحمل الأقوياء لهم ولصبرهم على ضعفهم .
فقيام دولة هو فقط ما سيحل هذه المشكلة ويؤسس ما أسماه كانت " كرامة
الفرد " .

هنا تكمن قوة فكرة كانت عن الدولة والسبب الأساسي لرفضه النظام
الأبوي Paternalismus ثم جاء فيلهلم فون همبلدت Wilhelm Von
Humboldt وطور أفكار كانت . تكمن أهمية ذلك في أن الكثيرين قد ذهبوا
إلى أن هذه الأفكار التي جاء بها كانت لم تجد لها من بعده في ألمانيا أي
صدى وبصفة خاصة في بروسيا وفي الدوائر السياسية الهامة . جاء كتاب
"همبلدت " تحت عنوان " أفكار ، وحدود عمل الدولة " والذي تم نشره عام
١٨٥١ وان كان " همبلدت " قد كتبه قبل ذلك بكثير .

(١) imperium paternale ويتم ترجمتها النظام الأبوي وتعني الدولة التي تأخذ على
عاتقها تدبير كل مهام المواطنين . يرفض المؤلف هذا الشكل للدولة ، إذ في ظل هذا
النظام - كما يعتقد - تقييد إلى حد بعيد لحرية المواطنين .

انتقلت أفكار كانتط عن طريق كتاب همبلدت الى انجلترا ، فنشر جون ستيوارت مل J. Mill كتابه " فى الحرية " عام ١٨٥٩ متأثراً بهمبلدت وبافكار خاصة وبصفة خاصة بهجوم كانتط على الاتجاه الأبوى . لقد أصبح هذا الكتاب أحد الكتب المؤثرة فى الحركة الليبرالية الراديكالية الانجليزية .

لقد بذل كل من كانتط ، همبلدت وجون ستيوارت مل جهداً كبيراً لوضع أساس يبرر ضرورة الدولة ولكن بطريقة تحد الى أقصى حد ممكن من سلطتها . كانت الفكرة التى إنطلقوا منها مفادها : نحن فى حاجة الى الدولة ولكن ما نريده هو أقل قدر ممكن منها وذلك فى مقابل الدولة الكاملة Totalstaat ، لا نريد دولة أبوية ، دولة متسلطة أو دولة بيروقراطية ولكننا نريد أقل قدر من الدولة .

٨- دولة أبوية أم دولة صغرى ؟

حدود كل منها . الدولة الصغرى كمبدأ موجه

نحن فى حاجة الى الدولة ، دولة الحق بالمعنى الكانطى الذى يمنح به حقوقنا البشرية وجوداً فعلياً وبالمعنى الآخر الذى به يخلق ويستحسن الحق القانونى الذى يقيد حريتنا ولكن بأقل قدر ممكن ويكون عادلاً بقدر الإمكان وهذه الدولة يجب أن تكون أبوية ولكن بأقل قدر ممكن .

ولكنى أعتقد أن كل دولة تتضمن لحظة أبوية بل وتتضمن حتى لحظات أبوية . هذه اللحظات لحظات حاسمة فاصلة .

الواجب الأساسى الذى نعطيه للدولة - ما نطلبه منها - هو أن تعترف بحقنا فى الحرية وفى الحياة وأن تساعدنا متى كان هذا ضرورياً فى الدفاع عن حريتنا وحياتنا كحق من حقوقنا . ولكن هذا الواجب واجب أبوى ، بل حتى الواجب الذى وصفه كانتط بـ " بالخير Wohlwollen " يلعب هنا دوراً هاماً لا يمكن إنكاره . متى ألقت بنا الظروف فى وضع يضطر معه الى الدفاع عن حقوقنا الأساسية ، لا يجب عندئذ أن نتعلم من الدولة (أجهزة الدولة Staatsorganen) العدوان أو عدم الاكتراث ولكن نتعلم " الخير " .

الموقف هنا في الحقيقة موقف - أبوى من أعلى (من أجهزة الدولة التي يجب أن تكون خير) ومن أسفل (من المواطن الذي يبحث عن مساعدة الأقوى) .

يصدق أن القانون يكمن في موضوعيته ، يعلو هذه العلاقات شبه الشخصية ، ولكن القانون المتحقق في الدولة وحدودها حق من عمل الإنسان . فهو من الممكن أن يكون خاطئاً ، كما أن أعضائه أيضاً أشخاص من الممكن أن تخطئ . والحقيقة القائلة بأن الناس أحياناً قد يكونوا شريري القصد ويجب أن نكون مبتهجين بل وممتئين متى أظهروا هذا الذي يستهجنه كائن ألا وهو " الرضا " البشري - هذا كله يوضح أن لحظة الأبوة تلعب في كل هذه الأشياء دوراً متعدد الجوانب . الأمر للأسف على هذا النحو وأنا أقبله بإرادتي ، ولكن يبدو لي أنها الحقيقة ولقد أدى إهمال هذه الحقيقة في مناقشات الأونة الأخيرة إلى سفسطة منطقية وإلى مواقف مضحكة . الأمر يتعلق هنا بالهجوم الحديث على دولة الرفاهية . أعتبر هذا الهجوم والمناقشة التي أحيطه من جديد أمراً هاماً ، ولكن لا يمكن أن تؤخذ هذه الفلسفة المنتشرة هذه الأيام مأخذاً جدياً ، إذ تحاول أن توضح أن نظرية دولة الرفاهية التي تتباهى بأخلاقيتها وإنسانياتها هي في الحقيقة هجوم لا أخلاقي على أكثر حقوق الإنسان أهمية - حق الإنسان في التحديد الذاتي الحر والحق في أن يكون سعيداً بطريقته الخاصة والحق الذي دافع كائن عنه ضد الاتجاه الأبوى . (انظر الفقرة السابقة من هذه المقالة) .

يعود الهجوم الراديكالي الحديث ضد الاتجاه الأبوى عادة لكتاب جون ستيوارت مل (في الحرية) والذي يقول فيه :

" أن الهدف الوحيد الذي يسمح للإنسان (سواء أكانوا أفراداً أو جماعة) بالتدخل في حرية فعل فرد ما هو الدفاع عن النفس .. فالغرض الوحيد الذي يخول استخدام العنف ضد إرادة أحد أفراد مجتمع متحضر هو منعه من إحداث ضرر بالآخرين ، إذ لا يبرر الخير الخاص بهذا الفرد (سواء أكان

خيراً مادياً أو أخلاقياً) أن نعتدى على حرية فعله ، أن نجبره على فعل معين أو نجبره على أن يسمح بشئ ما لأنه لو فعل سيكون ذلك أفضل بالنسبة له ولأنه (من وجهة نظر آخرين) سيكون من الحكمة أن يفعل ذلك وليس لأنه سيكون فعلاً صحيحاً (من الناحية القانونية أو الأخلاقية) .

فى هذا الاقتباس - تريد لمبدأ كائط الذى يرى فى أن لكل فرد الحرية أن يصبح سعيداً أو غير سعيد بطريقته الخاصة ويلعن التدخل الأبوى كتدخل غير مسموح به ما لم يكن لمنع ضرر يلحق بطرف ثالث . لا يجب على أى قريب أو صديق ، مصلحة حكومية أو مؤسسة (كالبرلمان) ، مسئول حكومى أم موظف أن يستيحي لنفسه الحق أن يفرض وصاية على شخص بالغ وأن يسلبه - من ثم - حريته مالم يكن لدرء خطر سيقع على طرف ثالث : من هذا الذى يمكنه أن يقول شيئاً ضد مبدأ مل هذا ؟ هل يمكن إستخدام مبدأ مل هذا كدفاع جاد عن حرية الفعل ؟ .

فلنتنظر لمثال نناقشه كثيراً . هل للدولة الحق فى أن تأمر المواطن بارتداء حزام الأمان أثناء قيادة السيارة ؟ يبدو ظاهرياً - وفقاً لمبدأ مل هذا - أنه ليس لها هذا الحق ، بل ليس لها هذا الحق أيضاً حتى مع اقتناع الخبراء أن ارتداء حزام الأمان ضرورى لأسباب أمنية ، وأنه من الخطر أن يقود المواطن السيارة دون ربطه لحزام المقعد .

ولكن انتظر ! ألا تكاد الدولة متى كان الأمر كذلك - أن تكون ملزمة بمنع الراكب كطرف ثالث من الوقوع فى هذا الموقف الخطر ؟ أليست الدولة ملزمة بمنع قائد السيارة من القيادة طالما أنه لم يقرر - قراراً نابعاً من حريته - ربط حزام المقعد ؟ .

مثال آخر مشابه للمثال السابق ونناقشه أيضاً كثيراً هو مثال المنع من التدخين . نعم وفقاً لمبدأ مل - أنه لا يجب منع أى شخص من التدخين لمصلحته الخاصة . ولكن هل يمكن منعه من أجل مصلحة الآخرين ؟ فإذا أعلن خبراء الدولة أن استنشاق الدخان الذى ينفثه شخص آخر يقوم بالتدخين

- غير صحي - لا ، بل خطر - أليست الدولة عندئذ ملزمة - فى كل المواقف التى سيوضع فيها طرف ثالث فى هذا الوضع - بمنع التدخين ؟ .
ينطبق هذا الأمر أيضاً على كل صور التأمين المختلفة ، مثل التأمين ضد الحوادث . وفقاً لمبدأ مل لا يجب إجبار هؤلاء الذين قد يتعرضون للخطر على أن يقوموا بالتأمين على أنفسهم عن طريق تهديدهم بالعقاب ولكن عن طريق منع طرف ثالث وليكن صاحب العمل بتهديده بالعقاب من أن يقوم بتوظيف أى شخص ما لم يكن هذا الشخص - بمحض إرادته الكاملة - قد قام من قبل - بالتأمين على نفسه .

تشكل المواد المخدرة حالة أخرى يتم مناقشتها أيضاً كثيراً . نعم ، - وفقاً لمبدأ مل - فإن لكل شخص بالغ عاقل (فى الرابعة عشر ، فى العشرين ، فى الواحد والعشرين من عمره ؟) كل الحق فى أن يدمر نفسه بتعاطي المخدرات بحرية تامة ولا يجب على الدولة أن تحد من حريته هذه . ولكن أليست الدولة ملزمة بمنع آخرين من التسبب - فى مثل هذه المواقف شديدة الخطورة ؟ أليست الدولة ملزمة - كما هو حادث الآن - بمنع شراء المخدرات وذلك بالتهديد بأشد أشكال العقاب ؟ .

لا أريد أن أزعم أنه من الممكن التعامل مع كل هذه الحالات - التى ناقشناها - وفقاً لهذا المنهج وأنا سنخرج بنتائج متشابهة . ولكن مع هذا فإن الأمر يبدو على هذا النحو . (بالنسبة لحالة قائد السيارة التى تبدو صعبة فإنها تحل نفسها بسهولة ، فالدولة ملزمة بإجبار كل شخص - يضع سيارة تحت تصرف طرف ثالث - إما بالبيع أو التاجير - وذلك عن طريق تهديده بالعقاب من أجل حماية السائق - بأن يقدم توقيع الشخص الثالث والذى تم بحرية على وثيقة بأنه ملزم بدفع مبلغ كبير من المال فى حالة نسيانه ربط حزام المقعد قبل قيامه بقيادة السيارة) .

أسلم تماماً بأننا نقدم خيراً كثيراً لمؤسسات الدولة (ليس ذلك من وجهة نظر مصلحتها ولكن من وجهة نظر مصلحتها) عن طريق تبني مناهج المنع

هذه ، متى ذكرناها دائماً وابدأ أنها ليس لها الحق أبداً في إجبار أى شخص على فعل معين وحتى ولو كان في هذا الفعل مصلحته الخاصة ، ولكنها ستكون في صورة أفضل متى أمكنها تسكين - غرائزها الأبوية - تحت زعم حماية طرف ثالث - مثلاً هو حادث الآن - .

لن تكون الضرائب التي تدفع عندئذ مطلوبة من أجل الأمن الذاتي ولكنها مطلوبة دائماً من أجل حماية طرف ثالث . وسيكون كل فرد حر تماماً في أن يدفع الضرائب دون أن يستخدم حقه في الحماية .

أن مبدأ مل (الذي أقبله على النحو التالي يجب أن يكون كل شخص حر في تحقيق سعادته بطريقته الخاصة طالما أنه لم يعرض الطرف الثالث للخطر ولكن الدولة مسؤولة ألا يقع مواطنيها في مخاطر يمكن تجنبها وهي المخاطر التي لا يمكن للمواطنين أن يحكموا عليها بأنفسهم) يمكن أن يمثل إسهاماً بسيطاً جداً في النقد الهام في ذاته لدولة الرفاهية ولا علاقة بصفة عامة لاهتمامنا المبرر به بالدولة الصغرى بمبدأ مل ، ولكن يتعلق إهتمامنا بالدولة الصغرى كثيراً بدولة الرفاهية : إذ يؤدي الى الاقتراح الذي مفاده أن التأمين الاجتماعي يجب أن يكون تأميناً خاصاً .

وفي النهاية أحب أن أوجه الإنتباه الى أنه ما زالت هناك للدولة وظيفة تلعبها وهي الوظيفة التي رغم أنني كنت أحب أن أعرفها مثل غيري بأننا لا حاجة لنا لها إلا أنه لسوء الحظ لا يمكنني أن أعرفها على هذا النحو فهي ما زالت ذات دلالة عظيمة ولا يمكن أن تكون وفقاً على المؤسسات الخاصة .

أعني بذلك وظيفة الدفاع عن الدولة . نعم يصدق أنها بكل معنى وظيفة أبوية . ونعم يصدق أن دلالتها الحالية تسمح لكل نظريات الدولة الضيد أبوية بأن تبدو كفلسفات قليلة الأهمية ، إلا أن هذه الفلسفات تعطينا الأمل في إمكانية القضاء على مشكلة الدفاع عن الدولة بمجرد تجاهلها . ولكن هذه الوظيفة ذات أهمية كبيرة وباهظة التكاليف ، فهي أسوأ تهديد للدولة الصغرى إذ تذكرنا بوظيفة أخرى أرخص بكثير ترتبط ارتباطاً شديداً بوظيفة الدفاع عن

الدولة : ألا وهى وظيفة السياسة الخارجية شديدة الأهمية . للوظيفتين نتائج تجعل من فكرة الدولة الصغرى مثلاً يوتوبياً بعيد المنال لا يمكن مع هذا الاستغناء عنه : فالدولة الصغرى تعيش أطول حتى ولو فى صورة مبدأ موجه .

أريد أن أذكر شيئاً آخر : يجب على الدولة الملزمة بالدفاع عن أرضها أن تكون محكمة فى مسألة تجنيد مواطنيها وصحتهم بل ويجب أيضاً أن تكون محكمة فى إقتصادها الى درجة معينة من حيث أنه لا بد أن يكون لديها بالفعل رصيداً كبيراً ، كما يجب كذلك أن تكون محكمة فى إدارة المرور وفى أشياء كثيرة أخرى .

٩- حق القصر (غير البالغين)

لا يمكن للأسف لا من حيث المبدأ ولا لأسباب أخلاقية الاستغناء عن الاتجاه الأبوى . فإذا اعترفت الدولة بحقوق مواطنيها فى أن تحميهم الشرطة ضد حوادث السلب والنهب ، فيجب أيضاً أن تعترف بحقوق القصر فى وجوب حمايتهم بطرق متعددة ، بل وحتى ضد آبائهم أحياناً ، ومن ثم حل محل مشكلة " الدولة الصغرى أم الدولة الأبوية ؟ " مشكلة " لا أبوية أكثر مما هو ضرورى أخلاقياً " ومن ثم فإنه بدلاً من السمو الاخلاقى الأساس للدولة الصغرى على الدعاوى الأخلاقية للدولة الأبوية ، فإننا نرتد الى التعارض القديم بين الدولة والحرية والى القاعدة التى أطلقها كانط ضد الديكتاتورية التى تنادى بالانقياد الحرية أكثر مما لا يمكن تجنبه .

١٠- إمكانية حل مشكلة البيروقراطية المدنية Zivilb r kratie

والبيروقراطية العسكرية Milit rb rokratie

تشكل مشكلة البيروقراطية إحدى النقاط الهامة فى كل نظرية للدولة الديمقراطية . أنظمتنا البيروقراطية . إذن أنظمة غير ديمقراطية (وفقاً للمعنى الذى أفهمه للكلمة) ، أنظمة بها عدد من صغار الديكتاتوريين الذين لا يشعرون بالحاجة لتبرير تصرفاتهم وأفعالهم .

يعتبر المفكر الكبير ماكس فيبر Max Weber ^(١) هذه المشكلة مشكلة غير قابلة للحل ومن ثم قد أصبح متشائماً بصددھا ، أما أنا فأعتبرھا مشكلة من الممكن من حيث المبدأ حلھا بسهولة فقط متى اعترفنا بمبادئنا الديمقراطية ومتى كانت لدينا رغبة جادة في حل هذه المشكلة ، ولكنى أعتبر مشكلة البيروقراطية العسكرية مشكلة غير قابلة للحل . فخطورة القوة العسكرية التي تنمو بلا حدود والتي من الواضح أنه لا يمكن التحكم فيها هي إحدى الأسباب العديدة التي تبرر لماذا أنا متفائل بشأن الأمل في سلام عالمي حتى وإن كان هذا السلام العالمي بعيد المنال ، وبشأن الأمل فيما اسماء الكانط "السلام الدائم" - ولكن إذا كنت أتحدث عن هذا فلا بد لي أن أوضح أنني - ولمصلحة السلام - عدو لما يسمى حركة السلام . يجب أن نتعلم من خيرائنا، ولقد أسهلت بالفعل حركة السلام موتين في تشجيع المعتدى ، فقلد توقع القيصر فيلهلم الثاني Kaiser Wilhelm II ^(٢) أن أنجلترا لن تأخذ قراراً بالحرب لأسباب سلمية رغم تأكيدها لبلجيكا . وبصورة مماثلة . اعتقد هتلر ذلك رغم تأكيد إنجلترا ليولندانية .

١١ - الأمل في الشباب

لقد نجحت أنظمة الغربية ، وبصفة خاصة الولايات المتحدة - أقدم الأنظمة الديمقراطية الغربية - نجاحاً لا مثيل له ، هذا النجاح نتاج عمل شاق وجهد كبير وإرادات خيرة كثيرة ثم قبل هذا كله نجاح أفكار خلاقة كثيرة . في كل الميادين : وكلفت النتيجة : عدد أكبر من البشر يحينون حياة أكثر حرية وأكثر وقاهية بحياة أفضل وأطول مما كان عليه الحال من قبل .

(١) ماكس فيبر : هو عالم الاجتماع ورجل الاقتصاد السياسي الألماني الشهير . ولد عام ١٨٦٤ وتوفي ١٩٢٠ . مشهور بنظريته في الأخلاق البروتستانتية ، حيث يرجع الاتجاه البروتستانتي للرأسمالية كما أنه مشهور بأرائه في البيروقراطية

(٢) هو الامبراطور الألماني وحاكم بروسيا في الفترة من ١٨٨٨ حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ .

أعرف بالطبع أن أموراً كثيراً كان يجب أن تكون أفضل ، ولكن الأمر الهام هنا أن أنظمتنا " الديمقراطية " لا تتميز بشكل كاف عن أنظمة دكتاتورية الأغلبية ومع هذا فلم يحدث من قبل في تاريخ الدول التي استطاع الناس أن يحيون فيها حياة حرة أو كانت لديهم الإمكانيات لذلك أن عاش الناس حياة جيدة أو أفضل مما هي عليه الآن . أعرف أن القليل من الناس من سيشاركنى هذا الرأي . وأعرف أن هناك أيضاً جوانب مظلمة للحياة فى عالمنا هذا مثل الجرائم والوحشية والمخدرات . نحن نرتكب الكثير من الأخطاء ورغم أن الكثير منا يتعلمون من أخطائهم ، فإن البعض للأسف يظل قابلاً فيها .

هذا هو العالم ، يفرض علينا واجبات . يمكننا أن نحيا فيه راضين ومسرورين ولكن يجب علينا أن نقول هذا أيضاً ، فأننا لا أكاد أسمع هذا ، ولكنى أسمع يومياً بدلاً من ذلك ولولة وعويلاً على هذا العالم المزعوم بأنه عالم فاسد والذي لا بد أن اللعنة قد حلت علينا أن نعيش فيه .

أعتبر إنتشار هذه الأكاذيب هو أكبر جريمة ارتكبتها زماننا لأنه يهدد شبابنا ويحاول أن يسلبهم حقهم فى الأمل والتفاؤل ، بل وقد يؤدي هذا فى بعض الحالات الى الانتحار أو الاذمان أو الارهاب .

١٢ - التفاؤل وخطر وسائل الإعلام

من الممكن بسهولة لحسن الحظ إختبار صدق الحقيقة : الحقيقة القائلة بأننا فى الغرب نحيا أفضل عالم وجد على الإطلاق ، لا يجب أن نجعل هذه الحقيقة تختفى أكثر من هذا . يجب على وسائل الاعلام التى تعد فى هذا الصدد أكبر آثم أن تقتنع أنها إنما تحدث فساداً ويجب أن تقتنع بالعمل معاً . يجب أن نجعل وسائل الاعلام ترى وتقول الحقيقة ، ويجب أن نجعلها ترى المخاطر التى تحيط بها وأن تقوم - مثل كل المؤسسات السليمة - بالنقد الذاتى وأن تحذر نفسها بنفسها . هذه المهمة مهمة جديدة عليها أن تؤدبها ، فالفساد الذى تحدثه حالياً فساد كبير ، فبدون العمل الجماعى لن يكون من الممكن عليها أن تبقى متفائلة .

المقالة الحادية عشر
الحرية والمسئولية (الفكرية)

**Freiheit
und intellektuelle
Verantwortung**

محاضرة أقيمت في St. Gallen في يونيو ١٩٨٩

المستقبل مفتوح الى حد كبير ، فهو يعتمد علينا ، علينا جميعا . يعتمد على ما نفعله نحن وأناس آخرون وما سوف نفعله ، اليوم وغداً وبعد الغد . ما نفعله وسوف نفعله يعتمد بدوره على أفكارنا ورغباتنا وآمانينا ومخاوفنا ، كما يعتمد على كيف نرى العالم وكيف نحكم على امكانيات المستقبل المفتوحة الى حد كبير .

لا يعنى هذا بالنسبة لنا جميعاً سوى مسؤولية كبيرة ، والتي تصبح أكبر متى وعينا الحقيقة بأننا لا نعرف شيئاً أو أن ما نعرفه قليل جداً وأن هناك ما يبرر إعتبارنا هذا القليل لا شئ . لا نعرف ان شيئاً بالمقارنة بما كان يجب أن نعرفه لكي نستطيع أن نتخذ القرارات الصحيحة .

لقد كان سقراط هو أول من رأى هذا . كان يرى أن رجل الدولة يجب أن يكون عاقلاً وراشداً بدرجة كافية كي يعرف أنه لا يعرف شيئاً ، وكذلك ذهب أفلاطون الى أن رجل الدولة ، والملك بصفة خاصة - يجب أن يكون شخصاً راشداً ، إلا أن ما عناه بهذا كان يختلف كثيراً عما عناه سقراط . كان يعنى أن الملوك يجب أن يكونوا فلاسفة ومن ثم يجب أن يلتحقون بمدرسته - مدرسة أفلاطون - وأن يتعلمون الجدل الأفلاطونى - الجدل شديد التعقيد .

بل والأكثر من ذلك أن الفلاسفة أصحاب المعارف الكثيرة والمتعلمين مثل أفلاطون نفسه يجب أن يصبحون ملوكاً يحكمون العالم . هذا الاقتراح الذى وضعه أفلاطون على لسان سقراط هو ما أدى الى شئ من سوء الفهم . لقد كان الفلاسفة متحمسين لسماع أنهم يجب أن يصبحون ملوكاً ولقد إختفى الفرق الهائل بين ما طلبه سقراط وما طلبه أفلاطون من رجل الدولة وذلك تحت ضباب الجدل الفلسفى ، من هنا فإنى أريد أن أوضح هذا التمييز مرة أخرى : فالصياغة " رجل الدولة يجب أن يكون حكيماً " تعنى بالنسبة لأفلاطون حق الفلاسفة أصحاب العلم والمعرفة ومن ثم حق المتقنين والمفكرين " والصفوة الممتازة " فى السيادة . وفى تعارض تام مع أفلاطون عنى سقراط بنفس الصياغة " رجل الدولة يجب أن يكون حكيماً " أن رجل

الدولة يجب أن يعرف كم هو ضئيل ما يعرفه ، لذا يجب عليه أن يواضع كثيراً في مطالبته بحقوقه ، ومن ثم فإنه يرى نفسه مسؤولاً مسئولية كبيرة عن الحرب والسلام ويعرف ما يمكنه أن يحدثه من فساد يعرف كم هو ضئيل ما يعرفه ، ومن ثم " فهو يعرف نفسه ! " لقد نادى سقراط " أعرف نفسك ، واعترف بكم هو ضئيل ما تعرفه ! " (راجع كتاب زينوفون *Memorabilia Xenophon* ، الفصل التاسع ، ٦) هذه هي وجهة النظر السقراطية ، أو الحكمة السقراطية . " أعرف نفسك ، واعترف لنفسك بعدم معرفتك ! " نعم ليس الأفلاطوني عادة ملكاً ولكنه دائماً زعيم الحزب العالم بكل شيء ، ورغم أن الحزب الذي يتزعمه هو عادة حزب يتكون منه هو ذاته وحده ، فإن سائر زعماء الأحزاب الأخرى تقريباً وبصفة خاصة زعماء الأحزاب التي تتصف بالعدوانية وزعماء الأحزاب الناجحة أفلاطونيون ومن ثم فهم أفضل الناس وأكثرهم علماً ومن ثم رشداً . هم من يرى أفلاطون أنهم من يجب أن يكونوا حكامنا .

" من الذى يجب أن يحكم ؟ " هذا هو السؤال الأساسى فى فلسفة أفلاطون السياسية ، ويجيب عليه أفلاطون " الأفضل والأكثر حكمة هو من يجب أن يحكم ! " تبدو هذه الإجابة للوهلة الأولى إجابة صحيحة بشكل واضح وبطريقة لا يمكن تجنبها ولكن ماذا لو لم يعتبر الأفضل والأكثر حكمة نفسه كذلك ومن ثم رفض الحكم ؟ هذا هو ما كان سقراط سيتوقعه من الأفضل والأكثر حكمة لابد أنه مصاب بجنون العظمة ومن ثم لا يمكن بالتأكيد أن يكون شخصاً حكيماً (راجع الفقرة المستقاه من زينوفون) .

من الواضح أن السؤال " من الذى يجب أن يحكم ؟ " سؤال تمت صياغته بطريقة خاطئة ، ومع هذا ما زال هذا السؤال يوضع على هذا النحو ويتم الإجابة عليه بطريقة مماثلة لإجابة أفلاطون . لقد ظلت الإجابة على هذا السؤال لفترة طويلة : أن القائد الذى يختاره الجنود هو من يجب أن يحكم ، إذ أنه وحده من يمكن أن تكون له القوة للاعتماد عليها ، ثم أضحت الإجابة :

هو الأمير الشرعى الذى اختاره الله ولقد سأل مركزس من الذى يجب ان تكون به السلطه ، السلطه الديكتاتورية ؟ طبقة البروليتاريا أم أصحاب رؤوس الأموال ؟ الإجابة طبقة البروليتاريا الخيرة أو صاحبة الوعى الطبقي ، وليس بالطبع طبقة أصحاب رؤوس الأموال الشريرة أو المغرضة ، أو حتالة القوم فهذه يجب أن يكتفى بسبها (لقد أختفت من بيننا هذه الطبقة المرفوضة) .

لقد اعتاد معظم أصحاب النظريات فى الديمقراطية على الاجابة على السؤال الأفلاطونى " من الذى يجب أن يحكم ؟ " تكمن نظريتهم فى احلال الاجابة : " الشعب المقدس " محل الاجابة " الأمير الشرعى الذى اختاره الله " والتي كان ينظر لها منذ القرون الوسطى على أنها اجابة بديهية ، حيث تم حذف " الذى اختاره الله " Von Gottes Gnaden أو حلت محلها الشعب بإختيار الشعب وكان يقال فى روما : Vox populi vox dei وهو ما يعنى: صوت الشعب هو صوت الله .

قدائماً وأبداً تقابل السؤال الأفلاطونى " من الذى يجب أن يحكم ؟ " ما زال هذا السؤال يلعب دوراً كبيراً فى النظرية السياسية ، فى نظرية الشرعية وبصفة خاصة فى نظرية الديمقراطية . يقال أن الحكومة لها الحق فى الحكم متى كانت حكومة شرعية أى متى كانت حكومة اختارها أغلبية الشعب أو نوابه وفقاً لقواعد الدستور . ولكن لا يجب أن ننسى أن هتلر قد وصل للحكم بطريقة شرعية وأن القانون الذى جعل منه ديكاتوراً قانون أقرته أغلبية برلمانية ، من هنا لم يعد مبدأ الشرعية مبدأ كافياً فهو مجرد إجابة على السؤال الأفلاطونى " من الذى يجب أن يحكم ؟ " لذا يجب أن نغير هذا السؤال نفسه .

لقد رأينا أن مبدأ السيادة هو أيضاً إجابة على السؤال الأفلاطونى أنه مبدأ خطير ، إذ من الممكن لنظام ديكاتورية الأغلبية أن يكون مخيفاً للأقلية . لقد نشرت قبل ٤٤ عاماً كتاباً تحت عنوان " المجتمع المفتوح وأعداؤه "

والذى هو بمثابة اسهامى أثناء الحرب العالمية الثانية . لقد اقترحت فى هذا الكتاب أن نضع السؤال بصورة مختلفة تماماً " كيف يمكننا أن نضع دستوراً للدولة يمكننا من اسقاط الحكومة دون إراقة دماء ؟ " محل سؤال أفلاطون من الذى يجب أن يحكم ؟ .

لا يؤكد سؤالى على طريقة تعيين الحكومة ولكن على إمكانية إسقاطها . إن كلمة " ديمقراطية " والتى تعنى " سيادة الشعب " كلمة للأسف خطيرة، إذ يعرف كل فرد من أفراد الشعب أنه لا يحكم ومن ثم فإنه يشعر أن الديمقراطية مغالطة . هنا يكمن الخطر . أنه لأمر هام جداً أننا قد تعلمنا بالفعل فى المدرسة أن كلمة " ديمقراطية " هى - منذ الديمقراطية الأثينية - الاسم التقليدى لدستور مهمته منع ظهور الديكتاتورية أو الحكم المتسلط ، فالديكتاتورية أو الاستبداد هى أسوأ أشكال أنظمة الحكم مثلما رأينا مرة أخرى فى الصين ، إذ لا يمكن هناك اسقاط الحكم دون إراقة دماء ، بل ولا حتى بإراقة الدماء ، فالحكام الديكتاتوريون هذه الايام شديداً القوة وهو ما رأيناه بالفعل فى محاولة الوقوف ضد هتلر والتى حدثت فى العشرين من شهر يوليو عام ١٩٤٤ .

ولكن كل نظام ديكتاتورى نظام لا أخلاقى ، نظام سيئ ، من الناحية الأخلاقية . هذا هو المبدأ الأساسى الأخلاقى الأول للديمقراطية كشكل للدولة يمكن معه اسقاط الحكومة دون إراقة للدماء . أما النظام الديكتاتورى فنظام شرير من الناحية الأخلاقية ذلك أنه يفرض على المواطنين التعامل مع الشر ولو بالسكوت عنه وذلك ضد معرفتهم وضمائرهم وضد قناعاتهم الأخلاقية ، فهو يعفى المواطنين من مسئولياتهم الإنسانية والتى بدونها لا يكون الإنسان سوى نصف إنسان أو عشر إنسان ، فبكل محاولة تقوم بها لحمل مسئولية الإنسان البشرية فإنها تقوم بمحاولة إنتحار .

من الممكن أن نبين تاريخياً كيف أن الديمقراطية الأثينية ، على الأقل حتى بريكلس Perikles وثيوكيديس لم تكن ديمقراطية سيادة الشعب بل

كانت بالأحرى محاولة لمنع النظام الاستبدادي بأى ثمن . لقد كان الثمر غائب ، بل وربما غاليا جدا وهو الثمن الذى لم يتم إلغاؤه إلا بعد أقل من مائة عام ، كان الثمر هو النفى الذى غالبا ما أسين فهمه والذى مر خلاله من الممكن بل ويجب نفى كل مواطن كان يعد محبوبا أو مشهورا ، ومن ثم فقد تم نفى رجال الدولة الذين شهد لهم بالكفاءة والأمانة مثل أرسطيدس Aristides ومثل ثمستوكلس Themistokles ، ولا معنى للقول أن أرسطيدس تم نفيه لأنه وقف فى طريق ثمستوكلس أو لأن اللقب الذى اشتهر به - " الأمين " - جعل من مواطنيه حسادا له . الأمر خلاف هذا تماما : يبين اللقب الذى كنى أرسطيدس به أنه كان محبوبا ومشهورا ، ومهمة النفى كانت تنحصر فى عدم السماح لأى ديكتاتور تذيب شهرته بأن يرتفع . لقد كان هذا وحده هو السبب الذى من أجله تم نفيه ونفى ثمستوكلس .

يبدو أن بريكلس نفسه كان واعيا أن الديمقراطية الأثينية لم تكن سيادة الشعب وأنه لا يمكن أن يكون هناك ما يسمى بسيادة الشعب ، إذ أنه قد قال فى خطبته الكبرى والتي يمكن أن نقرأها لدى ثيوكديدوس ، " رغم أن قلة قليلة هى من يمكنها وضع سياسة ما ، إلا أننا جميعا يمكننا أن نصدر حكما عليها " وهو ما يعنى : لا يمكننا جميعا أن نمارس الحكم والادارة ولكن يمكننا جميعا أن (نحاسب) الحكومة ونكون منها بمثابة المحلفين .

هذا يشبه تماما - من وجهة نظرى - يوم الانتخاب ، ليس اليوم الذى تنال فيه الحكومة الجديدة شرعيتها ولكن اليوم الذى نحاسب فيه الحكومة القديمة ، اليوم الذى يجب أن نحاسب فيه الحكومة نفسها .

أريد الآن أن أبين بإختصار شديد أن للاختلاف الذى أؤكد عليه هنا - الاختلاف بين الديمقراطية من حيث أنها سيادة الشعب والديمقراطية من حيث أنها محكمة الشعب - نتائج عملية .

ليس الاختلاف مجرد اختلاف لفظى . يتضح هذا جليا من أن فكرة سيادة الشعب تؤدي الى تأييد فكرة تمثيل نسبي للشعب ، إذ يجب أن يكون لكل فريق

يحمل مجموعة من الأفكار المشتركة ، لكل حزب ، بل والأحزاب الصغيرة ممثلون بحيث تصبح عملية تمثيل الشعب مرآة له وتتحقق على هذا النحو بقدر الامكان فكرة حكومة الشعب . بل ولقد قرأت الاقتراح المخيف والذي يذهب الى ضرورة أن يصوت كل مواطن وكل مواطنة على كل نقطة يناقشها ممثلو الشعب أمام شاشة التليفزيون وذلك بالضغط على زر كهربى . كما قيل بالإضافة الى ذلك أنه من وجهة نظر الديمقراطية من حيث أنها حكومة الشعب يجب الترحيب بحق المواطنين فى الاقتراح .

يبدو الأمر مختلفاً تماماً من وجهة النظر - التى أذاع عنها - للديمقراطية أى من حيث أنها محكمة الشعب . أرى فى العدد الكير للأحزاب ومن ثم فى حق التمثيل النسبى Proporzwahlrecht نكبة ، إذ يؤدى العدد الكبير للأحزاب الى حكومات إنتلافية حيث لا يحمل أحد بعينه المسئولية أمام الشعب من حيث أنه المحكمة ما دام كل شئ هو حل وسط أو إتفاق لا يمكن تجنبه ، كما أنه لن يكون من المؤكد ما إذا كان من الممكن إسقاط حكومة ما، إذ لن تحتاج الحكومة عندئذ سوى إلى إيجاد حليف جديد تألف معه لكى يمكنها أن تستمر فى الحكم . أما اذا كان عدد الأحزاب صغيراً ، عندئذ ستكون الحكومات هى بالأحرى حكومات أغلبية وستكون مسئوليتها مسئولية واضحة وجلية . ولا أرى معنى فى محاولة أن نجعل آراء الشعب تمثل نسبة التمثيل الشعبى دون أن يكون الأمر كذلك أيضاً فى الحكومة . هذا يؤدى الى عدم مسئولية الحكومة لأن المرآة لا يمكنها أن تكون مسئولة فى مواجهة أصلها .

ولكن ربما كان أقوى اعتراض ضد نظرية سيادة الشعب هو أنها أيديولوجيا غير معقولة ، ومن ثم تشجع على الخرافات . تشجع على الاعتقاد المسبق المطلق والنسبى بأن الشعب (أو الأغلبية) لا يمكن ألا يكون الحق معه ولا يمكنه أن يرتكب الظلم . هذه الأيديولوجيا أيديولوجيا لا أخلاقية ويجب نبذها . لقد عرفنا من ثيوكيديدس أن الديمقراطية الأثينية (التى

أعجب بجوانب كثيرة منها) هي الأخرى قد اتخذت قرارات أثمة . فلقد قامت بغزو (وإن لم يكن هذا بدون إنذار) الجزيرة المحايدة ميلوس Melos، وقتلت كل رجالها وباعت كل النساء والأطفال في أكبر أسواق العبيد . هذا هو ما استطاعت الديمقراطية الأثينية أن تفعله .

وكذلك استطاع البرلمان الألماني لجمهورية فايمار der Weimarer Republik والذي اختير إختياراً حراً أن يجعل من هتلر - بطريقة شرعية عن طريق قانون التفويض - ديكتاتورا . ورغم أن هتلر لم يغز أبداً في ألمانيا باختيار حر ، فإنه حقق في النمسا فوزاً كبيراً في الانتخابات بعد ضمها لها بالقوة .

نحن جميعاً عرضة للخطأ وكذلك الشعب أو كل مجموعة أخرى من الناس . وإذا كنت أريد فكرة إمكانية إسقاط الشعب للحكومة فما ذلك إلا لأنى لا أجد طريقة أفضل لتجنب الحكم الاستبدادى ، والديمقراطية من حيث هي محكمة الشعب أقرب الى أن تكون خالية من الخطأ ، ينطبق عليها قول ونستون تشرشل حيث يقول متهمكاً : "الديمقراطية هي أسوأ شكل من أشكال الحكومات" .

يمكننى تلخيص ما فصلت فيه القول فى هذه النقطة على النحو التالى، ليس التمييز بين فكرتى الديمقراطية من حيث أنها سيادة الشعب والديمقراطية من حيث أنها محكمة الشعب - أو من حيث أنها أداة لتجنب حكومة لا يمكننا إسقاطها ، أى حكومة مستبدة - تمييزاً لفظياً - إذ لهذا التمييز نتائج عملية هامة . هذا التمييز تمييز مناسب أيضاً لسويسرا . ومع هذا نجد فى الدروس التى تلقى فى المدارس الابتدائية والثانوية - بقدر ما أعرف - غالباً دفاعاً عن النظرية الأيديولوجية والفاسدة لسيادة الشعب بدلاً من نظرية منع ظهور النظام الديكتاتورى الذى لا يمكن تحمله من الناحية الأخلاقية وهى النظرية الأكثر واقعية والأكثر تواضعاً .

من هنا أريد أن أعود الى حيث بدأت . المستقبل مفتوح الى حد بعيد،

يمكننا التأثير فيه . لذا فالمسئولية تقوم على عاتقنا ونحن لا نعزف شيئا . ما الذى يجب أن نفعله لكى تساعد ؟ هل يمكننا فعل شئ لمنع الحوادث الطبيعية كالتى تحدث مثلا فى الشرق الأقصى ؟ أعنى القومية والتمييز العنصرى ، وضحايا بول بوت Pol Pot فى كامبوديا ، وضحايا آيات الله فى إيران ، وضحايا الروس فى أفغانستان ، ثم الضحايا الجدد فى الصين ؟ ما الذى يمكننا فعله لمنع هذه الحوادث التى لا يمكن فهمها ؟ هل يمكننا بصفة عامة أن نفعل شيئا ، أو نمنع حدوث شئ ؟ .

أجيب على هذا السؤال بلعم ، يمكننا أن نفعل الكثير والكثير . وعندما أقول " نحن " فإبنى أعنى المفكرين ، أى هؤلاء الذين تشغلهم الأفكار ، أى بصفة خاصة هؤلاء الذين يقرأون وربما أيضا يكتبون . لماذا أعتقد أننا - المفكرين - يمكننا أن تساعد ؟

ذلك ببساطة لأننا - المفكرين - قد أحدثنا منذ آلاف السنين اضطراباً فظيعة .. ألم يكن القتل الجماعى باسم الدفاع عن فكرة ، عن مذهب أو نظرية من عملنا ومن اختراعنا ، من إختراع المفكرين ؟ ألن "الحقيقة" عن تجريض الناس وإثاوتهم ضد بعضهم البعض - بأروع الأراء - فقط من أجل كسب الكثير ؟ لا يستطيع أحد أن يقول أن هيا غير ممكن :

يقول أكثر النواهي العشر أهمية : لا تقتل . فى هذا الأمر أو النهى تكمن الأخلاق بأسرها ، فليست فلسفة شوبنهاور فى الأخلاق على نميل المثال سوى تفصيل لهذا النص الهام : إن فلسفة شوبنهاور الأخلاقية فلسفة بسيطة ، مباشرة ووضاحة . يقول : لا تتضرر بأحد ولا تؤذ أحداً ولكن تساعد الكل بقدر ما تستطيع .

ولكن ما الذى حدث عندما هبط موسى (عليه السلام) لأول مرة من جبل سيناء يحمل اللوح الحجرى وذلك قبل أن يعلن النواهي العشر ؟ لقد اكتشف كفراً وزندقة تستحق القتل ، عبادة العجل الذهبى . هنا تسمى موسى النهى " لا تقتل ! " ونادى قائلاً :

تعالوا الى ، يا من تنتمون الى الله .. هكذا يقول الله ، إله اسرائيل : ليضع كل منكم سيفه في جنبه وليقتل أخاه وصديقه وجاره . ويومها سقط حوالي ثلاثة آلاف من البشر .

كانت هذه هي البداية ولكن من المؤكد أنه استمر في الأرض المقدسة (فلسطين) وفيما بعد هنا في الغرب ، هنا بصفة خاصة بعد أن أصبحت المسيحية هي ديانة الدولة . أنه تاريخ فظيع من الاضطهادات الدينية ، اضطهادات لصالح المذهب الأرثوذكسي . ثم ظهرت بعد ذلك - وبصفة خاصة في القرنين السابع والثامن عشر - أسس إعتقاد أخرى لتبرير الاضطهاد والعنف والإرهاب ، مثل القومية والتمييز العنصري والطبقي ، ثم الإلحاد الديني أو الكفر السياسي .

في فكرة المذهب الأرثوذكسي والالحاد تكمن أصغر الأثام ، الأثام التي لدينا نحن المفكرين بصفة خاصة استعداداً لإرتكابها مثل التكبر والخطيئة ، والمجادلة ، إدعاء المعرفة دون الغير بكل شيء ثم الاعجاب بالنفس . تلك آثام بسيطة تافهة وليست كبيرة مثل القسوة والوحشية . لا يعني هذا أن القسوة والوحشية ليست معروفة بيننا نحن المفكرين ، فلقد مارسنا شيئاً منها ، إذ يكفي أن نذكر الأطباء النازيين الذين قتلوا العجائز والمرضى وذلك قبل أقران القتل الجماعي أو قبل ما يسمى بالحل النهائي للمسألة اليهودية بأعوام .

إن المفكرين هم دائماً من ارتكبوا ويرتكبون أفظع الأمور بسبب الخوف والجبن ، الوهم والتصور ثم الطموح والولع بالتفوق . فنحن المفكرون - من علينا واجب خاص تجاه غير المتعلمين خونة للعقل - كما أسمانا المفكر الفرنسي الكبير جولييان بندا Julien Benda^(١) لقد اخترعنا القومية وقمنا بالدعاية لها كما بين بندا ، فلقد شاركنا جميعاً في الموضنات البلياء . نحن

(١) جولييان بندا - روائي وفيلسوف فرنسي ولد ١٨٧٦ وتوفي ١٩٥٦. تزعم الحركة المناهضة للإتجاه الرومانسي في النقد ، كما دافع عن العقل في مواجهة الإتجاه الحدسي لهنري برجسون .

نريد أن نلفت الأنظار إلينا ، وننتحدث بلغة غير مفهومة ولكنها لغة معبرة ، علمية وفنية والتي أخذناها عن اساتذتنا الهيجليين وتربطهم معا . هذا هو التلوث اللغوي ، تلوث اللغة الالمانية التي نتناقش معا بها . هذا هو التلوث اللغوي الذى جعل من غير الممكن أن نتحدث نحن المنكرون مع أنفسنا حديثاً مفهوماً عاقلاً وأن نبرهن على أننا غالباً ما نتحدث حديثاً لا معنى له وأنها نقوم بالصيد فى الماء العكر .

أن المساوى التى ارتكبتها فى الماضى مساوى فظيعة . ألم نصبح بعد ذلك - منذ أن أصبحنا أحراراً أن نقول ونكتب كل شئ - مسئولين ؟ .

لقد كتبت ذات مرة عن يوتوبيا أفلاطون قائلاً أن هؤلاء الذين أرادوا تشييد سماء فوق الأرض لم يشيدوا فى الحقيقة سوى جحيم . ولكن الكثير من المفكرين تحمسوا كثيراً لجحيم هتلر . فلقد اكتشف الباحث النفساني السويسري المشهور كارل جوستاف يونج Carl Gustav Jung فى جحيم هتلر إنتعاشاً وازدهاراً جديداً للروح الالمانية . ولم يكن يونج فى حاجة الى الخوف إذ كان يعيش فى سويسرا ، ولكنه نسي ما كتبه بعد وفاة هتلر وكتب عن الشر المتأصل فى طبيعة الروح الالمانية .

فقد أسس ونستون تشرشل وفرانكلين روزفلت بميثاق الأطلنطى عالماً جديداً وضع اساسه الطيارون الشباب أثناء معركة بريطانيا ١٩٤٠-١٩٤١ والذين ضحوا من أجلنا . ومنذ الإنتصار الذى تحقق على هتلر بدلاً من الاكتواء بناره عاشت أوروبا الغربية فى سماء السلام الأوربي وفى أفضل وأكثر عالم إتصف بالعدل عرفناه تاريخياً . ولو كان ستالين قد شارك معنا عسكرياً لما كان لدينا الآن - من خلال الأمم المتحدة - مجرد سلام فى أوروبا وشمال الأطلنطى ولكن كان لدينا سلاماً عالمياً ولأصبح مشروع مارشال الأمريكى مشروعاً عالمياً .

ولكن ما إن تحقق الرخاء وسارت الأمور على خير ما يرام فى الغرب حتى انطلقت صرخات وصيحات المنكرين يسبون زماننا الشرير ، مجتمعاتنا

وحضارتنا وبيئتنا . وبدأ الحديث بصورة مبالغه عن الدمار والخراب والتلوث المزعوم بأننا أحدثاء بحثاً عن الكسب والذي سيقضى تماماً وبأسرع وقت ممكن على البقية الباقية من عالمنا الجميل . الحقيقة أن الحياة بأسرها معرضة دائماً لخطر الزوال ، فنحن جميعاً - فيما اعتقد - سنموت حتماً إن عاجلاً أو آجلاً . إن خطر زوالنا كامن دائماً وأبداً منذ نشأة الحياة ولا يستثنى من ذلك أيضاً زوال بيئتنا .

لقد أصبحنا - بفضل العلم الطبيعي ، التكنولوجيا والصناعة - ولأول مرة منذ خلق المجموعة الشمسية - في وضع يمكننا معه أن نفعل شيئاً لخدمة البيئة وهو ما فيه يبذل سائر علماء الطبيعة جهودهم ، ومع هذا فهم جميعاً متهمون بتدمير الطبيعة . ولكن في نفس الوقت قد تم بالفعل ومنذ زمن طويل وفي هدوء تام انقاذ بحيرة زيورخ الرائعة وبحيرة متشيجن الضخمة . لقد كان انقاذ الحياة في هذه البحار عملاً اشترك فيه كل من العلم والصناعة والتكنولوجيا . لقد كان هذا هو أول انجاز في تاريخ المجموعة الشمسية منذ خلق الحياة .

ليست مسألة ادارة العالم مسألة سهلة ، إذ يؤثر كل نوع حيواني وكل نوع نباتي ، بل وكل نوع من أنواع البكتريا في بيئة الأنواع الأخرى . وربما كان تأثيرنا نحن أكبر ، إلا أنه من الممكن دائماً أن يقضى فيروس جديد ، أو وباء فيروسي جديد بل ووباء بكتريي جديد على الانسانية كلها في زمن قصير .

ليس من السهل إخضاع الطبيعة بأسرها لسيطرتنا ، وليست الديمقراطية مسألة سهلة ، فكما ذكرت من قبل لقد قال تشرشل أن الديمقراطية هي أسوأ أشكال الحكومات . أريد هنا أن أضيف ما لم يقله تشرشل بوضوح : الديمقراطية هي أكثر شكل من أشكال الحكومات صعوبة وإثارة للقلق ، إذ أنها تهدد الحكومات باستمرار بخطر اسقاطها . يجب أن تجعلنا الديمقراطية مسئولين أمام أنفسنا . هذا أمر حسن تماماً ولكنها على هذا النحو تجعل عملها

عملاً صعباً . فنحن لها بمتابة المحققون ولكن يكمن الخطر فى أن يضللنا ما يعرف باللادين العام الذى يجد من يعتقد فيه ، فروح الزمان وهى فكرة هيجل الخطيرة ، والايديولوجيات التى تسود لفترة لتأتى غيرها والتى غالباً ما كانت ايديولوجيات بلهاء وكانت دائماً تعتبر ما هو خطأ صواباً حتى وان كانت الحقيقة واضحة تماماً أمام أعيننا ، هذه جميعاً تضللنا وتجعلنا نعتبرها قضايا ومحلقينا .

لقد تعلم هتلر - مثلاً تعلمت - على يد اساتذة متحمسين كانوا يعتقدون وبشدة أن الجوهر الالمانى سيشفى العالم بأسره وأن " ألمانيا ، المانيا فوق الكل ، فوق الكل فى العالم " . لقد كان أدولف يعتقد هذا ، مثله فى ذلك مثل عدد كبير من الشباب الفقراء ، ومع ملايين غيره من الشباب البواسل الذين لقوا حتفهم فى الحرب العالمية الثانية من أجل السيطرة على أوروبا ، لقد مات معهم ملايين آخرين من الشباب البواسل ولكن من الطرف الآخر من الاعداء الذين كانوا يحاربون وبصدق أيضاً من أجل الحرية والسلام مثلهم فى ذلك مثل شباب ألمانيا الذى حارب من أجل المانيا العظمى المسيطرة على أوروبا ومن أجل القيصر ، من أجل سيد الحرب الأعظم وقائدها .

ولكننا اليوم يمكننا بل ويجب أن نرى الحقيقة . لقد كانت الايديولوجيات الالمانية وهما كما بين مؤرخ المانى كبير شجاع (أعنى به الأستاذ فرتز فيشر) أو بشكل أوضح : لقد كانت ايديولوجيات كاذبة . لقد كانت الايديولوجيات الغربية - رغم كل سخريه منها ورغم سوء استخدامها الذى غالباً ما كان باطلاً - هى الحقيقة . لقد حارب الغرب من أجل السلام واستطاعوا تحقيقه فى أوروبا وهو ما كان قلقاً مضطرباً منذ بداية تاريخ الحرب البشرية ولكن الغرب استطاعوا تحقيقه تقريباً فى كل مكان .

غير أن المفكرين غير المسئولين لم يستطيعوا أن يرون فى غرب أوروبا سوى الشر . لقد أسسوا دنيا جديدة لا يرى فى عالمنا سوى ظلم وأن هذا العالم سيغرب لا محالة . لقد تعلموا هذا الدين منذ ظهور كتاب أوزوالد

شبنجلر Oswald Spengler - أقول الغرب - لأن كلا منهم أراد أن يكون مفكراً أصيلاً وارادوا أن يقولون أشياء تبدو للعين على النقيض تماماً ولقد نجحوا ليس فقط في قلب ما تراه العين ولكن أيضاً في تزييف الحقيقة الموضوعية .

ولكني لا أريد أن اتهم المفكرين أكثر من هذا . أريد أن أطلب منهم أن يدركوا مسئوليتهم تجاه البشرية والحقيقة ، فالحرية تسمح لهم أن يقولون كل شيء بل وأن يسبون العالم الحر وأن يصفونه بأنه عالم شرير .

هذا هو حقهم المشروع . ولكن هذا كذب وليس من الأخلاق أن نعلن الكذب حتى وإن كان هذا حقاً مشروعاً لنا . ليس فقط لا أخلاقياً ولكنه أيضاً من قبيل إنعدام المسئولية أن تعرض الأهداف العظيمة التي حققها تشرشل وروزفلت زعيماء الحرب ومشروع مارشال للخطر وأن نقلل من شأن هذه الأهداف ونجعل الخير يبدو وكأنه شرير .

أريد أن أذكر بأن الروس أيضاً قد بدأوا يعترفون بعالمنا ويسلامنا وبهذا يمكن أن تتسع رقعة السلام وأن يمتد إلى ما كنا نعتبره غير ممكن ومن قبيل اليوتوبيا . إن واجبنا أن نجند كل طاقاتنا لكي نضمن ألا يحيقها ولا يقصر منها الحديث الكاذب عن الجنة والنار .

والآن أصل إلى الجزء الأخير .

بداية أخص ما سبق مرة أخرى . نحن في الغرب نعيش في السماء ، في السماء الأولى بالطبع وليس في السماء السابعة بعد . سماؤنا يمكن جعلها سماء أفضل ، لا يجب أن نسب عالمنا ونظهره كعالم يسيئ أكثر من هذا فهو أفضل عالم وجد على الأرض أو بصفة خاصة في أوروبا . الحقيقة أننا لسنا راضين عن الانتجازات التي تحققت حتى الآن وبشكل غير موجود كما هو الآن في الولايات المتحدة . نحن بشر ذوو إرادات خيرة ومحبو للتضحية وهو ما أظهره جنود المقدمة في الطرفين . لقد تحققت على هذا النحو أهم الشروط الواجب توافرها لتحقيق السلام على الأرض ، ولكن هناك شرطاً ضرورياً

وهو أن يشترك معنا الروس ، فإذا اشتركوا معنا ، فربما يتحقق حلم تشرشل وروزفلت ليس فقط في أوروبا ولكن في العالم بأسره .

ولكن يبدو - وذلك لأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية - وكار الروس يريدون أن يشترك معنا ، اذ يقول ساخروف Sacharow - الشجاع والعظيم ولكن - وحده - لا يجب أن نشق في هذا المسيطر بشكل زائد " جورباتشوف " Gorbachow . ويقول أيضاً ، يبدو أن الاتحاد السوفيتي قد أوشك على الانحلال ولكننا لا نريد هذا الانحلال ، إذ سيرتبط هذا الانحلال في الاتحاد السوفيتي بمعاناة كبيرة وبمخاطر هائلة ضد السلام ، بل قد يؤدي هذا الانحلال الى ديكتاتورية عسكرية ، ديكتاتورية الجيش والبحرية والطيران وعندئذ سيتم القضاء على كل أمل في السلام .

ولقد حل جورج سوروس George Soros - الذي يعرف روسيا جيداً وإن لم يكن بنفس قدر معرفة ساخروف بها - كل هذه المخاطر في مقالة هامة صدرت في دورية New York Review of Books . ولكنه يعتقد أن روسيا تتشد وبإخلاص العمل مع الغرب . فالروس يعرفون أفضل منا أين الجنة وأين الجحيم .

ولكن لكي نجعل هذا العمل المشترك مع الروس ممكناً يجب علينا أولاً أن نقر بما حققناه وما يمكن تحقيقه في إطار الحرية . عندئذ فقط يمكن أن نسأل كيف حققنا ما حققناه ويمكننا أن نقدم للروس مساعدتنا متى كانوا على استعداد لتخفيض قدرتهم العسكرية ولكن بحذر بالغ .

هذه جميعاً أمور ممكنة التحقيق . فهي تقتضي منا نحن المفكرون أن نرى الحقيقة الموضوعية وألا نخلط دائماً - كما كان يحدث في الماضي - بين الجنة وبين الجحيم .

يجب أن نعرف أننا لا نعرف شيئاً أو أننا تقريباً لا نعرف شيئاً وكذلك جوزباتشوف . ولكي نقتررب خطوة من السلام يجب علينا أن نتخلي عن الايديولوجيات وبصفة خاصة عن أيديولوجيا نزع السلاح من جانب واحد

والتي تشكل خطراً على السلام . يجب أن نتحسس طريقنا جيداً قبل أن
نخطو - تماماً مثلما تفعل الصراصير - محاولين الوصول الى الصدق بكل
تواضع . كفانا تمثيلاً لدور الأنبياء العالمين ببواطن الأمور وهو ما يعني :
يجب أن نغير أنفسنا .

المقالة الثانية عشر
الحياة بأسرها حلول لمشاكل

**Alles Leben ist
Problemlösen**

محاضرة ألقيت في باد هومبرج Bad Hamburg عام ١٩٩١

يكاد عمري أن يقترب من عمر السيارة . نعم لست من عمر اختراع السيارة والذي حدث عام ١٨٨٦ ولكنى على أية حال قد ولدت قبل أن يقتسى القيصر فيلهلم الثانى Kaiser Wilhelm II والذي أذكره جيداً سيارته الأولى بعام .

أول مرة أستقل فيها سيارة كانت لزيارة لقصر التتبرج Auenberg فى جريفنشتين على نهر الدوناو كانت السيارة مرسيدس تخص صاحب القصر الذى كان صديقاً لوالدى . حتى ذلك الحين كنا نغزو ونروح داخل عربة يجرها أربعة من الخيل ولكنى ذهبت هذه المرة - كما قيل لى - بسيارة مرسيدس وهى أفضل سيارة صنعتها ألمانيا . كانت هذه السيارة التى أمتطيها هى أول موديل صنعته الشركة وقد قدمت الى النمسا .

أما أول سيارة اشتريتها - وقد اشتريتها مستعملة - فقد كان ذلك فى لندن عام ١٩٣٦ ، وقور شرائى لها سافرت بها الى كمبردج ، وعندما صنعت السيارة من الناحية اليمنى بالطبع لا حظت أن العجلة الخلفية بالأكس الخاص بها ليست أسفل جسم السيارة ولكنها خارج نطاق السيارة . ولقد أثرت هذه الدهشة وكثيراً فى ذاكرتى . لقد كانت هذه السيارة من نوع " ستانورد " سيارة مخصصة للسباقات وقد اختلت من فترة طويلة . تشكل هذه الذكريات بعض محاسن الشيخوخة التى ولت الى الأبد ، ومن محاسنها أيضاً أتى أرى عالماً والناس التى تعيش فيه - وذلك على عكس ما يراه معاصرى الشباب - على قدر كبير من الروعة . ورغم أنى أعرف بالطبع أن هناك أموراً سيئة كثيرة فأتى كذلك أعرف أن عالماً هو أفضل عالم وجد على مر التاريخ . وعندما أقول ذلك فإن مستمعى عادة ما يعتبرون هذا من قبيل هذيان الشيخوخة . قد يصدق هذا ولكنى على استعداد فى هذه المناقشة أن أدافع عن وجهة نظرى هذه ضد كل شخص وكذلك عن وجهة النظر القائلة بأن الصراخ والصياح ضد هذا العالم الشرير - وهو ما يمكن أن نطلق عليه الدين السائد فى زماننا هذا - يتناقض مع الوقائع . تكمن فكرتى الأساسية

ليس فقط في أن أمورنا الاقتصادية تسير دائما بشكل أفضل ولكن أننا أيضا أفضل مما قبل من الناحية الأخلاقية . أنا على استعداد لقبول شيء واحد فقط : أننا أكثر بلاهة مما قبل وأننا نقف في مواجهة ما نعتبر أنه حديث موقفا لا نقدياً ، ولكن هذا لا يخص أحداً ولم يعتقد أحد .

قد يكمن السبب في الأخطاء المرعبة التي نرتكبها كمربين . وما دامت التربية تتدرج ضمن الأساليب الفنية الحديثة فإن هذه الأخطاء أخطاء فنية . أن أسوأ شيء هو أننا لا نتعلم من هذه الأخطاء . وهنا أصل الى مربط الفرس . يشكل تصحيح الخطأ أهم منهج من مناهج التكنولوجيا والتعليم بصفة عامة ، وهو المنهج الذي يبدو أنه منهج التقدم الوحيد في التطور البيولوجي . نتحدث وبصدق عن المنهج ، منهج المحاولة والخطأ ولكننا بهذا نستهيئ بالخطأ أو بالمحاولة الخاطئة .

أن التطور البيولوجي خطأ تام وتصحيح الخطأ يأتي بطيئاً لذا يجب أن نعتذر عن أخطائنا الكثيرة التي نحاكى بها محبوبتنا - الطبيعة الخضراء - وأننا عادة ما نحاول تصحيح أخطائنا هذه بأسرع مما تفعله الطبيعة الخضراء . ومن ثم فإن بعضنا يحاول التعلم بشكل واع من أخطائه ، وهو ما يفعله سائر العلماء وعلماء التكنولوجيا والقيون ، أو اذا لم يكونوا يفعلون ذلك فعليهم أن يفعلوا ، إذ هنا تماماً تكمن خاصيتهم الوظيفية .

لقد أنتجت الحياة - أي الكيانات العضوية - بدءاً بالكيانات ذات الخلية الواحدة - اختراعات مبهرة . هذه الاختراعات الجديدة أو التغييرات المفاجئة بالأحرى محاولات سيئة خاطئة أكثر منها محاولات جيدة ومن ثم فإنها تستبعد . يمكننا أن نعترف بخطأ الكثير من أفكارنا حتى قبل أن ننفذها بجدية ، كما يتم استبعاد أفكار أخرى من خلال النقد قبل أن تصل هذه الأفكار الى عملية الإنتاج . في النقد الواعي ، في النقد الذاتي وفي النقد الصديق والمعادى الذي يقوم به زملاؤنا والمحايدون فإنه يبدو أننا في ذلك نتفوق شيئاً ما على الطبيعة . أما في منهج المحاولة والخطأ ، في تجربة الاختيار النقدي

فلقد تفوقت علينا طبيعته كثيراً حتى الآن . ولقد ضاعت مجهوداتنا حتى الآن
سدى في محاولة تقليد الطبيعة فيما يتعلق على سبيل المثال بعملية تحويل
الطاقة الشمسية الى طاقة كيميائية وذلك في صورة يمكن معها تخزينها
بسهولة وإن كان نجاحنا وارداً جداً في القريب العاجل .

الحياة بأسرها حلول لمشاكل . سائر الكائنات العضوية مخترعون أو
فنيون ، ناجحون أو أقل نجاحاً في حل المشكلات الفنية . هكذا الأمر بالنسبة
للحيوانات كالعنكبوت على سبيل المثال . التكنيك الاتساعى يحل مشكلات
إنسانية ، كالمجارى والحصول على المياه والمواد الغذائية وتخزينها كما يفعل
النحل على سبيل المثال .

لذا فمن الخطأ أن نقاوم تكنيك الطبيعة ، إذ أنها مقاومة ضد الحياة وهو
ما لم تلاحظه الطبيعة للأسف . ولكن نقد التكنيك ليس خطأ بطبيعة الحال
ولكنه ضرورى ضرورة حتمية ، من هنا فإن كل شخص قادر ومرحب به .
ومادام النقد من إختصاص الفنيين وظيفياً ، فإنه ما ينشغل به دائماً الفنيون
بصفة خاصة .

ومع هذا فإن هناك أحيانا البعض الذين يرون المشكلات أولاً ، من هنا
قد يحدث أن يسعى مخترع وبصدق الى تطبيق اختراعه ولكنه قد يغفل -
في سعيه هذا - أن تطبيق اختراعه قد يؤدي الى نتائج ضارة . ولقد حدث أن
تم إيجاد اختراعات ناجحة جداً ضد البعوض وضد حشرات أخرى ولكن
كانت نتائج تطبيقها نتائج ضارة بالغير إذ أدت الى موت الطيور المفردة
جوعاً ، وهو ما أعلنته باحثة الطبيعة الأمريكية الجنسية ريتشل كارسون
Rachel Carson (فى كتابها الرائع : الربيع الصامت Silent Spring) ،
ولقد أثار هذا الكتاب موجة من الاستياء فى أمريكا بصفة خاصة ثم فى ألمانيا
وهو ما أدى الى إيجاد حركة سياسية ضد التكنولوجيا وضد العلم (وضد
أمريكا) والى تأسيس حزب الخضرة .

أن ينبه المرء لأخطار لم نلاحظها جيداً ، فإن هذا أمر هام ، وأن يبالغ المرء

فى هذه الاخطاء ، فانه أمر مفهوم بل وضرورى ، لكى يتم الانتباه اليها أما أن يهاجم المرء العلم والهندسة ككل رغم أننا لا يمكن أن نصلح من أخطائنا إلا عن طريقه ، فإن هذا ليس فقط من قبيل البلاهة ولكنه أيضاً نقص احساس وإنعدام للمسئولية .

أن يندفع البعض - انطلاقاً من نقص احساسهم - الى الزعم بأننا على شفا هاوية وأننا لهذا فى حاجة الى ديكتاتور لكى ينقذنا ، فإن هذا أمر رائع (١) خاصة وأن هتلر ما زال حياً فى فكرنا .

نعم يصدق تماماً أن بعض المشكلات كمشكلة تلوث الهواء فى حاجة الى وضع قوانين خاصة وما زال هناك من يقدر ما يعرف " بالسوق الحرة " تقدساً أيديولوجياً والتي ندين لها بالطبع كثيراً . يعتقد هؤلاء أن وضع هذه القوانين التى تحد من حرية السوق الحرة يشكل خطوة خطيرة تؤدى الى الرق والعبودية .

مرة أخرى فإن هذا نسخف أيديولوجى . ولقد بينت بالفعل فى كتابى الذى صدر باللغة الانجليزية منذ ٤٩ عاما " المجتمع المفتوح وأعداؤه " أن السوق الحرة يمكن أن توجد فقط من خلال نظام قانونى تضعه وتضمنه الدولة . هذا النظام القانونى هو ما من خلاله تم على سبيل المثال منع وجود جيوش مسلحة للأحزاب وهو ما تضمن تقييد التجارة الحرة للسلاح ، أى تقييد السوق الحرة والحرية الفردية . ولكن من الواضح أن تقييد الدولة يفضل على تقييد رؤساء الجماعات ، والذى يمكن أن نتوقعه متى فشل تقييد الدولة .

وتماماً مثلما قيدنا سوق السلاح لصالح الحرية العامة لمواطنى الدولة، يجب أيضاً أن نقيّد صيد الحيوانات البرية . إن حدود كل حرية هى دائماً (مثار خلاف) ومسألة خبرة كما يجب أن تمنع القوانين استخدام الغازات السامة فى عملية الانتاج ، كما أن الحدود بين الغازات السامة وصور تلوث

(١) " زائع " ترجمة للصفة Toll كما وضعها المؤلف . من الواضح أن بوبر هنا يسخر باستخدامه هذه الصفة (المرتجم) .

الهواء الذي يصدر عن السيارات حدود مثيرة للخلاف وغير محددة ، إذ أنها تعتمد ضمن ما تعتمد عليه - على كثافة المرور .

على كل يجب علينا أن نحل محل المبدأ الأيديولوجي للسوق الحرة مبدأ آخر وهو مبدأ تقييد الحرية فقط متى كان هذا ضرورياً ضرورة ملحة ، مما يعنى أن الآراء فى حالات كثيرة لن تتفق فيما يتعلق بأين تكمن حدود الضرورة .

هذا موقف يحدث دائماً متى لعبت الحرية دوراً ما . من هنا فهو لا يظهر فقط مع مشكلات الصناعات الثقيلة أو مشكلات البيئة فقط ، كما أنه ليس صفة مميزة لها .

لسانر تعاملاتنا فى الحقيقة نتائج غير مرغوبة ، بعضها كان من الممكن رؤيته من قبل لو بذلنا جهداً أو مالاً ، أما بعضها الآخر فلم يكن من الممكن التنبؤ به .

مثال على ذلك أن أوتو هانز Otto Hans وفرتز شتراسمان Fritz Strabmann بينما كانا يوديان التجربة التى أدت - كما ذكرنا فيما بعد - الى الإشطار النووي ، لم يستطعا التنبؤ بنتائج هذه التجربة . لم يتوقعا شيئاً كهذا ولم يخطر ببالهما أن يقوموا بتفسير هذه النتيجة غير المفهومة لهما .

لقد كان تفسير هذه النتيجة فكرة جديدة تماماً ، قدمتها زميلة " هانز " فى العمل والتى تركته فيما بعد " ليز مايتنر Lise Meitner " ^(١) وابن اختها ، صديقى أوتو روبرت فريش Otto R. Frisch فى مناقشة أثناء رحلة ترحل فى السويد . وما كان من الممكن أن تخطر ببالهما هذه الفكرة الجديدة ما لم يكن العالم التجريبي فريش قد عمل مساعداً للعالم النظرى نيلز بور الذى قص على فريش نظريته الجديدة فى تقطير نواة الذرة Tropfen-theorie des Atomkerns والتى تجعل عملية انقسام نوى الذرة أمراً مفهوماً .

(١) ليز مايتنر Lise Meitner (١٨٧٨ - ١٩٦٨) عالمة الفيزياء الألمانية . وصلت مع أوتوهان وفرتز شتراسمان إلى اكتشاف انشطار اليورانيوم .

لقد لعبت هذه الفكرة الحسية المساعدة والتي تتطوى على كناية
metaphorische دوراً في تقديم التفسير الصحيح لتجربة هان وشراسمان ،
وهو التفسير الذي لم يكن متاحاً لهما مثلما لم تكن نتيجة التجربة متوقعة لهما.
بهذا أصل الى نهاية الجزء الأول من حديثي ألا وهو الوقوف ضد
الهجوم على الأساليب الفنية مع ملاحظة أننا نعم جميعاً نرتكب أخطاء ، ولكن
كل ما يأخذه حزب الخضر على الأساليب الفنية ، إنما يريد تقريباً جميعاً الى
الانفجار السكاني ، وهي المشكلة التي لا يتناولها حزب الخضر كثيراً ربما
لأنها قد تحطم هجومهم على التكنولوجيا إذا كانوا مستعدين لبحث هذه المشكلة
بصورة جدية .

II

ليس الجزء الثاني مخصصاً للدفاع عن بعض المأخذ ولكنه ثناء على
التكنيك أو الأساليب الفنية من حيث أنه عامل من عوامل الثقافة .

أريد من أجل هذا الغرض أن أميز بين فئتين من الاختراعات : فئة
الاختراعات التي ساعدت على نمو صناعة موجودة والى تعد الآلة البخارية
التي اخترعها جيمس وات أفضل مثال لها ، إذ أن استخدامها جعل كثيراً من
الصناعات صناعات ثقيلة . يمكن أن نعد مثل هذه الاختراعات من الوسائل
المحسنة للإنتاج

تتدرج ضمن الفئة الثانية الاختراعات الثقافية العظيمة جداً والتي بدأت
مع اختراع اللغة البشرية مثل الخطوط المختلفة ، والكتاب المكتوب ، ونشأة
أول سوق للكتب في أثينا (حوالي سنة ٥٠٠ ق . م) ثم طبع الكتاب وآلة
النسخ والآلة الكاتبة فالكومبيوتر .. وهكذا . ما لا يعرفه الكثيرون ويشكل أمراً
مذهلاً أن آلة النسخ (تصوير الورق) تنسب أيضاً لجيمس وات الذي
اخترع الآلة البخارية .

تقوم هذه الآلة على فكرة غاية في البساطة : ربما ما زلتم تتذكرون في
شبابكم ما كان يعرف بالورق النشاف والذي إستغنيانا عنه بالحبر الذي يجف

سريع . لقد كنت فكرة جيمس وات فى جوهرها جمع بين حبر يمكن بله مرة أخرى ورقة نشاف تمنص هذا الحبر . ولكى لا نحتاج للكتابة المقبولة كما تظهر على الورقة النشاف ، فلقد استخدم ورقة نشاف خاصة رقيقة وعريضة امكنها تجفيف الحبر بطريقة يمكن معها قراءتها من الناحية الأخرى للورقة .

إن تاريخ هذا الاختراع الذى يتضمن صنع الورقتين وتركيب الحبر هو ١٧٨٠ . هذا الاختراع الذى يعد اقدم آلة نسخ عرفناها حتى الآن قد تم نسيانه تماما . هذه الآلة ما زالت تعمل ، ورغم أنها لا يمكنها أن تخرج سوى عدد بسيط من النسخ وكانت تمثل اليوم للكتاب شيئاً ذا قيمة كبيرة . وإذا كنت قد عانيت كثيراً من ضوضاء الآلة الكاتبة لكى أعود نفسى على الكتابة عليها، وإذا كنت كثيراً ما أضعت اصولاً كتبتها ، فإنى أعرف أغنية يمكن للكتاب أن ينشدوها عن ضرورة آلة النسخ بالنسبة لهم .

لدينا هنا مثال لإختراع ذى دلالة ذات إمكانات كبرى ، دلالة ثقافية لا تقارن سوى بدلالة طبع الكتاب .

الاختراع الآخر الذى كان لفترة طويلة ذا أهمية ثقافية خالصة هو آلة التصوير الفوتوغرافى . لقد حققت هذه الآلة لزمن طويل وحدها دون غيرها حاجة المرء لصورة شخصية له . لم يحقق هذا الاختراع فقط رغبة الإنسان الشخصية فى البقاء - وهو ما تمثله مومياءات المصريين - ولكنه حقق أيضاً أمنية أن نستطيع تذكر العائلة وسائر الأصدقاء بطريقة مجسدة بقدر الامكان . ولكن الحاجة الشخصية التى حققتها ثورة الاتصالات تعد أكثر أهمية من كل هذا : ثورة جورج ستيفنسون George - Stephenson ثم ثورة هنرى فورد Henry Ford التى تعد أكثر أهمية (أعرف أنه لم يكن هو المخترع ، ولكنه كان فورد الذى قلب أمريكا ومن ثم قلب العالم) .

يمكن القول أن أول قطارات سكة حديد كانت بمثابة عربات بريد تسير بقوة المحرك لأشخاص تحمل أمتعتها ، ولقد ظهرت عربات الأفراد قبل عربات البضائع . لقد حققت قطارات السكك الحديد الحاجة الشخصية إلى

السفر والى رؤية الأقارب والأصدقاء بصفة خاصة . نفس الأمر ينطبق على السيارات وينطبق على سبيل المثال على Modell الثورى الذى قلب الولايات المتحدة الأمريكية بأسرها ولم يحقق للشعب الأمريكى طريقة حياة جديدة فقط ولكنه أقرب الى أن يكون قد أهداها لهم . هذه الثورة كانت ثورة عقلية أدت الى سعة أفق جديدة ووقفة عقلية جديدة ، ثورية كما لو كان الانسان يتوقع منها تغييراً فى طريقة الحياة . لقد كانت فى الحقيقة تحرراً عاماً من الروابط اللا واعية . الرواية التى تلخص هذا التحرر شبه الواعى تسمى الهواء الحر Free Air والتى كتبها سنكلير ليوس S. Lewis .

يعد التحرر الكبير للعبيد والإماء والتى تسمى أيضاً " البنات اللاتى يقمن بالخدمة Dienstmädchen " أكثر أهمية من الناحية الأخلاقية ولقد ساعد على هذا التحرر - بقدر كبير - ميكنة الأجهزة المنزلية .

هذه الثورة الضخمة وهذا التحرر الذى حدث لسائر النساء يكاد اليوم أن يكون منسياً تماماً رغم أنه كان تحرراً من عبودية كانت تمزق نياط القلب . من يشعر اليوم بما كان يعنيه أنه كان علينا يوماً ما أن نحمل الماء ، والفحم للتدفئة ، وأن يتم غسل سائر الملابس باليد وأنه لم يكن هناك مصابيح ذات فتائل تشعل بالبتروول ، ثم عندما تلا ذلك إستخدام الغاز فإن هذا كله يعد تقدماً ثقافياً خالصاً .

لقد واكب تحرر الإنسان أو بمعنى أدق تحرر المرأة الذى حدث ببطئ شديد إستخدام موقد الغاز وذلك حوالى عام ١٩١٣ ، وحوالى عام ١٩٢٢ أصبح موقد الغاز منافساً خطيراً لموقد الفحم وذلك فى المطابخ المنزلية . بل ولقد ظلت التدفئة المركزية ولمدة طويلة تدار بالفحم اللبائى أو فحم الكوك . لاشك أن العمل المنزلى المرهق هو ما كان يجعل حياة الانسان فى الماضى قصيرة ، فلم يعد هناك مجال للحديث عن إرهاق العمل أو المعاناة منه . لاشك أن النساء يدينون بذلك الآن لأساليب التكنولوجيا الجديدة ، ليس النساء فقط بل وكذلك الذين يقفون موقف العداء من أساليب التكنولوجيا .

المقالة الثالثة عشر
ضد التهكم والسخرية في
تفسير التاريخ

**Gegen den Zynismus in
der Interpretation
der Geschichte**

محاضرة أُلقيت جامعة إيكستات Eichstätt مايو ١٩٩١

لم يحدث على مدى حياتي انضوية أن شعرت بالملل سوى من تلك المحاضرات التي كنت ألقاها بالمدرسة ، تلك المحاضرات التي كانت تسبب لي شللاً عقلياً مؤلماً جداً . لقد كاد تأثير المحاضرات في فرعي التاريخ والجغرافيا بصفة خاصة أن يكون تأثيراً قاتلاً .

من هنا قد نلتبس لبعض أساتذة التاريخ العذر في أنهم لذلك يحاولون إضافة قدر من التهمك والسخرية لمحاضراتهم - ومن هنا يمكن أيضاً أن نفهم - وأن نلتبس لهم العذر في ذلك - لماذا يذهبون الى ما هو أبعد من هذا ويجعلون فهم التاريخ فهماً تهكمياً هو الأسلوب الذي يجب أن يتبع .

يذهب الفهم التهكمي للتاريخ الى أن أصحاب الرغبات الجشعة هم فقط دائماً من يحكمون : راغبي المال أو الذهب أو البترول أو السلطة . يرى المتهم أنه هكذا كان الأمر وهكذا سيكون دائماً . هكذا هو الحال في الحكم الاستبدادي والديمقراطي على السواء ، ولكن النفاق في الحكم الديمقراطي نفاق أكثر سوءاً . لا اعتبر طريقة الفهم هذه طريقة خاطئة فحسب ولكنها أيضاً طريقة غير مسئولة ، إذ أنها تبدو كما لو كانت على قدر من المعقولية . من هنا أرى أن مقاومة هذه الطريقة يعد واجباً ملحاً ، إذ أن مسألة كيف نرى أنفسنا وكيف نفكر في التاريخ مسألة هامة ، مسألة هامة لقراراتنا وتهم تعاملاتنا . لقد كان هذا هو السبب الذي من أجله اخترت هذا الموضوع للتحدث فيه .

يأتي التفسير التهكمي للتاريخ ثالث التفسيرات للتاريخ والتي سأذكرها هنا، إذ أنه قد جاء بعد التفسير الماركسي للتاريخ مباشرة والذي جاء بدوره بعد انهيار التفسير القومي أو العنصري للتاريخ .

لقد ترسخ في ألمانيا التفسير القومي أو العنصري للتاريخ في الفترة بين حروب نابليون وانهيار حكم هتلر . ولأن هذا التفسير كان هو التفسير السائد قبل هتلر ، فلقد هيا جواً عقلياً ، أو رؤية للعالم Weltanschauung بدونها ما كان من الممكن لهتلر أن يكون له وجود ، تلك الرؤية التي نرجعها في

قدر منها الى نابليون وفي قدر آخر الى هيجل . التاريخ - وفقا لهذا الفهم - حرب بين القوميات أو العنصريات حول السيادة وهي الحرب التي كان ينظر لها على أنها حرب إبادة . ومن ثم فلا بد أن هزيمة هتلر كانت تعنى - وفقا لهذه النظرية للتاريخ - الإبادة الشاملة للشعب الألماني . ومن المعروف أن هتلر قد فعل كل ما فى وسعه لكي يحقق عملياً الإبادة التامة للشعب الألماني وهي الإبادة التي تم توقعها نظرياً . ورغم كل ما فعله هتلر لم يتحقق لحسن الحظ هذا التوقع .

تتزعزع الثقة عادة في النظرية المأخوذة مأخذاً جدياً متى لم يتحقق أحد توقعاتها ، ولقد حدث شئ كهذا للتفسير القومى للتاريخ عندما كان سائداً مما أدى الى تحول السيادة بعده الى التفسير الماركسى للتاريخ وان لم يحدث هذا فقط في ألمانيا الشرقية سابقاً . وإذا كان الاتهام الفكرى لهذا الفهم الماركسى للتاريخ هو ما أدى الى نجاح التفسير التهمى للتاريخ فأتى أرى ضرورة أن أقرب شيئاً ما من الفهم الماركسى للتاريخ ، إذ قد لعب الصراع ضد الفهم الماركسى للتاريخ دوراً هاماً في حياتى .

يعرف التفسير الماركسى للتاريخ بإسم " التفسير المادى للتاريخ " أو "المادية التاريخية" وكلاهما ينسب لماركس وإنجلز . هذا التفسير هو تحويل لفلسفة هيجل في التاريخ : لم يعد التاريخ ينظر اليه على أنه تاريخ الصراع بين العنصريات ولكنه تاريخ الصراع بين الطبقات ، والذي له هدف واحد ألا وهو تقليم برهان - برهان علمى - على أن الاشتراكية (أو الشيوعية - المسألة هنا ليست مسألة مصطلحات) يجب في النهاية أن تنتصر وفقاً للضرورة التاريخية .

لقد ظهر هذا البرهان المزعوم لأول مرة في الصفحات الثلاث الأخيرة من كتاب ماركس " بؤس الفلسفة " والذي ظهر أول ما ظهر باللغة الفرنسية تحت عنوان " Misère de la Philosophie " عام ١٨٤٧ . هذا هو البرهان :

ليس التاريخ سوى تاريخ صراع بين الطبقات . فالصراع فى رمانب هذا (كتب ماركس هذا الكتاب عام ١٨٤٧) صراع بين الطبقة البورجوازية، أى الطبقة المستغلة والتى هى الطبقة السائدة منذ الثورة الفرنسية ، وطبقة البروليتاريا أى الطبقة المنتجة والتى هى الطبقة المستغلة . لن ينتهى هذا الصراع سوى بانتصار الطبقة المنتجة ، فقط متى تكون لديها وعى طبقى وقامت بتنظيم نفسها عندئذ يمكنها أن توقف عجلة الانتاج . " تقف سائر عجالات الانتاج متى أراد ساعدك القوى " مما يعنى أن القوة المادية بيد الطبقة المنتجة وإن لم تكن قد وقعت هذا بعد ، كما أنها تمثل الأغلبية العظمى .. يجب أن ينتهى الأمر إذن الى تحررهم ، الى انتصارهم فيما يعرف " بالثورة الاشتراكية " .

هذه الثورة يجب أن تنتهى بالقضاء نهائياً على الطبقة البرجوازية وبسيطرة طبقة البروليتاريا الناجحة .

على هذا النحو نصل الى مجتمع يتكون من طبقة واحدة فقط والذى يصبح تبعاً لذلك مجتمعاً لا طبقياً من المنتجين . لن يوجد عندئذ طبقة سائدة ، ونتيجة للقضاء على الطبقة البورجوازية لن يصبح هناك سائداً ومُسود . بهذا المجتمع اللا طبقى نصل الى السلام الدائم على الأرض من حيث أن سائر الحروب لا يمكن أن تكون سوى حروب طبقية . هذا باختصار هو البرهان المقدم كبرهان علمى على ضرورة الوصول " بالضرورة التاريخية " الى الاشتراكية .

لقد وجه ماركس بنفسه عام ١٨٤٧ اعتراضاً على الصفحات الأخيرة لكتابه " بؤس الفلسفة " : ألا يمكن أن يودى إختفاء المجتمع الطبقي القديم الى سيادة طبقة جديدة تمارس سلطة سياسية جديدة ؟ .

يجيب ماركس على هذا السؤال الذى من الواضح أنه ذو دلالة محددة بشكل واضح بكلمة واحدة : " كلا " لا شك أنه يعنى بذلك أن طبقة المنتجين هذه لن تنقسم ، فإن تنقسم هذه الطبقة الواحدة - كما حدث فى الثورة الفرنسية

الى قسمين : الى طبقة جديدة حاكمة من الديكتاتوريين أتباع نابليون تحميمهم
بيروقراطية وشرطة وجلادو هذه الطبقة من ناحية بينما يشكل بقية الشعب
القسم الآخر فهذا إفتراض يرفضه ماركس .

يتضمن إدعاء الماركسية بأنه من الممكن تقديم برهان علمى على النبوءة
القائلة بضرورة حدوث الثورة الاشتراكية وأن ظهور الاشتراكية حتمى -
تماما مثلما يمكن التنبؤ بحدوث كسوف للشمس باستخدام الميكانيكا الفلكية
Himmelsmechanik لنيوتن - يتضمن هذا الادعاء خطورة أخلاقية
رهيبة، وهو ما خبرته بنفسى فى شتاء ١٩١٨-١٩١٩ مع نهاية الحرب
العالمية الأولى وكنت وقتها أبلغ السادسة عشر والنصف من العمر ، فعندما
يخدع شاب صغير بالضرورة التاريخية للاشتراكية ويعتقد فى ذلك فإنه يشعر
بان عليه إلتراماً أخلاقياً عميقاً ، حتى وإن كان يرى - مثلما كنت أرى - أن
الشيوعيين كثيراً ما يكذبون ووسائل قبيحة وذميمة يستخدمون ، ذلك أنه لما
كان حدوث الاشتراكية ضرورياً ، كانت مقاومة هذا الحدث بمثابة عمل
اجرامى آثم ، فمن واجب كل شخص أن يشجع ويساعد على حدوث
الاشتراكية بحيث لا يلقى هذا الذى يجب أن يحدث سوى أدنى مقاومة
ممكنة. ولما كان المرء وحده ليس قوياً بدرجة كافية ، كان لابد أن يعمل فى
إطار حركة منظمة أو من خلال الحزب ويسانده مساندة مخلصه ، حتى وإن
كان هذا يعنى أن المرء يؤيد أشياء أو على الأقل يتجرع أشياء يشمئز منها
أخلاقياً . هذا ميكانيزم يؤدي بالضرورة الى فساد شخصى . فالمرء يتجرع
حياً وأعداراً وأكاذيب عقلية إضافية ، بحيث متى تخطى المرء بعض
العقبات أصبح مستعداً لكل شئ آخر . هذا هو الطريق المؤدى الى الارهاب
السياسى أو الى الجريمة .

لقد تخلصت أنا نفسى من هذا الميكانيزم بعد حوالى ثمانية أسابيع ، فلقد
تركت الماركسية واستكرتها الى الأبد قبل عيد ميلادى السابع عشر بقليل.
فلقد سألت نفسى عقب وفاة بعض الرفقاء برصاص الشرطة اثناء مظاهرة

قاموا بها : " هل تعرف أنت أن هذا البرهان العلمى المزعوم يصدق بالفعل؟ هل تحققت منه بالفعل بطريقة نقدية ، هل يمكنك تحمل مسئولية تشجيع الشباب على تعريض حياتهم للموت ؟

لقد وجدت أن الاجابة بـ " لا " هى الإجابة الصادقة الوحيدة على هذه الأسئلة ، فلم يحدث أن تحققت بالفعل من هذا البرهان الماركسى بطريقة نقدية. لقد اعتمدت فى قدر على اتفاقى مع الآخرين والذين إعتمدوا بدورهم على آخرين ، أنا من بينهم : أمانى متبادل سائر أعضائه مقلعين إفلاسا فكرياً بصفة خاصة ، يتم إغواؤهم دائماً بالكذب دون أن يكونوا على وعى - بهذا - . حالة إختبرتها فى نفسى وكان قادة الحزب هم أكثر من شعروا بها بوضوح .

لقد اعتمد كل شئ - على البرهان الماركسى على حدوث المجتمع اللا طبقى - ولكن هذا البرهان إنهار تماماً عندما رأى ماركس إمكانية وجود حجة مضادة وأنكرها . من الواضح أنهم قادة الحزب هم من يشكلون - بمساعدة الحزب - بداية " الطبقة الجديدة " ومن ثم يقضون على أمل ماركس ، تلك الطبقة الجديدة السائدة التى كذبت على أتباعها فى المستقبل والتى لم تعطهم نفعها وأن كانت تطلب نفعهم فيها حتى قبل انتصارهم وقبل حدوث الدكتاتورية كان قادة الحزب هم السادة الذين يلقون خارج الحزب بكل من تسول له نفسه بأن يسأل سؤالا يبعث على الضيق (لم يكن بإمكانهم وقتها اعدام هؤلاء الأشخاص) لقد كانت هذه هى طريقتهم وحديثهم واجابتهم، وكان هذا هو مصدر نظام الحزب .

لقد كان حظى كبيراً أن رأيت وفهمت كل شئ فى الوقت المناسب فمع عيد ميلادى السابع عشر ولدت الماركسية ظهري الى الأبد : إلام كان الأمر سيصير معى لو استمررت معها لفترة أطول ؟ . لقد استسلم أحد أتباع الماركسية الشجعان - زاخاروف - لفترة طويلة للبرهان الماركسى لكى يضع فى يد ستالين أولاً ثم خروشوف من بعده أفضع أسلحة للدمار الشامل تم

اختراعها في أى وقت كان .

لقد جاوزت قوة قنبلة زاخاروف - فى أضعف أنواعها - " قنبلة هيروشىما بألاف المرات " (١) .

لقد قابلت بنفسى فيما بعد علماء طبيعة بارزين كانوا يؤمنون بالبرهان الماركسى وينتمون للحزب الشيوعى . وأفخر بأننى استطعت أن أقنع أحدهم بترك هذا الحزب ، ألا وهو عالم البيولوجيا الكبير هلدن J.B.S. Haldane . لقد برر ساخاروف - بمناسبة وفاة ستالين - جرائمه بأنها كانت أعمالاً إنسانية ، إذ كان لابد - كما كان يعتقد - للثورة الاشتراكية العامة من وجهة نظر إنسانية أى تؤدي الى مثل هذا الأشياء .

ولكن لحسن الحظ أنه قد اتضح لى مبكراً أن المرء من الممكن أن يضحى بنفسه فقط من أجل مثله لا أن يضحى بالآخرين .

ورغم أن هدف وغاية البرهان الماركسى كان ضمان الحدوث الضرورى للاشتراكية وتحقيق السلام على الأرض ، فإن هناك فى الفهم الماركسى للتاريخ ملامح أخرى يمكن وصفها بأنها ملامح ماركسية فجّة . وهى ما يمكن تلخيصها على النحو التالى . سائر البشر بخلاف هؤلاء الذين يكافحون من أجل الاشتراكية لا ينشدون سوى مصلحتهم الشخصية ، وإذا أنكروا هذا فهم غشاشون ومناقون . نعم هم مجرمون عتاة فى الاجرام ، وذلك أنهم متى حاولوا منع حدوث الاشتراكية ، فإنهم عندئذ يحملون ثوب سائر ضحايا الثورة . أن مقاومة الثورة الحتمية هو ما يؤدي الى أن تجد الثورة نفسها مضطرة للبطش . إن طمع وجشع هؤلاء المجرمين هو ما يجبر رجال الثورة على إزاحة الدماء .

والآن أصل الى الطريقة الثالثة فى تفسير التاريخ .

من الواضح أنه إذا أسقطنا من النظرية الماركسية مسألة حدوث

(١) هذه الفترة مقتبسة من كتاب زاخاروف " حياتى " Piper, Munchen / Zurich

١٩٩١ ص ٢٥١ (للمؤلف) .

الاشتراكية فإننا نصل مباشرة الى التفسير التهمي للتاريخ . لا حاجة لإضافة نقطة جديدة لهذا ، اللهم إلا الفكرة المشائمة التي كانت وستكون دائماً والتي مفادها أنه حتى في مجتمع الرفاهية الواضحة يلعب الجوع والتشرد والحرب والبؤس دائماً الدور الرئيسي من حيث أن شهوة الحكم والبترول والصناعات الحربية تسود العالم الاشتراكي . تخبرنا الماركسية والاتجاه التهمي أن أسوأ صورة لهذا الوضع نجده في أكثر دول العالم ثراء ألا وهي الولايات المتحدة الأمريكية ، كما نجد هذا الحال أيضاً في البلاد التي تليها ثراء .

بهذا أنهى وصفى المحدود للفهم التهمي الحالي والأكثر خدائاً للتاريخ وحوادثه المؤثرة والخطيرة على السواء والآن أحاول - بحركة نكوص حادة - تفسير بعض آرائى الخاصة .

سترون من عبارتى القادمة والتي يمكن أن أجعلها الى حد ما عنواناً للنصف الثانى لهذه المقالة الى أى مدى تبلغ حدة نكوصى . هذا العنوان هو : أنا متفائل .

أنا - من لا يعرف شيئاً عن المستقبل ومن ثم لا يتنبأ بأى شئ - متفائل . أزعم أنه يجب علينا أن نفصل بين حاضرتنا الذى يمكن بل ويجب أن نحكم عليه وبين المستقبل المفتوح الذى يمكننا التأثير فيه . من هنا فإن علينا التزاماً أخلاقياً أن نتعامل مع المستقبل لا على أنه امتداد للماضى والحاضر ، فالمستقبل المفتوح يتضمن امكانيات أخلاقية غير محدودة ومختلفة تماماً . من هنا لا يجب أن يحكم موقفنا الأساسى السؤال " ماذا سيحدث ؟ " ولكن السؤال " ماذا يجب أن نفعل لكي نجعل عالمنا أفضل قليلاً بقدر الإمكان ؟ " . حتى وإن كنا نعرف أن الاجيال القادمة من الممكن أن تنسد سائر الخير الذى بإمكاننا إحداثه .

ينقسم النصف الثانى من محاضرتى إذن بدوره الى نصفين : النصف الأول يدور حول تفاولى بشأن الحاضر ، والثانى : نشاطنا فيما يتعلق بالمستقبل .

لقد كانت زيارتي الأولى للولايات المتحدة الأمريكية هي ما جعلت مني شخصاً متفائلاً مرة أخرى ، ولقد ذهبت الى أمريكا بعد هذه الزيارة حوالي عشرين أو خمسة وعشرين مرة ، كان انطباعي في كل مرة يزداد عمقاً . لقد أخرجتني هذه الزيارة الأولى التي قمت بها للولايات المتحدة وللأبد من الاكتئاب الذي كنت أحسه نتيجة التأثير القوي للماركسية في أوروبا بعد الحرب ولقد ظهر أخيراً عام ١٩٤٥ كتابي " المجتمع المفتوح وأعداؤه " والذي بدأته عام ١٩٣٨ عقب دخول هتلر النمسا ، ولكن رغم المناقشات الجيدة التي تعرض لها هذا الكتاب ورغم انتشاره بصورة جيدة فإنه يبدو أنه لم يستطع أن يحدث أدنى تأثير في سلسلة الإنتصارات المتصلة للماركسية .

يجب الآن أن أوضح النقاط الرئيسية لتفاولي :

(١) أكرر القول مرة أخرى ، ينسحب تفاولي على الحاضر فقط وليس على المستقبل فأننا لا اعتقد في وجود ما يمكن أن يسمى قانون التقدم . لا وجود لمثل هذا القانون لا في العلم ولا في التكنولوجيا أيضاً ، إذ لا يمكن وصف التقدم بالاحتمال .

(٢) أزعم أننا نعيش في الحاضر أفضل عالم اجتماعي وجد على الإطلاق وذلك رغم الخيانة العظيمة التي يمارسها معظم المفكرين ، إذ ينادون بدين متشائم يرى أننا نعيش في جحيم أخلاقي سيؤدي بنا إلى تلوث مادي وأخلاقي .

(٣) أزعم أن هذا الدين المتشائم ليس فقط كذبة كبيرة ، ولكن أنه لم يوجد من قبل مجتمع كان سعيداً بالاصلاح مثل مجتمعنا .

(٤) هذه السعادة بالاصلاح هي نتيجة استعداد أخلاقي جديد للتضحية ، استعداد ظهر بالفعل في الحريين العالميتين من كلا الجانبين .. ففي حرب السبع سنوات أضطر فريدريك الثاني أن يجبر شعبه على رؤية الموت أمام أعينهم ، إن نداءه مشهور " أيها الشعب : هلي تريدون أن تحيون حياة أبدية ؟ " لقد بين بهذه الطريقة أن المناداة بقيمة أخلاقية

تكفى: الواجب والوطن فى ألمانيا ، والوطن والحرية والسلام فى الغرب
ثم الصداقة فى الجانبين .

وكما أوضحت من قبل ، فإنى أعتقد - وهو اعتقاد ناتج عن الخبرة - أن
قوة الشيوعية تكمن فى ندائها الأخلاقى ، نفس الأمر يتطبق على حركة
السلام كما أعتقد أيضاً أن بعض الإرهابيين إنما يتبعون فى الأصل نداء
أخلاقياً معيناً وهو النداء الذى يورطهم فى هذه الكذبة الداخلية التى ذكرتها من
قبل .

لقد كتب برتراند رسل - الذى كنت أشعر لسنوات طويلة بإرتباطى به
الى أن وقع فى سنوات عمره المتأخرة فى يد سكرتير شيوعى - قائلاً : تكمن
مشكلة زماننا فى أننا نتطور فكراً بسرعة بينما نتطور أخلاقياً ببطء ، وفى
الوقت الذى اكتشفنا فيه الفيوباء النووية لم نستطع أن نحقق المبادئ الأخلاقية
الضرورية فى الوقت المناسب . أو بعبارة أخرى : وفقاً لرسل نحن أذكىاء
واصحاب عقول راشدة ولكننا شريرون من الناحية الأخلاقية . الكثير هم من
يشاركون رسل هذا الرأى بما فيهم أصحاب المذهب التهكمى ، أما أنا فأذهب
الى عكس هذا تماماً . أعتقد أننا خيرون وحمقى ، فنحن نتأثر وبسهولة
بالنظريات التى تتطبق بصورة مباشرة أو غير مباشرة على أخلاقنا ولا نقف
من هذه النظريات موقفاً نقدياً بصورة كافية ، فنحن بالنسبة لهذه النظريات
لسنا راشدين من الناحية الفكرية ولكننا ضحاياها ، ضحايا سليمو النية وعلى
استعداد للتضحية .

أريد فيما يلى أن أخص الجانب الإيجابى من تفاولى ، فأقول : نحن
نعيش فى عالم رائع ، ولقد خلقنا هنا فى العالم الغربى أفضل نظام اجتماعى
وجد حتى الآن ، كما أننا نبذل وباستمرار قصارى جهدنا لتحسينه وتطويره .
من هنا يذهب أحد الآراء الهامة الى أن ما ينتج عن تعاملاتنا السياسية
الاجتماعية غالباً ما يختلف عما كان من الممكن أن نتوقعه أو نريده، ومع هذا
فقد حققنا أكثر مما كان البعض (وأنا واحد منهم) يأمل .

أخص مرة أخرى : أن الإيديولوجيا السائدة في الوقت الحاضر والتي تذهب الى أننا نعيش في عالم شرير من الناحية الأخلاقية أكذوبة واضحة ، لقد ثبت انتشارها من عزيمة الكثير من الشباب وجعلت منهم شباباً لا يستطيع حتى الحياة .

وكما قلت من قبل لست متفائلاً فيما يتعلق بالمستقبل ، اذ المستقبل مفتوح . لا يوجد قانون تاريخي للتقدم ، فنحن لا نعرف ما سيحدث غداً . هناك ملايين الممكنات الخيرة والسيئة التي لا يستطيع أحد أن يتنبأ بها . بناء على هذا فإنني أرفض اتجاه التفسيرات الثلاثة للتاريخ نحو التنبؤ وأزعم أننا لا يجب - لأسباب أخلاقية - أن نبدلها بتفسيرات أخرى ، ومن الخطأ أن نحاول التنبؤ من التاريخ ، أي أن نحاول استنتاج ما سيحدث غداً من الميول والاتجاهات الحالية ، فإن يكون التاريخ تيار يجب على الأقل أن يكون من الممكن التنبؤ ولو جزئياً بجريانه هي محاولة وضع نظرية انطلاقاً من صورة معينة .

إن التصرف الوحيد الصحيح هو أن ننظر للماضي نظرة مختلفة تماماً عن المستقبل ، إذ يجب أن نقيم حوادث الماضي من الناحيتين التاريخية والأخلاقية لكي نتعلم ما هو صحيح من الناحية الأخلاقية ، دون أن نحاول على الإطلاق التنبؤ بالمستقبل انطلاقاً من ميول واتجاهات الماضي . فالمستقبل مفتوح ، بمعنى أن كل شيء ممكن أن يحدث . هناك بالتأكيد في هذه اللحظة في الاتحاد السوفيتي آلاف مؤلفة من قنابل زاخاروف وهناك بالتأكيد كثير من المجانين من يودون من كل قلوبهم أن يستخدموها . فمن الممكن أن تنفي البشرية غداً ، ولكن هناك أيضاً آمالاً عظيمة ، فهناك ممكنات لا عدد لها للمستقبل أفضل كثيراً من ممكنات الحاضر .

يبدو للأسف أنه ليس من السهل فهم وجهة النظر هذه تجاه المستقبل ، كما أن هناك الكثير من المفكرين من لا يمكنهم أن يشتركوا معنا في هذا الفصل بين الماضي والحاضر من ناحية والحاضر والمستقبل من ناحية أخرى ،

المفكرين الذين تعلموا من الماركسية يطالبون من الشخص الذكى أن يكون بإمكانه قراءة المستقبل .

ولقد قيل لى مرات ليست بالقليلة أن تفاولى لابد أنه على الأقل موجه ضمنى للقول بأنه لا يمكن أن يوجد من يتفاعل بالنسبة للحاضر دون أن يكون كذلك بالنسبة للمستقبل .

ولكنى أزعم أن : الأمل هو كل ما يمكن لتفاولى بخصوص الحاضر أن يقدمه للمستقبل ، فالتفاؤل يمكنه أن يقدم لنا الأمل والدافع ، فإذا كنا قد استطعنا أن نجعل بعض الأشياء على صورة أفضل ، فليس من المستحيل أن نحقق فى المستقبل نجاحاً مماثلاً . فلم يعد هناك مثلاً منذ تحرر المرأة فى القرت العشرين أى شكل من اشكال العبودية ، فالغرب حر على الأقل بهذا المعنى وهو ما يمكن به أن نفخر .

أما ما يخص المستقبل فلا يجب أن نتبأ به ولكن أن نحاول فقط أن نتصرف بصورة صحيحة وبصورة مسئولة من الناحية الأخلاقية . يتحول هذا الى واجب أن نتعلم رؤية الحاضر بصورة صحيحة وليس من خلال النظارات الملونة للأيدولوجيا . يمكننا أن نتعلم من الواقع ما يمكن أن نحققه، فإذا رأينا الواقع بنظارات إحدى المفاهيم الأيدولوجية الثلاثة للتاريخ ، فإننا على هذا النحو نخل بواجب التعلم .

أن المستقل مفتوح ومن ثم فنحن مسئولون عن فعل الأفضل دائماً وجعل المستقبل أفضل من الحاضر . ولكن هذه المسئولية تفترض الحرية . فنحن عبيد فى ظل الحكم الاستبدادى ، والعبيد ليسوا مسئولين مسئولية تامة عما يفعلونه ، وبهذا أصل الآن الى آخر نقطة أود الحديث فيها وتتعلق بالحرية السياسية - الحرية من الاستبداد - فالحرية السياسية هى أكثر القيم السياسية أهمية ، لذا يجب أن نكون دائماً على استعداد للنضال من أجل الحرية السياسية ، فالحرية من الممكن دائماً أن تضيع . فلا يجب أن نعتقد أنها مضمونة .

أزعم أن سائر البشر معرضون تحت الحكم الاستبدادي لخطر خداع البشرية ومن ثم لفقدان إنسانيتهم ذاتها ولأن يصبح كل منهم شخصاً لا إنسانياً، ف شخص مثل أندريه زاخاروف Andrei Sacharow - الذي برهن بسلوكه العظيم والمثير للإعجاب أن لديه الشجاعة للوقوف في مواجهة الحكم الاستبدادي - استطاع مع هذا أن يتصرف عندما كان شاباً صغيراً - كمجرم يتصف بالسادية . فلم يعمل زاخاروف فقط - كما أوضحت - على وضع أفضع وسائل الإبادة الشاملة في الأيدي الملوثة بالدماء لستالين - أسوأ الجلادين - وبريجا Berija السادي ، ولكنه وضع للأسطول الروسي خطة أكثر فظاعة لإستخدام هذه الوسائل ، وهي الخطة التي رفضها أحد ضباط البحرية الكبار لأنه وجدها تتنافى مع أخلاقيات الحرب كما يراها ، مما جعل زاخاروف - كما يرون - يخجل من نفسه . لقد حدث هذا كله بسبب الإيديولوجية الماركسية الحمقاء والملعونة التي أعمت بصيرته وجعلته يؤمن بمهمة ستالين - الرجل الانساني العظيم - فهكذا كان يعتبره . على هذا النحو كان زاخاروف - في ظل هذا الجو الاستبدادي - يتحول بين الحين والآخر الى وحش مفترس مجنون - نعم من وقت لآخر ، ولكن لفترة طويلة تكفى للاعداد الأكبر ضرر يمكن تصوره وتكفى لكي يشكل خطراً دائماً على كل كائن حي .

فالحكم الاستبدادي يسلبنا إنسانيتنا ومن ثم فهو يسلبنا مسئوليتنا البشرية ، فمن أراد تحت الحكم الاستبدادي - أن يتبع ضميره ، فلن يجد نفسه سوى في مواجهة عدة مستحيلات : صراعات لا يمكن حلها ، كالتعارض مثلاً بين واجباته نحو من يأتي بعده وواجبه الذي يحتم عليه مساندة المضطهدين ، وألا يشارك في الاضطهاد ، يجب أن يكون لديه الشجاعة ألا يخلط بين واجباته الصحيحة وذلك الذي يسمى خطأ (واجبه) نحو رؤسائه المستبدين ، ذلك الواجب الذي وعد زاخاروف خروشوف بتحقيقه والذي يمارسه هو نفسه مثله تماماً مثل مجرى الحرب الألمان .

يتضح كيف يمكن للحكم الاستبدادي أن يقضى على الواجب الإنساني والمسئولية الإنسانية ، بل وعلى كل من يحاول تحقيق هذا الواجب وتلك المسئولية بالمثال الذي لا يمكن أن ينسى لدائرة الأصدقاء التي كانت تسمى بالوردة البيضاء WeiBen Rose ، تلك الدائرة التي تكونت من مجموعة من الطلاب في ميونيخ وأساتذتهم عندما نادوا في شتاء ١٩٤٢/١٩٤٣ - من خلال منشورات (قاموا بتوزيعها) بضرورة الوقوف ضد حرب هتلر . كانت النتيجة أن تم إعدام الأخوين هانز وصوفي شول Hans & Sophie Scholl مع كريستوف برويست Probst جميعاً يوم ٢٢ فبراير ١٩٤٣ ، وتم إعدام الكسندر شمورل A. Schmorell والبروفيسور كورت هوبر K. Huber يوم ١٣ يوليو ١٩٤٣ ، أما فيلي جراف Willi Graf فقد أعدم يوم ١٢ أكتوبر ١٩٤٣ . لقد كان هانز شول وقتها في الرابعة والعشرين من عمره أما صوفي فكانت في الحادية والعشرين ، أما بقية الطلاب فكانوا كذلك في نفس هذا العمر . وما زال بعض هؤلاء الذين قرروا الوقوف ضد حرب هتلر على قيد الحياة .

إن الأبطال الذين من الممكن أن يكونوا مثلاً علينا من النادر أن نجد لهم الآن في جيلنا الحالي وجوداً ، لقد كان هؤلاء أبطالاً ، اذ دخلوا في صراع كانوا يعلمون أنه لا أمل في كسبه ، ولكنهم مع هذا دخلوا هذا الصراع على أمل أن يحدو غيرهم حذوهم ، لقد كانوا بحق مثلاً علينا : حاربوا من أجل الحرية والمسئولية التي أرادوا تحقيقها لأنفسهم ولل البشرية جمعاء . كانت النتيجة أن قضى عليهم الحكم الاستبدادي بوحشيته ولا إنسانيته . هؤلاء أناس لا يجب علينا أن ننساهم بل يجب أن نذكرهم دائماً وأن نتحدث عنهم ونحذو حذوهم .

إن الحرية السياسية شرط مسبق لمسئوليتنا الشخصية ولإنسانيتنا ، إذ يجب أن نشق كل محاولة ، وكل خطوة نخطوها نحو عالم أفضل ، نحو مستقبل أفضل من القيمة الأساسية للحرية .

أراه أمراً مؤسفاً أن توجه أوروبا دائماً تقريباً انتباهها نحو المثال الفاشل للثورة الفرنسية (مثال فاشل حتى تأسيس ديجول للجمهورية الخامسة) بينما يتم تجاهل المثال الرائع للثورة الأمريكية - على الأقل في الدروس المدرسية - كما أنه غالباً ما يساء فهمها . لقد قدمت أمريكا الدليل على أن فكرة الحرية الشخصية - كما حاول صولون الأثيني ^(١) لأول مرة تحقيقها وكما بحثها إيمانويل كانط - ليست حلماً يوتوبياً . لقد أوضح لنا المثال الأمريكي أن حكومة الحرية ليست فقط شكلاً لحكومة يمكن تحقيقها ، بل وأنها حكومة يمكنها التغلب وبنجاح على أكبر الصعوبات ، فهي شكل لحكومة تقوم أولاً وقبل كل شيء على منع الاستبداد - وذلك عن طريق تقسيم وتوزيع السلطة وعن طريق الاشراف المتبادل للسلطات المقسمة على بعضها البعض . لقد استوحيت سائر الديمقراطيات هذه الفكرة ، بل وعليها أيضاً قام القانون الأساسي للديمقراطية الألمانية .

إلا أن أمريكا قد سارت (نحو تحقيق هذا) في طريق صعب ، لقد سارت في هذا الطريق منذ ثورة ١٧٦٣ وهو الطريق الذي لم ينته بعد رغم نجاحه العظيم ، فما زال الصراع من أجل الحرية مستمراً .

تقف الفكرة العظيمة للحرية الشخصية لسائر البشر وهي الفكرة التي كانت بمثابة الملهم للثورة الأمريكية على طرف النقيض مع المؤسسة الأمريكية للعبودية والتي تعود إلى زمان ما قبل الثورة والتي أسسها الأسبان والمتمركزة في الولايات الجنوبية منذ أكثر من مائة عام . لقد انقسمت الولايات المتحدة وفقاً لهذا إلى قسمين وذلك عندما شنت الولايات الجنوبية حرباً وقائية ضد الولايات الشمالية ^(٢) . لقد كانت أقطع حرب وجدت في ذلك

(١) صولون الأثيني ولد عام ٦٣٠ ق.م. وتوفي عام ٥٦٠ ق.م ، كان يعرف بأنه أحد حكماء اليونان السبعة . قام بتحرير العبيد ، وفي عهده عرفت أثينا أول قانون مكتوب لها .
(٢) يشير بوبر إلى الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١-١٨٦٥) التي اندلعت بين ولايات الشمال وولايات الجنوب نتيجة انفصال ولايات الجنوب وذلك اعتراضاً منها على إلغاء العبودية ، إذ كان المواطنون في الجنوب يعتمدون على العبيد اعتماداً رئيسياً في --

التاريخ . كانت حرباً أهلية وقف فيها الأصدقاء وأعضاء العائلة الواحدة وجهاً لوجه يحارب بعضهم البعض مما بدا للكثيرين أن الطريق الذى سلكته أمريكا نحو تحقيق الحرية لم يكن بأبعد حظ من الطريق الذى سلكته الثورة الفرنسية، ولكن تم فى النهاية صد هذا الهجوم الذى كان ناجحاً فى بداية الأمر والقضاء عليه وذلك بعد أن كلف أمريكا ستمائة ألف من الضحايا من الجانبين، كان أحدهم هو ابراهام لنكولن رئيس الولايات المتحدة . نعم لقد تحرر العبيد ولكن بقت مشكلة صعبة لا مثيل لها لم تحل إلا وهى كيف يمكن للأجيال التالية من العبيد السود أن يندمجوا فى المجتمع وكيف يمكن القضاء على مؤسسة اجتماعية عمرها يتجاوز المائة ، مؤسسة لم يكن من الممكن نسيانها بسهولة نشأت بسبب اختلاف لون البشرة .

لم يحدث أن رأيت حتى الآن عملاً تاريخياً باللغة الألمانية تم فيه وصف وتقييم هذا الموقف بطريقة صحيحة ولو الى حد ما .

من الحوادث البارزة التى تركت فى داخلى انطباعات لا تنسى أنى عاصرت فى الفترة من ١٩٥٠ حتى ١٩٨٩ المجهودات التى بذلتها الحكومات المختلفة التى تعاقبت على الولايات المتحدة من أجل مساعدة هؤلاء الذين كانوا يعتبرون عبيداً وجعلهم مواطنين من الدرجة الأولى على قدم المساواة مع غيرهم . أريد أن أذكر هنا فقط قصة . لقد حدث عام ١٩٥٦ أن نزلت ضيفاً على جامعة أطلانتا والتى تقع فى مركز ما كان يعرف بالولايات الجنوبية . لقد كان سائر طلاب هذه الجامعة فى ذلك الوقت من السود وكان اساتذتهم البيض يمثلون الأقلية فى تلك الجامعة . لقد سألت رئيس الجامعة وقتها (وهو من السود) ومن المتفنين البارزين : كيف ومتى تأسست هذه الجامعة الكبيرة الرائعة ؟ لدهشتى جاءت الأجابة أن جامعة السود هذه التى تقع فى مركز الولايات الجنوبية قد تأسست عقب انتهاء الحرب الأهلية بسنة

== الزراعة التى كانت تشكل اساس الاقتصاد فى الجنوب . أنهت الحرب بانتصار الشمال واعادة ضم ولايات الجنوب مرة أخرى والغاء العبودية .

أعوام وأن مجموعة من المعاهد الخاصة بالسود - وأعتقد أن عددهم كان ثمانية - قامت معاً بتأسيسها وهي المعاهد التي قامت بتأسيسها جميعها كنائس مسيحية مختلفة يعمل فيها اساتذة ورجال دين من البيض والسود جنباً الى جنب .

أترك لحضراتكم التأمل في هذه القصة ومقارنتها بهذه الكلمات التي وردت في دائرة معارف ماير Meyers Enzyklopädischem Lexikon عن نهاية الحرب الأهلية : " لم تخبر العبودية التي كانت سبب الحرب سوى حلاً ظاهرياً " تبدو لي على كل حال كلمة " حلاً ظاهرياً " كلمة خاطئة تماماً مثل غيرها كثيراً في نفس المقالة ، وأنى أتساءل : ما هو الحل الحقيقي الذي يقترحه مؤلف هذه المقالة . على كل حال فقد تركت في داخلي قصة جامعة أطلانتا انطباعاً قوياً ، مثل غيرها من الحوادث التي عاصرتها .

لقد ذهبت الى بلاد كثيرة ولكن لم يحدث أن استنشقت هواء حراً مثل الهواء الذي استنشقتة في الولايات المتحدة الأمريكية ، ولم يحدث أن وجدت مثالية مصحوبة بروح التسامح والرغبة في المساعدة والتعلم مثلما رايت في أمريكا ، مثالية عملية فاعلة وإستعداداً كبيراً للمساعدة . ولقد زرت من فترة قريبة جامعات أمريكية كثيرة رايت فيها إندماجاً كاملاً للسود بحيث بدا أن لون البشرة لم يعد يلعب أى دور على الإطلاق .

أقول هذا كله بوعى تام أن الكثيرين لن يقبلوه تماماً . فعندما كنت من ثلاثة أعوام في مؤتمر بمدينة هانوفر أدافع في محاضرة ألقيا عن أمريكا رداً على محاضرة أخرى شن فيها أصحابها هجوماً على أمريكا ، ووجهت بصياح وإعتراض .

لقد رحبت بهذا إذ اعتبرته دليلاً وعلامة على أن مستمعي لم يصبهم الملل من حديثي ولقد كنت محظوظاً لأنى أستطعت أن أتصور أنى قد دافعت عن الحرية والتسامح .

المقالة الرابعة عشر
حروب أدت إلى السلام

**Kriege Führen Für
den Frieden**

حوار أجرته مجلة Der Spiegel الأسبوعية التي تصدر بألمانيا
مع البروفسور كارل بوبر في إبريل ١٩٩٢

شبيجل ، الأستاذ بوبر ، بإتهام الاتحاد السوفيتي تحققت نبوءة كنت سيادتكم قد تنبأت بها منذ حوالي نصف قرن . هل يعتبر هذا انتصاراً للعقلانية النقدية على أعداء المجتمع المفتوح ؟ .

بوبر ، لم اقم بوضع أية نبوءة ، إذ أنني اذهب دائماً الى أنه لا يجب على المرء أن يضع أية تنبؤات . اعتبر الرأي الذي يذهب الى أن المفكر يتم تقييمه وفقاً لجودة التنبؤات التي يضعها رأياً خاطئاً تماماً .

كانت فلسفة التاريخ في ألمانيا - على الأقل منذ هيجل - تعتقد دائماً أن مهمتها يجب أن تكون بشكل ما فلسفة تنبؤية . اعتبر هذا خطأ . فالإنسان يتعلم من التاريخ ولكن التاريخ اليوم والآن قد إنتهى . يجب أن يكون موقفنا من المستقبل مختلفاً تماماً عن محاولة التنبؤ من التاريخ وتتبع مجراه في المستقبل .

شبيجل ، حسناً وحتى إذا لم يكن هذا تنبؤاً من سيادتكم ، فلقد توقعت على الأقل انتصار الديمقراطية الليبرالية على أشكال الحكم الاستبدادي .

بوبر ، يجب أن يكون موقفنا من المستقبل على النحو التالي : نحن الآن مسئولون عما سيحدث في المستقبل . فالماضي معطى لنا ولكننا لا نستطيع أن نفعل به الآن شيئاً آخر رغم أننا بمعنى آخر مسئولون عنه أيضاً : بمعنى أننا مسئولون عما فعلنا . أما فيما يتعلق بالمستقبل فنحن مسئولون عنه الآن مسئولية أخلاقية ويجب أن نفعل أفضل ما لدينا دون أن نرتدى أية نظارات أيديولوجية حتى ولو لم تكن النظرة الى المستقبل متناقلة ، والأفضل بمعنى محدد هو استخدام أقل قدر ممكن من العنف ، أو هو تقليل المعاناة بقدر الإمكان .

شبيجل : لقد شكك الشيوعيون أثناء حكم لينين مما تأسس في روسيا في ذلك الوقت أي من أيديولوجيا الدولة وديكتاتورية الحزب الواحد وهو ما لا صلة له بنظريات كارل ماركس الأساسية الذي راهن على قيام ثورة البروليتاريا في الدول الغربية الصناعية .

بوير : رداً على هذا نقول ما يلي : يكمن الجنون الشيوعي - وهو ما نجده لدى ماركس - فى القول بأن ما يسمى بالعالم الرأسمالى عالم شيطانى . لم يحدث أن كان هناك وجود لما أسماه ماركس بالرأسمالية أو لأى شئ مشابه لها .

شبيجل : عفواً ، ولكن لقد وجدت بالفعل ليبرالية مانشستر Menchester-Liberalisnus ذات شروط العمل البائسة .

بوير : بالتأكيد كان هذا (الزمان) صعباً للغاية لا بالنسبة للعمال فحسب ولكن لغيرهم من الناس أيضاً . لقد إهتم ماركس بصورة أساسية بالعمال . فقط إذا نظرنا للأمر نظرة تاريخية محضة ، فإن ظروف العمال تحسنت باستمرار منذ ذلك الوقت ، ولكن ماركس كان يزعم أن أحوالهم ستسوء باستمرار وستزداد سوءاً .

شبيجل : هل تعنى سيادتكم نظريته فى الاقتتار المطلق (١) ؟

بوير : نعم ، ولأن نظرية الاقتتار لم تتحقق ، فلقد أرجع الإنسان الاقتتار الى المعسكرات التى تعرف الآن بالعالم الثالث .

شبيجل : أى ما يعرف بنظرية الإمبريالية ، لغو فكرى صورى بالطبع .

بوير : نعم هى صياغة فكرية لا معنى لها بالطبع ، وهذا واضح بصورة جلية اذ لا يمكن أن يكون التصنيع إقتتاراً ، (فهذا واضح تماماً) بل والمعسكرات أيضاً تتحسن باستمرار بصورة مطردة .

ماذا كانت اذن ما يعرف الرأسمالية ؟ إنها التصنيع والانتاج بالجملة Massenproduktion فالانتاج بالجملة يعنى إنتاجاً غزيراً أى الحصول على أشياء كثيرة ، والانتاج بالجملة يتطلب سوقاً كبيراً وعدداً كبيراً من المستهلكين . لقد قارن ماركس بين الرأسمالية والجحيم . ولكن لم يكن للجحيم سوى وجود ضعيف على سطح الأرض مثله فى ذلك مثل جحيم

(١) كان كارل ماركس يرى أن أحوال العمال فى ظل الرأسمالية ستزداد سوءاً وفقراً الى أن يصلوا فى يوم من الأيام الى ما أسماه بالاقتتار المطلق .

دانتسى .

ولقد كانت هذه فكرة دانتى التى نسبها ماركس بوعى كامل للرأسمالية. فإذا كانت الرأسمالية تؤدى بالضرورة الى الافتقار ، فإن الثورة هى المخرج والخلاص الممكن الوحيد : الثورة الاشتراكية . إننى أقف من مجتمعنا موقفاً نقدياً شديداً . ولكن نظام مجتمعنا الليبرالى الحالى هو أفضل وأعدل نظام وجد على الأرض حتى الآن . لقد نشأ - كما ذهب ماركس - عن طريق التطور . شبيجل : ألم يتبق بصفة عامة شيئاً من النداء الأخلاقى للنقد الماركسى للرأسمالية فى التشهير بالظلم الاجتماعى ؟ فلم تضيق الهوة أو المسافة بين الفقر والثراء فى العالم .

بوبر : لقد أخذ النداء الأخلاقى منذ العصور الوسطى أشكالاً مختلفة فلقد كان النداء الأخلاقى هو المسألة الرئيسية فى الفكر المسيحى وفى الفكر التنويرى . ولقد كان الخصم اللدود لهذا النداء الأخلاقى هو الاتجاه الرومانتيكى .

شبيجل : فى ذكرك للتنويريين لابد أنك تعنى غالباً . نداء كائط والذى يرى أن نشر دستور مدنى عادل فى العالم أسره هو الواجب الأعظم للنوع البشرى ، ولابد أن هيجل هو إمام الرومانتيكيين وفقاً لسيادتكم .

بوبر : تماماً ، إن وجهة النظر الرومانتيكية المضادة هى تقريباً على النحو التالى : لا مناص من الحرب والعنف . هذا هو ما استخلصه هيجل من خبراته التاريخية . فإذا ذهبنا مع الفكرة التى تدعو الى تطبيق خبرات الماضى على المستقبل ، فلن يتبقى لدينا أى أمل : لقد أصبحت أسلحتنا أسلحة فتاكة ، إذ يحل محل حمامات الدم التى ما زال أبائنا يتذكرونها حمامات الإبادة الكاملة للإشعاع الذرى .

شبيجل : ما الذى أحدثه اذن الاتهيار فى أوروبا الشرقية - ضعف اقتصادى بسبب سباق التسلح ، وفقر فكرى وشك فى المهام الخاصة ؟ بوبر : لقد حدثت أشياء كثيرة معاً : فتح المجريون حدودهم أمام لاجئى

ألمانيا الشرقية وأعلن جورباتشوف استعداده لأجراء اصلاح . لم يجد هذا
الاصلاح الاقتصادي شيئا إذ لا يمكن اصلاح الاقتصاد من أعلى . لقد واكب
هذا بوار فكرى . لقد تبقى من الماركسية كلام فارغ وصياغة واحدة ذات
محتوى " إلغاء الرأسمالية Liquidiert den Kapitalismus " الرأسمالية
الشيطنية التى لم يحدث لها وجود . لقد كان هذا هو ما حاول جورباتشوف
فى الواقع تغييره .

شبيجل : هل تعنى المقامرة بموقف الصواريخ الذرية السوفيتية عام
١٩٦٢ فى كوبا فيدل كاسترو ؟

بوير : لقد خطط خروشوف لهجوم مدمر على الولايات المتحدة : ولقد
تراجع خروشوف عندما وجد الولايات المتحدة على استعداد للهجوم . لقد
كتب عالم الفيزياء الذرية أندريه زاخاروف فى كتابه " حياتى " قائلا : أنه
بأقل تقدير ممكن ، فإن إنتاجه البالغ القوة - كما يسميه - يفوق قوة قنبلة
هيروشيما بعدة آلاف من المرات . ولقد وصلت بالفعل من هذه القنابل ٣٦
قطعة الى كوبا . فاذا أحللنا الرقم ٣ محل هذه " العدة آلاف " ، فإن هذا يعنى
أن ما وجد فى كوبا كان " ١٠٨٠٠٠ " قنبلة من قنابل هيروشيما : يجب أن
نحاول تصور هذا . لقد ذكر جورباتشوف فى خطاب وداعه أن هناك ما
يقرب من ٣٠٠٠٠ قنبلة من هذا النوع .

لقد أوضحت أزمة كوبا الهدف الذى كانت الماركسية تتجه الى تحقيقه ألا
وهو محاولة تدمير الرأسمالية تدميراً عنيفاً باستخدام الأسلحة النووية . لا
يجب علينا أن ننسى هذا . ولو كان الهجوم الروسى على أمريكا قد تم ، لما
حدث تدمير لأمريكا فقط ، ولكن العالم بأسره كان سيطفو فى حمام الاشعاع
الذرى رغم أن هذا كان سيستغرق سنوات صعبة .

شبيجل : ما الذى يدين به العالم لجورباتشوف . صاحب البرسترويك
والذى نراه الآن هو ذاته ضحية لها ؟

بوير : يدين له العالم بالكثير . فلقد بدأ جورباتشوف يرى أمريكا بطريقة

تختلف كثيراً عن الطريقة التي كان سابقوه يرون بها أمريكا . لقد وضع جورباتشوف هذه الصياغة اللا ماركسية والشيقة " أريد لروسيا أن تصبح دولة طبيعية " ، لقد أقرب جورباتشوف بهذا من فكرتنا عن دولة القانون . لقد أراد جورباتشوف تطبيع روسيا تطيعاً كاملاً : فتحن ندين له بهذه الفكرة الجديدة تماماً ، إذ لم تكن روسيا حتى ذلك الوقت دولة طبيعية وهو ما يمكن استنباطه بوضوح تام من السيرة الذاتية لزاخاروف .

شبيجل : لم يجعل إنهاء الاتحاد السوفيتي ونهاية البروليتاريا العالم أكثر أمناً ولكن يجب علينا أن نناقش مسائل عودة شياطين القوميات والأسلحة الذرية الفتاكة ووجود الفقر .

هل هذه هي الأعداء الجدد للديمقراطيات الليبرالية ؟

بوير : يجب أن يكون السلام اليوم هو هدفنا الأول ، إذ أن هذا صعب تحقيقه هذه الأيام في عالم يحيا فيه أناس مثل صدام حسين وأمثاله من الدكتاتوريين . لا يجب أن نفرع من أن الحرب هي ما سيقود الى السلام وهي الحرب التي لا يمكن تجنبها في ظروفنا الحالية . أنه أمر مؤسف ولكننا مضطرون لفعل ذلك إذا أردنا أن نتقذ عالمنا . فالقرار هنا ذو دلالة حاسمة .

شبيجل : هل تؤدي الحرب الى وقف استمرار إنتشار أسلحة الإبادة

الشاملة ؟

بوير : لا شيء هذه الايام أكثر أهمية من منع إنتشار هذه القنابل المجنونة التي يتم تداولها الآن بالفعل في السوق السوداء . يجب على دول العالم المتحضر التي لم تصب بالجنون بعد أن تعمل سوياً . ومرة أخرى أقول: أن قنبلة واحدة من قنابل زاخاروف تكافئ عدة آلاف من قنبلة هيروشيما مما يعنى أن انفجار قنبلة واحدة من هذه القنابل في دولة ذات كثافة سكانية عالية سيكلفها حوالى مليون من الضحايا بخلاف ضحايا الاشعاع الذري الذين سيموتون تباعاً على مدار سنوات عدة . لا يجب علينا أن نقف مكتوفى الأيدي ومنتظر فعل شيء بصدد هذا .

شبيجل : هل يجب على الأمريكان اذن مرة أخرى أن يتخذون خطوة ضد صدام متى ظهر لهم أنه يصنع هذه القنابل ؟

بوير : ليس فقط ضد صدام . يجب أن يكون هناك في مثل هذه الحالات شكل من العمل الجماعي للعالم المتحضر . لا معنى للوقوف في مثل هذه الظروف موقفاً سلمياً . يجب أن نشن الحرب من أجل تحقيق السلام ولكن في أقل صورة ممكنة بطبيعة الحال . وما دامت المسألة مسألة عنف فيجب منع استخدام هذه القنابل بالعنف .

شبيجل : ما تقوله يبدو كما لو كان استراتيجيات البنتاجون التي تأمل في وضع نظام جديد للعالم والتي يزعجها أيضاً التنافس الاقتصادي بين اليابان وأوروبا .

بوير : اعتبره عملاً أثماً أن نتحدث على هذا النحو : لا يجب علينا الخلط بين المسائل الاقتصادية وضرورة منع الحرب الذرية . يجب أن نبذل قصارى جهدنا في الاشتراك بفاعلية مع أمريكا فهذه ببساطة هي ضرورة الموقف الحالي ، فالمسألة ليست أمراً تافهاً ولكنها مسألة تخص بقاء البشرية .

شبيجل : هل يجب على الغرب أن يساعد بويرس يلتسين ليحمي روسيا من السقوط في نظام استبدادي يزداد سوءاً ؟

بوير : اعتقد أننا يجب أن نساعد . نعم ليس من حق جورباتشوف أن يشكو فنحن ندين إليه بالكثير ولكنه قام بعملية تسليح إضافية . يجب أن يكون هناك شرط لمساعدتنا ألا وهو أن تعمل روسيا معنا - نحن الدول المتحضرة - على وضع هذه الأسلحة الفتاكة تحت السيطرة . فقط يجب على القوة العسكرية الروسية أن تشترك معنا .

شبيجل : وفقاً لقناعة سيادتكم ، نحن نعيش اليوم في أفضل وأعدل المجتمعات التي وجدت حتى الآن ، ولكن لم تقدم الديمقراطية الليبرالية حتى الآن حلولاً مقنعة للقضاء على المجاعات الموجودة في العالم الثالث أو للتلوث البيئي .

بوير : بإمكاننا أكثر من مجرد إطعام العالم بأسره ، فالمشكلة الاقتصادية مشكلة محلولة : من وجهة نظر التكنولوجيا وليس من وجهة نظر اقتصادية .
شبيجل : ولكنك لن تختلف مهنا أنه ما زال هناك في أنحاء كثيرة من العالم الثالث فقر عام .

بوير : لا أختلف معكم . ولكن هذا يعود بصفة عامة الى حماقة السياسة لقادة هذه الدول الفقيرة . لقد حررنا هذه الدول بسرعة ولكنها ما زالت ليست دول يحكمها القانون . مثلها في ذلك مثل الطفل الذي ترك حضانه والديه .

شبيجل : هل الصراع الاقتصادي الآن استمرار للحرب ولكن بوسيلة مختلفة ؟ تخشى أوروبا والولايات المتحدة أن تخسر حرب الخراف ضد اليابان .

بوير : لا يجب أخذ هذه المسائل جميعها مأخذاً جدياً بل ولا يجب حتى مناقشتها ، فهذه الطريقة في الحديث هي ما أطلق عليه الفهم التهمي للتاريخ . يريد المفكرون أن يكونوا اصحاب فطنة وبصيرة بدلاً من أن يندموا يد المساعدة . إن اليابانيين قوم متحضرون بالفعل . يمكن معهم اجراء حوار ولكن الحماية موجوداً دائماً لدينا ولديهم بالطبع .

شبيجل : الحماية - هل تعني سيادتكم في هذه الحالة خطط احتلال اقتصادي ؟

بوير : نعم ، فاليابان لديها مشكلة كبيرة ألا وهي التضخم السكاني ، وهو ما يحكم أن نتحدث عنه فيما بعد . إن رجال الاعلام للأسف هم دائماً من يفهمون هذه الأشياء فهماً خاطئاً ويريدون خبراً مثيراً رغم أن لدينا ما يكفيها وأكثر من الأخبار المثيرة .

شبيجل : ليس الأمر بأسره من اختراع الصحفيين ، فتلك الحملة التي شنت في الولايات المتحدة : " لا تشتري أى سلعة يابانية " تبرهن على وجود شعور عميق بالمواجهة .

بوير : هذه المواجهة لا معنى لها . فالأمر بأسره ليس مهماً ، إذ ليست اليابان للوهلة الأولى دولة إمبريالية . نعم لديها من الصناعة ومن الإمكانيات ما يجعلها تصنع أسلحة الإبادة الشاملة في أى وقت ، ولكن اليابانيين يعرفون تماماً ما سيعنى هذا .

فمن وجهة نظرى لابد لأى إقتصاد قومى نظرى أن يصل بشكل ما الى التوقف ، سيظل قابلاً فى مشكلات الحاضر ولكن سائر المشكلات مشكلات قابلة للحل . لم يحدث حتى الآن أن مات مليونير وهو ثرى . ونحن جميعاً الآن فى ألمانيا بالمقارنة بزمان ما قبل الحرب - مليونيرات .

شبيجل : يسهم بشكل واضح الاستغلال الكبير لثراء الموارد الطبيعية فى تلوث النبات . فى كلمة واحدة : ثقب الأوزون .

بوير : نحن لا نعرف هذه الأشياء حتى الآن معرفة حقيقية . فقد تكون هذه الثقوب فى طبقة الأوزون قد وجدت بالفعل منذ ملايين السنين . فقد لا تكون وليدة العصر الحديث .

شبيجل : بعض العلماء البارزين يرون الأمر بطريقة مختلفة . فهم يعتقدون أن هناك علاقة بين تركيز الكلور والتأثير السئ فى طبقة الأوزون .
بوير : ليس العلماء البارزون دائماً على حق . لا أعنى بهذا أنهم ليسوا على حق ولكنى أعنى أننا غالباً ما نعرف أقل مما نعتقد أننا نعرف .

شبيجل : نحن هنا بصدد موضوعات تختلف فيها سيادتكم تماماً مع حزب الخضر وهى الموضوعات التى تهاجمها أحياناً بشراسة . لماذا حقيقة؟
بوير : ذلك بخصوص عدائهم الجنونى للعلم الطبيعى واساليب التكنولوجيا . هناك نواه لا عقلانية لدى حزب الخضر وهو ما يؤدى تماماً الى عكس ما يزعمون أنهم يريدونه . بالاضافة الى هذا فإنهم يريدون السلطة كما أنهم مناققون وهى الصفة التى يزعمون أنها لأعدائهم .

تقوم كوارث البيئة على الانفجار السكانى ، وهى المشكلة التى يجب أن نحلها حلاً أخلاقياً . لا يجب أن يظهر فى العالم سوى الأطفال المرغوب فيهم .

شبيجل : كيف تريد تحقيق ذلك ؟ هل عن طريق قوانين حكومية مثلما هو حادث في الصين ؟

بوبر : ليس عن طريق أوامر حكومية ولكن عن طريق التربية . الأطفال غير المرغوب فيهم معرضون للخطر بل ومن الناحية الأخلاقية . يجب أن يتوفر لدى هؤلاء الذين لا يريدون أطفالاً الوسيلة لمنع إنجابهم ، والوسيلة موجودة الآن وأعتنى بها حبوب الإجهاض .

شبيجل : هذا هو تماماً ما يرفضه البابا والكنيسة الكاثوليكية .

بوبر : سيتراجع البابا والكنيسة عن موقفهما متى قدمنا لها مبررات أخلاقية مقنعة . والمبررات كما أراها هي مثل الاغتصاب وإنجاب أطفال يحملون مرض الايدز أو أطفال في بلاد فقيرة لا تتوفر لديهم فيها فرصة الحياة على ظهر الأرض . إنها جريمة ألا تساعد هؤلاء الأطفال وذلك بمنع إنجابهم . هنا ستتراجع بل ويجب أن تتراجع الكنيسة عن موقفها ولكنها فقط مسألة وقت .

شبيجل : نريد الآن أن نتحدث مع سيادتكم في بعض المسائل التي تخص ألمانيا . فالألمانيا القوية المتحدة مرة أخرى اثرت في تغيرات ميزان القوى في أوروبا . هل هناك ما قد يزعج الجيران ؟

بوبر : هناك بالطبع . فالوضع الحالي في ألمانيا - سياسياً وأخلاقياً - أفضل بكثير مما كنا نأمل . ولكننا لا نعرف ما قد يأتي به المستقبل . هناك معضلة في رفاهية الإنسانية : تقوم رفاهية الإنسانية على حذر حقيقى ضد بعض المخاطر ولكن هذه الرفاهية تدمر الحذر أيضاً . تتحول الحرية بسهولة الى شئ بديهي . وهو ما يعنى أن يصبح الانسان مرة أخرى دكتاتورا وهو ماحدث مع جورج هايدر في النمسا .

شبيجل : لا يكاد الانسان يستطيع أن يقول هذا . لابد أن سيادتكم تعنى

أن الناس هناك في النمسا متبهرون بهيدر .

بوبر : نعم ولكن هذا يتعلق بفساد تعليمهم .

إن هتلر هو مثال هايدر فهو يتمنى أن يفعل ما فعله هتلر
شبيجل : ولكنه لا يقول هذا صراحة . على كل حال
بوير : ولكنه يقول بصراحة ما يكفى لاستنتاج هذا . نعم أنه يقول هذا
لمن يريد أن يسمعه .

شبيجل : لقد عاشت ألمانيا نظامى حكم مختلفين تماماً لمدة ٦٠ عاماً.
أما الآن فقد تم التغلب والقضاء على هذه الدولة البوليسية . كيف ترى الآن
هذا الخطأ السياسى الذى ارتكب ؟ هل من الممكن أن نكون قضاة أخلاقيين ؟
بوير : نعم يمكننا أن نكون قضاة أخلاقيين لمجموعة القادة السابقين
لألمانيا الشرقية ، فإن نأتى بهونكر Honecker ^(١) الى ساحة القضاء أمراً
أعتبره فى غاية الأهمية .

شبيجل : سيادتكم إذن لا تطلب عملية تطهير شاملة ، ولكن أن تتم
محاسبة البعض ممثلين فى ذلك الكل ؟

بوير : نعم من المهم بمكان أن نأتى الى ساحة القضاء بأقل عدد ممكن ،
والأ ينطوى قلعنا هذا على انتقام أو أى شئ من هذه الأشياء الفظيعة التى
ارتكبت .

شبيجل : وبدون تعصب .

بوير : نعم وبدون تعصب . فالمحكمة يجب أن تتصرف بحذر بالغ ، إذ
يجب أن تقتصر المحاكمة على الجرائم التى ارتكبتها القادة السابقون بحيث لا
يتجاوز عددهم ١٥٠ شخص . لا يجب أن نتجاوز هذا المدى والا لكان فى
ذلك تبسيط مخل بالأمور .

شبيجل : أى أن سيادتكم لا تبغى محاسبة أتباعهم ، إذ لم يعد الناس اليوم
أبطالاً ولكنهم يحيون فى مجتمع كلى واحد لكى يستطيعون أن يحيون حياة
أكثر طبيعية ؟

(١) هونكر E. Honecker ، (١٩١٢ -) كان يشغل منصب السكرتير الأول

للحزب الشيوعى فى ألمانيا الشرقية .

بوبر هذا صحيح لا يجب بل لا يمكننا أن نؤذي هؤلاء الأتباع ، فلقد كان الخوف هو المتحكم في قدر كبير من تصرفاتهم ، وهذا هو أسلوب الإرهاب ، إحداث الرعب والخوف ، تبدأ البطولة عادة متى أرغم شخص ما على إثبات أفعال الشر والدناءة . هنا يجب أن يكون الإنسان عندئذ بطلاً ويفعل العكس .

شبيجل : يرى " فرنسيس فوكوياما ^(١) Fracis Fukuyama الفيلسوف المحافظ والذي يعد أبرز من يسلط عليه الأضواء في أمريكا هذه الأيام - أنه بإنتهاء الصراعات الأيديولوجية الآن وفي الإنتشار العالمي للديمقراطية الليبرالية - نهاية التاريخ - فبإنتصار الديمقراطية وصلنا الى آخر نقطة في التطور الطبيعية الأيديولوجي للإنسانية .

بوبر : هذه عبارات حمقاء . لا وجود لعجائب فلسفية . ثم أن ماركس أيضاً على أية حال قد ذهب الى أنه " بالثورة الاشتراكية " تتحقق نهاية التاريخ من حيث أن التاريخ ليس سوى تاريخ صراع بين طبقات .

شبيجل : لدى فوكوياما هناك شخص بارز رغم أن سيادتكم لم تعطه تقديراً خاصاً ألا وهو هيجل بنظريته عن العملية التاريخية التي تصل الى هدفها في سلسلة من النقائص بتحقيق الحرية على ظهر الأرض .

بوبر : بالطبع . نعم يقول هيجل هذا ، إذ أنه يرى في التاريخ تاريخاً للسلطة ، نعم لقد كان التاريخ في قدر كبير منه على هذا النحو . لم تكن كتبنا التاريخية أعمالاً يمثل التطور العقلي للبشرية فيها الموضوعات الأساسية ولكنها أعمالاً تروى تاريخ السلطة .

أمر بديهي أننا في حاجة الى نهاية للتاريخ ، نهاية لتاريخ السلطة . لقد جعلت الأسلحة هذه الحاجة حاجة ضرورية . لقد كانت دائماً ضرورة أخلاقية

(١) صاحب كتاب " The End of History and the Last Man " 1992 الذي نال به شهرته حين أعلن فيه نهاية التاريخ كعملية تطور وذلك بالوصول الى الديمقراطية الليبرالية .

ولكنها قد أصبحت اليوم مع تضخم الأسلحة ضرورة حياتية .
شبيجل : لقد كتبت سيادتكم قبل هيروشيمان أن الانسان سحتفى يوما ما
من على ظهر الأرض .

بوبر : لم لا ؟ هناك مخاطر لا يمكن توقعها . فكما نموت جميعا ، من
المحتمل أيضاً أن تموت الانسانية ، فقد نهلك يوما ما جميعاً بمجموعاتنا
الشمسية ، ولكن لا معنى للحديث أو للتفكير فى مثل هذه الأمور . ربما تعنى
ما قلته قبل ظهور مرض الايدز من أن ميكروباً ما سيلتهمنا ، وهو ما قد
يحدث بسرعة جداً فى أى وقت . ولكنه قد تمر آلاف أخرى من السنوات قبل
أن يحدث هذا .

شبيجل : مرة أخرى ، لا وجود إذن لقانون يحكم التقدم . لا وجود لنقطة
نهاية منطقية .

بوبر : لا وجود لهذا . لا وجود فعلى سوى لمسئوليتنا الضخمة . لا يجب
أن نكون أفضاظاً ، فإن نسمح على سبيل المثال بولادة أطفال يحملون مرض
الايدز أمر لا أستطيع ببساطة أن أفهمه " . لا فظاظه " يجب أن يكون أيضاً
هو موقف الكنائس الأول من الحياة .

شبيجل : الأستاذ بوبر . وأنت اليوم على مشارف التسعين كنت ومازلت
تصف نفسك بأنك متفائل ونلاحظ أن حديثك اليوم تشوبه نقاطاً كثيرة فيها
مسحة من التشاؤم . هل هذه خبرات جديدة فى مغرب الحياة ؟ .

بوبر : التفاؤل واجب ، فعلى المرء أن يركز فى الأمور التى يجب
أداؤها والمسئول عنها . لقد كان غرض ما قلته فى هذا الحديث أن أوصلك
أنت وغيرك الى أن تبقى دائماً على حذر ، يجب أن نحيا من أجل أن نجعل
حياة الأجيال القادمة بقدر الامكان أفضل من حياتنا وذلك ليس فقط من الناحية
الاقتصادية .

شبيجل : الأستاذ بوبر . نشكر سيادتكم شكراً جزيلاً على هذا الحديث

المقالة الخامسة عشر

آراء حول انهيار الشيوعية

محاولة لفهم الماضي من أجل تشكيل المستقبل

**Gedanken über den Kollaps des
Kammunismus Ein versuch, die
Vergangeüheit Zu verstehen, um
die Zukunft zu gestalten**

محاضرة ألقيت يوم ٦ مارس ١٩٩٢ في سيفيليا Sevilla

تماماً مثلما قد يكون حضراتكم إستتج بالفعل من عنوان هذه المحاضرة،
فأنا عدو للماركسية ، إن هجوم الماركسية على حضارتنا الغربية هو
موضوع حديثي هذا ، تمثل ثورة لينين وتروتسكي ١٩١٧^(١) بداية هذا
الهجوم ، لقد عاصرنا جميعاً كشهور عيان نحن المجتمعون هنا - انهيار
الماركسية .

قد يكون قليل منا فقط هنا من الكبر في العمر بحيث يمكنه أن يعرف من
خبرته الشخصية إلام إنتهت سائر مشاكلنا . ولكني أنتمى لهؤلاء الذين مازالوا
على قيد الحياة والذين يتذكرون جيداً ذلك اليوم الثامن والعشرين من يونيو
١٩١٤ ، اليوم الذي إغتيل فيه - إرسمسوج فرانز فرديناند Erzherzog
Franz Ferdinand النمسي - في سرايفو^(٢) . ومازلت حتى اليوم اسمع
صوت صغار الصحفيين وهم يقولون " إن القاعل شخص من الصرب " وما
زلت أتذكر أيضاً جيداً إندلاع الحرب العالمية الأولى يوم ٢٨ يوليو ١٩١٤
(كنت أبلغ وقتها الثانية عشر من عمري) . ولقد علمت وقتها بإندلاع
الحرب عن طريق خطاب من والدي وكذلك من الاعلان الذي وضعه القيصر
فرانز جوزيف على لوحة كبيرة " الى شعبي " . وكذلك أتذكر بوضوح ذلك
اليوم من عام ١٩١٦ الذي كانت النمسا وألمانيا ستخسر الحرب التي كانت
من تدبيرهما . وأتذكر ذلك اليوم في مارس ١٩١٧ الذي أعلنت فيه الثورة
الديمقراطية في روسيا . أتذكر الانقلاب الذي قام به لينين ضد حكومة
كرنسكي Kerenski ثم إندلاع الحرب الأهلية في روسيا ، وأتذكر معاهدة
برست - ليتوفسك Brest - Litowsk للسلام التي عقدت في مارس ١٩١٨

(١) ثورة ١٩١٧ هي الثورة البلشفية أو الثورة الروسية . يعد فلاديمير لينين (١٨٧٠ -
١٩٢٤) وليون تروتسكي (١٨٧٩ - ١٩٤٠) من أبرز قادة هذه الثورة . اسس الأول
الى جانب قيادته للثورة الحزب الشيوعي الروسي ، أما الثاني فقد شغل بعد الثورة منصب
وزير الشؤون الخارجية ووزير الحرب (١٩١٧-١٩٢٤) .

(٢) يعد مقتل الدوق فرديناند بداية الحرب العالمية الأولى والتي أدت الى انهيار
الأمبراطورية النمساوية .

بين ألمانيا وروسيا لينين وتروتسكى وأتذكر انهيار الامبراطورية الألمانية والنمساوية فى أكتوبر ١٩١٨ والتى بها إنتهت الحرب العالمية الأولى ، تصبح هذه الحوادث ضمن أكثر الحوادث - التى أستطيع تذكرها - دلالة وضمن الحوادث التى ألفت بالبشرية جمعاء على حافة الإبادة العامة .
يجب على فى محاضرة قصيرة أن أقوم بعملية تبسيط جذرى : أن أقوم برسم صورة التاريخ كما أراه بفرشاة عريضة والوان واضحة .

قبل الحرب العالمية الأولى كان التصنيع فى أوروبا الغربية ، ألمانيا وفى شمال أمريكا من الممكن أن يؤدى مباشرة الى مجتمع ليبرالى حقيقى . بل لقد عرفت هذه البلاد بالفعل الحرية والإنتعاش الاقتصادى الضخم الذى تمثل فى حدود مفتوحة ، وإلغاء لجوازات السفر ونقص الجرائم وأعمال العنف ، مستوى تعليمى وثقافى مرتفع بصورة مستمرة ، أجور مرتفعة ثم رفاهية فى الحياة ، كما أدى التقدم التكنولوجى الى تخفيف فى الأعمال اليدوية الثقيلة .
لقد قضت الحرب العالمية الأولى التى شنتها ألمانيا والنمسا على كل هذا وأظهرت أنه لم يعد هناك ثقة بأشكال الحكومات التى سمحت بتدبير الحرب .
واليوم نرى أنفسنا نواجه نفس المشكلة .

لم تكن هزيمة القوى المحاربة الثلاث - ألمانيا والنمسا وتركيا - فى نهاية الحرب العالمية الأولى هزيمة من الخارج فقط ، فلقد حدث فى الداخل - خاصة فى النمسا - ثورة دموية لم تكن بتأثير الثورة الروسية ، بل وأهتزت أيضا أسس نظام قوتين من القوى المنتصرة - فرنسا وإيطاليا . فقط بريطانيا والولايات المتحدة استمرت فى نهج الإصلاح الليبرالى الذى كانتا قد بدأتاه قبل الحرب ولكنه لم يحدث سوى بعد أن توقف صراع الجنرالات فى إنجلترا الذى حاول - بتأثير جزئى من روسيا - إقامة ثورة .

لقد كان لمثال الدولتين الناطقتين بالانجليزية - بلا شك - تأثير ثابت بغض النظر عن انهيار البورصة والأزمة الاقتصادية العالمية . لقد كانت إنجلترا عام ١٩٣٥ أفضل دولة صناعية أوروبية رأيتها فى حياتى رغم

البطالة ورغم تهديد هتلر لها : فكل عامل وكل سائق لمركبة من مركبات النقل العام وكل سائق تاكسي ، وكل رجل شرطة كان بحق سيداً كاملاً. ولكن أدى انتصار الماركسية في روسيا والمبالغ الضخمة التي تم إنفاقها على الدعاية ولغرض تنظيم الثورة العالمية الى تقسيم الغرب تقسيماً سياسياً جذرياً الى يسار ويمين . لقد مهد هذا التقسيم الطريق الى ظهور الفاشية - في إيطاليا أولاً تحت حكم موسوليني - وهى السياسة التي انتهجتها حركات فاشية فى بلاد أوروبية أخرى - فى ألمانيا والنمسا بصفة خاصة ، كما أدى الى حدوث حرب أهلية فى مناطق معينة - حرب أهلية من جانب واحد من حيث أنها كانت تشب دائماً من قبل إرهابيو اليمين .

لقد أصبح الوضع إذن على النحو التالى : أصبح الشرق - وبصفة خاصة الاتحاد السوفيتى - تحكمه دكتاتورية لماركسية منعقدة الضمير تقوم على ايديولوجية قوية وعلى ترسانة حرية لم يكن لها مثل من قبل . من هنا أصبح الغرب بصورة دائمة مهدداً بعنف ممكن (ولكن نادراً ما كان واقعياً) من جانب قوى اليسار القوية التي كانت خاضعة لتأثير الأحزاب الماركسية والدعاية التي مارستها السلطة فى روسيا وكذلك للأمل الذي كان يحدها فى مجتمع اشتراكى وهو ما أدى باليمين إلى عنف مضاد وأدى إلى تقوية الفاشيين . وهى الفاشية التي استسلم لها كل من ألمانيا والنمسا والجزء الجنوبي من أوروبا أو سقطوا ضحية لها .

لقد وصل تقسيم العالم الى قطبين إلى أقصى حد له فى الحرب الأهلية الراهية التي حدثت فى اسبانيا ^(١) والتي لم تكن بالنسبة للروس ولنازيى ألمانيا آخر تجربة فى شن الحرب الحديثة .

(١) وهى الحرب التي اندلعت عام ١٩٣٦ بين الجمهوريين والقوميين الذين كان يقودهم فرنسيسكو فرانكو الذى كان يتلقى أسلحة ومساعدات من كل من هتلر وموسوليني بينما كان الجمهوريون يتلقون المساعدات من الاتحاد السوفيتى . أنهت الحرب عام ١٩٣٩ بانتصار القوميين وأصبح فرانكو رئيساً للدولة حتى وفاته ١٩٧٥ .

بل ولقد وجدت حتى في فرنسا وبريطانيا أحزاب فاشية ، رغم ادعاء
هاتين الدولتين ودول الشمال الصغيرة بأنها تمارس الديمقراطية .
في هذا الوضع الذي كان سائداً قبل الحرب التي شنها هتلر ضد الغرب
ذهب المفكرون الى أن الديمقراطية ليست سوى مرحلة تحول في تاريخ
البشرية وتتبدوا بقرب نهايتها . لقد بدأ بالمصادفة كتابي " المجتمع المفتوح
وأعداؤه " بهجوم على هؤلاء الناس وعلى طريقة التنبؤ التاريخي الفاسدة
هذه .

ثم شن هتلر الحرب العالمية الثانية وخسرها بفضل رجل واحد هو
ونستون تشرشل ، فإليه يعود الفضل في توثيق التحالف بين الديمقراطية
الغربية وروسيا وإلى هزيمة هتلر وأعوانه . ومع هذا فقد كانت إحدى نتائج
هذه الحرب ، أن قوى اليسار أصبحت أقوى في التقسيم العالمي إلى يسار
 ويمين . نعم لقد انتهزمت الفاشية بفضل هزيمة هتلر وموسوليني ولكن نشأت
الحرب الباردة الأكثر تهديداً بين الشرق والغرب . وبينما انصهر الشرق معاً
في وحدة واحدة تحت القبضة الحديدية للدكتاتورية الشيوعية انقسمت
الديمقراطيات الغربية فيما بينها إنقساماً لم يحدث لها من قبل ، وذلك عن
طريق اليسار المدفوع والمدعوم بواسطة روسيا الذي أثار القلاقل حتى في
الشرق الأوسط بل وفي العالم بأسره ضد ما يسمى بدول الغرب الرأسمالية .
ورغم كل شيء فقد لقت الديمقراطيات الحرة - المجتمعات المفتوحة ثمار
النصر . فلم تكن هي التي إنهارت بسبب توترها الداخلي الضخم الذي كانت
تناقشه بنفسها بين الحين والآخر . ما انهار كانت الديكتاتورية الشيوعية في
المانيا الشرقية المنغلقة تماماً على نفسها تماماً وهوت الأمبراطورية السوفيتية
المتحدة القوية إلى الفاع .

سيداتي سادتي ، حاولوا من فضلكم أن ترون معنى أي التوترات الهائلة
تلك التي استطاعت الديمقراطيات أن تجتازها (تتغلب عليها) . أؤكد
لحضراتكم أن ما صمدت هذه الديمقراطيات أمامه كان أكبر إمتحان يمكن

لتجمع قوى سياسية أن تواجهه . لقد كان تجمع القوى السياسية هذا ارتباطاً ضعيفاً بين شعوب ديمقراطية ، لقد كانت كل قوة ممزقة من الداخل ومهددة من الخارج من قبل قوى خارجية كبرى وهو ما عمق من توتراتها الداخلية . كانت لكل قوة على حدة مشكلات كبرى خاصة بها يجب عليها حلها ، مشكلات خاصة يصعب على تجمع القوى فهمها . كانت كل قوة " منزل " ein Haus له خلافاته الداخلية الخاصة وتهده قوى كبرى خارجية . ومع هذا فقد صمدت هذه " المنازل " ، هذه المجتمعات المفتوحة ، إذ كانت مجتمعات مفتوحة .

أما المنزل المغلق على نفسه والذي كانت تربطه سلسلة حديدية فقد إنهار على نفسه وتفتت الى أجزاء .

لقد إنتصرت إذن المجتمعات المفتوحة وانتهزت الامبراطورية السوفيتية ولحسن الحظ أن هذا قد حدث دون أن تتطلق رصاصة واحدة من الشرق أو الغرب ، حتى الآن على الأقل . ولكن لسوء الحظ حدث وما زال يحدث إراقة دماء بين الدول التي كانت أعداءنا السابقين . ورغم أننا أنفسنا نعاني من أزمة اقتصادية كانوا هم سببها ، فإننا الآن نساعدهم في معاناتهم وبؤسهم الذي جلبته اليهم الماركسية .

أستطيع أن أخص نظريتي عن هذه الأحداث الكبرى والدالة والتي نشهدا بدءاً من ١٩٨٩ والتي لم تظهر لها نهاية بعد . نظريتي عن المرض الذي أدى الى موت الماركسية في العبارة التالية : لقد ماتت الماركسية بسبب الماركسية Der Marxismus ist am Marxismus gestorben .

يمكن التعبير عن هذه الصياغة على نحو أدق على النحو التالي ، لقد ماتت السلطة الماركسية لفقر النظرية الماركسية ، قد تكون النظرية الماركسية - الأيديولوجيا - الماركسية - نظرية معقولة ولكنها تعارضت مع وقائع التاريخ والحياة المجتمعية . فالأمر يتعلق بنظرية خاطئة جداً ونظرية غير ملائمة بدرجة كبيرة .. لقد كانوا يحاولون مداواة أخطاء النظرية الكثيرة

بأكاذيب صغيرة وكبيرة ، أكاذيب لا عدد لها . لقد تحولت الممارسات الوحشية للسلطة السياسية والأكاذيب التي يساندها العنف الى أن أصبحت بالفعل العملة العقلية المعتادة للطبقة الشيوعية المتحكمة في روسيا والتي تدعمها القوة الدكتاتورية وكذلك العملة العقلية المعتادة للطبقة الطموحة .

لقد تحول هذا العالم من الأكاذيب الى فجوة عقلية سوداء . وكما تعرفون لقد تمتعت الفجوة السوداء بقوة غير محدودة على التهام كل شئ وتدمير كل شئ . ولقد انطمس التمييز بين الحقائق والأكاذيب ، والتهم الفراغ العقلي نفسه في النهاية مما أدى الى موت الماركسية بسبب الماركسية ، بل لقد ماتت قبل ذلك بزمان ، ومع هذا - وهو ما أخشاه - ما زال الملايين من الشرق والغرب يتمسكون بالماركسية . وكما حدث حتى الآن فإنه من الممكن أيضاً أن يحدث في العالم الواقعي : أن يتم تجاهل الوقائع . بهذا اصل الى نهاية الجزء الإفتتاحي من محاضرتي .

ينقسم الجزء التالي الآن الى قسمين . الجزء الأول عرض مختصر ونقد للماركسية ، أما الجزء الثاني فمحاولة لتوضيح كيف يمكن الاستفادة من الوضع الحالي في تحسين حياتنا وذلك عن طريق اجراء اصلاح سياسى . اصلاح الديمقراطية الحالية . لا أعنى بهذا الاصلاح تغيير مؤسساتنا ولكنى أعنى به فقط تغيير موقفنا .

ربما جاء الجزء الافتتاحي من محاضرتي شديد التجريد شيئاً ما . من هنا يبدو لى من الأفضل أن اضيف اليه بعض الملاحظات لكي يأخذ شكل سيرة ذاتية بدلاً من الاستمرار على نفس الطريقة التي عرضتها والتي قد تكون ارهقكم وذلك قبل أن أعرض النظرية الماركسية وتفنيداتها النقدية .

لهذا سأحاول أن أجعل محاضرتي حية بشكل ما بأن أقص على حضراتكم شيئاً من فترة شبابي : كيف اعتنقت الماركسية - أو كنت على وشك اعتناقها وكنت تحولت بعد ذلك بقية حياتي الى عدو لها ، فذلك كله حدث قبل أن أبلغ السابعة عشر من عمري في الثامن والعشرين من يوليو

عام ١٩١٩ .

لقد كان والدى من إتياع مذهب المسالمة وذلك قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة كان والدى يعمل بالمحاماه وكان ليبرالياً ومتقناً جداً ومتأثراً بفلسفات امانويل كانط وفيلهلم فون هامبلدت وجون ستيوارت مل . ولقد حدث أن إنشغلت لأول مرة بمشكلة الحرية السياسية أثناء الحرب العالمية الأولى وكنت وقتها فى الرابعة عشر أو الخامسة عشر .

وبينما كنت أمعن التفكير - يحدونى الأمل - فى السلام والديمقراطية جاعنى إقتناع مفاجئ بأن الديمقراطية لا يمكن تحقيقها تحقاً قطعياً ، إذ فى نفس اللحظة التى تستقر فيها الديمقراطية ، يبدأ المرء فى التفكير فيها كما لو كانت أمراً بديهياً . هنا تتعرض الحرية للخطر ، إذ لن يسعى الناس إليها وسيهتمون بما لا يمكنهم أن يتصورونه وهو ما الذى يمكن أن ينتج عن فقدانها : فقد يكون الإرهاب أو الحرب .

ورغم هذا الإدراك جذبنى الحزب الشيوعى اليه والذى كان يزعم فى ذلك الوقت انه حزب الحرية وذلك إبان معاهدة برست - ليتوفسك للسلام فى مارس ١٩١٨ . ولقد كثر الحديث فى تلك الأيام قبل نهاية الحرب العالمية الأولى عن السلام ، ولكن لم يكن هناك أحد بخلاف الشيوعيين على استعداد للتضحية من أجل تحقيقه وهو ما كان تروتسكى يأمل فيه فى معاهدة برست - ليتوفسك للسلام . لقد كانت هذه هى مهمته فى بقية العالم . لقد استمعت الى هذه المهمة بإرتياح شديد رغم أننى لم اشعر أبداً بالأسف تجاه البلاشفة والذين كثيراً ماقص على صديق روسى أكاذيبهم التى اعتادوها ومظاهر تعصبهم .

لقد حدث بعد انهيار الامبراطورية الألمانية والنمساوية أن أثرت - لأسباب مختلفة - ألا أذهب للمدرسة أكثر من هذا وأن استعد لإمتحان القبول بالجامعة ولم يمر وقت طويل حتى قررت أن أجرب بنفسى ما الذى يدعو اليه الحزب الشيوعى هذا . كان هذا على وجه التقريب فى ابريل ١٩١٩ عندما ذهبت الى مركز الحزب وعرضت عليهم أن أعمل كساع . لم

أكن وقتها على دراية كبرى بالنظرية الماركسية ، ورغم أنى كنت وقتئذ
أصغر من أن أصبح عضواً فى الحزب فلقد فتح لى المسئولون أذرعهم
وعرضوا على سائر الأعمال الممكنة . كنت غالباً ما أحضر اجتماعاتهم غير
السرية - وهو شئ جدير بالذكر - وهو ما جعلنى أتعرف على الكثير من
طريقة تفكيرهم . لم يحدث سوى فى حالات ضرورية قليلة جداً أن خالفت
مصيده الفئران الأيديولوجية الماركسية هذه (وهو الاسم الذى أعطيته لها
فيما بعد) . كنت فى ذلك الوقت مدفوعاً بشكل قوى بما كنت أعتبره واجبى
الأخلاقى . وهو ما كان سيؤدى بى الى الطامة الكبرى .

أريد الآن أن اصف هذه الحالة الأيديولوجية وأن أسرد بعد ذلك كيف
فررت منها : حادثتان بارزتان حسمتا هذا الأمر : الأولى كانت صدمة
أخلاقية أنزلتها بى حادثة فظيعة والثانية كانت بشاعة أخلاقية هائلة .

لنظرية الماركسية أو الأيديولوجيا الماركسية جوانب كثيرة ، ولكن يكمن
أهمها فيما يلى : النظرية الماركسية نظرية تاريخية ، تزعم بأنه يمكنها التنبؤ
ببقيين مطلق وعلمى فى نفس الوقت بمستقبل البشرية . بتعبير أدق : تزعم
الماركسية بأنه بإمكانها التنبؤ بالثورات الاشتراكية مثلما يمكن لعلم الفلك
النيوتونى أن يتنبأ بخسوف للقمر وكسوف للشمس . لقد أسس ماركس نظريته
على الفكرة الأساسية التالية : ليس تاريخ المجتمعات حتى الآن سوى تاريخ
صراع بين طبقات .

لقد أعلن ماركس عام ١٨٤٧ لأول مرة فى كتابه بؤس الفلسفة أن
صراع الطبقات يجب أن يتوج فى النهاية بثورة اشتراكية والتي تؤدى الى
قيام مجتمع لا طبقي أو مجتمع شيوعى . لقد كانت حجته موجزة جداً : بما
أن الطبقة العاملة (طبقة البروليتاريا) هى الطبقة الوحيدة المقهورة مثلما
كانت من قبل وهى الطبقة الوحيدة المنتجة ، بالإضافة الى أنها تمثل الأغلبية،
فإنها يجب بالضرورة أن تنتصر . يجب أن يؤدى انتصارها الثورى هذا الى
القضاء على سائر الطبقات الأخرى ومن ثم الى مجتمع لا وجود فيه سوى

لطبقة واحدة . هذا المجتمع ذو الطبقة الواحدة هو مع هذا مجتمع لا طبقي أو مجتمع لا وجود فيه لطبقة مهيمنة أو طبقة سائدة ، فهو مجتمع شيوعي كما أوضح ذلك ماركس وانجلز بعد ذلك بعام في المانيفستو الشيوعي الذي أخرجاه .

وبما أن التاريخ ليس سوى تاريخ صراعات بين طبقات فإنه يعنى أنه بتحقيق الشيوعية ينتهى التاريخ ، لن يكون هناك حروب أخرى ، صراعات أخرى ، عنف آخر أو قهر آخر ، وستنتهى سلطة الدولة . وهو ما اذا عبرنا عنه بالتصورات الدينية نقول : ستتحقق الجنة على الأرض .

فى مقابل هذا لم يكن المجتمع الموجود وقتها - والذي أطلق عليه ماركس المجتمع الرأسمالى - وفقاً لمذهبه سوى مجتمع تتمتع فيه الرأسمالية بالسيادة التامة ، ألا أنه مجتمع دكتاتورية الطبقة الواحدة . لقد بين ماركس فى عمله الضخم " رأس المال " - الذى جاء فى ثلاثة مجلدات من ١٧٤٨ صفحة - أن عدد الرأسماليين - وفقاً لقانون تركيز رأس المال - يتناقص باستمرار ، بينما يجب أن يتزايد فى المقابل عدد العمال . وفقاً لقانون لآخر مماثل ألا وهو قانون الإفقار المتزايد ، فإن حالة العمال تسوء باستمرار ، فهم يزدادون فقراً ويزداد أصحاب رأس المال ثراء . يجعل بؤس العمال غير المحتمل من هؤلاء العمال ثواراً راديكاليين على وعى بمصالحهم الطبقيّة . ثم يتحد عمال العالم بأسره ومن ثم تؤدى الثورة الاشتراكية الى تحقيق النصر ، تنهار الرأسمالية ومعها رؤوس الأموال ويتحقق السلام على الأرض .

فقدت نبوءة ماركس كل ثقة فيها على مدار التاريخ ولم يعد الماركسيون فى الغرب يتبنون هذه الفكرة وذلك رغم أنهم ينادون وينجاح بالنظرية القائلة بأننا نعيش فى عالم رأسمالى لا إنسانى ، عالم متدهور ومنحط أخلاقياً . وعلى أية حال لقد كانت الماركسية فى سنوات الجوع والشظف - سنوات الحرب العالمية الأولى والسنوات التى تلتها والتى كانت أشد سوءاً - محط ثقة الكثيرين ، حتى أن بعض المشاهير من علماء الفيزياء والبيولوجيا

اعتنقوها ، فأينشتين نعم لم يكن ماركسياً . من حيث أنه كان على وعى بأن نظرياتها لم تكن كافية ، ولكن من المؤكد أنه كان متعاطفاً معها بل وكان معجباً بها . أما بعض العلماء البريطانيين البارزين ونذكر من بينهم هلدن J.B.S. Haldane^(١) وبرنال J.D. Bernal^(٢) فقد كانوا أعضاء فى الحزب الشيوعى . ما جذبهم فى النظرية الماركسية لم يكن سوى الدعوى التى أطلقتها بأنها علم تاريخى . فلقد أعلن العالم " برنال " وذلك قبل وفاة ستالين بفترة قصيرة ، بأن ستالين أعظم عالم موجود على قيد الحياة بل وأنه واحد من أعظم العلماء الذين وجدوا على مر التاريخ . يمكن أن نعطي هنا مثلاً واحداً فقط لنبين به كيف كان المقصود من هذه الدعوى أن ترقى الى مرتبة العلم . لقد كان هناك كتاب لألكسندر فايسبرج A. Weibberg وهو عالم فيزيائى من فيينا ، كنت أعرفه معرفة جيدة وإن كان فى ذلك الوقت متوفياً . لقد ذهب هذا العالم عام ١٩٣١ الى روسيا مؤيداً ومتحمساً لستالين والذى قام بسجنه عام ١٩٣٦ ضمن من سجن فى عملية التطهير الكبرى التى قام بها . تعرض هذا العالم لعمليات التعذيب بصورة متكررة وظل يكابد السجن فى ظروف قاسية الى أن جاءت معاهدة هتلر - ستالين ١٩٣٩ والتى بمقتضاها قام ستالين ببيعته هو وغيره من الشيوعيين الألمان والنمساويين لهتلر - والتى كانت بلا شك أحقر صفقة حدثت فى التاريخ - تم وضع ألكسندر فايسبرج مع غيره فى معسكرات هتلر ومن هناك حاول الهرب أكثر من مرة ولكنه فى كل مرة كان يتم القبض عليه وأعادته مرة أخرى الى أن حررت القوات الروسية ١٩٤٥ ضمن من حررت . كتب فايسبرج فى نهاية كتابه الشيق للغاية هذا والذى حكى فيه عن سنوات المراقبة التى قضها فى

(١) جون سكوت هلدن (١٨٦٠ - ١٩٣٦) عالم فسيولوجى وفيلسوف انجليزى مشهور بتوضيحه لعملية تبادل الغازات أثناء التنفس .

(٢) جون برنال (١٩٠١ - ١٩٧١) عالم انجليزى مشهور بدراساته للتركيبات الذرية للمكونات الصلبة .

سجون ستالين أنه ما زال يؤمن بنظرية التاريخ الماركسية . ولقد قابلته في لندن ١٩٤٦ ولقد اعتقدت أنه لابد أنه تخلص من اعتقاده هذا ، ولكن عندما ظهر كتابه هذا ١٩٥١ في ألمانيا وقابلته بعدها بسنوات لأخر مرة قبل وفاته كان ما زال يؤمن بنظرية التاريخ الماركسية إلا أنه كان يرى فقط أنها في حاجة الى بعض التعديلات . ولقد حاولت بالطبع أن اردء عن اعتقاده هذا ، ولكن هل افلح فيما لم تفلح فيه سجون ستالين ؟ .

أريد أن أذكر أيضاً ثلاثة أشخاص آخرين ممن كانوا أيضاً مؤمنين بالماركسية وكانوا في نفس الوقت علماء بارزين - أذكر أولاً الزوجين - عالمي الطبيعة الشهيرين - جوليوت وكورى - إيرينا ابنة مدام كورى وزوجها فريدريك جوليوت Joliot والذين حصلوا على جائزة نوبل في الكيمياء ١٩٣٥ . كان هذان الزوجان عضوين في المقاومة وفي وكالة الطاقة الذرية الفرنسية ، كما كانا حتى وفاتهما - عضوين بارزين نشيطين في الحزب الشيوعي .

ثم هناك أندريه زاخاروف ، ابو القنبلة الهيدروجينية الروسية ، ولقد كنت وما زلت شديد الإعجاب بزاخاروف ولقد أقيمت كلمة في نيويورك بمناسبة بلوغه سن الستين ، دافعت فيها عنه ووجهت نداء للحكومة الروسية أن تطلق سراحه . ولدهشتي فقد علمت من كتابه " حياتي " الذي يحكى فيه ذكريات حياته كيف كان شديد الاقتناع بالمذهب الشيوعي الرسمي وهو في سن الأربعين . وكيف أنه نزع الدمع بغزارة عند وفاة ستالين ، أكبر صديق للبشرية ، كما وصفه . كان زاخاروف يعتقد أن الثورة آتية لا محالة وأن هذه الخشونة وتلك القسوة التي مارسها صديق البشرية هذا كان لا مناص منها . هذا الاقتناع كان مستولياً عليه تماماً وهو في الأربعين من عمره - وكان هذا حوالي ١٩٦١ - وهو الاقتناع الذي اضطر الى تغييره تغييراً جذرياً فيما بعد .

أما أنا فلا أفهم من هذه الحالة الماركسية فقط هذه النظرية العلمية

المرعوم والتي نتوج بالنبوءة التاريخية الماركسية ولكنى بالأحرى فهمهم على أنها السلاسل الأخلاقية التي تبدو أنهم تربط ذلك المفتاح تلك النبوءة بالحرب أتذكر جيداً هذه القيود الأخلاقية التي تشكل هي والنبوءة معاً الحالة الماركسية .

من البداية وأنا فى شك من هذه الجنة التي لا بد أن تتبع الثورة . بالطبع ساءنى المجتمع النمساوى وقتها ، مجتمع الجوع والفقر والبطالة والتضخم السريع ومجتمع المضاربين فى البورصة والذين خلقوها للاستفادة المادية منها. لقد اقلقتنى المقصد الصريح للحزب والذي شعرت أنه يثير فى رجاله غرائز قاتلة ضد " أعداء الطبقة Klassenfeind " . لقد أوضح لى أحدهم أن هذا ضرورى وأنه لا يجب أخذه على أية حال مأخذاً جدياً . ففى ظل الظروف الماركسية يموت كل يوم عدد من العمال أكثر من العدد الذى يموت اثناء قيام ثورة ما . لقد قبلت هذا ولكن على كره منى ولكنى مع هذا لم أستطع التخلص من الاحساس بضرورة دفع ثمن غال وهو ما يناهى يقينى الاخلاقى . كان رجال الحزب يقولون وبوضوح فى يوم ما ما يقولون عكسه تماماً فى اليوم التالى وما ينقضونه تماماً فى اليوم الذى يليه . فلقد أنكروا على سبيل المثال وبشكل جدى الرعب الأحمر den Roten Terror من أجل تدعيم القول أن هذا كان ضرورياً . وعندما اعترضت على هذا جاء من يسمنى أن هذا التناقض كان ضرورياً وأنه لا يجب انتقاده ، إذ أن وحدة الحزب أمر ضرورى من أجل نجاح الثورة . نعم قد تكون هناك أخطاء ارتكبت ولكن لا يجب على المرء التشهير بها . فالإخلاص للحزب يجب أن يكون إخلاصاً مطلقاً ، إذ نظام الحزب وحده هو ما يمكنه تحقيق النصر بصورة أسرع ورغم أنى قبلت هذا أيضاً على كره منى ؛ فلقد تملكنى الشعور بأن أضحى بالحزب مثلاً ضحية بإخلاصى واستقامتى الشخصية .

ثم حدثت الكارثة : أطلق رجال الشرطة ذات يوم من أيام شهر يونيو ١٩١٩ الرصاص على إحدى المظاهرات التي قام بها شباب من الحزب عزل

من السلاح ، كان نتيجة هذا أن مات ثمانية أشخاص (إن لم تخننى الذاكرة) .
لم يكن تصرف الشرطة هو وحده ما أغضبني ولكنى غضبت أيضاً من
نفسى ، إذ لم يحدث فقط أن كنت مشتركاً فى هذه المظاهرة ولكنى وجدت من
الصواب أن (يحميها) الحزب ، ولقد شجعت غيرى من الشباب على
الاشتراك فى هذه المظاهرة وربما كان البعض منهم من القتل . لماذا ماتوا ؟
لقد شعرت بالمسئولية تجاههم وكانت النتيجة التى توصلت إليها هى على
النحو التالى : نعم من حقى أن أخطر بحياتى الخاصة من أجل مثل أو من بها
ولكن ليس من حقى بالتاكيد أن أشجع غيرى على أن يخاطرون بحياتهم من
أجل المثل التى أو من بها ومن أجل نظرية كالنظرية الماركسية صحتها من
الممكن بشكل كبير أن تكون موضع شك .

هل قمت بالفعل بمناقشة النظرية الماركسية مناقشة جادة ونقدية ؟ يجب
أن أقر وأعترف - بأسف شديد - أن الإجابة : لا لم يحدث .

وعندما ذهبت بعد ذلك الى مقر الحزب وجدت وجهة النظر فيما
حدث على النحو التالى : لابد للثورة من ضحايا ، فهو أمر لا يمكن تجنبه ،
بل تشكل مثل هذه الحوادث تقدماً ، إذ أنه من شأنها أن تجعل العمال أكثر
حنفاً على الشرطة وتريد من وعيهم بالعداء الطبقي .

منذ ذلك اليوم انتهت صلتى تماماً بالحزب ولم أعد أذهب الى هناك
وفررت من الحالة الماركسية .

وعلى أية حال فلقد بدأت الآن مناقشة الماركسية مناقشة نقدية .
ولقد نشرت نتائج هذه المناقشة النقدية لأسباب كثيرة - أهمها أنى لم أرد
تأييد الفاشية بأية طريقة - لأول مرة منذ ٢٦ عاماً وذلك فى كتابى المجتمع
المفتوح وأعداؤه . وبين هذا الوقت واليوم كنت قد وصلت الى نتائج أخرى :
لقد وضعت معياراً يمكن أن نحدد وفقاً له متى تكون نظرية ما نظرية علمية ،
أو علماً وذلك بالمعنى الذى نقول وفقاً له عن علم الفلك النيوتونى مثلاً أنه
علم .

لقد أردت أن أذكر النقاط الكثيرة التي تبين خطأ النظرية التاريخية لماركس ، ولكن هذا يخرج عن نطاق هذه المجاضرة ، فكتابي عن المجتمع المفتوح يقدم نقداً وتحليلاً تفصيلياً للتبوءة الماركسية . أريد هنا أن أبرز فقط الجوانب شديدة الوضوح : لن يكون هناك وفقاً لماركس وجود للرأسمالية ، فلقد عانى المجتمع والذي يعرفه ماركس - ثورات كبيرة - لقد إختفى من مجتمعاتنا الغربية العمل اليدوي الشاق غير المحتمل والمهلك الذي ، كان الملايين من الرجال والنساء يضطرون لأدائه ، وهو العمل الذي رأيتُه بعيني والذي لا يمكن لأحد - لم يمارسه - أن يستطيع تصويره : إنها ثورة في الحقيقة ، ثورة ندين فيها للتقدم .. للتكنولوجيا .

وعلى كل - فلقد حدث تماماً عكس ما تنبأ به ماركس ، فأحوال العمال لم تعد سيئة ، والكثير راضون ومغبطون بحياتهم في ظل الديمقراطية الغربية ، وإن كان اليسار - الأحمر - والأخضر - ما زال يعلن ويقوى الاعتقاد بأننا نحيا عالماً لا إنسانياً وأن الأمور تتقل من سيئ إلى أسوأ مما ينتج عنه الاحساس بذلك ، إذ تعتمد السعادة والرضا في قدر منها على ما نعتقد ونشعر به . وعلى كل فمجتمعنا المفتوح - منظور إليه من وجهة نظر المؤرخين - هو أفضل وأعدل مجتمع وجد حتى الآن على سطح الأرض .

من الواضح تماماً أن الأمر لم يعد يتعلق بالمجتمع الذي وصفه ماركس بالمجتمع الرأسمالي ، ومن ثم لا يوجد مبرر لأن نخدع أنفسنا ونعطيهِ أيضاً هذه التسمية .

لم يكن " للماركسية " بالمعنى التاريخي الذي استخدم به ماركس هذا التصور وجود على الإطلاق . ولم يتحقق وجود المجتمع بالمتعنى الذي قصده ماركس بقاتون الافتقار المتزايد أو مجتمع لدكتاتورية ، مستترة خفية للرأسماليين . فذلك كله محض خداع ذاتي . هب أننا سلمنا بأن الحياة مع بداية عهد التصنيع كانت شاقة جداً ، فالتصنيع مع هذا كان يعنى أيضاً إنتاجية

متزايدة وانتاج بالجملة - من الواضح أن هذا الإنتاج بالجملة قد وجد أخيراً طريقه نحو الضخامة . من هنا ليس تصوير ماركس للتاريخ ونبوءته التي وضعها فقط خاطئة ولكنها مستحيلة ، إذ لا يمكن أن يكون هذا الانتاج وفقاً لنظرية ماركس لصالح عدد صغير يتناقص من أصحاب رأس المال الأثرياء . يمكن أن تقرر إذن : إن رأسمالية ماركس بناء على مستحيل ، بناء وهمي . ومن أجل القضاء على هذا البناء الوهمي ، أعد الاتحاد السوفيتي ترسانة من الأسلحة لم يحدث لها مثيل من قبل ، تتضمن أسلحة نووية تكافئ في مجموعها ما مقداره حوالي خمسين مليون - وإن لم يزد - قنبلة من قتابل هيروشيما . كل ذلك من أجل القضاء على جحيم تخيلوه ولا إنسانية مزعومة . نعم الجنة ليست متحققة فوق الأرض ولكننا مع هذا أقرب إليها من إقتراب الواقع الشيوعي منها .

للمرة الثانية أصل إذن إلى نفس النتيجة - ولكن هذه المرة من جانب آخر - من جانب التحليل المنطقي ونقد الأيديولوجيا الماركسية .

لا يجب أن نسمح مرة أخرى لمثل هذه الأيديولوجيات أن تشلنا الى فلكتها . والآن اصل الى آخر جزء من محاضرتي . ما الذي يمكننا تعلمه من الماضي من أجل المستقبل ؟ وما الذي يمكننا أن ننصح به سامعائنا ؟ .

يجب أن نحرر أنفسنا بادئ ذي بدء من عادات التفكير التي لا معنى لها ، فالمرء ذو الفطنة يمكن أن يتوقع ما سوف يحدث ، فقد يعتقد البعض أن معيار الحكمة يكمن في التنبؤ الصحيح ، وأن البرنامج المعقول للمستقبل يجب أن ينطلق من تنبؤات صادقة .

وينظر كل شخص لتاريخ البشرية على أنه تيار قوى ينساب أمام أعيننا . فنحن نرى كيف يأتينا من الماضي ، وإذا نظرنا إليه نظرة صحيحة ، يجب عندئذ أن يكون بإمكاننا أن نتنبأ على الأقل بالاتجاه العام لمجرى المستقبل ، يبدو أن الكثير من الناس مقتنعون بهذا ولكن هذا خطأ جوهري ؛ بل أنه خطأ اخلاقي - يجب أن نحل محل هذا الفهم طريقة تفكير مختلفة تماماً ، وهو

ما أقترحه على النحو التالي :

ينتهي التاريخ باليوم الحالى ، يمكننا أن نتعلم منه . ليس المستقبل إمتدادا للماضى ولا تكملة له . فالستقبل لم يوجد بعد ، تكمن مسئوليتنا عنه فى أننا نؤثر فيه ، فى أننا يمكن أن نفعل أى شئ وأن نجعله على صورة أفضل من الحاضر والماضى .

لتحقيق هذا الغرض يجب أن نستفيد مما تعلمناه من الماضى ، كما يجب أن نكون قد تعلمنا ماهو أهم : أن نكون متواضعين .
ما الذى أقترح فعله إذن ؟

لقد تميز الماضى - كما رأينا - بالانقسام العالم الى قطبين : يسار ويمين وهو ما كان نتيجة الاعتقاد فى جحيم رأسمالى لم يحدث له وجود . هذا الانقسام كان يسمح بالتدمير من أجل البشرية حتى وان أدى الى دمار وفناء البشرية ذاتها . لقد كاد هذا أن يحدث . ولكن يمكننا الآن أن نأمل ألا يمارس هذا التصور الواهم أى تأثير آخر . (رغم أننى أخشى أن هذا سيستمر مدة طويلة حتى يختفى تماماً) .

أقترح أن نبذل مجهوداً كبيراً لمحاولة نزع السلاح ، ليس مجهوداً خارجياً فقط ولكن فى الداخل أيضاً ، بمعنى أننا يجب أن نحاول ممارسة السياسة دون أن يكون هناك قطبان يسار ويمين .

أعتقد أن تحقيق هذا صعب المنال وإن كنت على يقين من إمكانية حدوثه ولكن ألم يكن هناك دائماً أحزاب يسارية وأحزاب يمينية ؟ ربما ، ولكن لم يكن هناك قبل لينين هذا الانقسام العالمى الى قطبين ، لم تكن هناك هذه الكراهية وهذا التعصب الذى يدعمه هذا اليقين العلمى المزعوم . لقد استطاع ونستون تشرشل أن يتحول داخل البرلمان من معسكر لآخر وهو ما أثار موجة عارمة من الاستياء وترك لدى البعض مراة شخصية قوية بل وترك الشعور بأن هذا التصرف كان من قبيل الخيانة . لقد حدث هذا على مستوى يختلف عن هذا التقسيم الى يسار ويمين . فإذا إتهم بعض الشيوعيين الخيرين

بأنهم يشكلون خطراً على الحزب - وتصادف أنهم كانوا يعيشون في الاتحاد السوفيتي - فقد كان يتم وضعهم في السجن وإعدامهم .

يعكس هذا التصور الجو الذي كان يعيش فيه تقطيب العالم الى يسار ويمين في أكثر أشكاله تطرفاً . من الممكن بالتأكيد في ظل المجتمع المفتوح التحرر من مثل هذا الجو .

ما الذي يجب احلاله محل هذا التقسيم الى يمين ويسار ؟ أو بعبارة أفضل ما هو البرنامج الذي يمكننا وضعه محل هذا التقطيب الى يسار ويمين، والذي من شأنه أن يفتح جانباً هذا التقسيم ؟ .

يمكننا الآن الإستغناء عن الآلية الأيديولوجية للحرب وأن نمارس البرنامج الاتمساني العام الذي يكافئ ما يلي : (أرجو أن تلاحظون أنه حتى ولو حدث انسجام عام وكامل بيننا في برامجنا ، فانه يجب أن يكون هناك مع هذا على الأقل حزبان لكي تستطيع المعارضة إختبار اخلاص وقدره حزب الأغلبية) . نقتراح البرنامج التالي مع استعدادنا لمناقشته وتعديله .

١- حرية أكثر تحكمها المسؤولية ، نامل في أن يكون لدينا الحد الأقصى من الحرية الشخصية ، وهو ما يكون ممكناً فقط في ظل مجتمع متحضر - أي مجتمع يفرض فيه منع إستخدام العنف . هذه في الحقيقة أبرز سمة من سمات المجتمع المتحضر : المجتمع الذي ينشد باستمرار حل مشكلاته حلاً سلمياً .

٢- السلام العالمي ، ما دامت القنابل الذرية والقنابل ذات الرؤوس النووية قد تم اختراعها ، يجب إذن على سائر المجتمعات المتحضرة أن تعمل معاً على حماية السلام ومنع الانتشار المتزايد للقنابل الذرية والهيدروجينية ، فهذا في الحقيقة هو أكبر واجباتنا والذي بدونهِ قد تنهار الحضارة والذي يتبعه فناء البشرية .

٣- محاربة الفقر ، لقد أصبح العالم الآن بفضل التكنولوجيا غنياً بقدر كاف

- على الأقل فى إمكانياته - بحيث يمكنه القضاء على الفقر . وأصبح غنياً بالقدر الذى يمكنه معه أن يصل بمشكلة البطالة الى أقل درجة ممكنة . لابد أن علماء الاقتصاد قد خبروا صعوبة تحقيق ذلك ، وأن هذا هو حال هذه المشكلة بلا شك . لقد فرضت هذه المشكلة نفسها فجأة (عام ١٩٦٥) وجعلها علماء الاقتصاد هدفهم الملح كما كانت كذلك من قبل . ولكن يبدو أن المشكلة قد خرجت عن مجال الاهتمام ، فكثير من رجال الاقتصاد القومى يتصرفون كما لو أن هناك برهاناً على أن هذه المشكلة غير قابلة للحل ولكن على العكس هناك أكثر من برهان على أن هذه المشكلة قابلة للحل بشكل كبير ، حتى وإن ثبت صعوبة تجنب بعض العمليات الموجودة فى اقتصاد السوق الحر . ولكن يبدو أننا نقحم أنفسنا فى اقتصاد السوق الحر بأكثر كثيراً مما هو ضرورى . إن تقديم حل لهذه المشكلة أمر ملح ولكنه أمر مثير للغضب أن هذه المشكلة مشكلة قديمة . فإذا لم يستطع رجال الاقتصاد المتخصصون تقديم طرق أفضل للحل ، عندئذ يجب علينا أن نتجه نحو الأعمال غير الدورية وهو ما يندرج تحته الأعمال الخاصة مثل بناء المدارس ورصف الشوارع وتدريب المعلمين وهكذا . ففى فترات البطالة المتزايدة ، علينا تكثيف هذه الاستثناءات لغرض سياسة لا دورية .

٤- محاربة الانفجار السكاني ، باختراع حبوب الاجهاض مكمله بذلك الطرق الأخرى للتحكم فى نسبة المواليد أوصلت التكنولوجيا البيوكيميائية العالم كله الى فهم فكرة تحديد النسل . تستطيع المجتمعات المفتوحة إبطال المقولة بأن هذا يناسب فقط السياسة الامبريالية الغربية من حيث أنها ذاتها تهتم بمسألة انقاص نسبة المواليد .

هذه المسألة مسألة ملحة للغاية ويجب أن تكون فى مقدمة جدول أعمال سائر الأحزاب ببرنامج انسانى ، إذ تترد سائر ما يسمى بمشكلات البيئة

الى الانفجار السكاني . ونظرة تأملية قد تكفي لاقناع كل شخص بذلك ، فقد يصدق على سبيل المثال بشكل واضح أن حاجة كل شخص للطاقة تزداد ويجب أن يتم تقييدها ، فإذا كان هذا هو الحال ، من هنا كان أكثر إلحاحا أن نحارب أسباب هذا الانفجار السكاني والتي يتصل بلا شك بالفقر والامية . من أجل هذا يجب علينا من أجل البشرية أن نعمل على ألا يولد سوى الأطفال الذين نرغب فيهم ، إذ أنه أمر قاسى وسيؤدى غالباً الى عنف ماضى ونفسى أن نسمح بميلاد طفل لا نرغب فيه .

٥- التدريب على عدم استخدام العنف ،

أنا على قناعة (رغم أن هذا قد يكون خطأ) بأن افعال العنف قد تزايدت فى الأونة الأخيرة . وعلى كل فما هو إلا فرض يمكن إختباره . فمن وجهة نظرى يجب أن نبحث فيما إذا كنا نقوم بتدريب أطفالنا على الصبر على العنف أم لا . فإذا كانت الاجابة بنعم ، فهو سلوك ممنوع بشكل ملح : إذ تهدد وجهة النظر التى ترتضى العنف حضارتنا بشكل واضح . ولكن هل نعتنى بالفعل بدرجة كافية بأطفالنا ، هل نقدم لهم العون الذى يحتاجونه ؟ هذه النقطة على درجة كبيرة من الأهمية ، إذ أن أطفالنا فى سنهم الصغير فى أيدينا تماماً ومسئوليتنا تجاههم أمر لا يمكن تقديره بأى شكل .

ترتبط هذه المسألة بشكل كبير ببعض النقاط السابق ذكرها ، وبمشكلة الانفجار السكاني بشكل خاص . أعتقد أنه يجب علينا أن نحاول تعليم أطفالنا - إن لم تكن فضيلة عدم استخدام العنف - فعلى الأقل الحقيقة بأن الخشونة هى أكبر الشرور على الإطلاق . لا أقول " الخشونة غير المطلوبة " ، إذ ليست الخشونة غير ضرورية فحسب ولكن لا يجب حتى السماح بها . وتدرج الخشونة النفسية أيضاً تحت هذا وهى ما نفعلها غالباً بدون تفكير أو بغباء أو بدافع الأنانية .

أخشى أن الحديث فى مثل هذه المشكلات التربوية لم يعد حديث الساعة

من حيث أن حديث الساعة هو أن يفعل كل شخص ما يهواه حتى وإن كان ما يفعله المرء مرفوضاً وفقاً لأخلاق تقليدية ومن حيث أنه من المسلم به أن الأخلاق غالباً ما يكون لها صلة بالنفاق ، ارد على هذا بقول كائط : " كن شجاعاً واستعن بفهمك الخاص " قد اقول بشئ أكثر تواضعاً : كن شجاعاً في تجاهل محدثات الأمور ، ستزداد كل يوم وعياً بالمسئولية شيئاً قليلاً ، فهذا أفضل اسهام يمكن أن تؤديه للحرية .

٦- النقطة السادسة والأخيرة : سيادة وتقييد البيروقراطية ،

بقدر ما أن هناك الكثير مما يمكن قوله في هذه النقطة ، فانا لا أنوى الحديث فيها في هذا الموضع .

المقالة السادسة عشر

في ضرورة السلام

Von der Notwendigkeit des Friedens

كلمة شكر بمناسبة منح كارل بوبر ميدالية أتوهان
للسلام في ١٧ ديسمبر ١٩٩٣ في برلين

أشكركم جميعاً وأخص بالشكر الهيئة العليا للجمعية الألمانية للأمم المتحدة للشرف الذى منحتنى اليوم إياه ، إن ارتباط هذا الشرف باسم أوتو هان ^(١) أثر فى تأثيراً عميقاً .

ينتمى أوتو هان قبل اكتشافه للانشطار النووى بعشرين عاماً لهؤلاء الأبطال Helden ، هؤلاء الباحثين النظام فى كيمياء الاشعاع Strahlenchemie والنظرية الذرية الذين اكتشفوا عناصر إشعاع جديدة وذرات جديدة وصور جديدة للاشعاع . كما اخترعوا أيضاً نظريات جديدة ، قوانين طبيعية هامة جديدة ذات طابع فرضى تصف وتفسر بعض العلاقات الفيزيائية ، علاقات تقوم بين اشعاعات مختلفة وبين التحولات الحادثة فى الذرات المشعة .

لقد كان أوتوهان بالفعل عام ١٩١٨ - وقت أن كنت أبلغ من العمر السادسة عشر - يعد من العظام أمثال بيير ومارى كورى ، وارنست رزفورد والبرت أينشتاين ونيلز بور . لقد سمعت عن هؤلاء الباحثين العظام ، علماء الفيزياء الذرية وكيمياء الاشعاع لأول مرة فى معهد الفيزياء فى فيينا ، مثلما سمعت عن صديقى الذى توفى منذ زمن فرانز أورباخ Franz Urbach الذى عمل فى معهد بحوث الراديووم فى فيينا تحت يد شتيفان ماير Stefan Meyer . وبعد ذلك بسنوات قليلة قرأت أكثر عن أوتوهان فى كتاب مدرسى تحت عنوان " النظرية الذرية " من وضع أستاذى آرثر هاس Arthur Haas وهو باحث الذرة العظيم الذى يكاد اليوم أن يكون منسياً . لقد صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام ١٩٢٤ ، أما الطبعة الثانية والتي أقتنيها فقد صدرت عام ١٩٢٩ . لقد وجدت نسختى الخاصة لهذا الكتاب التى أظهرت لى أن الذاكرة لم تختنى : فهناك عبارة فى صفحة (١٨٣) عن اكتشاف مارى وبيير كورى لعنصرى الراديووم والبولونيوم وعن

(١) أوتوهان (١٨٧٩ - ١٩٦٨) هو عالم الكيمياء الألمانى مكتشف الانشطار النووى -

حصل على جائزة نوبل فى الكيمياء عام ١٩٤٤ .

اكتشاف أوتوهان وليزا ماينتر للبروتكتينيوم Protactinium

يرتبط إذن اسم أوتوهان بذكرى القديمة للعصر البطولى للاكتشافات الذرية العظيمة . لدى أيضاً ذكريات شخصية تعود الى الفترة ما بين الحربين العالميتين عن أرنست رزرفورد ، ونيلز بور وأوتو روبرت فريش وليزا ماينتر . أما أوتوهان فلم اقبله قط فى حياتى .

لقد حكى لى فريش بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عن الاحباط الذى أصاب أوتوهان عندما سمع عن كارثة هيروشيما . لقد شعر هان بمسئوليته المشتركة عندما وصل الى سمعه هو وعلماء الذرة الألمان الآخرين هذا النبا الفظيع والذين كانوا آنذاك معتقلين فى انجلترا . لقد تأثر هان بشدة ولقد قص على فريش بعدها عن أعمال هان الاستكشافية بخصوص الأسلحة الذرية والحجج الذى ذكرها ضد استخدام ألمانيا لهذه الأسلحة وعن ضرورة السلام . منذ شبابه وأنا معجب بأوتوهان الباحث والامسان . وها أنذا بعد خمسة وسبعين عاماً من الاعجاب به ، أمنح الشرف العظيم بأن أرتبط باسمه : ميدالية أوتوهان للسلام . وعلى كل فليس اسمه فقط هو ما يعنى لدى الكثير ، فطوال حياتى - وبالتحديد منذ إندلاع الحرب العالمية الأولى - وهو يوم ما زلت أتذكره جيداً - لم تغادرنى قط مشكلة ضمان السلام من حيث أنها مسئولية شخصية .

أرجوكم أيها المسئولين عن منح ميدالية السلام أن تقبلوا شكرى كما أود أن أشكر جميع الحاضرين لإقرارهم بضرورة السلام وضرورة تقوية منظمة الأمم المتحدة .

لقد تحدثت بالفعل عن عظمة الباحثين وبصفة خاصة عن علماء الفيزياء الذرية وعلماء كيمياء الاشعاع مثل أوتوهان الذين سمعت عنهم لأول مرة فى المعهد الفيزيقي فى فيينا عام ١٩١٨ . ولكن كان شيئاً قد حدث قبل ذلك بفترة هو ما شكل اعجابى بالعلماء وتحمسى لوجود عصبة الأمم تلك التى حلت الأمم المتحدة محلها . فلقد تلقت أختى الكبرى مع مطلع عام ١٩٠٨ كتاباً

أعجبت به إعجاباً شديداً وهو الكتاب الذى أهدتني إياه بعد ذلك بعام ، إذ أنها لم تكن تشاركني تماماً نفس الاهتمام المتوهج ، كان كتاباً للنرويجى فردجوف نانسن Fridtjof Nansen ^(١) الذى أسهم بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى فى تأسيس عصبة الأمم والذى ظل حتى وفاته عام ١٩٣٠ أهم وأكثر شخصيات عصبة الأمم فعالية . كان هذا الكتاب الذى بهرنى كثيراً - أنا الذى كنت وقتها ابن السابعة - يحمل عنوان " فى الليل والثلج In Nacht und Eis البعثة القطبية النرويجية ١٨٩٣ - ١٨٩٦ " لقد كان إنن كتاباً عن مهمة مدتها أكثر من ثلاثة أعوام وهى المهمة التى بدأت - قبل مائة عام من الآن - على ظهر السفينة " فرام Fram " التى تم بناؤها لنانسن بحيث ترتفع فوق الجليد بدلاً من أن يسحقها الجليد . لقد ظلت السفينة حوالى ٣٥ شهراً محصورة فى المنطقة القطبية وعبرت - وفقاً لخطط نانسن - المنخفض القطبي من جزر سيبيريا الجديدة حتى جبال القمة .

لم يؤثر كتاب فى طفولتى مثلما أثر فى هذا الكتاب . لقد خلق فى الرغبة فى الاكتشافات ليس فقط رحلات استكشافية ولكن اكتشافات نظرية أيضاً ، لقد كان نانسن هو ما جعل دلالة النظريات الجريئة والفروض الجريئة تتضح لدى منذ طفولتى إذ أن الخطط التى وضعها نانسن كانت تقوم على أفكار نظرية وأفكار جريئة . وكما ذكر نانسن لقد تعرضت أفكاره لانتقادات حادة وبصفة خاصة من قبل المتخصصين الذين سبقوه فى ميدان الأبحاث القطبية . لقد وصف هؤلاء المتخصصون خطط نانسن بأنها خطط خيالية وإنتحارية وبتباؤا بأن السفينة " فرام " ستتحطم فى الجليد ، أى ستلقى نفس مصير سابقتها . ولكن نانسن دافع عن خطته بطريقة حادة ، إذ كانت رحلته التى قضى فيها ثلاثة فصول شتوية متعاقبة فى المنطقة القطبية بمثابة اختبار تجريبي لصحة

(١) نانسن (١٨٦١ - ١٩٣٠) هو المستكشف وعالم البحار ورجل السياسة النرويجى الذى قام ببعثات استكشافية فى القطب الشمالى . نال عن أعماله الإنسانية جائزة نوبل للسلام ١٩٢٢ .

نظرياته الجريئة والثاقبة بالدرجة الأولى .

لقد وضح لى اذن منذ طفولتى المبكرة أن البحث تجريبياً كان أو نظرياً يكمن فى وضع فروض جريئة يتم اختبارها تجريبياً . أنه نانس من أدين له بوجهة النظر هذه ، وهى وجهة النظر التى قد تكون خيالية بعض الشئ والتى وفقاً لها يكون العلم الحقيقى هو نتاج الاكتشافات وليس نتاج النتائج الصادقة أبداً ، فالعلم الصحيح - فى أهم جزء منه - هو نتاج الاكتشافات المتجددة باستمرار وليس نتاج ما يسمى بالوقائع الثابتة ولكنه نتاج الفروض غير المؤكدة . لذا يجب على الباحث أن يخاطر من وقت لآخر وهى المخاطر التى تكشف مسئوليته العقلية عن التجربة .

وإذا يكون من الممكن أن نقوم بتجارب دون فروض فهى الفكرة التى أكد عليها تشارلز دارون . ولكن نانس ذهب الى ما هو ابعد من ذلك . فلقد قال أن الفروض الفجة wilde أفضل من لاشئ وذكر كمثال الأساطير الثلاث الشمالية القديمة : الفروض الثلاثة عن عبور السفن الى اليابان والصين : (١) فى شمال آسيا ، الممر الشمالى الشرقى Nordostpassage . (٢) شمال أمريكا الشمالية الممر الشمالى الغربى . (٣) المنخفض القطبى الخالى من الجليد الذى يفتح الطريق مباشرة الى القطب الشمالى .

لقد كتب نانس عن هذه النظريات الثلاث فى مقدمة كتابه قائلاً " لقد كانت هذه النظريات أيضاً نظريات فجة ولكنها مع هذا أسهمت إسهاماً كبيراً فى سعادة البشرية ، إذ أنها أسهمت كثيراً فى توسيع معرفتنا بالكرة الأرضية ... لا يوجد عمل فى نطاق البحث يعد عملاً غير نافع حتى وإن بدأ بافتراضات خاطئة " .

ورغم أنى كنت أطلع فى طفولتى هذا الكتاب مراراً وتكراراً بشغف بالغ لم أكن أدرك قدر التأثير الذى مارسه على هذا الكتاب وهو ما أدركته الآن بدهشة . بل ، أصبح واضحاً أن الفضل لميلى للاهتمام بالفيزياء الذرية ولتعظيمى لعلماء الفيزياء الذرية وكيمياء الاشعاع - أمثال أوتوهان - يرجع

الى نانسن .

كنت قد قررت - منذ اسابيع مضت - أن أتحدث في كلمة الشكر هذه عن كل من هان ونانسن وذلك قبل أن أعرف أنهما كانا صديقين وفي الشهر الماضي أهداني ديتريش هان - حفيد أوتوهان - كتابا عن جده كان قد بدأه فالتر جرلاخ Walter Gerlach وأكمله ديتريش . وبمحض الصدفة فتحت مساعدتي الكتاب على صفحة ١٤٢ وقرأت على ما يلي : " وبعد ذلك حدثت مراسلات علمية بين هان وفريدجوف نانسن حول مسائل جيولوجية ، أكد فيها هان - ضمن ما أكد - على نظرية فيجنر Wegener في الإزاحة القارية " Kontinentalverschiebung " . لايمكنكم تصور دهشتي ! لم أكن أعرف شيئا من هذا على الإطلاق بينما كنت أكتب في البداية كلمة الشكر هذه وأحكي عن أوتوهان ونانسن الذين عملا من أجل العلم ومن أجل السلام .

ولقد كانت إشارة ديتريش هان لألفرد فيجيز أيضا بالنسبة لي على قدر كبير من الأهمية ، إذ كنت أعتبر فيجنر أيضا في مرحلة طفولتي من هؤلاء الأبطال الباحثين ، وهو العالم الذي قضى حياته - مثله في ذلك مثل نانسن - في اختبار صدق نظرياته . ولقد مات سنة ١٩٣٠ عن عمر يناهز الخمسين (وهي نفس السنة التي مات فيها نانسن) .

لقد إخترت الحديث عن نانسن لسببين : السبب الأول أنه كان الشخص الذي أثار في الاهتمام بالبحث العلمي ، والسبب الثاني لأنه أدى الكثير من أجل تحقيق السلام وذلك أثناء عمله كرئيس للجنة الصليب الأحمر الدولي ثم مندوب في عصبة الأمم بعد عام ١٩١٨ . ليس من السهل نسيان أحد إنجازاته الكبرى ألا وهو إصداره جواز سفر نانسن " Nansen - PaB " الذي أصدره في الخامس من يوليو ١٩٢٢ بعد نهاية الحرب العالمية الأولى والذي كان بمثابة وثيقة سفر يمكن للاجئين الذين لا وطن لهم أن يحملوها وينتقلوا بها من مكان لآخر ، ولقد إعتُرف بهذه الوثيقة " ٥٢ دولة وهي الوثيقة التي صدرت في البداية من أجل لاجئي روسيا ثم استخدمها جميع

لاجنى العالم .

أما انجازه الآخر الذى يكاد أن يكون منسياً فهو المساعدات المنظمة بشكل كبير - لروسيا الجائعة فى ذلك الوقت . لقد كانت هذه المساعدات التى قدمها هى أول عمل دولى من هذا القبيل وقد استمرت بتنظيم فى الفترة من ١٩٢١ حتى ١٩٢٣ ، نظمتها عصابة الأمم تحت إشرافه . لقد سمح له لينين بعد عناء شديد أن يقدم الأغذية والأدوية عن طريق المنظمة الدولية للمرضى والمشردين . يبدو أن لينين كان يخشى أن يكون هذا ستاراً يتمكن عن طريقه نانس من التجسس ومن معرفة الأوضاع الرهيبة التى كان عليها الاتحاد السوفيتى . ولقد قال لينين نفسه فى نهاية هذه العملية عام ١٩٢٣ أن مساعدات نانس لروسيا قد أنقذت حياة أكثر من ثلاثة ملايين من البشر وهو العدد الذى قدرته بعض التقاير الأخرى بسبعة ملايين .

ما يدهشنى أن مثل هذا الفعل الخير الذى قامت به الأمم المتحدة قد تم نسيانه بسرعة ، من هنا جاء ذكرى له . ولقد كنت كلما قابلت شخصاً أثناء الحرب الباردة أفترض أنه يعرف هذا الانجاز الذى قام به نانس كان أقابل أحد الدبلوماسيين الذين يتصفون بالنشاط ، كنت أبادر بسؤاله عن هذا الحدث فأجد أنه لا يعرف عنه شيئاً . من هنا بدت لى أهمية التذكير بهذا الحدث فى التاريخ السابق على نشأة الأمم المتحدة ، فمن المهم جداً لنا أن نتعلم من التاريخ وأن نتعلم أيضاً من تشويه ونسيان التاريخ . أعتقد أن ما جعل مساعدة نانس طى النسيان أنه موقف لا يحب الروس أن يتذكروه وكذلك المفكرون اليساريون الذين يعيشون فى الغرب .

لا أعرف ما كانت الرسائل المتبادلة بين هان ونانس بعد الحرب العالمية الأولى تدور حوله ولكن لا شك أنها كانت تحوى - بالإضافة الى الحديث فى الموضوعات الجيوفيزيكية - شيئاً عن نشاط نانس من أجل السلام . لقد مات^١ نانس عام ١٩٣٠ . هل تذكر هان نانس عندما بدأ بعد عام ١٩٤٥ بعد الحرب العالمية الثانية عمله من أجل السلام وضد الأسلحة الذرية ؟ . أعتقد

أن الأجنبية بتتقى . ما جعل مان يعمل من أجل السلام كان أنه ببساطة كان يعرف عن الأسلحة الذرية أكثر مما كان مواطنوه يعرفونه ، من هنا شعر أن من واجبه أن يتحدث في هذه المسألة الخاصة بمصير البشرية أن يكشف معرفته .

ولكن لم ؟ ذلك من أجل تحقيق أقدم آمال البشرية ألا وهو تحقيق السلام على الأرض . هذا ماقرأه في العهد الجديد وما نسمعه من بيتيوفن في لحنه المؤثر الحزين Missa Solemnis ولهذا نشأت عصابة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى والتي طالب بها إيمانويل كانط - أعظم فلاسفة العالم قاطبة - في كتابه " نحو تحقيق سلام دائم Zum ewigen Frieden " (١٧٩٥) ، ولهذا نشأت الأمم المتحدة - بعد الحرب العالمية الثانية - بأمل تحقيق السلام العالمي . ولهذا كتب أوتوهان - قبل وفاته بفترة قصيرة - عن " ضرورة السلام العالمي " .

السلام مطلب ضروري ، وربما مازلنا سنحتاج لوقت طويل آخر من أجل تحقيقه والدفاع عنه . ولكن يجب أن نتذرع بالصبر . وقد نرتكب نحن والأمم المتحدة أخطاء ولكن التفاؤل واجب .

ولكني أريد أن أشرح هذه العبارة " التفاؤل واجب " وذلك قبل أن أنهى حديثي .

المستقبل مفتوح ، فهو غير محدد بشكل مسبق ، من هنا لايمكن لأحد أن يتنبأ به . لايمكن التنبؤ بالإمكانات الكثيرة - الخيرة والشريرة على السواء - الكامنة في المستقبل . " فالتفاؤل واجب " . لا تتطوى هذه العبارة فقط على أن المستقبل مفتوح ولكن على أننا أيضا مانحدده من خلال أفعالنا . فجميعنا مسئول عما سيحدث .

من هنا فإن واجبنا - أن نفعل ما في وسعنا لتحقيق الأشياء التي يمكن أن تجعل المستقبل مستقبلا أفضل بدلا من أن نتنبأ بالسوء .

ثبت بأهم المصطلحات الواردة في هذا الكتاب

Aberglaube	Superstition	خرافة
Abgeschlossenheit	Closure	إغلاق
Kausale Abgeschlossenheit	causal closure	إغلاق على
Abgrenzungsproblem	Demarcation Problem	مشكلة التحديد
Abgrenzungs- problemkriterium	- Criterion Demarcation Problem	معيّار مشكلة التحديد
Abrüstung	Disarmament	نزع السلاح
Abstimmung	Voting	التصويت
Abtreibungspille	Post-coital pills	حبوب الإجهاض
Aids	Aids	الإيدز
Aktivität	Activity	نشاط
Aktiv	Active	نشط
Aktivismus	Activism	النشاطية
Altruismus	Altruism	الإيثار
Analytische Psychologie	Analytical psychology	علم النفس التحليلي
Annäherung an die Wahrheit	Coming nearer to the truth	الاقترب من الصديق
Anpassung	Adaptation	تكيف
Antireduktionismus	Anti reductionism	الاتجاه اللارادي
Forschungsprogramm	Research program	برنامج بحث
Antizipation	Anticipation	توقع
Anziehungskraft	Gravitation power	قوة الجذب
Apriorismus	Apriorism	القبليّة

Äquivalenzprinzip	Equivalence principle	مبدأ التكافؤ
Arbeitshypothese	Working hypothesis	فرض عمل
Arbeitslosigkeit	Unemployment	بطالة
Aristokratie	Aristocracy	أرستقراطية
Arithmetisierung	Arithmatization	تحييب
Armutsbekämpfung	Fighting poverty	مكافحة الفقر
Astrologie	Astrology	التنجيم
Astronomie	Astronomy	علم الفلك :
Atom	Atom	ذرة
Atombombe	Atomic bombs	قنابل ذرية
Atomkrieg	Atomic war	حرب ذرية
Atomphysik	Atomic physics	فيزياء ذرية
Atomtheorie	Atomic theory	نظرية ذرية
Aufklärung	Enlightenment	التنوير
Außenpolitik	Foreign politics	سياسة خارجية
Außenwelt	Outer-world	العالم الخارجى
Autonomie	Autonomy	استقلال
Autonom	Autonomous	مستقل
Axiom	Axiom	مبدأ
Bedeutungsanalyse	Denotation analysis	تحليل الدلالة
Bedürfnis	Demand	طلب
Behaviorismus	Behaviourism	الاتجاه السلوكى
Dogmatischer Behaviorismus	Dogmatic Behaviourism	السلوكية الجماعية
Philosophischer Behaviorismus	Philosophical Behaviourism	السلوكية الفلسفية

Beobachtung	Observation	ملاحظة
Beschreibung	Description	وصف
Selektiver Charakter der Beschreibung	Selective character of description	الطابع الانتقائي للوصف
Bevölkerungsexplosion	Overpopulation	الانفجار السكاني
Bewußtsein	Consciousness	وعى
Tierisches Bewußtsein	Animal Consciousness	وعى حيوانى
Big Bang-theorie	The Big Bang theory	نظرية الانفجار العظيم
Biologie	Biology	علم الأحياء
Biologische phänomene	Biological phenomena	ظواهر بيولوجية
Biologische Strukturen	Biological structures	تركيبات بيولوجية
Börsenkrach	Crash	انهيار البورصة
Bourgeoisie	Bourgeoisie	برجوازية
Bürgerkrieg, amerikanischer	American civilwar	الحرب الأهلية الأمريكية
Bürokratie	Bureaucracy	بيروقراطية
Chemie	Chemistry	الكيمياء
Christentum	Christianity	المسيحية
Darwinismus	Darwinism	الإتجاه الداروينى
Darwinistische Entwicklungstheorie	Darwin theory of evolution	نظرية التطور الداروينى
Darwinsche Auslese	Darwinian selection	الانتقاء الداروينى
de Broglie-Wellen	De Broglie-waves	موجات دى بروجلى
Demokratie	Democracy	الديمقراطية
Athenische Demokratie	Greek Democracy	الديمقراطية الأثينية
Liberalc Democratie	Liberal Democracy	الديمقراطية الليبرالية

Theorie der Demokratie	Theory of Democracy	نظرية الديمقراطية
Denken, vorwissenschaftliches	Pre-scientific thought	الفكر قبل العلمي
evolutionäres Denken	Evolutionary thought	الفكر التطوري
Denkinhalte, objektive	Objective thought content	المحتوى الموضوعي للفكر
Denkvorgänge, subjektive	Subjective thought events	حوادث الفكر الذاتية
Determinismus	Determinism	حتمية
Differentialrechnung	Differentialcalculus	حساب التفاضل
Diktatur	Dictator	دكتاتور
Diskussion, wissenschaftliche	Scientific discussion	مناقشة علمية
kritische Diskussion	Critical discussion	مناقشة نقدية
Dispositionen	Dispositions	ميل
DNA	DNA	الحمض النووي
Dogma/dogmatisch	Dogma/dogmatic	اعتقاد - اعتقادي
Dramatiker	Dramatist	كاتب مسرحي
Dritte Welt	The Third world	العالم الثالث
Drittes Reich	The Third Reich	الرايخ الثالث
{ Dualismus(von Gravitations-und elektromagnetischen Kräften	Gravitation-electromagnetic power dualism	{ ثنائية قوى الجاذبية والمغناطيسية الكهربائية
Effekte, optische	Optical effects	تأثيرات ضوئية
Egoismus	Egoism	أنانية
Einheitliche Feldtheorie	Unified -field theory	نظرية المجال الموحد
Einzeller	Single - celled	نواة خلية واحدة
Einzigartigkeit des genetischen Codes	Uniqueness of the genetic code	تفرد الكود الجيني

Elektrodynamik	Electrodynamics	الديناميكا الكهربائية
Elektromagnetische(s) theorie	Electromagnetic theory	نظرية المغناطيسية الكهربائية
Elektronen	Electrons	الالكترونات
Elementarteilchen	Elementary particle	جزيء أولي
Elimination	Elimination	استبعاد
Eliminationsverfahren	Method of elimination	منهج الاستبعاد
Empirie	Empiricism	الاتجاه التجريبي
Energie, chemische	Chemical energy	طاقة كيميائية
Sonnenenergie	Solar energy	طاقة شمسية
Entstehung des lebens	Origin of life	نشأة الحياة
Entwicklungstheorie	Theory of evolution	نظرية التطور
Epiphänomenalismus	Epiphenomenalism	نظرية الظواهر العرضية
Erfindung	Invention	اختراع
Erkenntnis	Knowledge	معرفة
Erkenntnistheorie	Theory of Knowledge	نظرية المعرفة
evolutionäre Erkenntnistheorie	Theory of evolutionary knowledge	نظرية المعرفة التطورية
Erklärungen	Explanations	تفسيرات
Erklärungspotential	Potential explanation	تفسير ممكن
Erwartung	Expectation	توقع
unbewusste Erwartung	Unconscious Expectation	توقع غير واعي
Potentielle Erwartung	Potential Expectation	توقع ممكن
Erziehung	Education	تربية

moralische Erziehung	Moral Education	تربية أخلاقية
Essentialismus	Essentialism	المذهب الماهوي
{ essentielle Unvollständigkeit (der Wissenschaft)	Essential incompleteness science	{ عدم الاكتمال بالضرورة للعلم
Ethik	Ethics	الأخلاق
Evolutionstheorie	Theory of evolution	نظرية التطور
Existentialphilosophie	Existential philosophy	الفلسفة الوجودية
Experimente	Experiment	تجربة
Falsifikation	Falsification	تكذيب
Falsifikator, potentieller	Potential falsificator	مكذب ممكن
Falsifizierbarkeitskrit- erium	Criterion falsificability	مقياس إمكانية التكذيب
Faschismus	Fascism	الفاشية
Fehler, technologische	Technological error	خطأ تكنولوجي
Fehler korrektur	Error correction	تصحيح الخطأ
Feigheit	Cowardice	الجبن
Fernwirkung	Remote effect	التأثير من بعد
Fortschritt	Progress	تقدم
wissenschaftlicher Fortschritt	Scientific Progress	تقدم علمي
Frauenbefreiung	Woman liberation	تحرير المرأة
Freiheit	Freedom	حرية
Beschränkung der Freiheit	Limitation of liberty	تقييد الحرية
Gedanken Freiheit	Freedom of thought	حرية الفكر
Gewissensfreiheit	Freedom of conscience	حرية الوعي

Freiheit	in	Freedom	in	الحرية المسئولة
Verantwortung		responsibility		
Mißbrauch der Freiheit		Misuse of freedom		سوء استخدام الحرية
persönliche Freiheit		Personal freedom		حرية شخصية
politische Freiheit		Political freedom		حرية سياسية
religiöse Freiheit		Religious freedom		حرية دينية
Frieden		Peace		سلام
Notwendigkeit des Friedens		Necessity of peace		ضرورة السلام
Friedensbewegung		Peace movement		حركة سلام
Gedächtnis		Memory		ذاكرة
Gegenwart		Present		حاضر
Gehirnphysiologie		Brain physiology		فسيولوجيا المخ
Gehirnvorgänge		Brain events		حوادث المخ
Geist-hirn-Parallelismus		Mind-brain parallelism		توازن العقل والمخ
genetische Strukturen		genetic structures		تركيبات جينية
Geometrisierung		Geometrization		تعميم الهندسة
Geschichte der Menschheit		History of mankind		تاريخ البشرية
Geschichte der Naturwissenschaften		History of natural sciences		تاريخ العلوم الطبيعية
Geschichte politischen Macht		History of political authority		تاريخ السلطة السياسية
Ende der Geschichte		End of history		نهاية التاريخ
Interpretation der Geschichte		History interpretation		تفسير التاريخ
Geschichtsauffassung		History understanding		فهم التاريخ
zynische Geschichte		Cynic understanding		الفهم التهكمي للتاريخ
Geschichtsinterpretation		History interpretation		تفسير التاريخ

Hegelsche Geschichtsinterpretation	Hegelian interpretation of history	التفسير الهيجلي للتاريخ
Marxistische Geschichtsinterpretation	Marxistic history interpretation	التفسير الماركسي للتاريخ
Geschichtsphilosophie	Philosophy of history	فلسفة التاريخ
Geschichtsschreibung	History writing	كتابة التاريخ
Gesellschaft	society	مجتمع
Klassenlose Gesellschaft	Class-less society	مجتمع لا طبقي
liberale Gesellschaft	Liberal society	مجتمع ليبرالي
offene Gesellschaft	Open society	مجتمع مفتوح
zivilisierte Gesellschaft	Civilized society	مجتمع متحضر
Gesetz (e)	Law (s)	قانون - قوانين
allgemeine Gesetze	General Laws	قوانين عامة
historische Gesetze	Historical Laws	قوانين تاريخية
psychologische Gesetze	Psychological Laws	قوانين سيكولوجية
soziologische Gesetze	Sociological Laws	قوانين اجتماعية
universelle Gesetze	Universal Laws	قوانين كلية
Gesetz der Konzentration Kapital	Law of capital concentration	قانون تركيز رأس المال
Gesetz des Fortschritts	Law of progress	قانون التطور
Gewißheit	Certainty	يقين
Glaube (Vermutung)	belief	اعتقاد (تخمين)
Glaube, (religiöser)	Religious belief	اعتقاد ديني
Gott, göttlich	God , divine	إله - إلهي
Grausamkeit	Cruelty	عنف

Gravitationsäther	Gravitation-ether	أثير الجاذبية
Gravitationstheorie	Theory of gravitation	نظرية الجاذبية
griechische Denker / philosophen	Greek thinkers, philosophers	مفكرون - فلاسفة يونان
Harmonie, harmohisch	Harmony / harmonic	اتساق / متنسق
Helium	Helium	غاز الهليوم
Historizismus	Historicism	المذهب التاريخي
theistischer Historizismus	Theistic historicism	مذهب التاريخ التالهي
Hoffnung	Hope	أمل
Holismus	Holism	المذهب الكلي
Humanismus	Humanism	الاتجاه الانساني
Hypothese	Hypothesis	فرض
Hypothesenbildung	Hypothesis-bilding	بناء الفرض
metaphysische Hypothese	Metaphysical hypothesis	فرض ميتافيزيقي
wissenschaftliche Hypothese	Scientific hypothesis	فرض علمي
Idealismus	Idealism	المذهب المثالي
deutscher Idealismus	German idealism	المثالية الالمانية
Idee(n), anthropomorphistische	Anthropomrphistic ideas	أفكار تشبيهية
Ideen, induktive	Inductive ideas	أفكار استقرائية
konventionelle Ideen.	Conventional ideas	أفكار متواضع عليها
regulative Ideen.	Regulative idcas	أفكار موجهة
Ideengeschichte	History of ideas	تاريخ الأفكار
Identifikation	Identifiction	التوحيد
Identität	Identity	هوية

Identität	Identity	هوية
Ideologien	Ideologies	أيديولوجيات
Immaterialismus	Immaterialism	الاتجاه
Immunisierung (einer theorie)	Theory immunization	تحصين النظرية
Imperialismus-theorie	Theory of imperialism	النظرية الامبريالية
Indeterminismus	Indeterminism	الاتجاه الاحتمى
Individualismus	Individualism	الاتجاه الفردى
Induktion	Induction	استقراء
Widerlegung der Induktion	Induction refutation	تفنيد الاستقراء
Industrialisierung	Industrialisation	تصنيع
Infinitesimalrechnung	Infinitesimal calculus	حساب
Institutionen, demokratische	Democratic institutions	مؤسسات ديمقراطية
Integralrechnung	Integral calculus	حساب التكامل
Intellektuelle als propheten	Intellectuals as prophets	المفكرون من حيث انهم انبياء
Interaktionismus	interactionism	التفاعل المتبادل
Psychophysischer	Psychophysical interactionism	تفاعل سيكوفيزيقي
Internationales Rotes Kreuz	International red cross	الصليب الاحمر الدولى
Interpretation	Interpretation	تفسير
Historische Interpretation	Historical Interpretation	تفسير تاريخى
Historizistische Interpretation	Historicistical Interpretation	تفسير المذهب التاريخى للتاريخ
Ionische Schule	Ionic School	المدرسة الايونية

Isotope	Isotopes	النظائر
Kalter Krieg	The Cold War	الحرب الباردة
Kantianismus	Kantianism	الاتجاه الكانطي
Kapitalismus	Capitalism	الرأسمالية
kausale Beziehungen	Causal relations	علاقات عليّة
Keplersche Gesetze	Kepler – laws	قوانين كبلر
Kernkräfte	Nuclear powers	قوى نووية
Kirche, katholische	Catholic church	كنيسة كاثوليكية
Klassengesellschaft	Class society	مجتمع طبقي
Klassenkämpfe	Class conflicts	صراعات طبقية
Koalition (sregierung)	Caalition government	حكومة ائتلافية
Kommunikation	Communication	اتصال
Kommunismus	Communism	شيوعية
Kollaps des Kommunismus	Collapse of Communism	انهيار الشيوعية
Konstitutionelle Regierung	Constitutional government	حكومة دستورية
Kosmologie	Cosmology	علم الكون
Kosmos	Cosmos	الكون
Kräfte, elektrische	Electrical powers	قوى كهربائية
Magnetische Kräfte	Magnetic powers	قوى مغناطيسية
kreative Innovation	Creative innovation	الابتكار الخلاق
Kreativität	Creativity	
Kreisbahn-Hypothese	Hypothesis of circular orbit	فرض المدار الدائري
Kritik	Criticism	نقد

Empirische Kritik	Empirical Criticism	نقد تجريبي
Kulturrelativismus	Cultural relativism	نسبية ثقافية
Landesverteidigung	Land defence	الدفاع عن الأرض
Leib-Seele - Problem	Body-mind problem	مشكلة النفس - الجسد
Lichtäther	Light-ether	أثير الضوء
Lichtgeschwindigkeit	Speed of light	سرعة الضوء
Links-Rechts- polarisierung	Left-right polarization	تقسيم العالم إلى قطبين يسار ويمين
Literatur	Literature	أدب
Logik	Logic	منطق
Lösungsversuche	Solution attempts	محاولات الحل
Vorläufige Lösungsversuche	Temporary solution attempts	محاولات حل مؤقتة
Luftverschmutzung	Air pollution	التلوث الجوى
Macht, diktatorische	Dictatorial power	قوة ديمقراطية
Machtpolitik	Power politics	سياسة القوة
Makromechanik	Macromechanic	ميكانيكا الكون الأكبر
Marktwirtschaft	Market Economy	اقتصاد السوق
Marshall-Plan	Marshall-plan	خطة مارشال
Marxismus	Marxism	الماركسية
Masse, schwere	Heavy mass	كتلة ثقيلة
träge Masse	Lazy mass	كتلة خاملة
Massenproduktion	Mass production	
Massenvernichtung	Mass extermination	تكمير شامل
Massenvernichtung swaffen	Mass extermination weapons	أسلحة الدمار الشامل

Materialismus	Materialism	الاتجاه المادى
historischer Materialismus	Historical materialism	المادية التاريخية
Materie	Matter	المادة
chaotische Materie	Chaotic matter	مادة فوضوية
Mathematik	Mathematics	رياضيات
Maxwellsche Gleichungen	Maxwell Equation	معادلات ماكسويل
Mechanik, Newtonsche	Newton mechanics	ميكانيكا نيوتن
Mengenlehre	Set theory	نظرية المجموعات
Menschenrechte	Human Rights	حقوق الانسان
Menschenwürde	Dignity of man	كرامة الإنسان
Meson	Meson	ميسون
Metaphysik	Metaphysics	ميتافيزيقا
Keplersche Metaphysik	Kepler metaphysics	ميتافيزيقا كبلر
vorsokratische Metaphysik	Pre-socrates metaphysics	ميتافيزيقا ما قبل سقراط
Methode, induktive	Inductive method	منهج استقرائى
kritisch Methode	Critical method	منهج نقدى
Wissenschaftliche Methode	Scientific method	منهج علمى
Mikrostruktur der Materie	Micro-structure of matter	التركيب الأصغر للمادة
Militärbürokratie	Military bureaucracy	البيروقراطية العسكرية
Ministaat	Mini-state	الدولة الصغرى
Mittler Osten	The Middle East	الشرق الأوسط
Molekularbiologie	Molecular biology	علم الأحياء الجزيئية
Monade	Monads	موناتات ليبنتز

Monarchie	Monarchy	الموناركية
Moral/moralische Aufgabe	Moral duty	واجب أخلاقي
Moral/moralische Verpflichtung	Moral obligation	إلزام خلقى
moralischer Futurismus	Moral futurism	مذهب المستقبلية الأخلاقية
Mutationen/Mutabilität	Mutations	التغيرات الفجائية
Nationalismus	Nationalism	قومية
Nationalökonomie	National economy	اقتصاد قومى
Natürgesetz	Law of nature	قانون الطبيعة
Naturwissenschaft	Natural science	علم طبيعى
Neues Testament	The New Testament	العهد الجديد
Neutron	Neutron	نيوترون
Neutronenwellen	Neutron- cells	خلايا نيترونية
Nichtexistenz der Materie	Non-existence of matter	عدم وجود المادة
Nichtreduktionismus	Non-reductionism	الإنجاء اللارادى
Objektivität	Objectivity	الموضوعية
Objektiv	Objective	موضوعى
Objektiviert	Objectivized	متموضع
Obskurantismus	Obscurantism	نعمية
Oligarchie	Oligarchy	أوليغاركية
Optimismus	Optimism	نقاؤل
Optimist	Optimistic	متفائل
Organismus	Organism	عضوية
Ozanloch	Ozone-hole	نقب الأوزون
Panpsychismus	Panpsychism	النفسانية الشاملة

Parallelismus. psycho- physischer	Psycho-physical parallelism	التوازن الميكوفيزيقي
Parteidisziplin	Party discipline	نظام حزبي
Parteien	Parties	أحزاب
Parteien Regierung	Party government	حكومة حزبية
Paternalismus	Paternalism	الاتجاه الأبوي
Pauli- prinzip	Pauli-Principle	مبدأ باولي
Pazifismus	Pacifism	مذهب المسالمة
physik	Physics	فيزياء
Makro physik	Macrophysics	فيزياء الكون الأكبر
Mikro physik	Microphysics	فيزياء الكون الأصغر
physikalismus	Physicalism	الاتجاه الفيزيقي
Reiner physikalismus	Pure physicalism	الاتجاه الفيزيقي الخالص
Planetenbahnen	Planetary orbits	المدارات الكوكبية
Planetenbewegung	Planet – movement	حركة الكواكب
Platonische Dialektik	Platonic dialectic	الجدل الأفلاطوني
Pluralismus	Pluralism	تعددية
Politik	Politics	سياسة
Positivismus	Positivism	الاتجاه الوضعي
Positron	Positron	بوزيترون
Potentialitäten	Potentialities	ممكّنات
Prästabilisierte Harmonie	Pre-established harmony	الانسجام الأزلي
Primzahlen	Prime numbers	أعداد أولية
/willingsprimzahlen	Even numbers	أعداد زوجية
Problem	Problem	مشكلة

Wissenschafts theoretisches Problem Problemlösung	Theoretic-scientific Problem Problem solution	مشكلة علمية نظرية حل مشكلة
Problem situation	Problem situation	موقف المشكلة
Prognose	Prognosis	تنبؤ
Proletariat	Proletariat	البروليتاريا
Prophezeiung	Prophecy	تنبؤ
Protonen	Protons	بروتونات
Prüfung	Test	اختبار
exerimantelle Prüfung	Experimantal test	اختبار تجريبي
Psychismus	Psychism	الاتجاه النفساني
Psychoanalyse	Psycho analysis	تحليل نفسي
Quantenmechanik	Quantenmechanics	ميكانيكا الكم
Quantentheorie der Atome Des periodischen system der Elemente	The atom Quanten theory quantisation of the periodocal system of elements	نظرية الكم الذرية تكمين الجدول الدوري للعناصر
Quellen material	Source material	مادة أصلية
Radio chemie	radio-chemistry	كيمياء الاشعاع
Radium	Radium	عنصر الراديوم
Randbedingungen	Marginal – conditions	شروط هامشية
Rassismus	Racism	العنصرية
Rationalismus	rationalism	الاتجاه العقلي
kritischer Rationalismus	Critical rationalism,	العقلانية النقدية
Realismus	Realism	الواقعية
Realist	Realist	واقعي

Realitätsproblem	Problem of reality	مشكلة الواقعية
Richt	right	حق
Rechtgläubigkeit	Orthodoxy	الاتجاه الارثوذكسى
Rechtsordnung	Legal system	نظام قانونى
Rechtsstaat	Constitutional state	دولة القانون
Reduktion	reduction	رد
kartesische Reduktion	Cartesian reduction	الرد الديكارتى
letzte Reduktion	The last reduction	الرد النهائى
Wissenschaftliche Reduktion	Scientific reduction	رد علمى
Reduktion der Biologie auf die physik	Reducing biology into physics	رد علم الأحياء إلى الفيزياء
Reduktion der Chemie auf die Quantenphysik	Reducing chemistry into quantenphysics	رد الكيمياء إلى فيزياء الكم
Reduktion der Mechanik und der Chemie auf die elektromagnetische Theorie	Reducing mechanic and chemistry into electromagnetic theory	رد الميكانيكا والكيمياء إلى النظرية الكهرومغناطيسية
Reduktion Thermodynamik auf die Mechamik	Reducing thermodynamics into mechanics	رد الديناميكا الحرارية إلى الميكانيكا
Reduktionismus	Reductionism	الاتجاه الردى
Philosophischer Reduktionismus	Philosophical reductionism	الرد الفلسفى
Reduktionsversuche	Reduction attempts	محاولات الرد
Reform	reform	اصلاح
Politische Reform	Political reform	اصلاح سياسى
Regierungsformen	Forms of government	صور الحكومة

Regierungswechsel	Change of government	تغيير الحكومة
Relativitätstheorie	Theory of relativity	النظرية النسبية
Allgemeine Relativitätstheorie	General Theory of Relativity	النظرية العامة
Spezielle Relativitätstheorie	Special Theory of Relativity	النظرية الخاصة
Religion	Religion	دين
Pessimistische Religion	Pessimistic religion	دين متشائم
Religionskämpfe	Religious struggles	صراعات دينية
Renaissance	Renaissance	عصر النهضة
Revolution	Revolution	ثورة
Soziale Revolution	Social Revolution	ثورة اجتماعية
Rotverschiebung	Red shift	الإزاحة الحمراء
Sätze	Propositions	قضايا
Empirische Sätze	Empirical Propositions	قضايا تجريبية
wahre Sätze	True Propositions	قضايا صادقة
Schema	Schema	إطار
Dreistufiges Schema	Three graded Schema	إطار ثلاثي المراحل
Vierstufiges Schema	Four graded Schema	إطار رباعي المراحل
Selbstbefreiung	Self-liberation	تحرير الذات
Selbstbewußtsein	Self-consciousness	وعى ذاتي
Selbstkritik	Self-criticism	نقد ذاتي
Selektion	Selection	اختيار
Natürliche selektion	Natural Selection	انتقاء طبيعي
Sicht der Welt	View of world	رؤية العالم

Dynamische Sicht der Welt	Dynamic of world	رؤية ديناميكية للعالم
Statische Sicht der welt	Static of world	رؤية ثابتة للعالم
Sinn (der Geschichte)	Meaning of history	معنى التاريخ
Sinnesorgane	Sense – organs	أعضاء الحس
Wahrnehmung	Sense – perception	لحراك حسي
Sklaverei	Slavery	العبودية
Solipsismus	Solipsism	مذهب وحدة الأنا
Sozialphilosophie	Social philosphy	فلسفة اجتماعية
Sozialwissenschaft	Social science	علم اجتماعي
Spiriualismus	Spiritualism	الاتجاه الروحي
Sprache	Language	لغة
(Funktionen der menschlichen Sprache)	Functions of the human language	وظائف اللغة البشرية
Sprachfähigkeit	Faculty of speech	ملكة الكلام
Staatsmacht	State authority	سلطة الدولة
Staatsorgane	Instrument of state	أداة الدولة
Strahlenchemie	Radiation chemistry	كيمياء الإشعاع
Struktur, innere	Inner structure	تركيب داخلي
Substanz, materielle	Material substance	جوهر مادي
Suggestion(sbedürfnis)	Suggestion-need	الحاجة للإيهام
Synapse	Synapse	عقد عصبية
Tautologien	Tautologies	تحصيل حاصل
Technik	Technik	أسلوب فني
Technologie	Technology	التكنولوجيا

Teilchentheorie	Theory of particles	نظرية الجزيئات
Teleologie	Teleology	غائية
Terrorismus	Terrorism	إرهاب
Theater	Theatre	مسرح
Theorie der bedingten Reflexe	Theory of conditioned reflection	نظرية ردود الفعل المشروطة
Theorie der Demokratie	Theory of Democracy	نظرية الديمقراطية
Theorie der Funk-sendung	Theory of radio transmission	نظرية الإرسال الإذاعي
Theorie der Gen-Identität	Theory of gen-identity	نظرية هوية الجين
Theorie der Komplementarität von Teilchen und Wellen	Theory of the complementary of particles and waves	نظرية تتام الجزيئيلت والموجات
Theorie der Kontinentalverschiebung	Theory of Continental-shift	نظرية الازاحة القارية
Theorie der Legitimität	Theory of legitinacy	نظرية الشرعية
Theorie der sprache	Theory of language	نظرية اللغة
Theorie der Zeit	Theory of time	نظرية الزمن
Theorie und Praxis des demokratischen Staates	Theory and practice of the democratic state	نظرية وممارسة الدولة الديمقراطية
Theorien	Theories	نظريات
Theorienbildung	Theory bilding	بناء النظرية
biologische Theorien	Biological Theory	نظريات بيولوجية
chemische Theorien	Chemical Theory	نظريات كيميائية
falsche Theorien	Wrong Theory	نظريات خاطئة

konkurrierende Theorien	Concurrenting Theory	نظريات متنافسة
physikalische Theorien	Physical Theory	نظريات فيزيقية
Kritik der Theorien	Criticizing Theory	نقد النظريات
Kühnheit einer Theorie	Boldness of theory	جراءة النظرية
Gehalt einer Theorie	Theory content	محتوى النظرية
Superiorität einer Theorie	Superiority of theory	سمو النظرية
Überprüfung der Theorie	Examination of theory	اختبار النظرية
Wahrheitsgehalt einer Theorie	Truth – content of theory	محتوى صدق النظرية
Toleranz	tolerance	تسامح
religiöse Toleranz	Religious tolerance	تسامح ديني
Trägheitsgesetz	Law of inertia	قانون القصور الذاتي
Tyrannis	Tyranny	استبداد
Umwelt	environment	بيئة
Umweltprobleme	Environment problems	مشكلات البيئة
Umweltzerstörung	Environment destruction	تدمير البيئة
Unfruchtbarkeit (der marxistischen Theorie)	Infertility of the marxist theory	ضحالة نظرية ماركس
Universalgeschichte	Universal history	تاريخ شامل
Universum	Universe	الكون
Unredlichkeit	Dishonesty	خيانة
Unvollständigkeitssätze	Incompleteness theorem	مبرهنة عدم الاكتمال
Uranspaltung	Uranium Fission	الانشطار النووي
Ursache	Cause	علة
Ursprung (des Lebens)	Origin of Life	نشأة الحياة

Utopie	Utopia	يوتوبيا
Verantwortlichkeit / Verantwortung	Responsibility	مسئولية
Verelendungstheorie	Theory of reduction to misery	نظرية الافتقار المتزايد
Vergangenheit	Past	الماضي
Verhaltensphilosophie	Behaviour philosophy	الفلسفة السلوكية
Verkehrsrevolution	Transportation revolution	ثورة النقل
Verleger	Publisher	ناشر
Vernichtung	Extermination	دمار
Vernunft	Reason	عقل
Versuch und Irrtum	Trial and Error	محاولة وخطأ
Verwunderung	Amazement	دهشة وحيرة
Völkerbund	League of Nations	عصبة الأمم
Volksherrschaft	Sovereignty of People	سيادة الشعب
Volksinitiative	People initiative	مبادرة الشعب
Vorbilder	Ideal	مثال
Vorhersage	Forecast	تنبؤ
Waffen	Weapons	سلاح
Waffen handel	Arms trade	تجارة السلاح
Wahlrecht	Election-right	حق الانتخاب
Wahrheit , Idee der objektive Wahrheit	Idea of truth	فكرة الصدق
Wahrheitsproblem	Objective truth	صدق موضوعي
Wahrheitssuche	Truth problem	مشكلة الصدق
	Truth seeking	البحث عن الصدق

Wahrnehmung	Perception	برك حسي
Wasserstoff (kerne)	Nuclear of hydrogen	نواة الهيدروجين
Wechselwirkung, schwache	Weak interaction	التفاعل المتبادل الضعيف
Wechselwirkung zwischen Leid und seele	Interaction between body & mind	التفاعل المتبادل بين الجسد والعقل
Wellenmechanik	Wave mechanics	الميكانيكا الموجية
Wellentheorie der Ausbreitung Lichts		النظرية الموجية لانتشار الضوء
Weltfrieden	World peace	السلام العالمي
Weltkrieg, Erster	First World War	الحرب العالمية الأولى
Zweiter Weltkrieg	Second World War	الحرب العالمية الثانية
Weltsicht. realistische	Realistic view of the world	نظرة واقعية للعالم
Weltwirtschaftskrise	World economic crisis	الازمة الاقتصادية العالمية
Widerlegung	Refutation	تفنيد
Widerspruch	Contrast	تناقض
Wiener Kreis	Vienna Circle	حلقة فيينا
Wirkung	Effect	معلول
Wissen	Knowledge	معرفة
angeborenes Wissen	Inborn knowledge	معرفة فطرية
apriorisches Wissen	Apriori knowledge	معرفة قبلية
dispositionelles Wissen	Dispositional knowledge	معرفة نزوعية
konjektuelles Wissen	Conjectural knowledge	معرفة تخمينية

naturwissenschaftliches Wissen	Natural science knowledge	معرفة علمية
objektives Wissen	Objective knowledge	معرفة موضوعية
sicheres Wissen	True knowledge	معرفة صادقة
subjektives Wissen	Subjective knowledge	معرفة ذاتية
Wahrnehmungswissen	Perceptual knowledge	معرفة حسية

شركة **الجلال** للطباعة
أول شارع السفن-العامرية
٠١٢/٣٣٢٤٥٠٣ 

لا نكون مبالغين إذا قلنا أنه لم يحدث أن كان لفيلسوف تأثير على غيره من الفلاسفة بل وعلى الفكر الأوروبي بأسره فى هذا القرن مثلما كان لفيلسوف العلم الألمانى الشهير كارل بوبر.

قبل وفاته بشهرين، قام فيلسوفنا بإختيار ست عشرة مقالة - معظمها لم تنشر من قبل - ليضمها فى كتاب يمثل سائر مواقفه وآرائه فى مجال فلسفة العلوم الطبيعية والرياضية والإنسانية، فلم يدل فيلسوف بدلوه فى شتى جوانب فلسفة العلوم بإتساق وبوضوح مثلما فعل كارل بوبر : فمن فلسفة العلوم الطبيعية والرياضية لفلسفة التاريخ والسياسة، يخضعها جميعاً لمنهج واحد ألا وهو منهج - العقلانية النقدية - ولاعجب وهو العالم والرياضى والفيلسوف والمفكر، وكأن فيلسوفنا قد شعر أنه آخر كتاب سيرى النور فى حياته، فأراد أن يأتى حاوياً لشتى هذه الجوانب التى توزعت فى كتبه السابقة.

قام المترجم - والذى أعرفه جيداً - بترجمة هذا الكتاب عن الألمانية بأسلوب رشيق وواضح، سبقه بدراسة قصيرة حاول فيها أن يبين كيف تمثل جوانب فلسفة كارل بوبر نسيجاً واحداً متصلاً لا فصل فيه بين فكره وأخرى ليتبع هذه الترجمة بترجمة أكثر من خمسمائة مصطلح من الألمانية إلى كل من الإنجليزية والعربية .

هذا الجهد يجعل من هذا الكتاب إضافة جيدة للمكتبة العربية، ليس للمختص فى مجال فلسفة العلم وحسب بل وللمثقف بصفة عامة.

أ.د. على عبد المعطى محمد

مدير مركز التراث والمخطوطات

جامعة الاسكندرية

١٢٠١/٤٢